



29.1.2016

دوستويفسكي

الشياطان في

المجلد الثاني

الشوهر

ترجمة: د. سامي الدروجي

دوستويفسكي

الشياطان في

ترجمة: د. سامي الدروبي

المجلد الثاني



دوستويفسكي
الشیاطین
المجلد الثانی

الكتاب: الشياطين/ المجلد الثاني

المؤلف: دوستويفسكي

ترجمة: د. سامي الدروبي

عدد الصفحات: 416 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9938-886-53-5

رقم الناشر: 14/439-61

الطبعة الأولى: 2014

جميع الحقوق محفوظة ©

الناشر:



للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان:

بيروت - الجناح - مقابل السلطان ابراهيم

ستتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340

بريد إلكتروني: beirut@dar-altanweer.com

مصر:

القاهرة - وسط البلد - 8 شارع قصر النيل - الدور الأول - شقة 10

هاتف: 00201007332225 - 0020227738931

فاكس: 0020227738932

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تونس:

24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

الفصل السابع

عند جماعتنا

1

إن الدار التي يسكنها فرجنسكي في شارع النملة تملكها زوجته. هي مبنى من خشب لا يشتمل إلا على طابق واحد. فليس هناك مستأجرون. وقد دعا فرجنسكي نحو خمسة عشر شخصاً بحجة الحفلة. ولكن هذا الاجتماع لا يشبه في شيء السهرات التي تقام في هذه المناسبات بالأقاليم. لقد اتفق الزوجان مرة واحدة إلى الأبد، منذ بداية حياتهما الزوجية، على أن الاحتفال بأعياد الميلاد أمر سخي، "إذ لا شيء يبعث على البهجة". وقد استطاعا في بضع سنين أن ينزلا انغزلاً تاماً عن كل مجتمع. وأصبح الناس يعدّونه، رغم أنه رجل موهوب ورغم أنه ينعم ببعض الثراء، أصبحوا يعدّونه امرءاً شاذاً يحب العزلة، وقالوا عنه، عدا ذلك، إنه "يعبّر عن نفسه بتكبر". أما السيدة فرجنسكي التي كانت تمارس مهنة التوليد، فإنها بسبب هذه المهنة كانت توضع في أدنى درجات السلم الاجتماعي، رغم المنصب الذي يشغله زوجها في الإدارة. غير أنها كانت لا تتصف بالمذلة التي تناسب وضعها، وقد أصبحت سيداتنا جميعهن منذ أن انعقدت تلك العلاقة الحمقاء النكراء بين السيدة فرجنسكي والكابتن ليادكين، وهي علاقة حرصت السيدة فرجنسكي على أن تعلنها في كل مكان تقيداً بالمبدأ، أقول أصبحت سيداتنا جميعهن، حتى أكثرهن تسامحاً، يشحن عنها وجوههن ويدرن لها ظهورهن باحتقار واضح، غير أن السيدة فرجنسكي رضيت هذا كأنه هو بعينه ما كانت

تنشده وتسعى إليه. ومع ذلك كانت هذه السيدات القاسيات تستنجدن، في اللحظات الهامة، بآرينا بروخوروفنا (أي السيدة فرجنسكي)، ما وسعهن أن يفعلن هذا، ويؤثرنها على المولدات الثلاث الأخريات بالمدينة. وكانت نساء مالكي الأراضي في المنطقة تعتمدن على خدمات السيدة فرجنسكي في كثير من الأحيان أيضاً. فإلى هذا الحد كانت الثقة كبيرة بعلمها وحظّها في الحالات الصعبة. وقد أصبحت في النهاية لا تمارس المهنة إلا من أجل الأثرياء، لأنها كانت تحب الربح حباً شديداً. وكانت تشعر شعوراً كاملاً بما لها من سلطان، فهي لا تتحرج أي تخرج، وهي ترخي العنان لطبيعتها حراً طليقاً. فإذا كانت تقوم بواجبات مهنتها في أحسن البيوت، رُوّعت النساء التي تولّدهنّ، وربما رُوّعتهن عن عمد، مظهرةً أشد الاحتقار للمواضعات الاجتماعية، أو مستهزئة "بأقدس" الأمور، وذلك حتى في اللحظة التي يمكن أن تكون فيها هذه "الأمور المقدسة" أنفع ما تكون. لقد روى أحد أطبائنا، وهو نفسه مولّد، أن امرأة من النساء اللواتي تولّدهن، جاءها المخاض يوماً، فكانت تعاني آلاماً شديدة، فذكرت اسم الله العليّ القدير، فما كان من آرينا بروخوروفنا إلا أن أطلقت مزحة متحلّلة على حين فجأة، فنزلت المزحة على المرأة المسكينة نزول الصاعقة، وأحدثت فيها من الروع والهول ما عبّجّل خلاصها تعجّلاً كبيراً. على أن السيدة فرجنسكي، رغم أنها عدمية المذهب، تتقيد بأكثر العادات الاجتماعية بلى حين يكون في ذلك نفع لها. من ذلك أنها لا تعفي نفسها أبداً من حضور حفلة تعميد الطفل الذي وُلّد على يديها، وهي ترتدي لهذه المناسبات ثوباً من حرير أخضر طويل الذيل، وتعدّد شعرها في مؤخرة الرأس كعكة معقدة ذات صفائر وجدائل، بينما هي في العادة تستطيب إهمال هندامها. ومع أنها طوال مدة الاحتفال الديني تصطنع وضعاً وقحاً يستثير رجال الدين، فإنها متى انتهى الاحتفال الديني تحرص على أن تقدم الشمبانيا للمدعوين بنفسها (وهي لهذا الغرض إنما جاءت وتزينت)، وويل لمن ينسى، حين يقبل الكأس، أن ينفخ المولّدة "بالهدية الصغيرة"...

إن المدعوين الذين كانوا في ذلك المساء عند فرجنسكي (وأكثرهم رجال) يتظاهرون بأنهم اجتمعوا عرضاً ومصادفة. لم يكن ثمة عشاء ولا موائد للعب. غير أن مائدتين مغطاتين بغطاء غير نظيف جداً كانتا قد ضُمَّتا إحداهما إلى الأخرى في وسط الصالون المفروشة جدرانها بورق أزرق قديم، وعليهما سماوران يغلي ماؤهما إلى جانب صينية كبيرة محمَّلة خمساً وعشرين كأساً وسلّة ملأى بقطع من خبز أبيض كالذي يُقدَّم في المدارس الداخلية للبنات أو البنين. وكانت أخت ربة الدار هي التي تصبّ الشاي، وهي عانس في نحو الثلاثين من العمر ليس لها حاجبان، وشعرها مصفرُّ اللون، إنسانة صموت لا تتكلم، ولا تضمّر لأحد جباراً، تعتنق الأفكار الجديدة، ويخشأها فرجنسكي نفسه في سرّه. لم يكن في الصالون من النساء إلّا ثلاث: السيدة فرجنسكي، أختها، وأخت السيد فرجنسكي التي وصلت من بطرسبرج منذ هنيهة ولم يتسع وقتها بعدُ حتى لتغيّر ملابسها.

إن آرينا بروخوروفنا، المشعّعة الشعر، التي ترتدي ثوباً من صوف ضارب اللون إلى الخضرة، سيدة مهية المظهر، غير دميعة، عمرها سبعة وعشرون عاماً. إنها تتأمل المدعوين بعينيها الجريئتين وكأن نظرتها تقول: "أترون؟ لست أخشى أحداً". أما الآنسة فرجنسكي، أخت السيدة فرجنسكي، وهي طالبة تؤمن بالمذهب العدمي، فإنها فتاة قصيرة سمينة حمراء الخدين ليست بالدميعة أيضاً. ولقد جلست إلى جانب آرينا بروخوروفنا، وجعلت تُجبل على الحضور نظرة قلقة نافذة الصبر، وفي يدها لفافة ورق. وكان فرجنسكي نفسه يعاني من ألم في ذلك المساء. ومع ذلك جلس على مقعد أمام المائدة. وكان جميع الحضور جالسين. فإذا نظر الناظر إلى الطريقة التي صُنِّت بها المقاعد أدرك أن الأمر أمر اجتماع (جلسة). ولكن كان واضحاً مع ذلك أن المجتمعين ينتظرون شيئاً ما، فهم من أجل مخادعة الانتظار إنما يسترسلون في محادثات صاخبة وإن تكن تافهة. حتى إذا دخل ستافروجين وفروخوفنسكي صمّتا جميعاً على حين فجأة.

ولكن يجب عليّ أن أتوقّف هنا لأقدّم بعض الإيضاحات.

أظن أن هؤلاء الناس، وقد أُبلغوا من قبل، إنما اجتمعوا على أملٍ ممتع هو أن يعلموا ببعض الأمور الهامة. إنهم يمثلون زهرة الراديكالية الحمراء في مدينتنا القديمة، وقد كانت عناية فرجنسكي باختيارهم لهذه "الجلسة" عناية كبيرة. يجب أن أقول أيضاً إن عدداً منهم (هو قلة على كل حال) لم يكونوا قد جاؤوا قبل ذلك اليوم إلى عند فرجنسكي. وكان واضحاً أن أكثرهم لا يدرك هدف الاجتماع إدراكاً واضحاً. غير أنهم جميعاً ينظرون إلى بطرس ستيفانوفتش على أنه رسولٌ وفد من الخارج مزوداً بسلطات كاملة. إن هذه الفكرة التي ترضي غرورهم طبعاً كانت قد رسخت في نفوسهم منذ البداية. ومع ذلك كان بعضهم قد تلقى تعليمات محدّدة من قبل. فإن بطرس ستيفانوفتش قد استطاع في الواقع أن يشكّل عندنا خلية من "خمس"، على غرار ما فعل في موسكو، وعلى غرار ما فعل أيضاً في جيش إقليمنا كما علّم فيما بعد. ويظهر أنه أنشأ خلية رابعة في ولاية س... فهؤلاء الخمسة "المختارون" كانوا يجلسون في ذلك الاجتماع إلى المائدة المشتركة، ويجيدون اصطناع هيئة أناس عاديين فلا يحزر المرء دورهم. لقد عُرفت الآن أسماءهم فليست سرّاً: إنهم ليوتين، وفرجنسكي، وشيجالوف (ذو الأذنين الطويلتين، وهو شقيق السيدة فرجنسكي) وليامشين، ورجل يقال له تولكاتشنكو، وهو إنسان عجيب في نحو الأربعين من العمر يقال إنه يعرف الشعب معرفة رائعة، ولا سيما قطاع الطريق واللصوص، ويواظب على التردد إلى الحانات (لا بهدف دراسة الشعب فقط) ويفتخر بملابسه الغليظة، وحذاءيه المطلّين بالقطران، وهيئته الماكرة، وكلامه الشعبي العامي. لقد سبق أن اصطحبه ليامشين في الماضي إلى سهرات ستيفان تروفيموفتش مرةً أو مرتين، فلم يحدث في الحضور كبير أثر. ولقد كان يعمل في السكك الحديدية، ويظهر في مدينتنا من حين إلى حين، حين يصبح بغير عمل في العمادة. إن هؤلاء الأشخاص الخمسة قد شكّلوا أول خلية، مقتنعين بأنهم ليسوا إلا خلية واحدة بين مئات الخلايا وألوف الخلايا المنتشرة في روسيا كلها والمرتبطة جميعها ببلجنة مركزية، قوية سرية، مرتبطة أوثق الارتباط،

أيضاً، بسائر الحركة الثورية في أوروبا. يجب عليّ أن أعترف مع ذلك آسفاً بأن هناك خلافاً قد بدأ يظهر بينهم. لقد كانوا منذ الربيع يعولون على وصول بطرس ستيفانوفتش الذي أبلغهم عن وصول تولكاتشنكو أولاً وشيجالوف بعد ذلك؛ ورغم أنهم توقعوا منه أشياء خارقة وانتظموا تلبيةً لأول نداء صدر عنه من دون أن يبدوا أي اعتراض، فإنهم ما إن تشكلت حلقتهم حتى شعروا جميعاً بأنهم قد أهينوا وأسيء إليهم، وأغلب ظني أن مردّ ذلك إلى شعورهم بأنهم تعجلوا في الموافقة. ولا شك أنهم إنما لبوا نداء فرخوفنسكي خشية أن لا يُتهموا بعد ذلك بأنهم جنبوا. ولكن في وسع بطرس ستيفانوفتش، في ما يبدو لهم، أن يعترف لهم ببطلانهم، فيفضي إليهم بسرٍ خطير ما. وذلك ما لم يفعله فرخوفنسكي. فإنه لم يخطر بباله أن يرضي رغبتهم المشروعة هذه في الاطلاع، فلم يفض إليهم بأي سر. وكان على وجه العموم يعاملهم بصرامة قصوى، بل يعاملهم معاملة لا تخلو من الاحتقار. فكان ذلك يثير حنقهم، حتى لقد كان شيجالوف يحض الآخرين على "المطالبة بإيضاحات". ولكن لا الآن طبعاً، لا عند فرجنسكي حيث يضم الحفل كثيراً من الغرباء.

وعلى ذكر "الغرباء" يجب أن أشير إلى فكرة تراودني، هي أن أعضاء الحلقة كانوا ميالين في ذلك المساء إلى الاعتقاد بأن مدعوي فرجنسكي لا بد أن يكون بينهم أفراد منضمون إلى حلقات أخرى مجهولة عندهم لكنها تنتمي إلى نفس التنظيم وقد شكلها فرخوفنسكي أيضاً، بحيث إن جميع الحضور كان يشتبه بعضهم في بعض ويمثّل بعضهم على بعض، وذلك أمر يضفي على الاجتماع طابعاً عجبياً، روائياً إن صح التعبير. على أن هناك أيضاً أشخاصاً لا يمكن الاشتباه فيهم. من ذلك أن ضابطاً برتبة ميجر، وهو قريب فرجنسكي، ولا شأن له بهذه الأمور البتة، ولا دُعي إلى الحفلة، كان جاء من تلقاء نفسه ليعبّر للسيد فرجنسكي عن تمنياته بمناسبة عيد ميلاده. و كان يستحيل طبعاً أن يُرفض استقباله. ثم إن فرجنسكي لم يكن قلقاً من هذه الناحية، لأن الميجر "عاجز عن الوشاية"، ذلك أنه، رغم غيابه، كان طوال حياته يحب أن يتردّد على أشد البيئات الراديكالية تطرفاً، لا لأنه كان يشاركها

آراءها، بل لأنه كان يستمتع بالإصغاء إلى أحاديثها. ثم إنه هو نفسه قد تعرض للخطر. فحين كان شاباً، وقعت في يده حزمٌ من منشوراتٍ تحريرية، وأعدادٌ من جريدة "الناقوس"، فرأى أن من الجبن أن يرفض توزيعها، رغم أنه لم يجرؤ أن يفضها. إننا لا نزال نلقى في روسيا أناساً كثيرين من هذا النوع. وكان باقي المدعويين يمثلون إما نموذج الشخص الجريح الكرامة، الحائق الحاقد، وإما نموذج الشاب الذي تشتعل نفسه حماساً وسماحة. وكان هناك اثنان أو ثلاثة من أساتذة المدارس الثانوية، أحدهم أعرج في الخامسة والأربعين من العمر، وهو رجل شرير شديد الغرور، وكان هناك بضعة ضباط منهم واحد من سلاح المدفعية متخرج من المدرسة الحربية حديثاً، وهو فتى صموت كان لا يعرف بعدُ أحداً، وكان يمسك بيده قلماً، وما ينفك يدوّن في دفتره من دون أن يشترك في الحديث. ولقد لاحظته الجميع، ولكنهم تظاهروا بأنهم لا يرون شيئاً، وكان بين الحضور أيضاً ذلك الطالب المتشرد الذي ساعد ليامشين على دسّ صورٍ خليعة في حِمْلٍ بائعة الأناجيل المتجولة، وهو شاب مديد القامة ضخم الجسم، تتصف حركاته بقلّة الاكتراث وشدة الحذر في آن واحد، وتتميز ابتسامته بالسخر دائماً، ويبدو عليه أنه واثق بنفسه كل الثقة، راضٍ عنها كل الرضى. وكان ابن عمّتنا حاضراً كذلك (وهو الفتى الفاسق الذي أتيح لي أن أتكلّم عنه بمناسبة المغامرة التي وقعت لامرأة الليوتنانت الشابة)، ولا أدري لم كان حاضراً. إنه لم يفتح فمه بكلمة واحدة طوال السهرة. يجب أن أذكر أيضاً أن الحفل قد ضمّ كذلك تلميذاً من تلاميذ المدارس الثانوية عمره ثمانية عشر عاماً، وهو ولد مشعث الهيئة شديد الحماسة مظلم الوجه كان يبدو عليه أنه يضيق ذرعاً بصغر سنه ويشعر من ذلك بجرح في كرامته. إن هذا الصبي هو منذ الآن زعيم جماعة من المتأمرين جنّدهم من بين تلاميذ الصف الأعلى، كما علّم ذلك في ما بعد على دهشة من الناس جميعاً. لم أقل حتى الآن شيئاً عن شاتوف: لقد كان جالساً على أحد أطراف المائدة، متقهراً قليلاً عن الآخرين، مطرقاً إلى الأرض، صامتاً، مكفهر الوجه. وقد رفض الشاي

والخبز، ولم يترك قبعته لحظةً كأنما هو يريد أن يُظهر أنه إنما جاء لعمل، ولم يَجِ مدعواً، وأنه سينصرف متى شاء. وغيرَ بعيد عنه كان يجلس كيريلوف. وكان صامتاً هو الآخر، ولكنه لم يكن خافض العينين. بالعكس: كان يجيل نظره الثابتة الكابية بانتباه على كل من يأخذ زمام الكلام، ويصغي إلى جميع الناس من دون أية دهشة. وكان الذين لم يسبق أن رأوه ينظرون إليه خلسةً شاردي اللب.

هل كانت السيدة فرجنسكي على علم بوجود "الخمسة"؟ لا أدري على وجه اليقين. ولكن من حق المرء أن يخمّن أن زوجها قد أطلعها على كل شيء. أما الطالبة فكان واضحاً أنها لا تعرف السر. ثم إن لها مشاغلها الخاصة على كل حال: كانت لا تنوي أن تمكث عندنا إلا يوماً أو يومين، لتطوف بعد ذلك على جميع المدن الجامعية "بغية أن تعرف عن كتب آلام الطلاب الأشقياء وأن تحضّهم على الاحتجاج". وهي تحمل عدة مئات من نسخ منشور مطبوع على الحجر كانت قد كتبه هي نفسها في ما يخيّل إليّ. شيء غريب: إن التلميذ والطالبة، رغم أنهما يلتقيان هنا أول مرة، قد شعر كل منهما نحو الآخر بكرة فطيع. يحسن أن نشير إلى أن الميجر هو عمّ الفتاة، وأنه يراها الآن عند آل فرجنسكي بعد فراقٍ دام عشر سنين. وحين دخل ستافروجين وفرخوفنسكي إلى الصالون كان خذاها حمراوين كالجمر: ذلك أنها كانت قد تشاجرت منذ هنيهة مع عمها حول "قضية المرأة".

2

تهالك فرخوفنسكي على كرسي من الكراسي بإهمال ملحوظ، تقريباً من دون أن يحيي أحداً. كانت هيئته تعبر عن الاشمئزاز، وتكاد تعبر عن الاستعلاء. أما ستافروجين فقد سلّم على الحفل بأدب. ولم يكن أحد غيرهما ينتظر، ومع ذلك اصطنع الجميع، بما يشبه التواطؤ والاتفاق، هيئة من لا يلاحظهما. وما إن جلس ستافروجين حتى سألته السيدة فرجنسكي بلهجة قاسية:

- ستافروجين، هل تريد شاياً؟

فأجاب ستافروجين قائلاً:

- أتمنى.

فأمرت السيدة فرجنسكي أختها بقولها:

- صُبِّي شاياً لستافروجين.

ثم اتجهت إلى فرخوفنسكي فسألته:

- وأنت هل تريد شاياً؟

فأجابها فرخوفنسكي:

- طبعاً. من يلقي على ضيوفه مثل هذه الأسئلة؟ واعطيني حلياً أيضاً: فإن

مذاق الشاي عندك كمذاق دواء، وأنتم تحتفلون اليوم بعيد ميلاد.

- ما هذا، أتراك من أنصار الاحتفال بالأعياد. لقد تناقشنا في هذا الأمر

منذ برهة.

كذلك قالت الطالبة ضاحكة.

فدمدم التلميذ يقول في الطرف الآخر من المائدة:

- كلام قديم!

فانبرت الطالبة تردُّ عليه قائلةً وهي تضرب على كرسيها:

- كلام قديم؟ إن محاربة الأوهام الاجتماعية، حتى البريئة منها، لا يمكن

أن تكون كلاماً قديماً بحال من الأحوال. بالعكس: هي جديدة دائماً بكل أسف.

ثم أضافت تقول مستدركة:

- هذا عدا أنه ليس هناك أوهام اجتماعية بريئة غير ضارة.

فصاح التلميذ يقول مضطرباً أشد الاضطراب:

- كل ما أردت أن أقوله هو أن الأوهام الاجتماعية أمور بالية تجب

محاربتها طبعاً، ولكن في ما يتعلق بالأدعياء فإن جميع الناس يعرفون أنها

سخافات تافهة، وأنه ليس يجدينا أن نضجِّع في الكلام عليها وقتاً ثميناً وما

أكثر ما يبده الناس كافة! فالأفضل أن ينفق المرء وقته في أمور نافعة..

هتفت الطالبة تقول:

- إنك تسهب في الكلام وتطنب، ولا يفهم المرء عنك شيئاً.
قال التلميذ:

- يخيّل إليّ أن من حق كل إنسان أن يتكلم، وإنني إذا أردت أن أعبر عن رأيي كما يعبر عن رأيه أي إنسان آخر...

فقاطعت ربة البيت قائلة على حين فجأة بشراسة:

- لا أحد يحرمك من حق الكلام. كل ما هنالك أنه يُطلب أن توجز، لأن أحداً لا يفهم عنك.

قال التلميذ مدمماً وقد أوشك أن يهوي إلى قاع الكمد واليأس:

- اسمحي لي أن ألقت نظرك مع ذلك إلى أنك لا تعامليني باحترام كافٍ. وإذا لم أكمل عرض رأيي، فليس يرجع ذلك إلى أنني تعوزني الأفكار، وإنما يرجع إلى أنني أملك أفكاراً كثيرة، مسرفة في الكثرة.

ثم أمسك عن الكلام وقد ارتج عليه وارتبك أشد الارتباك.

قالت الطالبة:

- إذا كنت لا تحسن التعبير عما بنفسك فخير لك أن تصمت.

فوثب التلميذ عن كرسيه، وصاح يقول وقد أحمر خجلاً وخشي أن ينظر في ما حوله:

- أردت أن أقول أنك إنما حاولت أن تلمعي لأن السيد ستافروجين دخل.
هذا ما أردت أن أقوله!

هتفت الطالبة تقول:

- أفكارك وسخة، لا أخلاقية، تدل على ضحالة فكري! أرجوك ألا توجه إليّ الكلام بعد الآن.

قالت ربة الدار:

حين دخلت يا ستافروجين كان أحدهم ينادي بحقوق الأسرة: هو هذا الضابط الذي ترى (قالت ذلك وأشارت إلى قريبها الميجر). طبعاً، لست أنا من سأصدّع رؤوسكم وأضجركم بهذه الترهات السخيفة التي سوي أمرها

منذ مدة طويلة. ولكن من أين نشأت هذه الحقوق العائلية وهذه الواجبات العائلية التي اتخذت صورة أوهام اجتماعية راهنة. هذا هو السؤال. ما رأيك؟ سألتها ستافروجين:

- ماذا تعنين بقولك: "من أين نشأت؟".

فتدخلت الطالبة تقول وهي تلتهم ستافروجين بعينها التهاماً إن صح التعبير:

- نحن نعلم مثلاً أن وهم وجود الله إنما نشأ عن الرعد والبرق. فمن المعروف أن الإنسان البدائي قد ارتاع من الرعد والبرق فعبد العدو الذي لا يرى، شاعراً أمامه بضعفه. ولكن من أين نشأ وهم الأسرة؟ من أين نشأت الأسرة ذاتها؟

قالت السيدة فرجنسكي محاولةً وقف الطالبة عن الكلام:

- ليس هذا هو الأمر تماماً.

قال ستافروجين:

- أخشى أن يجيء الجواب على هذا السؤال خالياً من الحشمة.

فصاحت الطالبة متعجبةً وهي تثب عن كرسيها من جديد:

- كيف هذا؟

- ولكن ضحكات مخنوقة سُمعت آتيةً من جهة فئة الأساتذة، فسرعان ما استجاب لها بالضحك، على الطرف الآخر من المائدة، ليامشين والتلميذ والميجر ذو الصوت الجهير.

فقالت السيدة فرجنسكي لستافروجين معقبةً:

- عليك أن تؤلف تمثيلات هزلية.

وأعلنت الفتاة رأيها مستاءةً تقول:

- هذا لا يشرفك يا سيد... لا أدري ما اسمك...

فجمجم الميجر قائلاً:

- وأنت كفي عن التحرك والتملل. لكأنك قاعدة على إبرة...

- أرجوك أن تسكت وأن تعفيني من أمازيحك وتشبهاتك الكريهة. إنني

أراك أول مرة، ولا أريد أن أعرف شيئاً عن قرابتنا.

- أنا عمك مع ذلك حملتك على ذراعي حين لم تكوني إلا طفلة صغيرة.
- لا يهمني أن تكون قد حملتني على ذراعيك. لم أطلب منك أن تحملي،
وإذا كنت قد حملتني، أيها الضابط قليل الأدب، فلأنك كنت تجد في ذلك
لذة لك. واسمح لي أن أنبّهك إلى أنك لا يجوز لك أن تخاطبني بصيغة
المفرد، اللهم إلا من حيث أنني مواطنة؛ إنني أمنعك من ذلك مرة واحدة
إلى الأبد.

- قال الضابط لستافروجين وهو يضرب بقبضته المائدة:

- هن جميعاً كذلك! اسمح لي: إنني أحب اللبرالية وأحب جميع الأفكار
الحديثة، وأصغي متلذذاً إلى الأفكار الذكية، ولكنني لا أستطيع هذا كله إلا
من الرجال. اعلم ذلك. أما من النساء، من هاته الشابات الثرائيات، فلا ثم
لا... إن ذلك فوق طاقتي.

ثم قال للفتاة صارخاً وقد أصبحت لا تطيق الاستقرار في مكانها:
- لا تتحركي هذا التحرك كله! أنا أيضاً أطلب الكلام. لقد أهنت!
دمدمت ربة الدار تقول مستاءة:

- إنك تمنع الآخرين من الكلام، وأنت نفسك لا تعرف أن تقول شيئاً.
فقال الميجر غاضباً حانقاً وهو يلتفت نحو ستافروجين:

- لا، سأقول كل ما في قلبي. إنني لم أشرف بمعرفتك يا سيد ستافروجين،
ولكنني أتوجه بالكلام إليك لأنني آخر من دخل. لولا الرجال لهلكت هذه
النسوة كالذباب. ذلك هو رأيي. وقضية المرأة كلها ما هي إلا دليل جديد على
نقص أصالتهن. أؤكد لك أن هذه القضية إنما اخترعها الرجال، حماقة منهم،
فجلبوا لأنفسهم الشقاء. الحمد لله على أنني لست متزوجاً! إنهن جميعاً
متشابهات متماثلات، ولا يستطعن حتى أن يتكررن أعمال سيدات. فالرجال
هم الذين يتكررون لهن هذه الأعمال أيضاً. انظر إلى هذه! لقد حملتها على
ذراعي. وحين كانت في العاشرة من العمر كنت أرقص معها المازوركا. وها
هي ذي اليوم تصل، فأهرع طبعاً إلى تقبيلها، فإذا هي تعلن لي فوراً أن الله

غير موجود. كان في وسعها أن تدع لي فسحةً من الوقت لأقبلها. ولكنها لم تفعل. كانت مستعجلة! صحيح أن الناس الأذكياء أصبحوا لا يؤمنون بوجود الله، وذلك لأنهم أذكياء. أما أنت، أيتها الحمقاء الصغيرة، (كذلك قلتُ لها)، فماذا تعرفين عن الله؟ إن طالباً من الطلاب هو الذي بث فيك هذه العقيدة. فلو علّمتك أن تشعلي مصابيح أمام الأيقونات، لأشعلت مصابيح أمام الأيقونات!

أجابت الطالبة باحتقار، كأنها تتواضع فترضى أن تناقش شخصاً كهذا الشخص مدةً طويلة:

- أنت تكذب لا أكثر! وأنت رجل شرير! لقد عرفتُ كيف أبرهن لك منذ قليل على صحة أدلتي. قلت لك إنهم كانوا يعلموننا في دروس الدين ما يلي: "إذا كرّمت أباك وأقرباءك، فسيوهب لك العمر المديد والثراء الطائل". هذا موجود في الوصايا العشر. فإذا كان الله قد رأى أن من الضروري أن يكافئ على الحب، فمعنى ذلك أن إلهك هذا غير أخلاقي. تلك هي التعبيرات التي صغت بها برهاني. وأنا لم أسق لك هذا البرهان منذ أول كلمة، وإنما سقته بعد أن زعمت أنك تؤكد حقوقك عليّ. فهل الذنب ذنبي إذا كنت أنت بليد العقل فلم تفهم شيئاً حتى الآن؟ إنك غاضب حائق، وهذه هي الحالة النفسية لجيلكم كله.

قال الميجر:

- حمقاء!

فقال الفتاة:

- غبي!

قال الميجر:

- هكذا... اشتميني الآن!

قال ليويتين بصوته الحاد الضئيل:

- اسمح لي يا كابيتون مكسيموفتش: ألم تعلن لي أنت نفسك أنك لا

تؤمن بالله؟

- وماذا يعني هذا؟ أنا، شيء آخر!... ربما كنت أؤمن، ولكنني لا أؤمن إيماناً كاملاً. ورغم أنني لا أؤمن إيماناً كاملاً فإنني لا أقول بأن علينا أن نطلق على الله رصاص البندقية! حين كنت ما أزال أخدم في سلاح الفرسان، كان يتفق لي كثيراً أن أفكر في الله. الشعراء يسلّمون بأن الفرسان لا يزيدون على أن يشربوا ويلهوا. ولقد كنت أشرب فعلاً. ولكن هل تصدق؟ لقد كان يتفق لي أن أثب عن سريري كما أنا، فأخذ أرسم إشارة الصليب أمام الأيقونة، وأدعو الله أن يهب لي الإيمان. ذلك أنني حتى في ذلك الحين كان الهدوء لا يجد إلى نفسي سبيلاً، فأنا لا أنفك أتساءل: هل الله موجود أم غير موجود؟ انظر إلى أي حد كان الأمر يعذبني. وكنت في الصباح أعود إلى اللهو والقصف طبعاً، وكان إيماني يزول فيما يبدو. وقد لاحظت على كل حال أن الإيمان يضعف في النهار بوجه عام.

سأل فرخوفنسكي ربة الدار وهو يتثائب:

- أليس عندكم ورق للعب؟

فهتفت الطالبة تقول وقد احمر وجهها استياءً من أقوال الميجر:

- إنني أؤيد سؤالك كل التأييد.

وقالت السيدة فرجنسكي بخشونة وهي تلقي على زوجها نظرة عتب:

- إننا نضيع وقتاً ثميناً في الاستماع إلى أحاديث سخيفة.

فقال الطالبة وقد نفذ صبرها:

- كنت أريد أن أشارك في الجمعية التي تبحث آلام الطلبة واحتجاجهم.

أما وأنا نضيع الوقت في أقوال لا أخلاقية...

فأسرع التلميذ يقول:

- لا شيء يوصف بأنه أخلاقي أو غير أخلاقي.

فقال الطالبة:

- أعرف هذا كل المعرفة يا حضرة التلميذ، أعرفه قبل أن يعلموك إياه

بزمان طويل.

فأجاب الآخر غاضباً:

- وأنا أؤكد أنك لست أكثر من طفلة وصلت من بطرسبرج لتلقي علينا دروساً، مع أننا نعرف هذه الأمور أحسن مما تعرفونها كثيراً. إن جميع الناس في روسيا يعلمون منذ بيلنسكي أن الوصية القائلة "كُرم أباك وأمك" هي وصية لا أخلاقية. ولكنك لم تعرفي حتى كيف تردديها بنصّها الصحيح. سألت السيدة فرجنسكي زوجها حازمة:
- أسوف ينتهي هذا؟

إنها بصفتها ربة الدار كانت تحمر خجلاً من تفاهة هذا الشجار، ولا سيما أنها كانت تلاحظ ابتسامات و دهشة بعض الأشخاص الذين يجيئون اليوم أول مرة.

قال فرجنسكي رافعاً صوته:

- يا سادة، إذا كان أحد منكم يريد أن يتكلم في موضوع أهم، أو كان لديه ما يقرأه لنا، فإنني أدعوه إلى البدء من دون إضاعة للوقت. فتدخل الأستاذ الأعرج الذي ظلّ إلى ذلك الحين صامتاً ملتزماً وضع التحفظ، تدخل فقال بصوت مترفق:

- اسمحوا لي أن ألقى سؤالاً: أنحن هنا في جلسة، أم في اجتماع زيارة يضم عدداً من الناس لا أكثر؟ إنني ألقى هذا السؤال من باب المحافظة على الشكل، وحتى لا أظل في شكٍ وحيرة من أمري.

فأحدث هذا السؤال "الماكر" أثره: فنظر كل واحد إلى جيرانه كأنه ينتظر منهم جواباً، ثم إذا بجميع الأعين تتجه نحو فرخوفنسكي وستافروجين كأنما ذُكرت كلمة السر.

قال السيد فرجنسكي:

- أقترح إجراء تصويت لنعرف أنحن في جلسة أم لا؟
فتدخل ليوبتين فقال:

- أضم صوتي إلى هذا الاقتراح، رغم أنه غامض قليلاً.
فانطلقت الأصوات من جميع الجهات تقول:
- وأنا أيضاً! وأنا أيضاً!

قال فرجنسكي مؤيداً:

- أعتقد فعلاً أن هذا سيدخل على حديثنا شيئاً من النظام.

قالت ربة الدار:

- فلنقترع. يا ليامشين اجلس إلى البيانو، أرجوك. في وسعك أن تقترع من

هناك حين يجيء الأوان.

هتف ليامشين محتجاً:

- كيف؟ أيضاً؟ لقد اصطنعت دور العازف بما فيه الكافية.

- أرجو وألح في الرجاء. اجلس واعزف! أم تراك لا تريد أن تخدم

"القضية"؟

- أؤكد لك أن أحداً لا يتجسس علينا يا آرينا بروخوروفنا. ذلك منك

خيال محض. ثم إن النواظذ عالية جداً. وحتى لو سمعنا الناس فإنهم لن

يفهموا شيئاً.

- جمجم أحدهم يقول:

- نحن أنفسنا لا نفهم، فكيف يفهم الآخرون؟

قالت آرينا بروخوروفنا تشرح لفرخوفنسكي:

- أقول لك إن الحذر لا يكون مفراطاً مهما يكن شديداً. أنا أتخذ هذا

الاحتياط على أساس أن من الممكن أن يكون ثمة تجسس علينا فإذا سمع

الناس الموسيقى قالوا لأنفسهم أن عندنا حفلة.

قال ليامشين متبرماً:

- ليكن ما تريدين.

وجلس إلى البيانو وأخذ يعزف لحن فالس، ضارباً على أصابع البيانو

ضربات قوية وكأنه أصم، جارياً في العزف على ما تشاء المصادفة تقريباً.

قالت السيدة فرجنسكي:

- الذين من رأيهم أن يكون الاجتماع "جلسة"، عليهم أن يرفعوا أيديهم.

رفع بعضهم أيديهم، ولم يحرك بعضهم الآخر ساكناً، ورفع بعض ثالث

أيديه ثم خفضها ثم رفعها من جديد.

هتف أحد الضباط يقول:

- ما هذا؟ لم أفهم شيئاً!

وقال آخر:

- أنا أيضاً لم أفهم شيئاً!

وصرخ ثالث قائلاً:

- أما أنا فقد فهمت. إذا كان الجواب "نعم"، تُرفع اليد.

- ولكن ما معنى "نعم"؟

- معناها أن رأيك أن يكون الاجتماع "جلسة".

- لا، أبداً، بالعكس!

قال التلميذ مخاطباً السيدة فرجنسكي:

- أنا اقترعت مؤيداً فكرة "الجلسة".

- فلماذا لم ترفع يدك إذا؟

- لقد نظرت إليك، فرأيت أنك لم ترفعي يدك، فلم أرفع يدي أنا أيضاً.

- هذا غباء! أنا لم أرفع يدي لأنني كنت أتولى إجراء الاقتراع.

أيها السادة، سنجري الآن اقتراعاً على العكس: من كان رأيه أن يكون

الاجتماع جلسة فليبق ساكناً ولا يرفع يده. ومن كان رأيه أن لا يكون

الاجتماع جلسة فليرفع يده اليمنى.

سأل التلميذ:

- من كان رأيه أن لا يكون الاجتماع جلسة؟

صرخت السيدة فرجنسكي تقول حانقة:

- أترك تفعل هذا متعمداً؟

- لا، من فضلك! من الذي يجب ألا يرفع يده؟ أهو الذي يريد أن يكون

الاجتماع جلسة أم هو الذي لا يريد ذلك؟ يجب توضيح هذا.

كذلك هتفت بضعة أصوات.

- من كان رأيه ألا يكون الاجتماع جلسة.

صرخ ضابط يسأل:

- طيب. فماذا يجب عليه أن يفعل؟ أيرفع يده أم لا يرفعها؟
قال الميجر:

- هي هي! إننا لَمَّا نتعود على البرلمان بعد!
قال الأستاذ الأعرج:

يا سيد ليامشين، معذرة... إنك تحدث من الصخب ما يجعلنا عاجزين
عن أن نسمع بعضنا بعضاً ويفهم بعضنا عن بعض.
هتف ليامشين يقول للسيدة فرجنسكي:

- أؤكد لك أنه ما من أحد ينصت على النواذيا آرينا بروخوروفنا. لا أريد
أن أعزف. لقد جئت إليك زائراً لا ضارباً على البيانو!
قال فرجنسكي يسأل الحضور:

- أيها السادة أجيوني ببساطة: أنحن في جلسة أم لا؟
فقال الأصوات تجيبه من كل جانب:
- بلي! بلي!

- فإذا كان الأمر كذلك فلا داعي للاقتراع. أنتم موافقون أيها السادة؟ هل
يجب الاقتراع؟

- لا، لا داعي إلى الاقتراع، فهمنا!...
- هل لأحد رأي مخالف؟

- لا، الجميع متفقون!
هنا نادى صوت يقول:

- ولكن ما معنى أننا في جلسة؟
لم يجب أحد.

- يجب انتخاب رئيس.

- هو صاحب الدار طبعاً. هو مضيفنا!
فبدأ فرجنسكي يتكلم فقال:

- إذا كان الأمر كذلك أيها السادة فإنني أعود إلى اقتراحي الذي عرضته
منذ قليل: من كان عنده ما يقرأه لنا فليتكلم من دون إضاعة للوقت.

خيم صمت شامل . والتفتت الأنظار مرة أخرى نحو ستافروجين وفرخوفنسكي .

قالت السيدة فرجنسكي تسأل فرخوفنسكي :

- فرخوفنسكي ، هل لديك ما تعلنه لنا ؟

فأجاب بطرس ستيانوفتش فرخوفنسكي قائلاً وهو يتمطى ويتشاءب تشاؤماً
ذا صوت :

- لا شيء البتة . ولكنني أريد كأساً من الكونياك .

- وأنت يا ستافروجين ؟

- لا ، شكرأ ، لا أشرب !

- أنا سألتك هل تريد أن تتكلم ، ولم أسألك عن الكونياك !

- أتكلم ؟ عمّ ؟ لا .

قالت تخاطب فرخوفنسكي :

- سيؤتى بالكونياك .

نهضت الطالبة لتشرع في الكلام ، ولم تكن قد انقطعت عن التحرك
والاضطراب على كرسيها :

- لقد جئت لأتكلّم عن آلام الطلاب التعساء وعن الوسائل التي يجب

استعمالها لحملهم على القيام باحتجاج جماعي ...

ولكنها لم تلبث أن توقفت عن الكلام فجأة : فعلى الطرف الآخر
من المائدة كان قد وقف منافس سرعان ما جذب إليه جميع الأنظار . إنه
شيخالوف المتجهّم المظلم الوجه ، وقف ببطء ، ووضع على المائدة ، بحزن
وأسى ، دفترأ سميكاً مغطى بكتابة دقيقة . وظل واقفاً لا يتكلم . أخذ بعض
الحضور يتأملون الدفتر متعجبين . ولكن ليوتين وفرجنسكي والأستاذ
الأعرج بدا عليهم الرضى الشديد .

قال شيخالوف بلهجة حزينة لكنها جازمة :

- أطلب الكلام .

فقال فرجنسكي :

- الكلام لك.

فعاد الخطيب يجلس، وانتظر لحظة، ثم شرع يتكلم بفخامة فقال:

- أيها السادة!

ولكن أخت السيدة فرجنسكي قاطعته بخشونة إذ قالت تخاطب

فرخوفنسكي:

- إليك الكونياك!

ووضعت أمام فرخوفنسكي، وهي تقلب شفتها احتقاراً، زجاجةً وقدحاً

جاءته بهما من دون صينية ومن دون صحن.

فتوقف الخطيب عن الكلام بوقار. وصرخ فرخوفنسكي يقول له وهو

يصب لنفسه الكونياك:

- لا عليك! أكمل!...

- أيها السادة، إنني إذ أسألكم الانتباه، وإذ أسألكم أيضاً، كما سترون في

ما بعد، أن تساهموا معي وأن تساعدوني في هذا العمل الذي له شأن كبير وله

خطورة أساسية، يجب عليّ أن أقدم لكم الإيضاحات التمهيدية.

قال بطرس ستيفانوفتش فجأة يسأل السيدة فرجنسكي:

- هل عندك مقص يا آرينا بروخوروفنا؟

فسألته هذه محملقة:

مقص؟ ماذا تريد أن تعمل بالمقص؟

فقال وهو يتفرس بهدوء في أظافره الطويلة السوداء:

نسيت أن أقصّ أظافري. كان عليّ أن أقصّها منذ ثلاثة أيام...

فاحمرت آرينا بروخوروفنا، ولكن الطالبة أعجبها عدم التحرج هذا الذي

أظهره فرخوفنسكي، فقالت:

- أظن أنني رأيت المقص منذ لحظة على النافذة.

وقامت فجاءت بالمقص ومدّته إلى فرخوفنسكي، فتناوله منها حتى من

دون أن ينظر إليها، وأخذ يرقب بطرس ستيفانوفتش حاسداً كارهاً.

تابع شيجالوف كلامه فقال:

إنني وقد عكفت عكوفاً تاماً على دراسة تنظيم مجتمع المستقبل الذي يجب أن يحل محل مجتمعنا الحالي، وصلت إلى الاقتناع بأن جميع منشئي المذاهب الاجتماعية منذ أقدم العصور إلى أيامنا هذه، إنما كانوا أناساً حالمين ورواة حكايات خرافية، وحمقى، يناقضون أنفسهم ولا يفهمون شيئاً في مجال العلوم الطبيعية، ولا يعرفون شيئاً عن هذا الحيوان الذي يسمى الإنسان. إن أفلاطون وروسو وفوريه ليسوا إلا أعمدة من ألومنيوم. إنهم، في أكثر تقدير، يصلحون للعصافير لا للبشر، فلما كانت الأشكال الاجتماعية للمستقبل يجب تحديدها الآن تحديداً دقيقاً بعد أن قررنا جميعاً أن علينا أن نتقل إلى الفعل بغير تردد، فإنني أعرض مذهبي في تنظيم العالم.

ثم نقر شيجالوف على دفتره وقال:

- ها هو ذا. لقد كنت أريد أن أعرض عليكم كتابي بأكبر إيجاز ممكن. لكنني أرى أن عليّ أن أضيف إليه كثيراً من الإيضاحات الشفوية. لذلك سيحتاج عرضي إلى عشر سهرات على الأقل، تبعاً لعدد فصول الكتاب.

هنا سُمعت بضع ضحكات. و تابع شيجالوف كلامه يقول:

- يجب عليّ، عدا ذلك، أن أنبهكم إلى أن مذهبي لم يكتمل اكتمالاً تاماً... (وهنا انطلقت ضحكات أخرى)... فلقد تهت في شعاب مقدماتي نفسها، وجاءت نتيجتي متناقضة تناقضاً مباشراً مع الفكرة الأساسية التي يقوم عليها المذهب. إنني وقد انطلقت من فكرة الحرية التي ليس لها حدود قد انتهيت إلى فكرة الاستبداد الذي ليس له حدود. ولكنني أضيف إلى ذلك أنه لا يمكن أن يكون هناك حل آخر للمشكلة الاجتماعية غير الحل الذي خلصت إليه.

ازدادت الضحكات. ولكن الشبان فقط هم الذين كانوا يضحكون، أعني الأغرار الذين ليس لهم سابق دراية إن صح التعبير. أما السيدة فرجنسكي وليبوتين والأستاذ الأعرج، فقد كانت وجوههم تعبر عن شيء من الأسف والغضب.

قال أحد الضباط يسأله محاذراً:

- إذا لم تستطع أنت نفسك أن تكمل مذهبك، وإذا كنت قد هويت من ذلك إلى اليأس، فماذا نستطيع أن نفعل نحن؟
فأجابه شيجالوف يقول بلهجة قاطعة:

- إنك على حق أيها الضابط، ولا سيما باستعمالك كلمة اليأس هذه. نعم، لقد حوصرت باليأس. ومع ذلك يستحيل على المرء أن يقول شيئاً آخر غير الذي قلته في كتابي. ليس هناك أي مخرج غير هذا المخرج. لن يعثر أحد على غير هذا أبداً. لذلك أسارع فأدعو الحضور، من دون إضاعة للوقت، إلى سماع قراءة كتابي خلال عشر سهرات، وإلى أن يقولوا لي بعد ذلك رأيهم. فإذا رفضتم أن تصغوا إليّ، فلا يبقى علينا بعد ذلك إلا أن نفترق، فيعود الرجال إلى مكاتبتهم، وتعود النساء إلى مطابخهن. لأنكم إذا نبذتم مذهبي فلن تجدوا حلاً آخر، لن تجدوا أي حل آخر. ستضيعون وقتكم، ثم تجدون أنفسكم مضطرين حتماً أن تعودوا إلى مذهبي.
أخذ الحضور يتحركون. وسألت بعض الأصوات: "أهو مجنون؟".

قال ليامشين ملخصاً:

- الموضوع إذاً هو على وجه الإجمال موضوع يأس شيجالوف: أوجب عليه أن ييأس أم لا؟
فقال التلميذ:

- إن يأس شيجالوف مسألة شخصية.

فانطلق ضابط يقول مرحاً:

- أقترح أن نجري اقتراحاً لنعرف هل ليأس شيجالوف قيمة عامة، وهل يستحق كتابه عناء الاستماع إليه!

فتدخل الأستاذ الأعرج فقال:

- ليس هذا هو الأمر...

إن للأستاذ الأعرج في العادة ابتسامة خفيفة ساخرة، فلا يعرف المرء أهو مازح في كلامه أم هو جاد.

وتابع الأستاذ الأعرج يقول:

- لا يا سادة، ليس هذا هو الأمر. إن السيد شيجالوف قد أسرف في التفرغ لأداء مهمته، ثم هو عدا ذلك مسرف في التواضع. إنني أعرف كتابه. إنه من أجل أن يحل المسألة الاجتماعية حلاً نهائياً، يقترح تقسيم الإنسانية قسمين غير متساويين. فعُشرُ ينال الحرية المطلقة وينال سلطةً بغير حدود على تسعة الأعشار الأخرى، وتسعةُ أعشار يجب عليهم أن يفقدوا شخصيتهم وأن يصبحوا أشبه بقطيع، فإذا ظلوا خاضعين خضوعاً تاماً بغير حدود أمكنهم أن يصلوا شيئاً فشيئاً بعد سلسلة من التحولات إلى حالة البراءة البدائية، إلى شيء يشبه جنة عدن الأولى، مع بقائهم مضطرين إلى العمل. والإجراءات التي ينادي بها المؤلف ليجرد تسعة أعشار الإنسانية من إرادتهم وليحوّلهم إلى قطيع بواسطة التربية، إنما هي إجراءات ممتازة إلى أبعد الحدود. إنها قائمة على حقائق العلوم الطبيعية، وإنها لمنطقية تماماً. قد لا يسلم المرء ببعض النتائج التي ينتهي إليها، ولكن من المستحيل على المرء أن ينكر ذكاء المؤلف وأن يجحد معارفه. وإنه لمن المؤسف حقاً أن لا نستطيع، بسبب الظروف، أن نوافق له على السهرات العشر التي يطلبها، وإلا لكانا سمعنا كثيراً من الأمور الشائقة الهامة حتماً.

قالت السيدة فرجنسكي تسأل الأستاذ الأعرج بشيء من القلق:

- هل يمكن أن ننظر نظرة جد إلى هذا الرجل الذي لم يعرف ماذا يصنع بالإنسانية فردّ تسعة أعشارها إلى العبودية؟ إنني قد اشتبهت في الأمر منذ مدة طويلة.

فسألها الأعرج:

- أأخاك تعنين؟

- مرةً أخرى، روابط الدم! أنت تسخر مني؟

قالت الطالبة مستاءة:

- إنه لجبن أن نعمل في سبيل الأرستقراطيين وأن نخضع لهم خضوع

الآلهة!

قال شيجالوف يختم الكلام بلهجة السلطة:

- إن ما اقترحته ليس جبناً، وإنما هو الجنة، الجنة الأرضية، ولا جنة سواها.

هتف ليامشين يقول:

- أما أنا فإنني إذا لم أعرف ماذا أصنع بتسعة أعشار الإنسانية، عمدت إلى نفسهم بدلاً من أن أنظم الجنة الأرضية، ولم أبق على قيد الحياة إلا عدداً من الناس المتعلمين الذين سوف يعيشون في دعة وسلام وفقاً لمبادئ العلم. قالت الفتاة محتجة:

- يجب أن يكون المرء مهرجاً حتى يقول هذا الكلام!

فهمست السيدة فرجنسكي تقول لها:

هو مهرجٌ فعلاً، ولكنه نافع.

وتدخل شيجالوف يقول متلفتاً نحو ليامشين بقوة:

- قد يكون هذا هو الحل الأمثل للمشكلة. إنك تجهل حتماً، يا سيدي المازح، إنك قد قلت الآن شيئاً عميقاً كل العمق، ولكن لما كانت فكرتك مستحيلة التحقيق تقريباً، فلا بد من الاكتفاء بالجنة الأرضية ما دام يجب أن نسميها بهذا الاسم.

فأقلت من لسان فرخوفنسكي قوله:

ما هذه السخافات!

لقد قال فرخوفنسكي هذا الكلام بما يشبه الغفلة، من دون أن يرفع رأسه، وكان لا يزال يقلّم أظافره بكثير من عدم الاكتراث. فسرعان ما تدخل الأعرج، وكأنه كان لا ينتظر إلا اللحظة المواتية ليهاجم بطرس ستيفانوفتش، تدخل فقال:

- لماذا سخافات؟ صحيح أن حب شيجالوف للإنسانية فيه شيء من التعصب. ولكن تذكر أن فورييه، ولا سيما كاييه، وحتى برودون، كانوا أنصاراً لبعض الحلول الاستبدادية الشديدة، وكانوا يبدون من النظرة الأولى خياليين. بل لعل السيد شيجالوف أقرب منهم إلى التعقل والتروي. أوكد لكم أنه يكاد يستحيل على المرء بعد قراءة كتابه ألا يسلم ببعض أفكاره. إنه

ربما كان أقل ابتعاداً عن الواقعية من الآخرين؛ وتكاد جنته الأرضية أن تكون هي الجنة الحقيقية، الجنة التي يتوق إليها البشر بعد أن فقدوها، إذا صدق أن تلك الجنة قد وُجدت حقاً في يوم من الأيام.

جمجم فرخوفنسكي يقول مرة أخرى:
- كنت أتنبأ فعلاً بأن أسمع كلاماً من هذا النوع.
قال الأعرج وقد ازداد غضبه استعاراً:

- اسمح لي! إن الكلام على تنظيم المجتمع المقبل والنقاش حوله يكاد أن يكونا الآن ضرورةً لجميع الناس الذين يفكرون. إن هرتسن لم يهتم طوال حياته إلا بهذا. وأنا أعلم من مصدر ثقة أن بيلنسكي كان يقضي سهرات كاملة في المناقشة مع أصدقائه حول المسألة الاجتماعية محدداً أدق تفاصيل المجتمع المقبل.

قال الميجر:

- بل هناك أشخاص أصبحوا من ذلك مجانيين!

وتشجع ليويتين فتجراً أن ينتقل إلى الهجوم فقال:

- حين يناقش المرء فإنه قد يصل إلى نتيجة ما، وهذا خير دائماً من أن

يلتزم الصمت مصطنعاً وضع دكتاتور.

فقال فرخوفنسكي من دون اكتراث:

- أنا حين قلت: "هذه سخافات"، لم أقصد شيجالوف البتة.

ثم أضاف يقول وهو يرفع عينيه قليلاً:

- اسمعوا أيها السادة، في رأيي أنا أن جميع هذه الكتب، وفورييه، وكايبه،

و"حق العمل"، وأفكار شيجالوف، في رأيي أن هذا كله يشبه ألوف الروايات

التي تصدر كل يوم: تسلية فنية! وأنا أفهم أن تضجروا في هذه المدينة،

فتأخذوا بتسويد ورق.

استأنف الأعرج كلامه فقال وهو يتحرك مضطرباً على كرسيه:

- من فضلك! ما نحن إلا ريفيون فعلاً، ونحن إذاً نستحق الشفقة. ولكننا

نعرف أنه لم يحدث بعد في هذا العالم شيء خطير كل الخطورة، فلا داعي

إذا لأن نشكو الجهل وأن نرثو لحال أنفسنا. إن هناك منشورات من أصل أجنبي تدعون أن نضم جهودنا لتحطيم كل شيء، إذ مهما نفعل في سبيل شفاء المجتمع، فلن نصل إلى شفائه يوماً، على حين أننا بقطع رقاب مائة مليون نبسط الموقف ونجعل اجتياز الهوة أضمن. هذه فكرة ممتازة حقاً، ولكنها لا تقل استحالة على التحقيق عن فكرة شيجالوف التي تعاملها بكل هذا الاحتقار.

أقلت لسان بطرس ستيفانوفتش فقال وهو يقرب الشمعة كأنه لا يشعر بالغلطة التي يرتكبها:

- هذا كله حسن جداً، ولكنني لم أجدى إلى هنا من أجل أن أناقش...
- إنه لما يدعو إلى الأسف، إلى الأسف الشديد، أنك لم تجيء إلى هنا من أجل أن تناقش. وإنها لخسارة حقاً أن تكون الآن مستغرقاً هذا الاستغراق كله في العناية بزيبتك!

- ما شأنك وزيتتي؟

قال ليبوتين مجازفاً من جديد:

- إن تغيير العالم بقطع مائة مليون رقبة لا يقل صعوبة عن تغيير العالم بالدعاية. وقد تكون الطريقة الأولى أصعب، ولا سيما في روسيا.
وقال ضابط:

- إن جميع الآمال معقودة الآن على روسيا.

فأجاب الأعرج:

- نعم، يظهر أنهم يعتقدون على روسيا آمالاً كبيرة. نحن نعلم أن إصبعاً سرية قد أشارت إلى وطننا الحبيب وعدته أقدر جميع بلدان العالم على تحقيق هذا العمل العظيم. ولكن إليكم ما أريد أن ألفت إليه الانتباه: إذا حُلَّت المشكلة الاجتماعية تدريجياً بالدعاية، فإنني أظن أربح شيئاً ما: أربح أولاً إمكان التمتع بالثروة، وأربح ثانياً المكافأة التي تعطيني إياها الحكومة المقبلة اعترافاً بالخدمات التي أكون قد قدمتها للقضية الاجتماعية. أما إذا حُلَّت المشكلة حلاً فورياً، أي إذا قطعت مائة مليون رقبة، فما الذي يمكن

أن أربحه أنا؟ إن المرء حين يدعو إلى مثل هذه العقائد يعرّض لسانه لخطر القطع.

قال فرخوفنسكي:

- سيقطع لسانك أنت حتماً.

- أرايت إذا؟ ولما كنت لا تستطيع، في أحسن الظروف، أن تفرغ من هذه المذبحة في أقل من خمسين سنة، أو في أقل من ثلاثين سنة، لأنك لن تذبح خرافاً، ولأن من الممكن أن لا تمكّنك الضحايا من ذبحها، أفليس الأفضل إذا أن يطوي المرء أمتعته وأن يهاجر إلى مكان بعيد في جزيرة هادئة فيقضي هناك بقية أيامه هادئاً؟ صدّقني إذا قلت لك إن دعايتك هذه لن تزيد على أن تشجع الناس على المهاجرة.

قال الأعرج هذه الجملة الأخيرة وهو ينقر على الطاولة بإصبعه.

لقد انتصر. إنه أحد الرؤوس القوية في الإقليم. وكان ليوتين يتسم وقد بانّت في وجهه معانٍ مفهومة. وكان فرجنسكي يبدو مصعوقاً. وكان الآخرون يتابعون المناقشة باهتمام شديد، ولا سيما السيدات والضباط. أدرك الجميع أن صاحب فكرة المائة مليون من الروس قد أخرج وغلب، فهم ينتظرون النهاية.

قال فرخوفنسكي مدمماً بلهجة فيها مزيد من عدم الاكتراث، بل فيها كذلك شيء من الضجر:

- يجب أن أعترف بأنك قد قلت الآن فكرةً صحيحة، إن فكرة الهجرة فكرة ممتازة. ومع ذلك، رغم المحاذير الواضحة التي ذكرتها، فإن الجنود الذين يعتنقون عقيدتنا وينضمون إلى قضيتنا يزداد عددهم يوماً بعد يوم. وسوف نستغني عنك. إن الأمر أمر دينٍ جديد يجب أن يحل محل الدين القديم. إن الأمر أمر قضية خطيرة، لذلك يزداد عدد جنودنا. أما أنت فما عليك إلا أن تهاجر. وأنا أنصحك بأن لا تهاجر إلى جزيرة هادئة من الجزر، بل إلى مدينة درسدن. أولاً لأن هذه المدينة لم تعرف الأوبئة يوماً، فأنت لا بد أن تخاف الموت حتماً من حيث أنك رجل مثقف. وثانياً لأن مدينة درسدن ليست

بعيدة عن الحدود الروسية، فيسهل إرسال إراداتك إليها من وطنك الحبيب. وثالثاً لأن هذه المدينة ملأى بما يسمى كنوز الفن، وأنت رجل فنان، لأنك كنت أستاذاً للأدب فيما أظن. ورابعاً وأخيراً لأن هذه المدينة صورة مصغرة عن سويسرا: فهذا يفيدك في استئزال الوحي الشعري، لأنك تنظم شعراً ولا شك. الخلاصة: كنز كبير في علبة صغيرة.

قامت حركات شتى. الضباط يضطربون على كراسيهم. لو انقضت دقيقة واحدة أخرى لأخذ الجميع يتكلمون في آن واحد معاً. ولكن الأعرج انقضّ على الطعم. قال:

- لا، قد لا نترك "القضية" المشتركة!... سوف نرى..

فما أن سمع فرخوفنسكي منه هذا الكلام حتى قال يسأله فجأة:

- ماذا أُنقبّل أن تدخل في جماعتنا إذا أنا عرضت عليك ذلك؟

ووضع المقص على المائدة.

ارتعش الجميع. إن الشخص اللغز قد حسر القناع عن وجهه فجأة. حتى

لقد جرؤ أن يذكر كلمة "جماعة".

أجاب الأعرج بشيء من الارتباك:

- إن كل من يعد نفسه رجلاً شريفاً لا يمكنه أن يتقاعس عن القيام بمهمته،

ولكن...

قاطعه بطرس ستيفانوفتش قائلاً بلهجة صارمة:

- اسمح لي. دعنا الآن من "الكن". إنني أعلن لكم أيها السادة أنني أطالب

بجواب واضح بيّن. أنا أفهم تماماً أنني إذ جئت إلى هنا وإذ جمعتكم، قد

أصبح لكم عليّ حق تقديم إيضاحات (وهذا كشف آخر لم يكن متوقّعا)،

ولكن يستحيل عليّ أن أمدكم بإيضاحات وشروح ما جهلت حالتكم

النفسية. إنني أترك جانباً الكلمات التي لا فائدة منها ولا طائل تحتها - ذلك

أننا لا يمكن أن نتكلم ثلاثين سنة أخرى كما تمّ حتى الآن طوال ثلاثين سنة

- وأسألكم ماذا تُفضّلون: أن تُفضّلون الطريقة البطيئة، أي الروايات الاجتماعية

وتنظيم مصائر الإنسانية على الورق لألف سنة قادمة، بينما الحكم

الاستبدادي يتطلع اللقمة السائغة التي تسقط في أفواهكم وتدعونها تفلت منكم، أم تفضّلون حلاً سريعاً أياً كان هذا الحل، حلاً يفك أيديكم من وثاقها ويتيح للإنسانية أن تنظم نفسها بحرية كاملة، لا على الورق بل في الواقع؟ يصيح بعضهم قائلاً: "بل نريد قطع مائة مليون رقبة". إن هذا الكلام قد لا يكون إلا مجازاً. ولكن هبوا أنه ليس مجازاً بل حقيقة. لماذا تخافون منه إذا كان الحكم الاستبدادي سيقضي، أثناء استغراقنا في الأحلام البطيئة التي ندونها على الورق، سيقضي لا على مائة مليون فحسب، بل على خمسمائة مليون؟ لاحظوا أيضاً أن المريض الذي ليس إلى شفائه من سبيل، لا يمكنكم أن تشفوه مهما تصفون له من وصفات طبية. ثم إنكم إذا تأخرتم تتيحون له أن تسري عدواه إلينا جميعاً، وأن يُجهز على القوى الفتية التي لا يزال في وسعنا أن نعتمد عليها، فيكون في هذا هلاكنا جميعاً. إنني أُسلم معكم بأن الاسترسال في أقوال لبرالية بليغة أمر ممتع جداً، على حين أن العمل فيه بعض المخاطر... ثم إنني لست خطيباً. فأنا إنما جئت هنا لأنقل إليكم بلاغاً، لذلك أطلب إلى حفلكم الكريم أن يقول بكل بساطة من دون تصويت ما الذي يسره أكثر من سواه: أن يتخطى في المستقبل بسرعة السلحفاة، أم أن يطوي الطريق طياً بسرعة السهم؟

هتف التلميذ يقول متحمساً:

- رأيي أن نطوي الطريق طياً بسرعة السهم.

وقال ليا مشين:

- وأنا أيضاً.

وجمعهم أحد الضباط:

- الاختيار واضح لا لبس فيه.

وكذلك قال ثاني فثالث.

والشيء الذي فاجأ الحضور خاصة هو أن لدى فرخوفنسكي بلاغاً يجب

أن ينقله، وأنه وعد بالكلام.

قال فرخوفنسكي وهو يجيل على الحفل بصره:

- أيها السادة، أرى أنكم جميعكم تقريباً من أنصار الحل الذي تنادي به المنشورات وتدعو إليه.

فصاحت أغلبية الأصوات تقول:

- نعم، جميعنا، جميعنا.

وتدخل الميجر فقال:

- أعترف لكم بأنني أميل إلى حلٍ أكثر إنسانية، ولكنني أنحاز إلى رأي المجموع.

وقال فرخوفنسكي يسأل الأعرج:

- يبدو أنك لا تعارض أنت أيضاً، هه؟

فأجاب الأعرج وقد احمرّ وجهه:

- ليس معنى هذا أنني... ولكن إذا انضمت إلى رأي المجموع فما ذلك إلا لأنني لا أريد أن أحدث اضطراباً...

- هكذا أنتم جميعاً! إنكم مستعدون لأن تناقشوا وتجادلوا مدة ستة أشهر، ولكنكم تصوّتون في النهاية كسائر الناس. أيها السادة، أنتم جميعاً مستعدون حقاً؟ فكروا في الأمر!

(مستعدون لأي شيء؟ - سؤال غامض ولكنه جذاب إلى أقصى الحدود).

تعالّت أصوات كثيرة تقول:

- طبعاً، جميعاً!

وكان الحضور من جهة أخرى ينظر بعضهم إلى بعض.

قال فرخوفنسكي:

- قد تستأثرون في المستقبل من أنكم تعجّلتم في الموافقة؟ هذا يحدث لكم في جميع الأحيان تقريباً.

اضطرب الحفل، بل اضطرب اضطراباً شديداً.

صاح الأعرج يقول بلهجة غاضبة:

- اسمح لي مع ذلك أن ألفت انتباهك إلى أن الأجوبة على أسئلة من هذا

النوع لا يمكن أن تكون إلا شرطية. لقد سمعت جوابنا، ولكنك قد ألقيت سؤالك بطريقة تبلغ من الغرابة...

- ما غرابتها؟

- ما هكذا تُلقى أسئلة كهذه الأسئلة.

- علمني إذاً كيف يجب إلقاؤها. على كل حال، كنتُ واثقاً أنك ستكون

أول نادم...

- لقد انتزعت منا موافقتنا على عمل فوري، ولكن ما هي الحقوق التي

لك علينا؟ أين سلطاتك الكاملة؟

- كان ينبغي أن تفكر في هذا قبل الآن! لماذا أسرعْتَ تجيب؟ أتوافق من

أجل أن تراجع على الفور!

- في رأيي أن الصراحة الطائشة في سؤالك تدل دلالة واضحة على أنك

لا تملك سلطات كاملة ولا حقوقاً، وتدلل على أنك لم تشأ بطرح سؤالك إلا

إرضاء حب الاطلاع عندك.

هتف فرخوفنسكي يقول وكأنه قد تنبّه إلى الخطر:

- ولكن ما هي المسألة؟ ما هي المسألة؟

قال الأعرج:

أقول إن المرء حين يريد أن يضم أعضاء، إنما يفعل ذلك سرّاً، ولا يفعله

بحضور عشرين شخصاً لا يعرفهم.

كان الأعرج قد بلغ من الحق حداً لا يستطيع معه أن يسيطر على نفسه،

وأن يكتف ما يدور في خاطره. فالتفت فرخوفنسكي نحو الحفل وهو يتظاهر

بقلقٍ شديد:

- أيها السادة، أرى من واجبي أن أعلن لكم إن هذا كله ليس إلا سخافات،

وأن حديثنا قد مضى بنا إلى أبعد مما نريد. وأنا لم أضْمَ بعدُ أعضاء، وليس

لأحد حق في أن يقول إنني أهتم بهذا. نحن لا نزيد على أن نعلن آراءنا. أليس

كذلك؟

ثم أضاف يقول وهو يلتفت نحو الأعرج:

- لقد نبهتني إلى الخطر على كل حال. أنا لم أكن أتخيل أن الكلام هنا في أمور بريئة كل البراءة محظور إلا على أفراد. أترك تخشى وشاية؟ هل يمكن أن يكون بيننا جاسوس؟

هاج الحضور. وطفق الجميع يتكلمون في آن واحد.

تابع فرخوفنسكي كلامه فقال:

- إذا كان الأمر كذلك أيها السادة، فالشخص الوحيد المعرض للخطر بينكم هو أنا. لذلك أطلبكم بأن تجيبوا عن سؤال سألقيه عليكم، إن كان ذلك يناسبكم طبعاً، فإنكم أحرار على كل حال:

- ما هو السؤال؟ ما هو السؤال؟

- هو سؤال سيبيّن بوضوح هل علينا أن نكمل حديثنا. أم أن على كل واحد منا أن يتناول قبعته صامتاً ثم يمضي لشأنه.

- السؤال! السؤال!

- إذا علم أحدنا أن اغتيالاً سياسياً يُهيأ، فهل هو يشي بالمؤامرة متنبأً بجميع النتائج، أم هو يبقى في بيته منتظراً الأحداث؟ إن الآراء قد تختلف. فالإجابة عن هذا السؤال ستبين لنا بوضوح هل يجب علينا أن نفترق أم يجب علينا أن نبقي معاً، لا في هذه السهرة وحدها بل بعدها أيضاً.

ثم قال فرخوفنسكي للأعرج:

- اسمح لي أن أخاطبك أنت أول من أخاطب.

- لماذا أنا بالذات؟

- لأنك أنت الذي بدأت. أرجوك، لا تتملّص. لن يفيد المكر في شيء.

على كل حال، افعل ما تشاء، فأنت حر.

- معذرة، إن سؤالاً كهذا السؤال إهانة.

- أوضح مزيداً من الإيضاح، أرجوك.

قال الأعرج:

- أنا لم أكن شرطياً سرياً في يوم من الأيام.

- أوضح مزيداً من الإيضاح، من فضلك. لا تضيّع وقتنا.

انشل الأعرج من فرط الغضب فلبث صامتاً، واكتفى بأن أخذ يرشق عدوّه من تحت نظارتيه بنظرات مثقلة كرهاً وبغضاً.

- أنعم أم لا؟ أتشي أم لا تشي؟

كذلك صرخ فرخوفنسكي يسأله.

فصرخ الأعرج يقول بصوت أعلى أيضاً:

- لا أشي طبعاً.

وتعالت أصوات عدة تقول:

- ولا أحد يشي طبعاً.

وتابع فرخوفنسكي استجوابه، فقال يسأل الميجر:

- اسمح لي أن أسألك أنت يا حضرة الميجر: أتشي أم لا تشي؟

- لا، لا أشي.

- وإذا علمت أن رجلاً يستعد لأن يقتل أو يسرق رجلاً آخر، رجلاً عادياً،

فأنت تنبّه إلى الجريمة، أليس كذلك؟

- طبعاً، لأن الأمر هنا أمر شخصي وليس وشاية سياسية. أنا لم أكن من

الشرطة السرية في يوم من الأيام.

وتعالت أصوات من جميع الجهات تهتف:

- ولا أحد كان من الشرطة السرية في يوم من الأيام. لا داعي إلى إلقاء

مثل هذه الأسئلة. سيكون جواب الجميع واحداً. ليس ههنا جواسيس.

صاح الطالب يسأل:

- ولكن لماذا ينهض ذاك السيد؟

- هذا شاتوف. لماذا تنهض يا شاتوف؟

كذلك سألت السيدة فرجنسكي.

كان شاتوف قد نهض فعلاً على حين فجأة. إنه يحمل قبعته بيده، ويحدّق

إلى فرخوفنسكي. كان يبدو عليه أنه يريد أن يقول له شيئاً ما، ولكنه يتردّد وقد

اصفرّ لونه من شدة الغضب. ومع ذلك سيطر على نفسه وكظم غيظه واتجه

نحو الباب صامتاً.

صرخ فرخوفنسكي يقول له بلهجة ملغزة:
 - ما تفعله يلحق بك ضرراً يا شاتوف.
 فأجابه شاتوف قائلاً:
 - كما يلحق نفعاً بالجاسوس الوغد الذي هو أنت.
 وخرج.
 فتعالت الصرخات وصيحات التعجب في كل جهة:
 - تمت التجربة.
 - وكانت نافعة.
 - بعد فوات الأوان!
 - من دعاه؟ كيف دخل إلى هنا؟ من هو؟ من شاتوف؟ أترأه يشي أم لا؟
 قال أحدهم:
 - لو كان خائناً لأظهر غير ما يظن، ولكنه لم يعبأ بنا وخرج.
 صاحت الطالبة:
 وهذا ستافروجين ينهض. إنه هو أيضاً لم يجب عن السؤال!
 كان ستافروجين قد نهض فعلاً، وكان كيريلوف قد اقتدى به على الطرف
 الآخر من المائدة.
 قالت ربة الدار تخاطب ستافروجين بجفوة:
 - اسمح لي يا سيد ستافروجين! نحن جميعاً قد أجبنا عن السؤال، وأنت
 تنصرف من دون أن تقول كلمة!
 جمجم ستافروجين يقول:
 - لا أرى ضرورة للإجابة عن السؤال الذي يهتمكم.
 - ولكننا عرّضنا أنفسنا للخطر، وأنت لم تعرّض نفسك لشيء.
 بهذا صاحت عدة أصوات.
 أجاب ستافروجين ضاحكاً، ولكن عينيه كانتا تسطعان:
 - فيم يعني أن تعرضوا أنفسكم للخطر؟
 فهتفت أصوات كثيرة تقول متعجبة:

- كيف هذا؟

ونفض عدد من الحضور فجأة.

صرخ الأعرج يقول:

- اسمحوا لي أيها السادة، اسمحوا لي. إن فرخوفنسكي أيضاً لم يجب

عن السؤال، وإنما اكتفى بإلقائه.

فأحدثت هذه الملاحظة أثراً خارقاً. نظر الجميع بعضهم إلى بعض.

وانفجر ستافروجين ضاحكاً عند أنف الأعرج وخرج يتبعه كيريلوف. وهرع

فرخوفنسكي وراءهما إلى حجرة المدخل.

- ماذا تفعل؟

كذلك تمتم يقول وهو يمسك يد ستافروجين ويشد عليها بكل ما أوتي

من قوة. وتابع كلامه:

- اذهب إلى عند كيريلوف. وسألحق بكما. يجب أن أكلمك. لا بد أن

أكلمك. لا غنى عن هذا.

أجابه ستافروجين بخشونة:

- لا لي أنا.

- بل لا غنى عنه لك أنت يا ستافروجين. سأشرح لك هذا في البيت.

كذلك قال كيريلوف متدخلاً في الأمر. وقال يطمئن فرخوفنسكي:

- سيصحبني إلى بيتي.

وخرجا.

الفصل الثامن

ابن القيصر. إيفان

كانت أول حركة قام بها بطرس ستيفانوفتش هي أنه عاد بأقصى سرعة إلى المدعوين ليهدي النفوس، ولكن أغلب الظن أنه رأى أن ذلك لا يستحق العناء، لأنه ترك "الجلسة" بعد دقيقتين، وطار يلحق بستا فروجين وكيريلوف. وفيما كان يركض تذكر شارعاً صغيراً يمكن أن يوصله إلى عمارة فيليبوف بسرعة أكبر. فسلك ذلك الشارع غاطساً في الوحل حتى الركبتين، فإذا هو يصل إلى المنزل فعلاً في اللحظة التي كان فيها صاحبه اجتازان البوابة. قال كيريلوف:

- كيف؟ أوصلت؟ حسن جداً. ادخل.

وقال ستا فروجين سائلاً كيريلوف حين لمح في حجرة المدخل سماروا يغلي فيه الماء:

- ألم تقل لنا إنك تعيش وحيداً؟

فأجاب كيريلوف يقول مدمماً:

- سترى مع من أعيش.

وما إن دخلوا حتى أخرج فرخوفنسكي من جيبه الرسالة الغفل التي عهد بها إليه فون لمبكه، ووضعها على المائدة أمام ستا فروجين. وجلس الثلاثة. فقرأ ستا فروجين الرسالة صامتاً. ثم سأله:

- هيه، وبعد؟

فقال فرخوفنسكي:

- إن هذا الشقي سيفعل ما يكتبه. وما دام مرتبطاً بك فقل ما الذي يجب عليّ أن أفعله. أوكد لك أنه قد يذهب منذ الغد إلى فون لمبكه.
- فليذهب!

- كيف هذا؟ يمكننا أن نمنعه.

- أنت مخطئ: إنه ليس مرتبطاً بي. على كل حال، لا يهمني الأمر. إنه لا يستطيع شيئاً ضدي. وإنما هو يهددك أنت.
- وأنت أيضاً.

- لا أظن ذلك.

- ولكن الآخرين قد لا يوفرونك. كيف لا تفهم هذا؟ اسمع يا ستافروجين. إنك تتلاعب بالألفاظ. أياكون هذا من حرصك على المال؟
- هل الأمر أمر مال؟

- طبعاً. يجب دفع ألفين، أو ألف وخمسمائة على الأقل. أعطني هذا المبلغ غداً أو حتى اليوم، فأرحله في مساء الغد إلى بطرسبرج. ذلك ما يريده في حقيقة الأمر. لاحظ أن من الممكن حتى ترحيل ماريا تيموفتشنا معه إذا شئت.

لكأنه كان طائش اللب، فهو يتكلم مضطرباً من دون تفكير، وهو يرسل أقوالاً خطيرة من دون أن يتبصر بالعواقب. وكان ستافروجين يلاحظه مدهوشاً.

قال ستافروجين:

- ليس هناك أي سبب يدعوني إلى ترحيل ماريا تيموفتشنا.

- وربما كنت لا تريد لها أن ترحل.

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وضحك ضحكة ساخرة.

- ربما.

صرخ بطرس ستيفانوفتش يقول وقد نفذ صبره واستعّر حنقه:

- الخلاصة: أعطني المال أم لا؟

فأجابه ستافروجين وهو يتأمله مظلم الوجه:

- لا، لن أعطيه!

- إيه ستافروجين! إما أنك تعلم شيئاً ما، وإما أنك فعلت شيئاً ما! إنك...

تمزح!

قال فرخوفنسكي ذلك وتقبّض وجهه، وارتعش طرفاً شفّيته، ثم إذا هو ينفجر ضاحكاً ضحكة غريبة على حين فجأة.

قال نيقولا ي فسيفلودوفتش ستافروجين بهدوء:

- لقد قبضت من أبيك المال المتأتي عن بيع أرضك. دفعت لك أمي عن ستيفان تروفيموفتش مبلغ ستة آلاف أو ثمانية آلاف روبل. ففي وسعك إذا أن تدفع ألفاً وخمسمائة روبل من هذا المبلغ. كفاني ما دفعته حتى الآن من مال في سبيل الآخرين. ما أكثر ما أعطيت ذات اليمين وذات الشمال! هذا مزعجٌ أخيراً..

قال ستافروجين ذلك ثم ابتسم من أقواله نفسها.

- ...! إنك تمزح الآن!...

نهض ستافروجين. سرعان ما وثب فرخوفنسكي عن كرسيه، وأسند ظهره إلى الباب بحركة آلية كأنه يريد أن يمنع ستافروجين من الخروج. وفيما كان نيقولا ي فسيفلودوفتش يرفع ذراعه لينحيه ويخرج، إذا هو يعدل على حين فجأة، ويقول:

- لن أدع لك شاتوف.

فارتعش بطرس ستيفانوفتش. وحدّق كل من الرجلين إلى عيني صاحبه. وعاد ستافروجين يتكلم فقال:

- ذكرت لك منذ قليل لماذا أنت في حاجة إلى دم شاتوف. إنك تريد أن

تستخدم دم شاتوف في ترسيخ الرابطة التي تشد جماعتك بعضها إلى بعض. لقد حملته على الانصراف، بحذق وبراعة. كنت تعلم أنه سوف يرفض أن يقول: "لن أشي"، وأنه يجد أن الكذب عليك جبن منه وعار. ولكن أنا، ما حاجتك إليّ أنا الآن؟ إنك تلاحقني منذ لقائنا في الخارج. والشروح التي قدمتها لي في هذا الشأن حتى الآن ليست إلّا هذياناً محمومًا. ومع ذلك

تحضني على أن أعطي لبيادكين ألفاً وخمسمائة روبل من أجل أن يدفع فدكا إلى قتله. إنني أعرف: أنت تظن أنني أريد أن أدفع إلى قتل زوجتي في هذه المناسبة نفسها. وتخيل أنك بهذه الجريمة تمسك بي وتسيطر علي، أليس هذا صحيحاً؟ ولكن فيم تفيدك هذه السلطة؟ فيم يمكنني أن أنفعل؟ أعود فأقول لك مرة أخرى: أنعم النظر إليّ، وأعرف أنني لست الرجل الذي تنشده، ودعني وشأني!

سأله فرخوفنسكي لاهثاً:

- هل جاء إليك فدكا؟

- نعم، جاء. والسعر الذي يطلبه هو أيضاً ألفاً وخمسمائة روبل. على كل حال، سوف يؤكد لك هذا بنفسه. ها هو ذا!! قال ستافروجين ماداً ذراعه.

فالتفت بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي فجأة: إن شخصاً جديداً يخرج من الظل ويقف على العتبة: إنه فدكا وقد ارتدى معطفاً قصيراً، لكنه حاسر الرأس كأنه في بيته. كان يتسم، كاشفاً عن أسنانه البيضاء المنضودة. إن عينيه السوداوين اللتين تلتمعان التماعاً ضارباً إلى صفرة تتفحصان وجوه الشبان الثلاثة بحذر. لم يكن يدرك ما يجري، ولم يعزم أمره على الدخول. واضح أن كيريلوف هو الذي جاء به. وعلى كيريلوف إنما تلبثت نظرتة السائلة أخيراً.

قال ستافروجين:

- لا شك أنك استقدمته إلى هنا ليشهد الصفقة، وربما ليرى أن المال قد أصبح بين يديك منذ الآن، أليس كذلك؟ ومن دون أن ينتظر جواباً، أسرع ستافروجين يخرج متعجلاً. فخرج فرخوفنسكي عن طوره، وهرع يدركه تحت البوابة.

صاح فرخوفنسكي يقول وهو يمسك ستافروجين من كوعه:

- قف! لا تخط خطوة واحدة أخرى.

حاول ستافروجين أن يتخلص بحركة مفاجئة، ولكنه لم يستطع ذلك.

فثار غضبه فأمسك بيده اليسرى شعر فرخوفنسكي، وقلبه على الأرض بكل ما أوتي من قوة، واجتاز الباب. ولكنه ما إن قطع ثلاثين خطوة حتى كان فرخوفنسكي قد أدركه مرة أخرى.

ودمد فرخوفنسكي يقول بصوت متقطع:

- لتتصالح! لتتصالح!

فرفع نيقولاي فسيفولودوفتش منكبيه، و ظل سائراً في طريقه من دون أن يلتفت.

- اسمع، سأجيبك بليزافتا نيقولاي فسيفولودوفتش، هل تريد؟ لا؟ لماذا لا

تجيب؟ قل ما تشاء فأنفذ. اسمع، سأترك لك شاتوف، هل تريد؟

- هو إذاً صحيح أنك كنت قد قررت قتله؟

كذلك صرخ ستافروجين.

فعاد فرخوفنسكي يتكلم فقال متعجلاً:

- ولكن ما حاجتك إلى شاتوف؟

كان صوته يختنق في حلقه. وكان في جريه إلى جانب ستافروجين لا ينفك يشده في كل لحظة من كمه، وربما من دون أن يشعر بذلك.

- اسمع، سأتركه لك، فلتتصالح. حسابك مشغل... ولكن فلتتصالح!

وأخيراً نظر إليه ستافروجين فدهش: ليس هذا الصوت صوتَه نفسه، وليست هذه النظرة نظرتَه نفسها التي كانت له منذ قليل عند كيريلوف. إن أمام نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين الآن شخصاً آخر. اللهجة مختلفة: إن فرخوفنسكي يتوسل الآن ويضرع ويتهلل، زائف الهيئة تماماً، كرجل يُسلب أعزُّ ما يملك أو سلب أعزُّ ما يملك.

هتف ستافروجين يسأله:

- ما بك؟

ولكن فرخوفنسكي لم يجب، فهو لا يزال يركض بقربه ويحدق إليه بنظرة ضارعة متوسلة لا تنثني.

دمد فرخوفنسكي يقول مرة أخرى:

- فلتتصافح. اسمع! أنا أيضاً عندي تحت الجزمة سكين، مثل فدكا تماماً. ولكنني أريد أن نتصالح.

فصاح ستافروجين يقول غاضباً، ولكن على دهشة:

- ماذا تريد مني أخيراً؟ اذهب إلى الشيطان! ما هذا السر؟ أنا لك تيممة؟ همس فرخوفنسكي يقول:

- اسمع! سوف نثير روسيا، سوف نحدث ثورة في روسيا....
كان كمن يهذي. وتابع كلامه:

- ألا تعتقد أننا نستطيع فعل هذا؟ سوف نحدث من الاضطرابات والزلازل ما يجعل كل شيء ينهار. إن كارمازينوف على حق: أصبح المرء لا يستطيع أن يتشبّث بأي شيء. كارمازينوف ذكي جداً. عشر حلقات أخرى كهذه في روسيا، ثم يصبح القبض عليّ مستحيلاً.
فقال ستافروجين رغم إرادته:

- حلقات مؤلفة من أغبياء كهؤلاء؟

- أوه! كن أكثر غباءً يا ستافروجين! كن أنت نفسك أكثر غباءً! على كل حال، لا داعي لأن يتمنى لك المرء ذلك: فما أنت بالذكي جداً. ولكنك خائف، لا تملك الإيمان. أبعاد الأمر ترعبك. ضخامة المهمة تبث في نفسك الهلع. ولماذا تعدّهم أغبياء؟ ليسوا أغبياء إلى هذا الحد: ما من أحد يملك اليوم تفكيراً خاصاً به. العقول الأصلية المستقلة نادرة جداً في هذا الزمان. فرجنسكي إنسان نقي جداً، أنقى عشر مرات من أناس مثلك ومثلي. ما قيمة هذا على كل حال؟ أما ليبوتين فهو وغد. لكنني أعرف نقطة الضعف فيه. ما من وغد إلا فيه نقطة ضعف. ولكنني ممسك به. بضع حلقات أخرى كهذه الحلقة، ثم يصبح تحت تصرفي في كل مكان جوازات سفر، ومال. هذا وحده شيء كثير. ليس هذا بالقليل. ويصبح لي مخابئ مضمونة آوي إليها. فإذا وضعوا أيديهم على إحدى الحلقات، فاتهم الحلقات الأخرى. ستحدث اضطرابات، وثورات... هل يمكن ألا تصدّق أننا نستطيع نحن الاثنين كلّ شيء؟

- خذ شيجالوف، ودعني وشأني!...

- شيجالوف رجل عبقرى. هل تعرف أنه عبقرى من مستوى فورييه، ولكنه أجزأ من فورييه، وأقوى من فورييه؟ سوف أهتم به. لقد اخترع "المساواة". قال ستافروجين لنفسه وهو يتفرس في فرخوفنسكى من جديد: "إنه محموم. إنه يهذي". واستمرا يسيران جنباً إلى جنب. وعاد فرخوفنسكى يتكلم فقال:

- مشروعه عظيم. إنه يخلق التجسس. جميع أعضاء المجتمع في مشروعه يتجسس بعضهم على بعض، وعليهم أن ينقلوا كل ما يصل إلى علمهم. كل واحد ينتمي إلى الجميع، والجميع ينتمون إلى كل واحد. كل البشر عبيد ومتساوون في العبودية. وفي الحالات القصوى يُلجأ إلى الافتراء وإلى القتل. وليس الشيء الرئيسي هو أنهم جميعاً متساوون. قبل كل شيء، يجب خفض مستوى التعليم والعلوم والمواهب. إن المستوى العالي لا يصل إليه إلا أصحاب المواهب. إذاً فلا مواهب. إن أصحاب المواهب يستولون دائماً على السلطة ويصبحون طغاةً مستبدين. ليس في وسعهم أن يفعلوا غير ذلك. ولقد أسأوا دائماً أكثر مما أحسنوا. فيجب إلغاؤهم أو إنزال عقوبة الموت فيهم. شيشرون سيُقطع لسانه. كوبرنيك ستُفقد عيناه. شكسبير سيُرجم بالحجارة. هذا هو مذهب شيجالوف. هذه هي الشيجالوفية! يجب على العبيد أن يكونوا متساوين. من دون استبداد لم توجد في يوم من الأيام لا حرية ولا مساواة. ويجب أن تعمّ مساواة القطيع. هذه هي الشيجالوفية. هاهاها!... أيدعشك هذا؟ أنا من أنصار شيجالوف.

كان ستافروجين يُغذ الخنثى ليصل إلى بيته بأقصى سرعة. قال يحدث نفسه: "إذا كان هذا الرجل سكران، فأين أمكنه أن يسكر؟ أياكون الكونياك الذي شربه منذ قليل هو الذي أسكره؟".

- اسمع يا ستافروجين! إن توطئة الجبال فكرة ممتازة. ليست هذه الفكرة سخيفة مضحكة. أنا من رأي شيجالوف. لا حاجة إلى التعليم. كفى علماً! حتى من دون علم تكفيننا الموارد التي نملكها الآن ألف سنة أخرى. ولكن

علينا أن نقيم الطاعة. الشيء الوحيد الذي يفتقر إليه العالم إنما هو الطاعة. إن الظلم إلى التعليم قد أصبح منذ الآن ظمناً أرسطقراطياً. وما إن تُمكن الأسرة أو الحب من القيام حتى تنشأ الرغبة في التملك على الفور. سوف نقتل هذه الرغبة: سوف نمي الإدمان على السكر، سوف نغذي الافتراء والتحريض، والسعاية والنميمة. سوف نغرق البشر في فجور لا عهد بمثله من قبل، سوف نقتل كل عبقرية قبل أن تولد. سوف يكون جميع الناس متساوين: مساواة مطلقة. "نحن نعرف مهنتنا ونحن أناس شرفاء، ذلك كل ما نحتاج إليه". هذه هي الإجابة التي أجاب بها العمال الإنجليز في الآونة الأخيرة. الضروري وحده ضروري. ذلك هو الشعار الذي يجب أن ترفعه الإنسانية بعد الآن. ولكن سوف يجب علينا أن نمناها من حين إلى حين بعض الانتفاضات نوفاً لها لهم نحن القادة. إن العبيد يجب أن يكون لهم سادة. طاعة كاملة، أمحاء للشخصية مطلق. ولكن شيجالوف يسمح بالانتفاضات، مرة كل ثلاثين سنة. وعندئذ يهجم الجميع على الجميع ويلتهم بعضهم بعضاً، ولكن إلى حد، للتغلب على الضجر فحسب. الضجر شعور أرسطقراطي. إن مجتمع شيجالوف لن يعرف الرغبات. لنا نحن الرغبة والألم. أما العبيد فلهم الشيجالوفية.

- أتستثني نفسك؟

- وأستثنيك أيضاً. هل تعلم أنني فكرت في أن أترك العالم للبابا. فليخرج حافي القدمين، وليظهر للشعب قائلاً: "انظروا كيف صيرونى". فإذا الجميع يتبعونه، حتى الجيش. البابا في القمة، ونحن حوله، وتحتنا الجماهير الخاضعة لنظام شيجالوف. وإنما ينبغي فقط أن يقوم اتفاق بين الأممية والبابا. وسيحدث هذا. سيوافق العجوز فوراً. ماذا بقي له أن يفعل غير هذا؟ تذكر كلماتي. هاهاها!... أهذا غباء شديد؟... قل لي أهذا غباء؟ أهو غباء أم لا؟...

دمدم ستافروجين يقول غاضباً:

- كفى!

- كفى! اسمع. لقد عدلت عن البابا. ليذهب شيجالوف إلى الشيطان!
وليذهب البابا إلى الشيطان! نحن في حاجة إلى شيء راهن، شيء يمكن أن
يلهب النفوس. أما أفكار شيجالوف فهي مسرفة في الرهافة والتعقيد. هي
مثل أعلى ينتمي إلى المستقبل. إن شيجالوف صائغ مجوهرات. وهو غبي
ككل محب للبشر. لا بد لنا من الاندفاع في أعمال ضخمة، وشيجالوف
يحتقر هذا النوع من الأعمال. اسمع: في الغرب سيكون البابا، وعندنا...
ستكون أنت!

غمغم ستافروجين يقول وهو يسرع في خطاه مزيداً من الإسراع:
- دعني وشأني. أنت سكران!

فصاح بطرس ستيفانوفتش يقول كأنه في نشوة:

- ستافروجين. إنك جميل! وأؤمن ما فيك هو أنك يتفق لك أحياناً أن
تجهل ذلك. آه... لقد درستك دراسة عميقة! إنني كثيراً ما أنظر إليك خلسة.
بل إن فيك شيئاً من البراءة أيضاً. شيئاً من السذاجة، هل تعرف هذا؟ نعم، إن
فيك هذا. لا بد أنك تتألم من هذه السذاجة، لا بد أنك تتألم منها صادقاً. إنني
أحب الجمال. صحيح أنني عديمي، ولكنني أحب الجمال. هل العدميون
لا يحبون الجمال؟ إن العدميين لا يحبون الأصنام المعبودة. أم أنا فأحب
الأصنام المعبودة. أنت معبودي! إنك لا تسيء إلى أحد، ومع ذلك يكرهك
جميع الناس. أنت تعامل الناس معاملة أندادٍ مساوين لك، ومع ذلك فإنهم
يخافون منك. هذا حسنٌ جداً. لا أحد سيحجيء يربت على كتفك. إنك
أرستقراطي، والأرستقراطي الذي يجيء إلى الديمقراطية يسحر العقول
ويأسر النفوس إلى أقصى حد. ليس يكلفك شيئاً أن تضحي حياتك أو حياة
إنسان آخر. أنت من نحن في حاجة إليه. أنت من أنا في حاجة إليه. ولا
أعرف شخصاً آخر مثلك. أنت الزعيم، أنت الشمس، أما أنا فلست إلا دودة
من دود الأرض...

قال فرخوفنسكي ذلك ثم تناول يد ستافروجين فجأة وقبلها. ارتعش
نيقولاي فسيفولودوفتش. وبحركة عنيفة سحب يده. ووقف الاثنان كلاهما.

دمدم ستافروجين يقول لصاحبه:

- أنت مجنون

فأسرع بطرس ستيفانوفتش يستأنف كلامه فقال:

ربما كنت أهذي. نعم، ربما... لكنني أنا الذي اكتشفت بأي شيء يجب البدء. هذه فكرة ما كنت لتخطر ببال شيجالوف في يوم من الأيام. أمثال شيجالوف كثيرون جداً! لكن رجلاً واحداً في روسيا عرف ما هي الخطوة الأولى التي يجب القيام بها، وعرف كيف يجب القيام بها. هذا الرجل هو أنا. ما بالك تنظر إليّ هكذا؟ أنا في حاجة إليك. أنا لا أغني لي عنك. أنا بدونك صفر. لست بدونك إلا ذبابة، إلا فكرة في قمقم، إلا كولومب بغير أمريكا!...

كان ستافروجين لا يزال ساكناً جامداً يتأمله بانتباه محاولاً أن يقرأ في عينيه المجنونتين.

وتابع فرخوفنسكي كلامه فقال بصوت لاهث متعجل، وهو يشد ستافروجين من كمّ معطفه في كل لحظة:

- اسمع، سنبدأ بأن نشر اضطرابات. سبق أن قلت لك ذلك. سوف نتسلل إلى أعماق الشعب. هل تعرف أننا أقوىاء قوة رهيبة منذ الآن؟ إن الذين يعملون من أجلنا ليسوا فقط أولئك الذين يقتلون ويشعلون الحرائق ويستعملون المسدس بالطريقة الكلاسيكية وأولئك المسعورين الذين يعضون. حتى أن هؤلاء قد يكونون أميل إلى الإعاقة والعرقلة. إنني أضع الجميع في الحساب: إن معلّم المدرسة الذي يستهزئ مع تلاميذه بالههم ومهادهم واحد منا، والمحامي الذي يدافع عن موكله القاتل المثقف مشيراً إلى أنه أعلى ثقافة من الذين قتلهم، وإلى أنه اضطر أن يقتل للحصول على المال، هو واحد منا، وتلامذة المدرسة الذين يقتلون أحد الفلاحين نشداناً لإحساسات خارقة هم منا، والمحلفون الذين يبرّثون جميع المجرمين بغير استثناء هم منا، ووكيل النيابة الذي يرتعش خوفاً متى خطر بباله أنه لم يظهر قدراً كافياً من اللبرالية هو منا. ثم أضف إلى هؤلاء، الموظفين و الكتاب. إن

كثيرين منهم يتمنون إلينا دون أن يخطر ذلك ببالهم! ثم إن طوعية التلاميذ والحمقى طوعية مطلقة. أما المعلمون فإنهم ممثلون غيظاً. كل شيء في كل مكان ليس إلّا غروراً وشهوة حيوانية لا عهد بمثلها من قبل.. هل تتصور مدى المساعدة التي يمكن أن تقدمها لنا الأفكار الجاهزة الرائجة؟ حين سافرت أنا، كانت فكرة لّتريه هي الشائعة في الناس، فكانوا يزعمون أيام ذاك أن الجريمة أصبحت لا تعدّ اختلالاً بل دليل على سلامة الحس، بل واجب أخلاقي، أو احتجاج كريم في أقل تقدير. "كيف يمكن لإنسان مثقف أن لا يقتل إذا هو احتاج إلى مال؟". ولكن هذا ليس إلّا بداية. إننا منذ الآن نرى الإله الروسي قد أذعن للخمرة الرخيصة الثمن. فالشعب يشرب، والأمهات تشرب، والأولاد يشربون، والكنائس خالية مقفرة. وماذا نسمع في محاكم القرويين؟ "سطل خمرة، وإلا فماتنا جلدة!". دع لهذا الجيل أن يكبر فقط! خسارة! أننا مستعجلون، فلو كان في وسعنا أن ننتظر، لما أصبحوا جميعهم إلّا أشد سكرأ. خسارة! أيضاً أنه لا توجد بروليتاريا. ولكنها ستوجد... ستوجد!... نحن سائرون إلى هذا.

جمجم ستافروجين يقول مستأنفاً السير:
خسارة! أيضاً أننا غدونا أغبياء حقاً.

- اسمع! لقد رأيت طفلاً في السادسة من عمره يقود إلى البيت أمه التي كانت سكرى تماماً وكانت تمطره بوابل من أقذع الشتائم... هل تصدّق أن هذا قد سرّني؟ حين سنستولي على السلطة، فقد نراهم يشفون من دائهم... وسوف نظردهم إلى الصحراء أربعين عاماً إذا وجب الأمر. أما الآن فنحن في حاجة إلى جيل أو جيلين اثنين من الفاسقين الداعرين. نحن في حاجة إلى فساد لا نظير له، إلى تحلل دنيء، يحيل الإنسان حشرة قذرة حقيرة قاسية أنانية. ذلك ما نحن في حاجة إليه. وعدا هذا سنعطيهم قليلاً من "الدم الجديد" حتى يألفوا ويتعودوا. ما بالك تضحك؟ إنني لا أناقض نفسي. إنني لا أناقض إلّا محبي البشر وشيجالوف. وأنا وغد ولست اشتراكياً. هاهاها... خسارة! فقط أننا لا نملك الوقت الكافي. لقد وعدت كارمازينوف بأن

نبدأ في شهر أيار (مايو)، وبأن يكون كل شيء قد تمّ في أول أكتوبر (تشرين الأول). لن يطول الأمر كما ترى. هاهاها... هل تعرف ما سأقوله لك يا ستافروجين؟ إن الشعب الروسي، رغم شتائمه البذيئة و تجديفاته، كانت روح الاستهتار غريبة دائماً عنه. هل تعلم أن الأقنان كان يحترم بعضهم بعضاً أكثر مما يحترم رجل مثل كارمازينوف نفسه: كانوا يتلقون جلدات السياط، ولكنهم استطاعوا أن يدافعوا عن آلهتهم، أما كارمازينوف فقد ترك إلهه.

قال ستافروجين:

- هذه أول مرة أصغي فيها إلى كلامك يا فرخوفنسكي، ويجب أن أقول لك إنني مذهول مشدود. ما أنت بالاشتراكي حتماً، وإنما أنت رجل... طامح، رجل سياسي.

- بل أنا وغد، وغد، كما قلت لك. هل تحب أن تعرف من أنا؟ سأقول لك: إلى هذا إنما أريد أن أصل. إنني لم أقبل يدك عبثاً بغير هدف. ولكن يجب أن يؤمن الشعب بأننا نعرف ماذا نريد، على حين أن الآخرين "يشهرون الهراوة ويضربون ذويهم". آه... ليتنا نملك وقتاً! إن بلاءنا الوحيد هو افتقارنا الوقت الكافي. سوف ننادي بالتدمير... فلماذا... لماذا كانت هذه الفكرة فاتنة أسرة إلى هذا الحد؟ نعم، يجب على المرء أن يرخي أعضائه أحياناً!... سوف نشعل الحرائق!... سوف ننشر أساطير. ومن أجل تحقيق هذا ستفيدنا أيسر حلقة صغيرة. سأجد لك بين هذه الحلقات هواة يطلقون النار فرحين، بل يرون أنهم نالوا شرفاً عظيماً لأنهم كانوا الأوائل. وعندئذ إنما تبدأ البلبلّة والثورة. وسنشهد انقلاباً لا عهد للعالم بمثله من قبل... سيهبط على روسيا ضباب كثيف... وستبكي الأرض آلهتها القديمة... ويومئذ نخرجه...

- نخرج من؟

- من؟

- ابن القيصر، إيفان.

- كيف؟

- ابن القيصر، إيفان! أنت، أنت!

فَكَرَّ ستافروجين لحظة.

ثم سأل المجنون وهو ينظر إليه بدهشة عميقة:
- محتال! هذه إذاً خطتك؟

وعاد فرخوفنسكي يتكلم فقال بصوت عذب، بصوت يشبه أن يكون صوت عاشق ولهان (وكان في الواقع يبدو سكراناً):

- سوف نقول إنه "مختبئ". هل تعلم ماذا تعني هذه الكلمة "مختبئ"؟
ولكنه سيظهر، سيظهر. سوف نخلق أسطورة أجمل من أسطورة سوبتزي.
"إنه موجود، ولكن أحداً لم يره بعد". ما أروع الأسطورة التي يمكن خلقها في هذا الشأن! ولكن الشيء الرئيسي هو أن ذلك سيكون قوةً جديدة.
وحاجتنا إنما هي إلى قوة جديدة. إلى قوة جديدة إنما نحن نتوق. ما الذي تجيء به الاشتراكية؟ لقد حطمت القوى القديمة، ولكنها لم تخلق قوى جديدة. أما نحن فسنملك قوة، ويا لها من قوة! على شرط أن نملك رافعة، ولو لحظة قصيرة، رافعة تتيح لنا أن نرفع الأرض. وسيثور الجميع حينذاك.
قال ستافروجين وهو يبتسم ابتسامة سخرية:

- هل يمكن أن تعتمد عليّ جاداً؟

فقال فرخوفنسكي:

- لماذا تبتسم، ولماذا تبتسم ابتسامة فيها هذه السخرية كلها؟ لا ترؤعي! أنا الآن أشبه بطفل. تكفي ابتسامة كابتسامتك لقتلي خوفاً. اسمع! لن أظهر لك لأحد، لن أظهر لك لأحد البتة. إنه موجود، ولكن أحداً لم يره. إنه مختبئ. مع ذلك ربما كان من الممكن إظهارك، لواحد من مائة ألف مثلاً. وستضج الأرض كلها حينذاك: "لقد رؤي، لقد رؤي!". ألم يروا إيفان فيلييوفتش، ألم يروا الإله يهوه مختطفاً من السماء في عربة من نار. ألم يروا "بأعينهم"؟ وأنت لست إيفان فيلييوفتش. أنت جميل، وأنت ذو كبرياء كإله، ولست تسعى إلى شيء لنفسك، سوف تحيط به هالة التضحية: "المختبئ"! أسطورة. ذلك هو الشيء الرئيسي! سوف تنتصر، تكفيك نظرة لتنتصر. إنه يجيء بحقيقة جديدة و"يختبئ". وسننطق، إلى هذا، بحكمين أو ثلاثة من أحكام سليمان.

لا حاجة إلى الجرائد. حلقاتنا ستتولى نشر الشائعة. ويكفي أن نلبّي طلباً من عشرة آلاف طلب حتى يتجه الجميع إلينا. في كل قرية سيعرض كل فلاح أن في مكان ما جذعاً يجب عليه أن يودعه التماسه. وستنتشر في الأرض كلها شائعة تقول: "لقد صدر قانون جديد، قانون عادل!". البحار ستحتاج، والمنزل الخشبي القديم سيتهوى. وعندئذ نفكر في شيد بناءً من حجر، لأول مرة. و"نحن" الذين سنشيده. نحن وحدنا.

قال ستافروجين مدمماً:

- جنونٌ هذا كله.

- لماذا؟ لماذا لا تريد؟ أتخاف؟ ولكن لئن كنت أتشبّث بك، فما ذلك إلا لأنك لا تخاف من شيء. أ يكون هذا ابتعاداً عن العقل. ما أنا الآن إلا كولومب بدون أمريكا. هل يمكن أن يكون كولومب بدون أمريكا عاقلاً؟

لزم ستافروجين الصمت. وفي أثناء ذلك وصلاً، ووقفاً أمام درجات الباب.

همس فرخوفنسكي يقول في أذن نيقولا في سيفولودوفتش:

- اسمع. سأدير كل شيء بغير مال. سأفرغ منذ الغد من ماريا تيموففتنا... ولن يكلفك هذا شيئاً. وفي غدٍ سأجيئك بليزا. هل تريد ليذا غداً؟

حدّث ستافروجين نفسه فتساءل مبتسماً: "أترأه فقد عقله حقاً؟". وفتح الباب.

سأله فرخوفنسكي وهو يمسك ذراعه:

- ستافروجين، هل أمريكا لنا؟

فأجابه ستافروجين بجفاء:

- فيم يفيدنا هذا؟

- لا تريد؟ كنت أتوقع هذا!...

كذلك صرخ بطرس ستيفانوفتش وقد ثارت ثائثرته على حين فجأة. وتابع كلامه فقال:

- أنت تكذب، أيها السيد الشرير الفاجر الداعر. لست أصدقك. إن

لك شهوة ذئب!... افهم أخيراً أن حسابك أشد ثقلًا من أن أتنازل عنك.
أنت فريد في العالم. لقد اخترعتك منذ لقائنا في الخارج. اخترعتك وأنا
ألاحظك. لولا أنني لاحظتك خلست لما خطر ببالي شيء.
صعد ستافروجين السلم من دون أن يجيب.
وصرخ فرخوفنسكي:
- ستافروجين! إنني أمهلك يومين... بل أمهلك ثلاثة أيام. لكنني لا
أستطيع أن أمهلك أكثر من ذلك. لا بد لي من جواب.

الفصل التاسع

"مصادر" في بيت ستيفان تروفيموفتش

في تلك الأثناء حدث أمر أدهشني كثيراً وأدخل في نفس ستيفان تروفيموفتش أشد الاضطراب. ففي الساعة الثامنة من الصباح هرعت إليّ ناستاسيا من عنده لتبلغني أن مولاها قد "صودر". فلم أفهم في البداية شيئاً. فقالت إن موظفين قد جاؤوا وقاموا "بمصادرة"، فأخذوا أوراقاً لفها جندي بخيط و"حملها على نقالة". بدت لي القصة عجيبة كل العجب. فأسرعت إلى بيت ستيفان تروفيموفتش.

وجدته في حالة غريبة جداً: كان منفعلًا، مضطربًا، وكان وجهه في الوقت نفسه يعبر عن معنى الانتصار. وعلى مائدة، إلى جانب كأس من الشاي لم يُشرب منها شيء، كان هناك سماور يغلي ماؤه. إن ستيفان تروفيموفتش يدور حول المائدة، أو يمشي في الغرفة طويلاً وعرضاً، من دون أن يدرك ماذا يفعل. وهو يلبس، على عادته، ثوب التريكو الأحمر، ولكنه ما إن رأيته حتى أسرع يرتدي صديرتة وردنجوته، وذلك أمر ما كان يفعله أبداً في الماضي حين يفاجئه صديق وهو بثوب التريكو.

- "أخيراً يصل صديق!" (بالفرنسية).

قال ذلك وتنفس من أعماق صدره. ثم تابع كلامه:

- "عزيزي" (بالفرنسية)، أنت الشخص الوحيد الذي بعثت أنبيئه بما حدث، ولا أحد يعرف شيئاً البتة. يجب أن نقول لناستاسيا أن تغلق الباب، ولا تدع أحداً أن يدخل، إلّا "هم" طبعاً... "هل فهمت؟" (بالفرنسية).

كان ينظر إليّ قلقاً كأنه ينتظر جواباً. وأسرعت أسأله عمّا حدث، فاستطعت كيفما اتفق أن أستخرج من أقواله المفككة التي تقطعها وقفات واستطرادات لا داعي لها أن موظفاً من موظفي الإقليم قد جاءه "فجأة" في الساعة السابعة من الصباح.

- "معذرة، لقد نسيت اسمه. ما هو من أبناء البلاد" (بالفرنسية) ولكنني أعتقد أن لمبكه هو الذي جاء به. "شخص غبي ألماني الهيئة اسمه روزنتال".
- أترأه هو بلومر؟

- بلومر. نعم، هذا هو الاسم الذي ذكره. "هل تعرفه؟ شخص أهبل يدل وجهه على رضاه عن نفسه، ومع ذلك قاس صلب حاد" (بالفرنسية). هيئته هيئة رجل من رجال البوليس، من رجال البوليس السري. "إنني أعرفهم" (بالفرنسية). كنت ما أزال نائماً. وطلب مني أن يلقي نظرة على كتيبي ومخطوطاتي، هل تتخيل هذا؟ "نعم، أتذكر، لقد استعمل هذه الكلمة" (بالفرنسية). لم يعتقلني، ولكنه أخذ الكتب.. "كان يقف بعيداً" (بالفرنسية)، ولما بدأ يشرح لي الغرض من زيارته، كان وجهه يدل أنه يتصور أنني... "الخلاصة كان وجهه وجه من يظن أنني سأهوي عليه فوراً وأخذ أضربه ضرباً عنيفاً. جميع أمثاله من أبناء الطبقة الدنيا هم كذلك" (بالفرنسية) حين يجدون أنفسهم أمام رجل محترم. طبعي أنني فهمت كل شيء على الفور. "إنني أنهياً لهذا منذ عشرين سنة" (بالفرنسية). فتحت له جميع الأدراج وأعطيته المفاتيح: أعطيته المفاتيح بنفسني، سلّمته كل شيء. "كنت رصيناً وهادئاً" (بالفرنسية). أخذ من الكتب طبعات هرتسن الأجنبية، والنسخة المجلدة من "الناقوس"، وأربع نسخ من قصيدة، "الخلاصة، أخذ كل ذلك" (بالفرنسية). وأخذ أوراقاً ورسائل وأخذ "بعض مسوداتي التاريخية والنقدية والسياسية" (بالفرنسية). ذلك كله حملوه. لقد قالت ناستاسيا أن جندياً حمل هذه الأشياء كلها على نقالة مغطاة بفوطة، نعم، "هكذا" (بالفرنسية)، بفوطة. كان يهذي. من ذا يستطيع أن يفهم من كلامه شيئاً؟ وطفقت ألقى عليه الأسئلة من جديد: هل جاء بلومر وحيداً، أم كان معه أحد؟ من أمره

بالمجيء؟ بأي حق؟ كيف جرؤ؟ ما هو التفسير الذي ذكره؟
 - "كان وحيداً، وحيداً، نعم" (بالفرنسية)... على كل حال كان هناك شخص آخر "في حجرة المدخل، أتذكر ذلك، ثم..." (بالفرنسية). نعم كان هناك شخص آخر على كل حال، في ما أظن. وفي المدخل كان يربط حارس. يجب أن نسأل ناستاسيا. هي تعرف ذلك كله خيراً مما أعرفه أنا. "كنت أنا مهتاجاً مهتاجاً شديداً، كما تعلم" (بالفرنسية). "وكان يتكلم، ويتكلم... قال أشياء كثيرة جداً..." (بالفرنسية). ولكنه لم يتكلم إلا قليلاً، وإنما كنت أنا الذي أتكلم. رويت قصة حياتي كلها، من هذه الناحية طبعاً. "صحيح أنني كنت مهتاجاً مهتاجاً شديداً، ولكنني كنت رصيناً، أؤكد لك" (بالفرنسية). على أنني أخشى أن أكون قد بكيت. أما النقالة فقد أخذوها من عند صاحب الدكان التي تقع بجانبنا.

- رباه! كيف أمكن أن يقع هذا كله! ولكن ناشدتك الله يا ستيفان تروفيموفتش، تكلم بشيء من الدقة والوضوح! إن ما تقصه عليّ حلم.
 - "عزيزي" (بالفرنسية)... أنا نفسي أعتقد بأنني أحلم... "هل تعلم؟" (بالفرنسية). "لقد نطق باسم تليانتيكوف" (بالفرنسية) وأظن أن تليانتيكوف هذا هو الذي كان مختبئاً عند المدخل. نعم، أتذكر الآن: لقد اقترح عليّ أن أستدعي وكيل النيابة ودمتري متريتش فيما أظن... "دمتري متريتش الذي لا يزال مديناً لي بخمسة عشر روبلاً ربحتها منه في اللعب بالورق... أقول هذا بالمناسبة عابراً... الخلاصة: إنني لم أفهم كثيراً". (بالفرنسية). ولكنني كنت أمكر منهم. ما شأنني ودمتري متريتش! أظن أنني رجوت أن يُبقي الأمر سرّاً، نعم توسلت إليه، تضرعت إليه... أخشى أن أكون قد أسرفت في التذلل له. "ما رأيك؟"... الخلاصة أنه قبل... بل لا... إنني أتذكر أنه هو الذي قال إن الأفضل أن يبقى الأمر سرّاً مكتوماً، لأنه لم يجئ إلا لإلقاء نظرة عابرة، على حد تعبيره... ولا شيء غير ذلك، نعم، لا شيء غير ذلك، فإذا لم يعثر على شيء بقي الأمر عند هذا الحد ولم يتجاوزه. لذلك افترقنا "صديقين".
 "إنني راضٍ كل الرضى".

هتفت أقول له مستاءً استياء الصديق من صديقه:

- ما هذا الذي تقوله؟ أيعرض عليك ضمانات هي من حقك في مثل هذه الحالة ثم ترفضها بنفسك؟

- كان الأحسن أن أتنازل عن الضمانات. علام أحدث فضيحة؟ لقد كان من الأفضل أن نفترق صديقين موقتاً... ذلك أن الأمر إذا شاع في المدينة، "فإن أعدائي... ثم علام وكيل النيابة، علام هذا الخنزير وكيل النيابة الذي أساء الأدب معي مرتين، والذي ضُرب ضرباً مبرحاً في إحدى السنين عند تلك الفاتنة الجميلة ناتاليا بافلوفنا، حين اختبأ في مخدعها. ثم... يا صديقي"، لا تواجهني باعتراضات تلوا اعتراضات، ولا تؤسني وتثبط عزيمتي، أرجوك، فحين يكون المرء تعيساً فلا شيء أبغض إليه وأبعد عن قدرته على الاحتمال من أن يسمع أصدقاءه يقولون له إنه ارتكب غلطة. ولكن هلاً جلست وشربت كأساً من الشاي! أما أنا فأعترف بأنني متعب كثيراً... يخيل إليّ أنني أحسن صنعاً إذا أنا اضطجعت ووضعت كمادة خِل على رأسي. ما رأيك؟

صحت أقول له:

- حتماً. بل أنت في حاجة أيضاً إلى جليد. إنك مضطرب اضطراباً شديداً. وجهك شاحب ويداك ترتعشان. اضطجع، ارتح قليلاً، ولا تقل شيئاً. سأبقى جالساً إلى جانبك انتظر أن تتحسن حالك.

- لم يشأ أن يضطجع. ولكنني ألححت. وجاءتنا ناستاسيا بخل في طاسة. فبللت بالخل المنشفة ووضعت المنشفة على رأسه. ثم صعدت ناستاسينا على كرسي وأخذت تشعل قنديلاً أمام الأيقونة. لاحظتُ ذلك مدهوشاً. فإني لم أرَ عند صاحبي قبل ذلك قنديلاً قط.

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول لي وهو يرمقني بنظرة مأكرة:

- أنا الذي أمرت ناستاسيا بذلك بعد انصرافهم رأساً. "إذا كان لدى المرء أشياء من هذا النوع، وجاؤوا يعتقلونه" فإن هذا يكون له أثره، لأنهم لا بد أن ينقلوا ما رأوا...

أشعلت ناستاسيا القنديل، وظلت واقفةً في العتبة، مسندةً خدها إلى راحة يدها اليمنى، وأخذت تتأمل مولاها وقد ظهر على وجهها حزن شديد. فدمدم ستيفان تروفيموفتش يقول لي:

- "أبعدها" بأية حجة من الحجج. إنني أكره هذه الشفقة الروسية. ثم إن هذا يضايقني ويزعجني.

ولكن ناستاسيا خرجت بعد لحظة من تلقاء نفسها. ولاحظتُ أنه لا ينقطع عن النظر إلى الباب والإصغاء إلى أيسر ضجة صادرة عن حجرة المدخل.

قال وهو يلقي عليّ نظرة ذات دلالة:

- "يجب على المرء أن يكون مستعداً، كما تعلم." في أية لحظة قد يأتون، فيقتادونني، فإذا أنا أختفي في مثل لمح البصر.

- عجيب! ما هذا الذي تقوله؟ من ذا يختفي؟ من الذي يقتادك؟

- يا "عزيزي" لقد سألته ملحاً حين انتهى عما سيفعلونه بي.

صحت أقول مستاءً:

- ليتك سألته أيضاً إلى أين سينفونك!

- ذلك بعينه ما عنيته بسؤالِي. ولكنه انصرف من دون أن يجيبني. في ما يتعلق بالملابس والثياب، ولا سيما الثياب الدافئة، سوف يكون الأمر على ما يحبون. فإذا أذنوا لي بحملها كان هذا من حسن حظي، ولكنهم يستطيعون أيضاً أن ينفوني مرتدياً معطف جندي. غير أنني (هنا خفض صوته وهو ينظر إلى الباب الذي خرجت منه ناستاسيا منذ هنيهة) قد دسست خمسة وثلاثين روبلاً في بطانة جيب صدирتي التي كانت مفتوحة. أنظر، هي هنا، جُسَّها بيدك. أظن أنهم لن ينتزعوا مني صديرتي. ومن أجل التمويه، تركت سبعة روبلات في محفظة نقودي، فكأنني أقول لهم: "هذا كل ما أملك"، ثم إنني تركت قليلاً من النقود على المائدة، بحيث لا يحزرون أنني خبأت المال، بل يعتقدون أن هذا كل شيء فعلاً. الله يعلم أين سأقضي الليلة!

خففت رأسي أمام هذا الجنون. واضح أن اعتقال الناس وتفتيشهم لا

يكون بهذه الطريقة التي يصفها. لقد خلط كل شيء ما في ذلك شك. صحيح أن هذه القصة كان يجري مثلها قبل تطبيق القوانين الجديدة. وصحيح أيضاً أنه اقترح عليه إجراء أقرب إلى الأصول المتبعة، ولكنه "كان أمكر منهم" فرفض... ولا شك أن الحاكم في الماضي، منذ زمن غير بعيد، يستطيع في بعض الحالات القصوى... ولكن أين "الحالة القصوى" هنا؟ ذلك ما كان يدعشني.

قال ستيفان تروفيموفتش فجأة:

- لا شك أنهم تلقوا برقية من بطرسبرج.

- برقية؟ بشأنك؟ عن مؤلفات هرتسن وقصيدتك؟ إنك فقدت عقلك. لا

يُعتقل الناس لأسباب كهذه.

لقد غضبتُ فعلاً. فصعّر وجهه، وظهر عليه التأذي، لا من لهجتي بل من

قولي إنه ليس ثمة ما يدعو إلى اعتقاله.

دمدم يقول بهيئة ملغزة:

- هل يعرف المرء في هذا الزمان لماذا يمكن أن يعتقل؟

فإذا بفكرة مجنونة تلمع في ذهني على حين فجأة، فأقول له:

- ستيفان تروفيموفتش، قل لي وأنا صديقك الذي لا يخونك: أأنت تنتمي

إلى جمعية سرية ما؟

فما كان أشد دهشتي حين لاحظت أنه هو نفسه لا يعرف. ذلك أنه أجابني

بقوله:

- هذا يتوقف على الجهة التي ننظر منها إلى الأمور...

- كيف؟

- حين ينذر المرء نفسه لفكرة التقدم من أعماق قلبه، وحين... مَنْ ذا

يستطيع أن يجزم؟ رب شخص يتخيل أنه لا ينتمي إلى أية جمعية، حتى إذا

نظر إلى الأمر من كُتب اكتشف نقيض هذا تماماً.

- مستحيل. إما أنه ينتمي وإما أنه لا ينتمي!

- يرجع عهد هذا الأمر إلى أيام بطرسبرج، إلى الوقت الذي أردنا فيه

إنشاء مجلة. ذلك مصدر كل شيء. لقد انصرفنا حينذاك فنسونا، ثم تذكرنا الآن. عزيزي، ألا تعرف كيف تجري الأمور؟
كذلك هتف متوجعاً، ثم تابع كلامه يقول:

- يعتقلونك ويُركبونك زخّافة ويمضون بك إلى سيبيريا إلى الأبد أو ينسونك في معقل من المعازل.

قال ذلك وانفجر يبكي متحبّجاً. كانت دموعه تسيل غزيرةً على خديه، وظل ينشج هذا النشيج المتشنج خلال خمس دقائق، ضاغطاً بمنديله الأحمر على عينيه.

اضطربتُ من ذلك اضطراباً شديداً. إن هذا الرجل الذي كان لنا بمثابة نبي منذ عشرين سنة إلى الآن، وكان معلّماً وكان إمامنا، وكان يعاملنا بتلك الأبهة وتلك الفخامة كلها، وكان يتسلط علينا من عل، وكنا نقدره تقديساً من أعماق قلوبنا، ونعدُّ وجوده بيننا شرفاً لنا، إن هذا الرجل ينتحب الآن انتحاب صبي مذنب ينتظر أن يُجلد بالسوط. شعرت نحوه بشفقة عميقة. إنه يؤمن بأن الزخافة آتية لنقله كإيمانه بوجودي قرب، بل إنه ينتظر وصولها في هذا الصباح نفسه. إنه يؤمن بأنهم سيجيئون لاعتقاله في هذه اللحظة ذاتها. وذلك كله بسبب مؤلفات هرتسن، وبسبب قصيدة لا أدري ماهي! ألا إن هذا الجهل بالواقع والانفصال عنه يبلغان من التمام والقوة ما يجعل حالة الرجل مؤثرة ومغيظة في آن واحد.

وأخيراً كفّ عن البكاء، وقام عن ديوانه، وعاد يمشي في الغرفة طويلاً وعرضاً، مع استمراره في التحدث إليّ. ولكنه كان ينظر من النافذة من حين إلى حين، ويصيح بسمعه إلى أيسر ضجة. وكان حديثنا متقطعاً لا تسلسل فيه، وكانت جميع الأقوال التي يمكن أن أسوقها له لأطمئنه لا تحدث فيه أي تأثير. كان لا يصغي إلّا قليلاً، ولكنه كان في حاجة كبيرة إلى أن أهدئ روعه وأطمئن نفسه، وإلى أن يسمعي أتكلّم في هذا المعنى بغير توقف. ورأيت أنه أصبح لا يستطيع الاستغناء عني، وأنه لن يدع لي أن أنصرف بحال من الأحوال، فبقيت وقضينا معاً أكثر من ساعتين. وتذكر أثناء الحديث أن بلومر

أخذ منشورين وجدتهما بين أوراقه.

هتفت أقول بغير روية ولا حذر:

- منشورات تحريرية؟ هل يُعقل أن تكون...

فأجاب بلهجة مغتظة:

- دسوالي منها نحو عشرة... فتخلّصت من ثمانية ولم يعثر بلومر إلا

على اثنين...

كان يتكلم تارة بتعالٍ وسخط، وتارة بشكوى ومذلة.

واحمر وجهه استياءً على حين فجأة، وقال:

- "أتضعني مع أولئك الناس!". هل تستطيع أن تفترض أن من الممكن

أن أشارك مع هؤلاء الأوغاد الأذال، مع هؤلاء الجواسيس، مع ابني بطرس

ستيفانوفتش، مع هذه "النفوس الزاخرة جنباً وحقارة!". آه...! رباه...!

- ذلك ما أتساءل عنه وأشك فيه! أترأهم خلطوا بينك وبين شخص

آخر... ولكن لا... هذا سخف!... مستحيل!

- "اسمع"... إنني أشعر أحياناً بأنني "سأحدث هنالك فضيحةً ما". آه....

لا تخرج. لا تدعني وحيداً: "لقد انتهت حياتي الفكرية والثقافية الآن. أشعر

بهذا". هل تعلم أن من الممكن أن أهاجم على أحد الناس وأن أعضه، كما

فعل الملازم الثاني...

قال ذلك ورشقني بنظرة غريبة وجلة، ولكنها في الوقت نفسه نظرة يقرأ

المرء فيها المرء معنى الرغبة في التخويف. كان الحق يستولي عليه. وكان

يبدو غاضباً مزيداً من الغضب على شخص ما وعلى شيء ما، كلما انقضى

الوقت ولم تصل "الزحافة". كان مسعوراً من شدة السخط فعلاً. وفجأة

اصطدمت ناستاسيا، التي كانت في حجرة المدخل، اصطدمت بحمالة

المعاطف فأسقطتها على الأرض. فتجمّد ستيفان تروفيموفتش في مكانه من

شدة الهلع. ولكن حين اتضح له الأمر، أخذ يصرخ في وجه ناستاسيا، وقرع

الأرض بقدمه، وطرّد ناستاسيا إلى المطبخ. وبعد دقيقة، قال لي بهيئة يائسة:

- لقد هلكت يا عزيزي!

وجلس بقربي، وحدّق إلى عينيّ بنظرة تثير الشفقة. وأردف يقول:

- "يا عزيزي"، أنا لست خائفاً من سيبريا، أحلف لك...

حتى لقد ترقق الدمع في عينيه. وأضاف قائلاً:

- وإنما أنا خائف من شيء آخر...

فأدركت من النظر في وجهه حينذاك أن هناك أمراً خطيراً خطورة خاصة يريد أن يقوله لي، ولكنه يتردد منذ برهة في الإفصاح عنه. وهمس يقول أخيراً بلهجة تحمل معنى السر:

- أنا إنما أخاف العار.

- أي عار؟ صدّقني يا ستيفان تروفيموفتش: إن كل شيء سيتضح في هذا اليوم نفسه لمصلحتك.

- أنت واثق بأنهم سيغفرون لي؟

- يغفرون لك ماذا؟ ما معنى هذا التعبير؟ أي جريمة ارتكبت؟ أؤكد لك أنك لم تجن أي ذنب.

- "ما يدريك يا عزيزي؟". لقد كانت حياتي كلها... "يا عزيزي"... لسوف ينبشون ماضيّ كله... فإذا لم يعثروا على شيء، كان ذلك "أسوأ وأنكى" عندي.

ما كان أشد دهشتي حين سمعت منه هذه الجملة الأخيرة!....

- أسوأ وأنكى عندك؟

- نعم.

- لا أفهم!

- صديقي، صديقي، لا تهمني سيبريا، لا اتهمني آرخانجلسك، لا يهمني فقدان حقوقي. إن المرء لا يموت إلا مرة واحدة... أما ما أخشاه فهو شيء آخر...

هنا عاد إلى الهمس، والهيئة المروّعة، ولهجة السر.

- فما الذي يخيفك؟ ما الذي يخيفك؟

فقال أخيراً زائغ العينين:

- السوط.

فعدت أهتف خائفاً على عقله:

- من ذا الذي يمكن أن يجلدك بالسوط؟ وأين؟ ولماذا؟

- أين؟ هناك، حيث يتم الجلد بالسياط.

- ولكن أين؟

- آه... عزيزي...

كذلك دمدم يقول لي بما يشبه الهمس في الأذن:

- آه... عزيزي... تخسف الأرض فجأة تحت قدميك، فتغور إلى منتصف

جسمك... جميع الناس يعرفون هذا.

صحت أقول وقد فهمت أخيراً ماذا يريد أن يقول:

- حكايات خرافية. هل يُعقل أنك لا تزال تصدّق هذه الحكايات الخرافية

القديمة؟

وانفجرت ضاحكاً.

- حكايات خرافية؟ لا دخان بلا نار. الذين ذاقوا هذا لا يفتخرون به طبعاً.

لقد تصورت بالخيال ألف مرة كيف تجري الأمور.

- ولكن أنت، علام يجلدونك؟ إنك لم تفعل شيئاً.

- تماماً سوف يرون أنني لم أفعل شيئاً فيجلدونني.

- وهل أنت مقتنع بأنهم لهذا الغرض إنما سيقنّادونك إلى بترسبرج؟

- يا صديقي، قلت لك إنني غير آسف على شيء. "لقد انتهت حياتي

الفكرية والثقافية". منذ أن ودّعني في سفورشنيكى لم يبق للحياة من قيمة

عندي. ولكنه العار! العار! "ما عساها تقول حين تعلم؟".

قال ذلك واحمرّ احمرّاً شديداً، ونظر إليّ يائساً. فخفضت عينيّ. ثم

قلت له:

- لن تعلم شيئاً لأن شيئاً لن يحدث. إنك تدهشني كثيراً في هذا الصباح،

حتى ليبدو لي أنني أكلّمك لأول مرة في حياتي يا ستيفان تروفيموفتش.

- يا صديقي، ليس هو الخوف. هبهم غفروا لي، وأعادوني إلى هنا من دون

أن يصنعوا بي شيئاً. لقد هلكت مع ذلك. "ستظل تشبه فيّ طوال حياتي"...
أنا الشاعر، أنا المفكر، أنا الرجل الذي قدّستني على مدى عشرين عاماً...
- لن تخطر لها هذه الفكرة على بال.

دمدم يقول باقتناع عميق:

- بلى. لطالما تكلمنا معاً في بترسبرج أيام الصوم الكبير قبل رحيلنا، حين
كنا كلانا خائفين... "سوف تشبه فيّ طوال حياتها". من ذا الذي يستطيع أن
يحوّلها عن هذا الخطأ؟ مستحيل! ومن ذا الذي سيصدقني أنا في هذه المدينة
الصغيرة الحقيرة؟... "ثم النساء!..." سوف تكون هي سعيدة. صحيح أنها
ستألم، ستألم كثيراً، ستألم ألماً صادقاً، لأنها صديقة حقاً، ولكنها في قرارة
نفسها، في سرها، ستُسّر سروراً عظيماً... سأكون قد زودتها بسلاح ضدي
مدى الحياة... آه... لقد تحطمت حياتي. عشرون عاماً انقضت في سعادة
كاملة... والآن...!

قال ذلك و دفن وجهه في يديه.

فقلت مقترحاً:

- ستيفان تروفيموفتش، ألا يحسن أن تنبئ فرفارا بتروفنا فوراً بما حدث؟
فما سمع هذا الاقتراح حتى وثب عن ديوانه وقال:

- معاذ الله! مستحيل! أبداً! يستحيل أن أفعل هذا بعد الذي جرى في
سفورسنيكي! أبداً!
وسطعت عيناه.

أحسب أننا لبنا على هذه الحال ساعة بل أكثر، ننتظر حادثاً يجب أن يقع
في ما نتصور. وتمدد من جديد، وأغمض عينيه، وظل مستلقياً قرابة عشرين
دقيقة من دون أن ينطق بكلمة، حتى ظننت أنه نام، أو أنه غفا في أقل تقدير.
وها هو ذا ينتصب فجأة، فينزع عن رأسه المنشفة المبللة، ويثب عن الديوان،
ويهرع إلى المرأة، فيعقد رباط عنقه مرتعش اليدين، وينادي ناستاسيا بصوت
مرعد، ويأمرها بأن تهيج له معطفه الجديد، وقبعته، وعصاه.
قال بصوت لاهث:

- نفد صبري. هذا فوق ما أطيق. إنني ذاهب إلى هناك بنفسني.
سألته وأنا أنهض أيضاً:
- إلى أين؟

- إلى لمبكه. يا عزيزي، لا بد لي أن أذهب إليه. هذا واجبي. إنني رجل،
إنني مواطن، ولست قشة حقيرة. إن لي حقوقاً... وإنني لأطالب بأن تُحترم
حقوقني... لقد أهملت حقوقي مدة عشرين عاماً، أهملت طوال حياتي إهمالاً
إجرامياً... أما اليوم فإنني أطالب بها. يجب عليه أن يقول لي كل شيء. نعم،
كل شيء. لقد تلقى برقية، ولكنني لا أسمح له بأن يعذبنني. ليقتلني، ليقتلني،
ليقتلني!

كان يصرخ بصوت حاد وهو يقرع بقدمه الأرض.
قلت له بأكبر هدوء ممكن رغم ما تثيره حالته في نفسي من قلق شديد
عليه:

- إنني أؤيدك. هذا أفضل حتماً من أن تبقى هنا نهباً للعذاب. ولكنني لا
أؤيد فرط احتياجك. انظر إلى وجهك في المرأة. ما هذه الهيئة؟ كيف يمكنك
أن تمثل هناك على هذه الحال. "يجب أن تكون رصيناً هادئاً مع لمبكه". إنك
لا تتورع الآن عن الهجوم على الناس وعضّهم.
- إنني أسلمهم نفسي. إنني أرمي نفسي في فم الأسد.
- سأرافك.

- لم أكن أتوقع غير هذا من صداقتك. إنني أقبل توضيحتك هذه التي هي
توضيحية صديق حق. ولكنك لن تصحبني إلى منزل لمبكه. لا يجب عليك،
وليس من حَقِّك أن تعرّض نفسك للخطر بصحبتني مدةً أطول. أوه! "صدقني:
سأكون هادئاً". إنني أشعر في هذه اللحظة بأنني سأكون "في مستوى أقدس
ما أقدّس".
قلت أقاطعه:

- ربما دخلت معك. إن لجنتهم السخيفة قد أبلغتني أمس بواسطة
فيسوتزكي أنه يعتمد عليّ، ودعّني إلى الاشتراك في حفلة الغد مفوضاً (هذه

هي التسمية في ما أظن)... فساكون إذا في عداد الشبان الستة المكلفين بمراقبة الخدمة، وملاطفة السيدات، واصطحاب المدعوين إلى أماكنهم. وسنضع على أكتافنا اليسرى عقدة من شرائط بيض وحممر. لقد أردت أن أرفض، ولكنني أستطيع أن أدخل الآن المنزل بحجة أنني أريد التحدث إلى جوليا ميخائيلوفنا. سنذهب إذاً معاً.

كان يصغي ويهزّ رأسه، ولكن كان يبدو عليه أنه لا يفهم شيئاً. ووصلنا إلى العتبة. فإذا هو يقول لي ماداً ذراعه نحو الأيقونة:

- عزيزي، عزيزي، إنني أؤمن بهذا... ولكن... فليكن، فليكن... هيّا بنا. قال ذلك ورسم إشارة الصليب على صورته.

قلت محدثاً نفسي وأنا أهبط درجات المدخل: "هذا أفضل. سوف يحسن إليه الهواء الطري. سوف يهدأ، فإذا عاد إلى البيت نام".

ولكنني لم أحسن الحساب. ففي الطريق، وقع لستيفان تروفيموفتش حادث زاده اضطراباً، ودفعه دفعاً نهائياً في طريق... إنني أعترف بأنني ما كنت لأتوقع في يوم من الأيام مثل تلك الحرارة وتلك الهمة اللتين أظهرهما صاحبنا في ذلك الصباح. مسكين صديقي الطيب.

الفصل العاشر

النصابون . صبيحة مشؤومة

1

إن الحادث الذي وقع لنا في الطريق حادث خارق تماماً. ولكن فلنذكر الأمور مرتبةً متسلسلة. قبل خروجنا أنا وستيفان تروفيموفتش بساعة، تظاهرت في الشوارع جمهرةٌ من عمال مصنع شيبجولين يُقدَّر عددها بسبعين تقريباً، وربما أكثر من ذلك، فأثار تظاهرها اهتمام الناس وفضولهم. كان العمال يسرون صفّاً مرتباً، ملتزمين الصمت. وقد رُوي في ما بعد أنهم إنما ندبهم عمال مصنع شيبجولين البالغ عددهم تسعمائة عامل ليطلبوا من الحاكم، أثناء غياب أصحاب المصنع، أن يتوسط لهم لدى مدير المصنع، ذلك أن هذا المدير قد غشَّ عمال المصنع بعد إغلاقه، وخدعهم في حساب حقوقهم، وهذا أمر أصبح لا ينكره اليوم أحد. حتى إن بعض الناس يؤكدون أن هؤلاء السبعين لم يكونوا منتدبين من رفاقهم لينطقوا باسمهم (والحق أن عددهم أكبر من أن يكونوا وفداً منتدباً)، وإنما كانوا هم العمال الذين أصابهم ضرر أكبر فجأؤوا يطالبون بحقوقهم باسم أنفسهم لا باسم جميع العمال، فلا يمكن إذاً أن يكون الأمر أمر "ثورة" كما أُشيع في ما بعد. غير أن هناك أناساً آخرين يؤكدون أن المتظاهرين كانوا "ثواراً" حقيقيين، وعصاةً عنيدتين تأثروا بالمنشورات التحريضية التي ورَّعت في المصنع. الخلاصة أننا لا نعرف حتى الآن، على وجه اليقين، هل كان العمال في تظاهرهـم ينفذون أوامر صدرت إليهم، أم هم خرجوا من تلقاء أنفسهم. أما أنا فأعتقد أنهم لم

يقرأ منشورات. وهبهم قرأوها فما كان لهم حتماً أن يفهموا منها شيئاً، لأن الذين يحررون هذه الأوراق يكتبون كتابة غامضة، وإن تكن قاسية عنيفة. ولكن لما كان العمال يملكون بظرف صعب فعلاً، ولما كانت الشرطة التي لجأوا إليها قد رفضت التدخل والتوسط، فقد كان طبعياً أن يخطر ببالهم أن يذهبوا إلى "الجنرال نفسه" مجتمعين، حاملين مطلبهم بارزاً للعيان، وأن يصطفوا حول بابه، وأن يركعوا أمامه متى ظهر لهم، مبتهلين إليه بأصوات عالية. هذه طريقة تقليدية تاريخية، فلا حاجة بنا، في رأيي، لأن نلجأ إلى أي تعليل آخر. فالشعب الروسي، منذ قديم الزمان، يحب أن يتجه إلى "الجنرال نفسه"، إلى الشخص القادر على كل شيء في نظره، لا لغرض إلا لذة التحدث إليه والشكوى له، أيّاً كانت نتيجة هذا الحديث وهذه الشكوى. وهبنا سلمنا بأن بطرس ستيفانوفتش وليبوتين وغيرهما - ربما فدكا - قد استطاعوا أن يتصلوا بالعمال (كما تبيح بعض الدلائل افتراض ذلك)، وبأنهم تحدثوا إلى اثنين أو ثلاثة منهم أو حتى خمسة، لا شيء إلا جس نبضهم ومعرفة مدى استعدادهم، فإنني مقتنع بأن الأحاديث التي أجروها معهم لم تؤد إلى أي شيء، لأن العمال إذا فهموا شيئاً من هذه الدعاية فإنهم قد أشاحوا عنها على الفور حتماً، إذ لا بد أن تكون قد بدت لهم غبية ليس لها أية فائدة عملية. أما فدكا فلعله قد أصاب عندهم حظاً أكبر من حظ بطرس ستيفانوفتش. فمما لاشك فيه اليوم أن الحريق الذي شب في المدينة بعد ثلاثة أيام إنما أشعله فدكا وعمالان من مصنع شيبجولين. كما أن ثلاثة من عمال هذا المصنع قد اعتقلوا بعد ذلك بشهر بسبب ارتكابهم جريمة سرقة وجريمة إشعال حريق. ومهما يكن دور فدكا، فيجب أن نعتقد بأنه لم يستطع أن يجتذب إلا أولئك الخمسة، إذ لم يُسمع عن الآخرين شيء من هذا القبيل. حين وصل العمال إلى منزل الحاكم وهم لا يزالون صامتين ملتزمين نظاماً تاماً، اصطفوا حول درجات الباب، ورفعوا قبعاتهم، وأخذوا ينتظرون فاغري الأفواه. انتظروا نصف ساعة، لأن المصادفة شاءت أن يكون الحاكم غائباً عن منزله في ذلك الوقت. فلم تلبث الشرطة أن ظهرت، أفراداً قلائل

في أول الأمر، وعدداً كبيراً بعد ذلك. وطبيعي أن الشرطة طففت تتعجرف، وأنذرت المتظاهرين بأن يتفرقوا. ولكن المتظاهرين عندوا فلم يتحركوا، كقطع من الخراف أمام حاجز، وأجابوا موجزين مقتضيين بأنهم جاؤوا ليكلموا "الجنرال نفسه"، وكان واضحاً أنهم مصرون على موقفهم لا يريدون أن يتزحزحوا عنه. عندئذٍ حُلَّت التهديدات والصرخات محل التفكير. وتشاور ممثلو السلطة مهمومين حائرين، تشاوروا بصوت خافت، فاستقر رأيهم على الإجراءات التي يجب اتخاذها. وآثر رئيس الشرطة انتظار فون لمبكه. ليس صحيحاً أن إيليا إيلتش (رئيس شرطتنا) قد وصل على عربة تجري بسرعة كبيرة فما إن نزل من العربة حتى أسرع يشهر قبضتيه على المتظاهرين. فلا شك أن إيليا إيلتش كان يحب في الأحوال العادية أن يعدو بمركبته الصفراء سريعاً، وأنه بينما كانت تشتد حماسة أفراسه فتثير حمياً جميع تجار السوق، كان هو يقف في المركبة منتصب القامة، متمسكاً بزنانر وضع لهذا الغرض. ماذا ذراعه اليمنى كتمثال، فيجتاز المدينة كلها بأقصى سرعة. ولكنه لم يستعمل اليوم قبضتيه والحق يقال. صحيح أنه لم يستطع عند نزوله من العربة أن يمتنع عن قذف بعض شتائم مدوِّية، ولكنه لم يفعل ذلك في الواقع إلا من باب المحافظة على سمعته. وليس صحيحاً كذلك أن جنوداً قد استقدموا حاملين بنادق عليها حراب، وأن فصيلاً من القوزاق قد استدعي مع بطارية من المدفعية، ببرقية. فما هذا كله إلا أقاويل لم يصدقها حتى أولئك الذين أشاعوها. وغير صحيح أيضاً أن رجال المطافئ قد استدعوا الرش الجمهور بالماء. كل ما هنالك أن إيليا إيلتش قد غضب غضباً شديداً فصرخ يقول للعمال إنه سيلقيهم في الماء، ولعل هذا الكلام هو الذي ولّد أسطورة الرش تلك التي استولت عليها صحف موسكو وبطرسبرج. والرواية الأصدق في رأيي هي أن جميع قوات الشرطة الموجودة قد طوّقت الجمهور في البداية، ثم أسرعوا يوفدون إلى فون لمبكه رسولاً وثب إلى عربة رئيس الشرطة ومضى نحو سكفورشنكي التي كان فون لمبكه قد ذهب إليها على مركبته منذ نصف ساعة...

إنني لأعترف مع ذلك بأنني ما زلت أتساءل كيف أمكنهم أن يقبلوا هذا المسعى الذي قامت به جماعة بسيطة من أجل أن تقدم عريضة للحاكم، أقول كيف أمكنهم أن يقبلوا هذا المسعى على الفور - وإن يكن عدد الجماعة سبعين شخصاً - إلى ثورة زعموا أنها تهدد أسس الدولة نفسها؟ ولماذا أسرع فون لمبكه نفسه إلى قبول هذه الفكرة والتسليم بها حين وصل بعد عشرين دقيقة؟ إنني أميل إلى الاعتقاد (وليس ذلك إلا رأياً شخصياً أيضاً) بأن إيليا إيلتش، وهو صديق حميم لمدير المصنع، قد رأى أن من المفيد إبراز المظاهرة لفون لمبكه في هذه الصورة، حتى لا يخطر ببال فون لمبكه أن ينظر في مطالب العمال وأن يدرسها. ولكن يجب أن نذكر أن فون لمبكه نفسه هو الذي كان قد أيقظ هذه الخطة في ذهن رئيس الشرطة. إن الحاكم ورئيس الشرطة كانا في تلك الأيام الأخيرة قد عقدا عدة اجتماعات سرية مشبوهة وإن تكن غامضة مبهمه، استنتج منها رئيس الشرطة أن الحاكم يأخذ مسألة المنشورات التحريضية مأخذ الجد كثيراً، ويقلق لها أشد القلق، وأنه مقتنع بأن العمال ينتظرون صدور الأمر إليهم ليقوموا بثورة شاملة. كان الحاكم يبدو متشبهاً بهذه الفكرة تشبهاً يبلغ من القوة أنه لو كذبتْها الوقائع لشعر بأسف. ولقد حدث صاحبنا الخبيث إيليا إيلتش نفسه فقال: "وإن الحاكم يريد أن تعترف بطرسبرج بهمته ونشاطه. لمَ لا؟ إن هذا يناسبنا كثيراً!".

أما أنا فأعتقد بأن المسكين أندره أنطونوفتش كان عاجزاً عن أن يتمنى قيام ثورة ليتاح له أن يبرز ويتميز. إنه موظف سليم الخلق حي الضمير، ظل محتفظاً ببراءته إلى أن تزوج. وهل يكون الذب ذنبه إذا شاءت الأقدار أن لا تكتفي له بالوظيفة البسيطة المفيدة التي كان يطمح إليها، وبامرأة صغيرة كان يتوق إلى زواجها، بل وضعت في طريقه أميرةً عمرها أربعون عاماً أرادت أن ترفعه إلى مستواها؟ إنني لأعرف معرفة تكاد تكون مؤكدة أنه منذ ذلك الصباح المشؤوم إنما ظهرت أولى الأعراض القاطعة لذلك المرض الذي قاد أندره أنطونوفتش إلى سويسرا في ما قال، وأودعه في تلك المؤسسة الخاصة المعروفة التي أخذ يسترد فيها عافيته وقواه. ولكن مع تسليمنا بأن

تلك العلائم الواضحة إنما ظهرت في ذلك الصباح، فمن الممكن أن نسلّم، في رأيي، بأن وقائع مماثلة وإن تكن غير قاطعة إلى هذا الحد، يمكن أن تكون قد حدثت منذ الليلة البارحة. إنني أعرف من مصدر موثوق به (افرضوا أن جوليا ميخائيلوفنا قد أفضت إليّ بأسرارها، لا في عهد انتصاراتها، بل بعد ذلك، حين أصبحت نهياً لما يمكن أن يوصف بأنه نصف ندم، لأن النساء لا يندمن ندماً كاملاً في يوم من الأيام)، إنني أعرف إذاً من مصدر موثوق به أن آندره أنطونوفتش قد ذهب إلى امرأته في الليلة السابقة، في نحو الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، فأيقظها من نومها لتسمع "إنذاره". لقد طلب منها ذلك بلهجة تبلغ من الصرامة أنها اضطرت أن تنهض عن السرير مستاءة، مغطاة الرأس بالورق الذي يُلَفُّ به الشعر لتجعيده، فجلست على مضجع، وأخذت تصغي إلى كلام زوجها رغم ما ينم عنه وجهها من احتقار ساخر. وعندئذ إنما أدركت لأول مرة ما آلت إليه حال زوجها. فشعرت بجزع. ولكنها بدلاً من أن تعترف بأخطائها وتلطّف سلوكها، أخفت جزعها وعدت مزيداً من العناد. أفترض أنها، كسائر الزوجات، كانت تلتزم إزاء زوجها موقفاً جُرب كثيراً. وهذا الموقف الذي سبق أن أحقّق آندره أنطونوفتش في كثير من الأحيان إنما هو الصمت المزدري يدوم ساعة أو ساعتين أو ربما أربعاً وعشرين ساعة وربما دام ثلاثة أيام. إنه صمت عنيد لا يمكن أن يقطعه شيء مما قد يقوله أو يفعله فون لمبكه. والحق أن هذه الطريقة هي فوق ما يطيقه إنسان حسّاس. هل أرادت جوليا ميخائيلوفنا أن تعاقب زوجها على الأخطاء التي ارتكبها في الآونة الأخيرة وعلى الحسد الذي أثارته في نفسه المواهب الإدارية لدى زوجته؟ أكانت مستاءة من الملاحظات التي أبدّاها لها بشأن سلوكها مع شباننا ومع مجتمعنا كله، دالة على أنه لا يفهم شيئاً من أهدافها السياسية الناعمة العميقة؟ أكانت غاضبة من أنه يغار عليها من بطرس ستيفانوفتش هذه الغيرة الغبية التي لا سبب لها ولا داعي إليها؟ المهم على كل حال أنها قررت أن لا تذعن ولا تخضع رغم أن الوقت هو الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، ورغم أن آندره أنطونوفتش كان يبدو مضطرباً اضطراباً

غريباً. كان خارجاً عن طوره، يذرع أرض الغرفة في جميع الاتجاهات، فقال لها، ولو بطريقة مشوشة في الواقع، كل ما كان يعتمل في قلبه، لأنه "أصبح لا يطيق صبراً". أعلن لها أولاً أن جميع الناس يسخرون منه، ويجرّونه "من طرف الأنف". "لا يهمني التعبير"، كذلك صرخ يقول بصوت حاد رداً على ابتسامتها الساخرة. "نعم، من طرف الأنف!... هذه هي الحقيقة... فاعلمي يا سيدتي أنني أرفض هذا... لقد آن الأوان يا سيدتي! اعلمي أن ليس هذا وقت الضحك والغندرة!... لسنا الآن في مخدع امرأة من نساء المجتمع. وإنما نحن نمثل إنسانين مجردين إن صح التعبير، التقيا في بالون ليتكاشفا ويقولوا الحقيقة. (واضح أنه كان مرتبكاً مشوشاً فلا يحسن التعبير عن أفكاره، الصائبة على كل حال). إنك أنت يا سيدتي، أنت التي أخرجتني من ظرفي القديم. وأنا لم أقبل هذا المنصب إلا من أجلك، في سبيل إرضاء مطامحك... أبتسمين ساخرة؟ لا تشعرني بالانتصار... انتظري قليلاً!... اعلمي يا سيدتي، أنني كان في وسعي أن أنهض بأعباء هذا المنصب على خير وجه، لا بأعباء هذا المنصب وحده، بل بأعباء مناصب أخرى أخطر منه شأنًا عشر مرات، لأنني أملك الكفاءات اللازمة. ولكنني لا أستطيع ذلك معك أنت يا سيدتي. فوجودك تنعدم كفاءاتي. ذلك أن من المستحيل أن يستقيم العمل مع وجود مركزين. وأنت قد خلقت مركزين: واحداً عندي، وواحداً عندك، في مخدعك. مركزان للسلطة يا سيدتي. ولكنني لن أحتمل هذا. لا. لن أحتمله. ففي الإدارة، كما في البيت، لا يمكن أن يكون إلا مركز واحد. يستحيل أن يكون هناك مركزان... ما هو موقفك؟ إن علاقتنا تنحل إلى ما يلي: تبرهنين لي في كل ساعة على أنني تافه، وعلى أنني غبي، بل على أنني جبان. وأنا، في كل ساعة أيضاً، أجدني مضطراً اضطراراً ذليلاً إلى أن أبرهن لك على أنني لست تافهاً ولا غيباً، وعلى أنني بنبلي أذهل جميع الناس. أليس هذا مذلاً لنا كلياً؟".

هنا أخذ الزوج يضرب الأرض بقدميه ضرباً شديداً، حتى رأت جوليا ميخائيلوفنا أنها مضطرة أن تنهض مهيبة الهيئة صارمة الملامح. فسرعان ما

هبط غضب الزوج. ولكنه سقط عندئذ في فرط الحساسية وأخذ يبكي متحجاً (نعم، متحجاً) لاطماً صدره، فاقدأ صوابه فقدأ تآمأ بتأثير الصمت العنيد الذي تصرّ عليه جوليا ميخائيلوفنا. دام ذلك خمس دقائق. ثم إذا به يزل لسانه زللاً ما بعده زلل، فيقول إنه يغار على امرأته من بطرس ستيفانوفتش. وإذا أدرك على الفور أنه ارتكب حماقة ضخمة، فإنه لم يلبث أن غضب غضباً مسعوراً، وأخذ يصرخ قائلاً إنه لن "يسمح بإنكار وجود الله"، وإن "صالونها هذا بؤرة كفر وجحود"، وإن على الحاكم أن يكون مؤمناً بالخالق، وكذلك يجب أن تكون زوجة الحاكم أيضاً، وأنه قد ضجر واشمأز من جميع هؤلاء الشبان. وأضاف يقول: "إن من واجبك أنت يا سيدتي، نعم من واجبك أنت، حرصاً على كرامتك نفسها، أن تدعمي زوجك وأن تعلني للملأ جهاراً أنه ذكي، حتى ولو كان عاجزاً (فكيف ولست بعاجز!) ولكن الواقع هو أنك أنت السبب في أن الناس يحتقرونني هنا، فأنت التي تحرضينهم عليّ!...". ثم صرخ قائلاً: إنه سيعدم قضية المرأة إعداماً، وإنه سيمنع من الغد تلك الحلقة السخيفة التي ترمع إقامتها لمعونة المربيات (شيطان يأخذهن!)، وإنه سيطرده من الإقليم، بواسطة قوزاقي، أول مربية يلقاها. "سأفعل هذا عمداً، عمداً". كذلك كان يصيح. هل تعلمين أن التافهين الذين يحيطون بك يحاولون إثارة العمال، وأنني على علم بأفعالهم هذه؟ هل تعلمين أنهم يوزعون في المدينة منشورات تحريضية، عن عمد، عن عمد؟ هل تعلمين أنني أعرف أسماء أربعة من هؤلاء الأشقياء، وأنني أفقد عقلي وأصير مجنوناً، مجنوناً، مجنوناً؟!!!".

ولكن جوليا ميخائيلوفنا قطعت الصمت حينذاك، وأعلنت بلهجة قاسية أنها هي نفسها مطلعة منذ زمن طويل على هذه النيات الإجرامية، ولكن هذا كله لا قيمة له، وأن زوجها يسرف في أخذ الأمر مأخذ الجدد، وأنها تعرف لا الأنذال الأربعة الذين يعرفهم فحسب، بل تعرف كذلك جميع الآخرين (هنا كانت تكذب)، لكنها لا يخطر ببالها أن تصبح مجنونة، حتى إنها تثق بعقلها وذكاؤها أكثر من أي وقت مضى، وتأمل أن تتم مهمتها على أحسن

وجه: تشجع الشبان، وتسمعهم صوت العقل، وتبرز لهم فجأة أن أغراضهم مكشوفة، ثم تقترح على نشاطهم أهدافاً أقرب إلى الرشاد وأسمى وأرفع. فما إن سمع أنطون أنطونوفتش هذا الكلام حتى جُنَّ جنونه! إذاً لقد ضحك عليه وعبث به بطرس ستيفانوفتش مرة أخرى بطريقة تبلغ هذا المبلغ كله من السوء، فهو قبل أن يجيء إليه كان قد كشف لجوليا ميخائيلوفنا عن كل شيء، وهو قد يكون المحرّض الأساسي على المؤامرة. وها هو ذا أنطون أنطونوفتش يصيح متفجر الغضب: "اعلمي أيتها المرأة الطائشة الفاسدة أنني سأعتقل على الفور عشيقك الخطير، وأني سأرميه في حفرة مكبلاً بالأغلال، أو أنني... أو أنني سوف ألقى بنفسي من النافذة على مرأى منك!". فكان جواب جوليا ميخائيلوفنا على هذا الكلام أن أطلقت ضحكة طويلة منهمة، وقد اخضرّ لونها من شدة الغضب، ضحكة أشبه بالضحكة التي يسمعها المرء على المسرح الفرنسي حين تأخذ الممثلة الفرنسية التي تتقاضى مائة ألف روبل وتمثل أدوار الغانيات، حين تأخذ تضحك عند أنف زوجها الذي يبيع لنفسه أن يغار. فركض فون لمبكه نحو النافذة، ولكنه توقف فجأة، وعقد ذراعيه على صدره، وحدّق إلى امرأته بنظرة مروعة وقد اصطبغ وجهه بصفرة كصفرة الموتى، وقال لها بصوت متقطع متوسل: "هل تعلمين، هل تعلمين يا جوليا أن من الجائز أن أرتكب عملاً رهيباً؟". ولكن كلماته استقبلت بمزيد من الضحك، فما كان منه إلا أن كزّ أسنانه، وأن أنه عميقة، وهُرع لا نحو النافذة بل نحو زوجته مشهراً عليها قبضة يده؟ صحيح أنه لم يهو بيده، لا لم يهو بها قط، ولكن هذه الحركة التي بدرت منه قد أتمت هزيمته. فاصطكت ساقاه، وفرّ هارباً إلى حجرته، فتهاوى على سريره مرتدياً ثيابه، كما هو، ودفن رأسه تحت الأغطية، ولبث على هذه الحال ساعتين كاملتين، من دون أن ينام، ومن دون أن يفكر في شيء، ولكنه مغموم القلب قد استولى على نفسه بأس كالح. وكانت تهزّه رعدات حمى من حين إلى حين، وتستيقظ في نفسه ذكريات ليس لها أية علاقة بوضعه الراهن: فهو تارة يتذكر ساعة حائط قديمة رآها ببطرسبرج

منذ خمسة عشر عاماً، وتنقصها إبرتها التي تشير إلى الدقائق، وتارة يتذكر الموظف المرح ميليوا، أحد أصدقائه، ويتذكر العصفور الذي طارده ذات يوم في حديقة ألكسندروفسكي حتى اصطاده، فلما اصطاده فطنا فجأة إلى أن أحدهما كان قد أصبح معاون قاض، فضحك ضحكاً شديداً. ونام أخيراً في نحو الساعة السابعة من الصباح. نام نوماً لذيذاً، ورأى أحلاماً ممتعة. حتى إذا استيقظ في نحو الساعة العاشرة وثب عن سريره، وتذكر فجأة ما قد جرى بالأمس، فلطم جبينه براحة يده. ولم يتناول فطوره، ولم يشأ أن يرى أحداً: لا بلومر، ولا رئيس الشرطة، ولا الموظف الذي جاء ليدكره بأن عليه في هذا الصباح أن يرأس اجتماعاً يعقده مجلس الإقليم. لم يصغ إلى شيء، ولم يرد أن يعرف شيئاً، وأخذ يركض كالمجنون في جميع الغرف التي كانت تشغلها جوليا ميخائيلوفنا، فأعلمته صوفيا أنتروبوفنا، وهي سيدة نبيلة عجوز تقيم عند زوجة الحاكم منذ مدة طويلة، أن جوليا ميخائيلوفنا، ذهبت إلى عند فرفارا بتروفنا في سكفورشنسكي منذ الساعة العاشر، بصحبة عدد كبير من الأشخاص، بغية أن ترى المكان الذي انعقدت النية على إقامة حفلة ثانية فيه بعد خمسة عشر يوماً، كما تم الاتفاق على ذلك مع فرفارا بتروفنا أمس الأول. فاضطرب أندره أنطونوفتش لهذا النبأ اضطراباً شديداً، فعاد إلى حجرته، وسرعان ما أمر بكدن الخيل. لقد أصبح لا يستطيع الاستقرار في مكان. إن نفسه ظامئة إلى جوليا ميخائيلوفنا: ويريد أن يتأملها مرة أخيرة على الأقل، وأن يبقى بقربها ولو خمس دقائق! فلعلها تجود عليه بنظرة، لعلها تلتفت إليه، لعلها تبسم له كما كانت تفعل في الماضي، لعلها تصفح عنه! آه... آه... "ماذا فعلتم بالخييل؟". وبحركة غير إرادية فتح كتاباً ضخماً موضوعاً على المائدة، فإذا هو يقرأ هذه الجملة التي يقولها فولتير في كتابه "كانديد": "كل شيء هو أحسن ما يكون في هذه العالم الذي هو أحسن العوالم الممكنة". فأجرى يده بحركة تدل على الحسرة، وخرج راكضاً. وصاح بأمر الحوذي بقوله: "إلى سكفورشنسكي!".

وقد روى الحوذي في ما بعد أن مولاه لم ينقطع طوال الطريق عن حثّه

على الإسراع، ولكن ما أن شارفا على سكفورشينكي حتى أمره فجأة بأن يرجع أدراجه وأن يعود إلى المدينة قائلاً له: "بأقصى سرعة، أرجوك!". فلما صارا على مقربة من الأسوار "استوقفه من جديد، ونزل من العربية، وعبر الطريق، ودخل في حقل. ولكنه توقف، وأخذ يتأمل الأزهار. ولبث على تلك الحال زمناً. حتى لقد بدا لي ذلك غريباً جداً، بل إنني اضطربت منه اضطراباً شديداً". هذا ما شهد به الحوذي في ما بعد. إنني أتذكر كيف كان الجو في ذلك الصباح: كان يوماً من أيام شهر أيلول (سبتمبر) بارداً صاحياً لكن رياحه شديدة. وأمام أندره أنطونوفتش كان يمتد منظر حزين كثيب، وهو منظر الحقول التي حُصد زرعها منذ مدة طويلة، فليس فيها إلا بضع زهيرات صفر شبه يابسة تُرعرعها الريح. هل خطر بباله أن يشبه مصيره بمصير هذه الأزهار التي أذبلتها أولى موجات البرد؟ لا أظن ذلك. بل إنني لعلّى يقين من أن خواطره كانت تطوف في بعيد، ولا تلتفت إلى الأزهار، رغم ما قاله الحوذي، ورغم ما راوه مفوض الشرطة الذي وصل أثناء ذلك و حكى في ما بعد أنه رأى في يد الحاكم باقية من زهيرات صفر. إن مفوض الشرطة هذا، فاسيلي إيفانوفتش فليوستيوف، الذي وصل إلى مدينتنا منذ مدة قصيرة، كان قد لفت إلى نفسه الأنظار بهمته ونشاطه وحرارته وطاقته الجبارة وقوته الطافحة التي كان يبذلها في تنفيذ أوامر رؤسائه، وكذلك بما يلتزم من اعتدال في الطعام والشراب، وهو اعتدال كأنه وُهب له فطرة. لقد وثب مفوض الشرطة من العربية، ومن دون أن تُربكه المشاغل الغريبة التي كان صاحب السعادة غارقاً فيها، أسرع يقول له بلهجة زائفة إن "المدينة في حالة غليان". قال آندره أنطونوفتش وهو يلفت إليه وجهاً قاسياً، ولا يبدو عليه أن دُهِش بتاتا، ولا يلوح أنه يتذكر الحوذي والعربة اللذين قاداه إلى هذا المكان، حتى لكأنه في بيته، في حجرته:

- هيه؟ كيف؟

- أنا مفوض شرطة الحي الأول، فليوسيريوف. لقد قامت ثورة يا صاحب

السعادة!

قال آندره أنطونوفتش يسأله:

- أهم النصابون؟

- نعم يا صاحب السعادة. إن عمال مصنع شبيجولين يحدثون فوضى.

- عمال مصنع شبيجولين...

لا بد أن هذا الاسم قد ذكره بشيء ما، حتى لقد ارتعش، ووضع إصبعه على جبينه. وها هو ذا يتجه نحو عربته بخطى بطيئة وهو لا يزال صامتاً حالماً، ثم يصعد إلى العربة ويأمر الحوذي بأن يرجعه إلى المدينة. وتبعه فليوستيروف راكباً عربته.

إنني أتخيل أن آندره أنطونوفتش قد فكّر أثناء رحلة العودة هذه تفكيراً غامضاً مبهماً في أمور كثيرة هامة ومع ذلك أستبعد أن يكون عند وصوله إلى المكان قد اتخذ قراراً ما. لكنه ما إن أبصر جمهور "الثائرين" محتشداً حول درجات المدخل، وما إن رأى حبل رجال الشرطة محيطاً بهم، وما إن لمح رئيس الشرطة وألفاه عاجزاً عن القيام بأي عمل (ربما عن قصد)، وما إن وجد نفسه محط أنظار جميع تلك العيون القلقة حتى ازدحم الدم في قلبه، فنزل من العربة أصفر الوجه، وقال بصوت مخنوق لاهث:

- انزلوا قبعاتكم، احسروا رؤوسكم!

ثم صرخ يقول على غير توقع من أحد، بل على غير توقع منه نفسه:

- اركعوا على ركبكم!

ولعل كل ما حدث بعد ذلك إنما مرده إلى أن الأمر قد صدر عنه فجأة من دون توقع. هذا ما يحدث على الجبال الروسية: هل تستطيع الزلاجة التي تنزلق على منحدر من جليد أن تتوقف في منتصف الطريق؟ إن من سوء حظ آندره أنطونوفتش أنه قد ظل إلى ذلك الحين يظهر متساوي المزاج. فهو لم يصرخ في حياته يوماً، ولا ضرب الأرض بقدمه. وأمثال هذا الرجل يصبحون خطرين جداً إذا اتفق لهم يوماً، لسبب من الأسباب، أن أخذت زلاجتهم تنزلق على المنحدر.

أخذ كل شيء من حوله يدور.

وقال بصوت فيه مزيد من الصراخ والحدة والسخف المضحك:
- نصابون!

وتقبّض حلقه. أصبح لا يعرف ماذا عساه يفعل. ولكنه كان يعلم ويحس بكل كيانه أنه سيفعل شيئاً ما.

صاحت أصوات في الجمهور تقول: "رباه!". ورسم عاملٌ شاب إشارة الصليب. وأخذ ثلاثة رجال أو أربعة يركعون. ولكن الآخرين تقدموا كتلة واحدة وأخذوا يصرخون جميعاً في آن واحد قائلين: "يا صاحب السعادة... لقد اتفقوا معنا على أن يكون أجرنا أربعين كوبكاً... ولكن المدير... إنه لا يجوز له أن... إلخ، إلخ... لقد كان يستحيل على المرء أن يفهم شيئاً.

وكان آندره أنطونوفتش لا يستطيع أن يدرك ما يحدث، وأأسفاه! كان لا يزال ممسكاً بالأزهار بيده. وكان مؤمناً بأن الثورة قامت كإيمان ستيفان تروفيموفتش بأن زلاجة ستقوده إلى سيربيا حتماً. وكان آندره أنطونوفتش يرى بين جمهور "الثائرين" الذين كانوا يحدّقون إليه بأعين محملقة، يرى كالحالم في منامه أنه يبصر "محرّضهم، بطرس ستيفانوفتش، بطرس ستيفانوفتش الذي لم تنقطع صورته عن ملاحقة صاحبنا منذ أمس، بطرس ستيفانوفتش الذي يكرهه صاحبنا أشد الكره ويمقته أكبر المقته.

وزأر آندره أنطونوفتش منادياً:

- هاتوا السيّاط!

فهبط على الجمهور صمت كأنه صمت الموت.

تلكم هي الوقائع التي جرت في أول الأمر، في ما ترويه الأخبار وتقدره تخميناتي. أما ما حدث فالأخبار والتخمينات بشأنه أقل دقة ووضوحاً. ومع ذلك نملك بعض المعلومات.

ظهرت السيّاط بسرعة غريبة، وهذا يحمل المرء على أن يفترض أن رئيس الشرطة كان قد تنبأ بما سيحدث فأعد السيّاط احتياطاً لكل طارئ. ولكن لم يُجلد إلا عاملان اثنان، أو ثلاثة عمال في أكثر تقدير. وإنني ألحّ على تقرير هذه الحقيقة، لأنه زُعم زوراً وبهتاناً في ما بعد أن نصف المتظاهرين على

الأقل قد نالتهم عقوبة الجلد، إن لم تكن قد نالتهم جميعاً. وقد اختلقت أمور أخرى أيضاً، منها أن سيدة فقيرة لكنها نبيلة المحتد قد مرّت بالمكان عرضاً في ذلك الحين، فاعتُقلت وجلدت بدون أي ذنب، ومع ذلك قرأت بنفسي قصة هذا الجلد الملفقة، في إحدى جرائد بطرسبرج. ومن ذلك أيضاً أن فتاة اسمها آفدوتيا بتروفنا تاراييجين قد مرّت بالمكان في طريقها إلى الملجأ الذي تعيش فيه، فاختلطت بالمشاهدين مدفوعةً إلى ذلك بحب الاطلاع طبعاً، ولكنها حين رأت ما يحدث لم تملك إلا أن تهتف قائلة "هذا عار"، وأن تبصق اشمزازاً. فما كان من الشرطة، في ما قيل، إلا أن قبضت عليها وجلدتها. وقد استولت الجرائد على هذه القصة حتى لقد نُظِّمت في المدينة حملةٌ تبرع للمرأة المسكينة، ساهمت أنا فيها بعشرين كوبكاً. إلا أنه قد ثبت اليوم أن تاراييجين هذه لم تكن إلا أسطورة. حتى لقد ذهبت إلى الملجأ بنفسي سائلاً فعلمت أن هذا الاسم مجهول هناك، وقد استاء موظفو الملجأ أكبر الاستياء حين نقلت إليهم الإشاعات التي كانت تجري في المدينة. ولئن ذكرت آفدوتيا بتروفنا المزعومة فلأن ما وقع لها (إذا صح أنه وقع) كاد يقع لستيفان تروفيموفتش بل لعل ذلك الحادث الذي وقع لصاحبي هو الذي ولّد تلك القصة، مع إبدال اسمه باسم تاراييجين تلك التي لم يعرف أحد من هي.

لقد أفلت مني ستيفان تروفيموفتش، لا أدري كيف، منذ أن وصلنا إلى المكان. إنني وقد أوجست شراً، أردت أن أدور به دورةً لأوصله إلى منزل الحاكم، ولكن حب الاستطلاع استولى على نفسي فوقفت أسأل أحد المارة. فلما التفت بعد ذلك كان ستيفان تروفيموفتش قد اختفى. فأسرعت أركض بغريزتي إلى أخطر مكان فوراً، إذا أحسست أن زلاًجته هي أيضاً قد أخذت تنزلق على المنحدر، فوجدته شارعاً في العمل فعلاً، فأمسكته من ذراعه فيما أذكر، لكنه ألقى عليّ نظرة هادئة متكبرة، وكان وجهه ينم عن فخامة لا حدود لها، وقال لي بصوت فيه شيء من التكسر:

- "يا عزيزي"، إذا كانوا هنا، في هذا المكان، على مرأى ومسمع من

جميع الناس، يتصرفون هذا التصرف بغير أي تحرج، فما عسى يُنتظر من "ذاك" مثلاً... إذا أُتيح له أن يفعل ما يشاء له هواه؟...

قال ذلك وهو يرتعش استياء، ومدَّ إبهامه بحركة تحدي وتهديد نحو فليوستيروف الذي كان على بعد خطوتين منا، وكان ينظر إلينا بعينين محمقتين.

فجئاً جنون رجل الشرطة غضباً، وصرخ يقول:

- "ذاك"؟ من ذا تعني؟ وأنت، من أنت؟

وجاء نحونا قابضاً يديه. وردد يلقي سؤاله بغضب يدل على شيء من الحيرة والارتباك (يجب أن أذكر أنه يعرف ستيفان تروفيموفتش أحسن معرفة):

- من أنت؟ من أنت؟

فلو انقضت لحظة أخرى لأمسك بتلابيب صاحبي. ولكن شاء حسن الحظ أن يلتفت فون لمبكه عند سماع هذه الصرخات، فتأمل ستيفان تروفيموفتش بانتباه، وبدا عليه التردد كأنه يحاول أن يستجمع أفكاره، ثم حرَّك يده بإشارة تملل، فتوقف فليوستيروف، فجررت ستيفان تروفيموفتش، وأخرجته من الجمهور. ولا شك أنه كان يتمنى هو نفسه أن ينسحب.

قلت ملحاً:

- بسرعة، بسرعة، إلى البيت، لقد نجونا، ولم يكن ذلك إلا بفضل لمبكه.
- ارجع إلى بيتك يا صاحبي. ليس من حقي أن أعرضك لمثل هذه المخاطر. إن المستقبل مفتوح أمامك. أنت في مستهل حياتك، أما أنا فقد "دقت ساعتي"...

وصعد درجات باب منزل الحاكم بخطى ثابتة. وكان البواب السويسري يعرفني، فقلت له إننا ذاهبان إلى جوليا ميخائيلوفنا. وأدخلنا إلى صالون الاستقبال.

لم أشأ أن أترك صديقي. ولكنني قدَّرت أن المزيد من الكلام لا طائل تحته ولا فائدة منه. كان وضعه وضع رجل ضحى بحياته في سبيل سلامة وطنه.

جلسنا متقابلين. فكنت أنا أقرب إلى باب الدخول، وكان هو في الطرف الآخر من الصالون، وقد جلس خافض الرأس مفكراً، واضعاً يديه على عصاه، ممسكاً باليسرى قبعته ذات الحافة العريضة. ولبنا على هذه الحال زهاء عشر دقائق.

2

دخل لمبكه فجأة بخطى سريعة، يتبعه رئيس الشرطة. فألقى علينا نظرة ذاهلة ثم اتجه نحو حجرة عمله من دون أن يلقي إلينا بالاً. ولكن ستيفان تروفيموفتش نهض وسدّ عليه طريقه، وكان لقامته المديدة وهيئته الخاصة أثرهما فتوقف لمبكه.

دمدم لمبكه يقول مدهوشاً، وكأنه يسأل رئيس الشرطة، ولكن من دون أن يكف عن تأمل ستيفان تروفيموفتش بانتباه:
- من هذا؟

فأجاب ستيفان تروفيموفتش وهو ينحني بوقار كبير:
- أنا ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي، الموظف المحال على التقاعد. وظل صاحب السعادة يحدّق إليه، ولكن بنظرة كابية.
سأله الحاكم بتلك اللهجة التي تدل على نفاد الصبر وعلى الاحتقار، تلك اللهجة التي يستعملها كبار الموظفين في العادة، ومدّ أذنه نحو ستيفان تروفيموفتش الذي لا شك أنه واحد يطلب التماساً أو يرجو شفاعته.
قال ستيفان تروفيموفتش:

- لقد فتّش منزلي في هذا اليوم موظفٌ قال إنه يفعل ما يفعل بأمرٍ من صاحب السعادة. فأنا أريد أن...
- ما اسمك؟ ما اسمك؟

كذلك سأله فون لمبكه نافذ الصبر وكأنه بدأ يفهم، فكرر صاحبي اسمه بوقار أعظم أيضاً.
- آ...آ... هو إذاً أمر تلك الدعاية التي تقوم بها... أيها السيد، لقد ظهرت

بمظهر يدل على أنك... هل أنت أستاذ جامعة؟ هل أنت أستاذ جامعة؟
- في الماضي تشرفت باللقاء بضع محاضرات على الشباب في الجامعة،
...

- على الشباب؟ على الشباب؟
بدا على لمبكه الارتجاف والارتعاش، مع أنني أراهن على أنه لمّا يدرك
الامر بعد، ولا كان يعرف من ذا يكلم.
وصاح يقول وقد استبد به غضب مفاجئ:
- لن أقبل هذا! لن أسمح بهذا! أنا لا أقبل الشباب. إنهم يوزعون
منشورات تحريضية في كل مكان! هذا هجوم على المجتمع. هذه قرصنة.
أنتم جميعاً نصّابون!... ماذا تطلب مني؟
- إن زوجتك هي التي طلبت مني أن أقرأ بضع صفحات في الحفلة التي
تقيمها غداً. أنا لا أطلب شيئاً. أنا أدافع عن حقوقى...
- في الحفلة؟ الحفلة لن تكون أيها السيد! لن أسمح بإقامة حفلتكم هذه؟
محاضرات؟ محاضرات؟
كذلك زار غاضباً.

فقال ستيفان تروفيموفتش:
- أود يا صاحب السعادة أن تعاملني بمزيد من الكياسة، من دون أن
تضرب الأرض بقدمك، ومن دون أن تصرخ في وجهي كما يصرخ المرء
في وجه صبي.
- هل تعرف من ذا تكلم؟
ألقي عليه فون لمبكه هذا السؤال واحمر احمراراً شديداً. فأجاب ستيفان
تروفيموفتش:

- أعرف من ذا أكلّم يا صاحب السعادة.
- أنا أحمي المجتمع، وأنت تريد تهديمه. نعم، أنت ت... هذ...م
المجتمع! ثم إنك... تذكرت الآن... ألم تكن معلماً عند الجنرال
ستافروجين؟

- نعم... كنت... معلماً... عند الجنرال ستافروجين.

- وخلال عشرين عاماً ما برحت تنشر من حولك الأفكار التي... أنظر إلى ثمارها!... أظن أنني لمحتك منذ قليل في الساحة. حذار مع ذلك أيها السيد! إن ميولك معروفة. ثقتي أنني أراقبك. لا يمكن أن أسمح بمحاضرات، لا، مستحيل. لا تطلب مني أنا مثل هذا الطلب.

وهمّ أن يتابع طريقه. فقال ستيفان تروفيموفتش:

- أكرر أنك مخطئ يا صاحب السعادة. إن زوجتك هي التي طلبت مني لا أن ألقى محاضرة بل أن أقرأ شيئاً في حفلة الغد. ولكنني الآن أرفض هذا الطلب. وإنما أنا جئت لأرجوك أن تتفضل فتشرح لي سبب تفتيش بيتي اليوم إذا كان ثمة سبب. لقد أخذت مني كتب وأوراق شتى ورسائل أحرص عليها، وحُمل ذلك كله على نقالة...

هنا انتفض لمبكه واحمر احمراراً شديداً وسأله:

- من الذي فتش بيتك؟

لقد أدرك أخيراً ما يجري. واستدار بحركة مفاجئة نحو رئيس الشرطة. وفي تلك اللحظة نفسها ظهرت عند عتبة الباب قامة بلومر الطويلة المحدودة الخرقاء.

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يومئ إلى بلومر:

- هذا هو الذي فتش بيتي:

فتقدم بلومر معترفاً بفعلته ولكنه غير نادم عليها. فقال له فون لمبكه غاضباً حانقاً:

- "إنك لا تفعل إلا حماقات" (بالفرنسية).

ثم لم يلبث أن عاد إلى صوابه وتغير وضعه. فقال متمتماً محمر الوجه متحيراً الهيئة:

- معذرة... ربما كان ذلك كله خرافة لا أكثر... ربما كان غلطة... نعم، غلطة...

قال ستيفان تروفيموفتش:

- يا صاحب السعادة لقد أتيح لي في عهد شبابي أن أشهد واقعة ذات دلالة خاصة. في ذات مساء، في دهليز مسرح من المسارح، اقترب سيدٌ من أحد المشاهدين بغتةً، فصفعه على وجهه صفعة مدوية على مرأى من جميع الناس. ولكنه سرعان ما أدرك أن الرجل الذي ناله بهذا الأذى ليس هو من كان يريد أن يصفعه وإنما هو رجل يشبهه بعض الشبه، فما كان منه إلا أن نطق بهذه الكلمات نفسها التي تقولها أنت يا صاحب السعادة، ولكنه قالها بلهجة غاضبة مستعجلة كرجل لا يريد أن يضيّع وقته بغير طائل: "لقد أخطأت... معذرة... هذه غلطة... غلطة لا أكثر...". فلما أخذ الرجل المظلوم يحتج، لأنه ظل مستاءً رغم كل شيء، ألحَّ الظالم قائلاً بانزعاج: "ألا يكفي أنني اعترفت بأنها غلطة. فما بالك تصيح هذا الصباح!".

قال فون لمبكه وهو يتسم ابتسامة بغير معنى:
- هذا... مضحك جداً... مضحك حتماً... ولكن ألا ترى مدى ما أنا فيه من شقاء؟

لقد رفع صوته حتى كاد يكون صراخاً أثناء النطق بهذه الكلمات، ويخيّل إليّ أنه همٌّ أن يخفي وجهه بيديه.

فهذه الصيحة الأليمة، بل أكاد أقول هذه الانتحابة المفاجئة، كانت فوق ما يحتمل قلب الإنسان. لعل أندره أنطونوفتش لم يدرك إدراكاً واضحاً ما جرى منذ الأمس، إلا في هذه اللحظة. وسرعان ما أعقبت هذا الإشراق المباغت نوبة يأس ذليل لا حدود له. من يدري؟ لعله كان سينفجر باكياً ناشجاً بعد لحظة أخرى. تأمله ستيفان تروفيموفتش مبهوراً مصعوقاً، ثم حنى رأسه وقال بصوت مؤثر:

- يا صاحب السعادة، لا تلق بالاً إلى شكوى رجل عجوز نقاق. ولكن قل لهم أن يردّوا إليّ كتيبي وأوراقتي...

واضطّر ستيفان تروفيموفتش أن يقطع كلامه لأن جوليا ميخائيلوفنا داهمت الغرفة مع حاشيتها صاحبةً لا غطة. ولكن يجب عليّ أن أصف المشهد الذي أعقب هذا، أن أصفه بجميع تفاصيله ما وسعني ذلك.

أقول أول ما أقول إن الحاشية كلها، وقد وصلت على ثلاث عربات، قد ظهرت في الصالة الواسعة دفعةً واحدة. إن لميخائيلوفنا مدخلاً خاصاً يقع على يسار الباب ويؤدي إلى حجراتها رأساً، ولكن الجميع قد مروا بالصالة، ربما لمعرفةهم بأن ستيفان تروفيموفتش لا بد أن يكون فيها، لأنهم قد أطلعهم ليامشين على ما وقع له، كما أطلعهم على قضية عمال مصنع شيبجولين. كانت جوليا ميخائيلوفنا غاضبة من ليامشين لأسباب لا أعرفها، فلم تدعه إلى مشاركتهم في رحلتهم إلى سكفورشنيكي. لذلك عرف قبل غيره ما حدث بالمدينة. وقد سرّه كثيراً أن ينقل أنباء سيئة كهذه الأنباء، فاستأجر حصاناً عجوزاً وأسرع يجري في طريق سكفورشنيكي للقاء جوليا ميخائيلوفنا. وأغلب ظني أن جوليا ميخائيلوفنا رغم ثقتها قد شعرت ببعض الاضطراب والقلق، ولو إلى حين، حين علمت بهذه الأحداث الخارقة. ليس الجانب السياسي من هذه الأحداث هو الذي يقلقها على كل حال: فقد سبق أن أوحى إليها بطرس ستيفانوفتش مراراً أن المشاغبين من عمال مصنع شيبجولين لا بد أن يُجلدوا، وكان بطرس ستيفانوفتش يتمتع لديها بثقة مطلقة منذ بعض الوقت. ولا شك أنها قالت تحدث نفسها: "لكنه سيدفع لي ثمن هذا غالباً على كل حال، وكانت تعني زوجها طبعاً. يجب أن أذكر عابراً أن المصادفة شاءت بما يشبه العمد أن لا يشارك بطرس ستيفانوفتش هذه المرة في الرحلة إلى سكفورشنيكي، وأنه لم يُر طوال ذلك الصباح. ويجب أن أذكر أيضاً في هذه المناسبة أن فرفارا بتروفنا قد رجعت إلى المدينة مع ضيوفها (في مركبة جوليا ميخائيلوفنا)، مصرة إصراراً مطلقاً على المشاركة في آخر اجتماع للجنة تنظيم الحفلة، وهو الاجتماع الذي يجب أن يُعقد في الغد. فلا بد إذاً أن تكون الأنباء. التي نقلها ليامشين عن ستيفان تروفيموفتش قد همتها كثيراً، بل لعلها أقلقها أيضاً.

وقد صُفّي الحساب مع أندره أنطونوفتش بغير إبطاء. إن الحاكم قد حزر ما

ينتظره منذ رأى زوجته الفاتنة. كانت مشرقة الوجه أخاذة المحيا، ترسم على شفتيها ابتسامة لذيدة، وها هي ذي تقترب من ستيفان تروفيموفتش بحركة رشيقة، فتمدُّ إليه يدها الصغيرة المغمدة في قفاز وتخاطبه بأرق عبارات المديح: لكانها لم تفكر طوال هذا الصباح إلّا في الطريقة التي ستستقبل بها ستيفان تروفيموفتش معبّرة له عن فرحها برؤيته عندها أخيراً. لم تشر أي إشارة إلى تفتيش منزله في هذا الصباح، كأنها تجهل كل شيء. ولم تقل لزوجها كلمة واحدة، ولا ألقت عليه نظرة، فكأنه غير موجود. وفي مقابل ذلك أسرع تصادر ستيفان تروفيموفتش وتقتاده إلى الصالون، متظاهرةً بأنها تجهل أنه كان بسبيل مكاشفة مع آندره أنطونوفتش، لتدل بذلك على أن هذه المكاشفة لا قيمة لها البتة. يخيلُ إليّ أن جوليا ميخائيلوفنا، رغم ما أظهرته من أبهة وعظمة، قد ارتكبت في هذه المرة غلطة ضخمة، ولا شك أن كارمازينوف قد شارك في ذلك مشاركة خاصة على كل حال. إنه تلبيةٌ لإلحاح جوليا ميخائيلوفنا كان قد اشترك في رحلة ذلك الصباح، فبذلك زار فرفارا بتروفنا ولو زيارة غير مباشرة، فافتتحت بتروفنا بزيارته. وحين دخل الآن آخر الداخلين فرأى ستيفان تروفيموفتش منذ صار في عتبة الباب. أطلق صيحة تعبر عن الجور، وركض إليه يعانقه، فبذلك قطع الكلام على جوليا ميخائيلوفنا.

– ما أكثرها من سنين!... أخيراً... "أيها الصديق الممتاز"!...
وقبّله ماذا إليه خدّه، فرأى ستيفان تروفيموفتش نفسه مضطراً إلى تقبيل الخد الممدودة إليه، فاقداً صوابه بعض الشيء.
وقد قال لي ستيفان تروفيموفتش في ذلك المساء، حين تذكّر أحداث النهار: "يا عزيزي، لقد تساءلت في تلك اللحظة من منا نحن الاثنين أشد جنباً وحقارة من الآخر: أهو، الذي قبلني ليدلني بعد هنيهة، أم أنا، الذي أحترقه وأحترق خدّه، ومع ذلك قبّلت تلك الخد في حين كان يمكنني أن أشيح عنها... آه!...".
قال له كارمازينوف:

- هيه! تكلم! تكلم! قصّ عليّ كل شيء.

كأن المرء يستطيع أن يروي ببضع كلمات قصة حياة خمسة وعشرين عاماً. ولكن هذا الطيش كان في نظره علامة لهجة تظهر "التفوق".

قال ستيفان تروفيموفتش بتعقل كبير، ولهجة ليس فيها إذاً أي إظهار للتفوق:

- لاحظ أننا التقينا آخر مرة بموسكو، في الولاية التي أقيمت تكريماً لخرانوفسكي منذ أكثر من أربعة وعشرين عاماً...

فقاطعه كارمازينوف يقول بلهجة الألفة وبصوت حاد، وهو يشد على كتفه متحمساً تحمساً فيه شيء من الإفراط:

- "ذلك الإنسان العزيز!"... انقلنا إلى مسكنك بأقصى سرعة يا جوليا ميخائيلوفنا، فسنمكث هناك، فيروي لنا كل شيء.

وقد قال لي ستيفان تروفيموفتش في مساء ذلك النهار وهو يرتجف اشمئزازاً وتقززاً: "مع ذلك لم يكن بيني وبين هذا النمام العجوز أية صداقة حميمة في يوم من الأيام. وكنت في شبابي أكرهه وكان يبادلني كرهاً بكره طبعاً!"...

سرعان ما امتلأ صالون جوليا ميخائيلوفنا. وكانت فر فاراً بتروفيما مهتاجة احتياجاً شديداً، رغم أنها كانت تحاول أن تظهر بمظهر من لا يبالي. لكنني رأيت نظراتها عدة مرات مثقلة بكرهه وبغض تلقيهما على كارمازينوف، ورأيت هذه النظرات مثقلة بغضب تصبه على ستيفان تروفيموفتش، غضب مستبق، غضب تغذيه غيره و يغذيه حب: فلو أن ستيفان تروفيموفتش غلط هذه المرة فرضي أن يغلبه كارمازينوف على مرأى من الجميع، إذن لكان يمكن في ما أعتقد أن تهجم عليه فتحنقه. نسيت أن أقول إن ليزا كانت هناك أيضاً. ما رأيتها في حياتي أشد مرحاً مما كانت حينذاك، ولا أقل اكتراثاً، ولا أزر فرحاً. وكان مافريكي نيقولايفتش إلى جانبها طبعاً. وبين جمهرة السيدات الشابات، والشبان الأوغاد الذين كان المجنون يُعدّ في نظرهم مرحاً وكان الاستهتار البشع يُعد في نظرهم ذكاءً، رأيت وجوهاً أخرى أيضاً: رأيت

بولندياً ماراً بالمدينة كان يتحرك ويسعى حول الجميع، ورأيت طبيباً ألمانياً هو عجوز قوي البنية كان يضحك ضحكاً مجلجلاً لكل كلمة من الكلمات الظريفة التي يطلقها هو، ورأيت أميراً شاباً واصلًا من بطرسبرج هو نوع من آلة متحركة، بارد الهيئة مرسوم القسما، تحيط بعنقه ياقة عالية علواً خارقاً. ولكن كان واضحاً أن جوليا ميخائيلوفنا فخورة جداً بوجود هذا الضيف، وأنها شديدة الاهتمام بما قد نراه من رأي في صالونها.

بدأ ستيفان تروفيموفتش يتكلم فقال وهو يجلس على الديوان جلسة رشيقة، وينطق بالكلمات نطقاً شبيهاً بنطق الكاتب الكبير:

- يا سيد كارمازينوف، إن حياة إنسان يتسبب إلى عصرنا ويملك اعتقادات معينة، لا بد أن تكون متشابهة بالضرورة، ولو امتدت على فترة خمس وعشرين سنة...

تخيل الطبيب أن ستيفان تروفيموفتش قد قال شيئاً مضحكاً جداً، فانفجر يقهقه قهقهةً منقطعة تشبه أن تكون صهيل خيل. فرشقه ستيفان تروفيموفتش بنظرة تصطنع معنى الدهشة. ولكن ذلك لم يحدث في الشيخ أي أثر. والتفت الأمير نحوه كتلة واحدة أيضاً، وتفرس فيه يفحصه بنظارتي أنفه، ولكن من دون أي تعبير عن حب الاطلاع.

تابع ستيفان تروفيموفتش كلامه فقال مكرراً عن عمد، متفاخراً من دون تحرج من اختيار الألفاظ:

- ... لا بد أن تكون متشابهة بالضرورة. تلك كانت حياتي خلال ربع القرن هذا، و"لما كان عدد الرهبان أكبر من عدد العقول، (بالفرنسية)، ولما كنت ممن يشاركون في هذا الرأي كل المشاركة، فقد ترتب على ذلك أنه في خلال ربع القرن هذا من الزمان...

دمدمت جوليا ميخائيلوفنا تقول وهي تلتفت نحو فرفارا بتروفنا التي كانت جالسة. إلى جانبها:

- رائع... الرهبان...

فأجابت فرفارا بتروفنا على ذلك بنظرة تفيض زهواً وفخراً. ولكن

كارمازينوف لم يستطع أن يحتمل هذا النجاح الذي ظفرت به الجملة الفرنسية، فأسرع يقاطع ستيفان تروفيموفتش قائلاً بصوته الحاد الصارخ:
- أما أنا فهادئ من هذه الناحية. إنني أقيم في كارلسروه منذ سبعة أعوام،
وحين قرر المجلس البلدي في العام الماضي إنشاء قناة جديدة للماء شعرت
في أعماق نفسي أن إنشاء القنوات في كارلسروه أعزُّ في نفسي وأحب إلى
قلبي وأهم في نظري من جميع أحداث وطني الجميل... ومن جميع ما
يسمى هنا بالإصلاحات وما شاكل ذلك...

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يفر زفرة ذات دلالة، ويحني رأسه:

- إنني أفهمك، وإن كان قلبي يحتج.

تهللت جوليا ميخائيلوفنا جذلاً: إن الحديث يجري الآن مجرى جدياً
لبرالياً.

وسأل الطبيب العجوز مستفهماً:

- أهي أقنية مجارٍ؟

- بل أقنية لمياه الشرب يا دكتور، أقنية لمياه الشرب، حتى لقد ساعدتهم
في كتابة المشروع.

فانطلق الطبيب يضحك ضحكاً قوياً، وقلده آخرون، مستهزئين به. ولكنه
لم يفتن إلى ذلك، حتى لقد بدا عليه الجبور من إشاعته هذا الجو من المرح.
قالت جوليا ميخائيلوفنا مستعجلة التدخل في الحديث:

- معذرة يا كارمازينوف، إنني لا أستطيع أن أوافق على رأيك. ولست

أستغرب أن تشعر براحة في مدينة كارلسروه، ولكنك تحب أن تموّه
على الآخرين، ونحن في هذه المرة لا نصدّقك. من ذابن جميع الكتاب
الروس، الكاتب الذي أبدع نماذج تمثل الفكر الحديث أصدق تمثيل، وتنبأ
بمشكلات عصرنا أكثر من سائر الكتاب، ودلّ على الملامح المميّزة لرجل
العمل المعاصر أوضح دلالة؟ هو أنت، أنت وحدك، ولا أحد سواك. فكيف
تريد أن تقنعنا الآن بأنك لا تكثرث بروسيا، وبأن اهتمامك الأكبر إنما ينصب
على إنشاء أقنية مياه الشرب بمدينة كارلسروه؟ ها ها ها!

قال كارمازينوف بصوته المألوف:

- نعم، هذا حق. لقد صورت في شخصيته بوجوديين جميع عيوب أنصار السلافية، وصورت في شخصية نيكوديموف جميع عيوب أنصار الغرب... دمدم ليا مشين يقول:

- "جميعهم!" قالها بنفسه!

- ولكنني لا أفعل هذا إلا عابراً، تزجية للوقت فحسب، وإرضاء للمطالب المستمرة لدى أهل وطني...

عادت جوليا ميخائيلوفنا إلى الكلام فقالت متحمسة:

- لعلك تعلم يا ستيفان تروفيموفتش أننا سيفرحنا غداً أن نسمع صفحات جميلة ممتعة... هي أثر من أحدث وأروع الآثار التي كتبها سيميون إيغوروفتش. العنوان: "شكراً". إنه يعلن لنا في هذا العمل الذي ألفه أنه لن يكتب بعد اليوم أبداً، بأية حال من الأحوال، ولو جاءت جميع ملائكة السماء أو جميع شخصيات المجتمع العالي تضرع إليه أن ينثني عن عزمه وأن يتراجع عن قراره، الخلاصة أنه يدع القلم إلى الأبد. وهذا الأمر الرشيق الجميل الذي جعل عنوانه "شكراً"، إنما يتجه به إلى الجمهور شاكرًا له ما أبدى من حماسة دائمة متصلة لأعماله طوال مدة حياته الأدبية التي نذر لها لخدمة الفكر اللبرالي الروسي.

كانت جوليا ميخائيلوفنا في ذروة الافتتان والحبور.

فقال كارمازينوف وقد استسلم لحنان القلب ورقة العاطفة:

- نعم، سأودع الجمهور. سأقرأ "شكراً"، ثم أرحل... وهناك، في كارلسروه... سأغمض العينين...

إنه، كعدد كبير من كبار كتابنا (وما أكثرهم، كبار كتابنا) لم يستطع أن يصمد للمديح وأن يقاوم تأثيره، بل ضعف له بسرعة، رغم ذكائه، وذلك أمر يُغفر له على كل حال في ما اعتقد. يقال إن واحداً من أدبائنا الذين يُقَارَنون بشكسبير قد أعلن يقول ذات يوم على حين فجأة: "هكذا نحن معشر الرجال العظام، لا نملك أن نتصرف غير هذا التصرف"، إلخ. قال ذلك حتى من دون أن يحس به.

تابع كارمازينوف كلامه يقول:

- هناك، في كارلسروهه، سوف أغمض عينيّ. إننا معشر الرجل العظام لا نملك متى أنهينا رسالتنا إلا أن نغمض أعيننا بأقصى سرعة، من دون أن نتنظر مكافأة. ذلك ما سأفعله.

قال الألماني وقد انطلق يضحك ضحكاً شديداً:

- قل لي عنوانك، وسأجيء أزور قبرك في كارلسروهه.

وقال أحد الشبان الصغار الذين كانوا موجودين:

- في هذا الزمان، يُشحن الموتى في القطار.

فانفجر ليا مشين، يضحك مفتوناً. وقطبت جوليا ميخائيلوفنا حاجبها.

وإنهم لذلك إذا بستافروجين يدخل فيصرفهم عما هم فيه.

قال ستافروجين متجهماً في أول الأمر إلى ستيفان تروفيموفتش:

- هه! لقد روي لي أنهم اقتادوك إلى قسم الشرطة.

فقال ستيفان تروفيموفتش مازحاً:

- لا بل هي قضية "خصوصية".

فقالت جوليا ميخائيلوفنا:

- ولكنني أرجو أن لا يكون لها أي أثر على ما طلبته منك. إنني أمل رغم

الانزعاج المؤسف الذي تعرضت له وأشرت إليه، والذي لا أعرف عنه شيئاً

البته حتى الآن، أن لا تخيّب ظننا وأن لا تحرمننا من متعة الاستماع إليك في

الصبيحة الأدبية.

- لا أدري... أنا... الآن...

- حقاً إنني تعيسة جداً يا فرفارا بتروفنا.. ففي اللحظة التي أتوق فيها إلى

أن أعرف معرفة شخصية واحداً من ألمع المفكرين الروس ومن أكثرهم

استقلاً في الرأي، أرى ستيفان تروفيموفتش يريد الابتعاد عنا...

قال ستيفان تروفيموفتش:

- كان عليّ حتماً أن أظاهر بأنني لم أسمع هذا المديح الذي يُقال بصوت

عالٍ، ولكنني لا أستطيع أن أصدّق أن شخصي الضعيف يمكن أن يكون

ضرورة لا غنى عنها للحفلة التي تزمعين إقامتها. إنني على كل حال...

هنا دخل بطرس ستيفانوفتش بخطاه السريعة وصاح يقول:
 - ولكنكم ستفسدونه بالدلال. فما كدت أفلح في تعليمه أن يسير مستقيماً
 حتى تدفقت عليه في صباح يوم واحد ضربة تلو ضربة: فمن تفتيش إلى
 اعتقال إلى شرطي يمسك بتلابيه، ثم ماذا أرى الآن؟ أرى السيدات ينشرن
 حوله البخور في صالون الحاكم! إنه الآن مفتون بنفسه. أنا من ذلك على
 يقين. إنه لم يحلم بمثل هذا الانتصار في يوم من الأيام. إنني أتخيل ما
 سيقوله الآن عن الاشتراكيين من سوء!
 قالت جوليا ميخائيلوفنا بقوة وعزم:
 - مستحيل يا بطرس ستيفانوفتش! إن الاشتراكية فكرة أعظم من أن
 ينكرها ستيفان تروفيموفتش.

فقال ستيفان تروفيموفتش وهو ينهض بأبهة نبيلة:
 - الفكرة عظيمة، ولكن الذين يعتنقونها ليسوا بالعمالقة دائماً "وحسبنا
 هذا يا عزيزي!" (بالفرنسية).

ولكن وقع في تلك اللحظة حادث لا يمكن أن يكون في حسابان أحد أن
 يقع. إن فون لمبكه موجود في الصالون، منذ بعض الوقت، ولكن الحضور
 تظاهروا بأنهم لم يلاحظوا وجوده رغم أنهم رأوا دخوله جميعاً، كما أن
 جوليا ميخائيلوفنا ظلت وفيّة لأسلوبها فاستمرت تتجاهل زوجها. كان فون
 لمبكه جالساً قرب الباب، قاسي الهيئة مكفهر الوجه، يصغي إلى ما يدور
 من أحاديث. فلما أشير إلى الأحداث التي وقعت في الصباح اضطرب
 على كرسيه قلقاً، ثم أدار نظره نحو الأمير. كان واضحاً أن الياقة الضخمة
 الطويلة التي تلف عنق الأمير قد أثرت فيه تأثيراً شديداً. وأن دخول بطرس
 ستيفانوفتش المداهم، ودويّ صوته، قد جعله يرتعش. فما إن أنهى ستيفان
 تروفيموفتش جملة عن الاشتراكيين حتى اقترب منه أندره أنطونوفتش فون
 لمبكه، دافعاً ليا مشين الذي كان في طريقه والذي تقهقر على حين فجأة
 مصطنعاً الدهشة ماسحاً كتفه كأن فون لمبكه قد صدمها صدمة عنيفة. قال
 فون لمبكه:

- كفى!

وأمسك يد ستيفان تروفيموفتش بحركة قوية روعته، وضغطها ضغطاً شديداً. وتابع كلامه يقول:

- لقد انحسر القناع عن وجوه النصابين في هذا الزمان. لا تقل كلمة واحدة أخرى. لقد اتخذت الإجراءات...

هذه الكلمات التي قيلت بصوت عالٍ ولهجة قاطعة، قد دَوَّت في الصالون كله وأحدثت شعوراً شاقاً أليماً. أحس الجميع أن شيئاً مزعجاً سيحدث. ورأيت جوليا ميخائيلوفنا يمتقع وجهها ويصفر لونها. غير أن هذا المشهد قد انتهى بحادثٍ مضحك. فإن لمبكه، بعد أن أعلن أن الإجراءات قد اتخذت، استدار على حين فجأة، واتجه بسرعة نحو الباب، لكنه ترنح عند الخطوة الثانية، إذ تعثرت قدمه بالسجادة، فكاد يسقط على الأرض طريحاً.

توقف فون لمبكه لحظة، وتأمل السجادة، وقال بصوت عالٍ: "يجب تبديل هذا"، وخرج. فركضت جوليا ميخائيلوفنا وراءه. وسرعان ما أخذ الجميع يتكلمون في آن واحد. وسمعت بين لفظهم هذه الكلمات "مجنون"، "مختل"، "توبة"... وكان بعضهم يلطم جبينه بالإصبع. وفي ركن من الأركان رفع ليامشين إصبعين إلى رأسه. وخفض بعضهم أصواتهم فأشاروا إلى نزاعات عائلية. ومع ذلك لم ينصرف أحد، بل لبثوا ينتظرون. إنني أجهل الإجراءات التي اتخذتها جوليا ميخائيلوفنا، ولكنها رجعت بعد خمس دقائق باذلةً جميع جهودها من أجل أن تبدو هادئة وجواباً عن الأسئلة التي ألقى عليها، قالت إن أندره أنطونوفتش نائر الأعصاب قليلاً، وإن الأمر هين يسير، وإنه يعاني من أمثال هذه الثوبات الصغيرة منذ طفولته، وإن حفلة الغد ستسرِّي عنه كثيراً. وإنقاذاً للمظاهر لا أكثر، وجَّهت إلى ستيفان تروفيموفتش بضع كلمات من مديح أيضاً، ودعت أعضاء اللجنة إلى اتخاذ أماكنهم لعقد الاجتماع. وعندئذ فقط إنما قام أولئك الذين ليسوا أعضاء في اللجنة، من أجل أن ينصرفوا. غير أن الأحداث الأليمة التي وقعت في ذلك النهار المشؤوم لم تكن قد انتهت بعد.

حين دخل نيقولا في سيفولودوفتش، لاحظتُ النظرة الفاحصة التي حدَّقت بها إليه ليزا. حتى لقد بلغت من طول النظر إليه والتأمل فيه أن

ذلك لفت الانتباه أخيراً. ورأيت مافريكي نيقولادوفتش يميل عليها ليكلمها بصوت خافت في أغلب الظن. ولكنه عدل عن رأيه، وعاد ينتصب فجأة، وشمل الجمع بنظرة كأنه يريد أن يعتذر عما بدر منه. وقد أثار نيقولادوفتش في سيفولودوفتش شيئاً من حب الاطلاع هو أيضاً. كان وجهه أشد شحوباً من عهدنا به، وكانت نظراته تبدو ذاهلةً ذهولاً خاصاً. ولاح عليه أنه لم يسمع جواب ستيفان تروفيموفتش عن السؤال الذي وجهه إليه حين دخل، بل إنني لأظن أنه نسي أن يحيي ربة الدار. أما ليزا فلقد أغفل حتى النظر إليها. وإنني لواثق على كل حال بأنه لم يقصد ذلك ولم يتعمده: كل ما هنالك أنه لم يلاحظها. وفجأة، بعد صمت قصير أعقب اقتراح جوليا ميخائيلوفنا بافتتاح اجتماع اللجنة فوراً، دوى صوت ليزا الرنان منادياً ستافروجين، متعمداً أن يسمعه الجميع طبعاً.

- نيقولادوفتش، إن رجلاً يسمى الكابتن لبيادكين، ويدّعي أنه قريبك، إنه أخو زوجتك، يبعث إليّ رسائل غير لائقة يتشكى فيها منك ويعرض عليّ أن يفضي إليّ بأسرار تخصك. فإذا صح أن هذا الرجل قريبك، فاحظر عليه أن يهتني وضع حدّاً لأفعاله.

كانت هذه الكلمات تشتمل على تحدّ رهيب. وقد أدرك ذلك جميع الحضور. إن التهمة واضحة. ولكن من الجائز أن تكون ليزا قد قذفتها من دون أن تدرك ما تفعل، كأنسان يلقي نفسه من أعلى سطح مغمضاً عينيه. ولكن جواب نيقولادوفتش كان أدعى إلى الدهشة وأبعث على الذهول أيضاً.

لم يبدُ عليه شيء من الاستغراب بتاتاً، وأصغى إلى كلام ليزا بانتباه شديد وهدوء كامل. ولم يعبر وجهه عن اضطراب ولا عن غضب. وببساطة هائلة ولهجة ثابتة بل متعجلة إنما أجاب عن السؤال المحتوم قائلاً:

- نعم، من سوء حظي أن بيني وبين هذا الرجل قرابة. لقد تزوجت أخته منذ زهاء خمس سنين، وثقي أنني سأبلغه مطالبك في أقرب فرصة، وأني لأضمن لك أن يكف عن إزعاجك بعد اليوم.

لن أنسى، ما حييت، الهول الذي ارتسم على وجهه فرفاراً بتروفنا. لقد

انتصبت زائغة الهيئة، رافعة ذراعها اليسرى فوق رأسها كأنما لتحميه. ونظر إليها نيقولا في سيفلولودوفتش، ثم تأمل ليزا، ثم طاف ببصره على سائر المشاهدين. وألّمت بشفتيه ابتسامة، وغادر الصالون بغير تعجل. وفي اللحظة التي اتجه فيها نحو الباب نهضت ليزا عن ديوانها فجأة بحركة قوية، وهمت أن تركز وراءه. ولكنها سيطرت على نفسها فأمسكت عن الجري، وخرجت بهدوء، من دون نظرة تلقيها على أحد، ومن دون كلمة تقولها لأحد، يتبعها مافريكي نيقولا يفتش طبعاً...

لن أقول شيئاً عن الشائعات التي جرت في المدينة في ذلك المساء نفسه، ولقد سجت فر فاراً بتروفا نفسها في منزلها لا تبارحه. أما نيقولا في سيفلولودوفتش فيقال إنه ذهب رأساً إلى سكفورشينكي، حتى من دون أن يرى أمه. وفي المساء أرسلني ستيفان تروفيموفتش إلى عند تلك الصديقة الغالية، (بالفرنسية) راجياً أن تأذن له بأن يجيئها زائراً. ولكنني لم أستقبل في منزلها. كان ستيفان تروفيموفتش متأثراً تأثراً رهيباً، حتى لقد كانت الدموع تترقق في عينيه. كان يكرر على مسمعي بغير انقطاع: "زواج كهذا الزواج! يا لها من كارثة للأسرة!". ولكن ذلك كان لا يمنعه من التفكير في كارمازينوف، وشتمه شتماً عنيفاً، وأن يجد في إعداد قراءة الغد، مكرراً حركاته أمام مرآة (هذه طبيعة فنية)، مستحضراً في ذاكرته على سبيل تمليح كلامه جميع الكلمات الظريفة وجميع النكات القائمة على الجنس اللفظي التي سبق له أن هيأها ودونها في دفتر خاص.

- يا صديقي، أنا أفعل ذلك كله في سبيل فكرتنا العظيمة "يا صديقي العزيز"، إنني أدع الانزواء الذي ألزمت به نفسي مدة خمسة وعشرين عاماً، وأرحل... إلى أين؟ لا أدري بعد... لكنني أرحل!...

الجزء الثالث

الفصل الأول

الحفلة

1

أقيمت الحفلة رغم جميع الأحداث التي جرت أمس. وفي اعتقادي أنها كانت ستقام حتى ولو كان لمبكه قد قضى نحبه البارحة. فإلى هذا الحد كانت إقامة الحفلة هامة في نظر جوليا ميخائيلوفنا. لقد ظلت إلى آخر لحظة - وأأسفاه! - مصرة على عماوتها، لا تدرك الحالة النفسية التي كان عليها الناس. ومع ذلك ما من أحد كان يتصور أن ذلك النهار الفخم يمكن أن ينتهي بغير فضيحة خطيرة ما، أو بدون "خاتمة" على حد تعبير أولئك الذين كانوا يفركون أيديهم من الجدل سلفاً. صحيح أن كثيراً من الناس كانوا يحاولون أن يصطنعوا هيئة مكفهرة متشائمة، لكننا نستطيع أن نقول بوجه عام إن الروس يجدون في الفضائح والمشاكل لذّة قصوى. على أن الواقع هو أن هناك شيئاً آخر أخطر شأناً من هذا الظمأ إلى الفضائح: إنه حق عام، إنه نوع من كره وحشي كاسر. يبدو أن جميع الناس كانوا مغتاضين، وكانوا يتوقون إلى تغيير ما، أيّاً كان هذا التغيير. كان يرين علينا استخفاف غريب، واستهتار مقصود. السيدات وحدهن كنّ ثابتات الرأي، ولكن في أمر واحد: هو هذا الكره الساحق الماحق الذي يحملنه لجوليا ميخائيلوفنا، والذي كانت المسكينة لا يخطر لها على بال. لقد ظلت إلى آخر لحظة مقتنعة بأنها محاطة بمحبة الناس جميعاً، وأن الناس مخلصون لها "إخلاصاً متعصباً". سبق أن ذكرت أن أنواعاً شتى من صغار الأشرار قد ظهرت في مدينتنا.

إن أمثال هؤلاء ينبجسون في عهود الاضطراب، في عهود الانتقال، في كل زمان ومكان. لست أعني الأشخاص الذين يسمون "متقدمين"، والذين ليس لهم من هم إلا أن لا يكونوا متأخرين متخلفين، والذين تكون لهم في أكثر الأحيان غاية محدّدة بعض التحديد مهما تكن هذه الغاية سخيفة. لا، فإنما أنا أعني الأوغاد. إن الوغد موجود في كل مجتمع، ولكنه لا يظهر على السطح إلا في فترات الانتقال. وهو لا يرمي إلى أية غاية، ولا يسعى إلى أي هدف، ولا يملك أية فكرة. كل ما هنالك أنه يعبر عن نفاد الصبر، ويدل على اختلاط الأمور في المجتمع. ومع ذلك نرى الوغد، من دون أن يدرك هو ذلك، يخضع في جميع الأحيان تقريباً لجماعة صغيرة من "المتقدمين" الذين لهم هدف محدد، فهم يدفعون هؤلاء الأوغاد في الاتجاه الذي يناسبهم، على شرط أن لا يكونوا إلا بلهاء تماماً وذلك ما يحدث في بعض الأحيان على كل حال.

الآن وقد انقضى كل شيء، يؤكد الناس لدينا أن بطرس ستيفانوفتش كان يأتمر بأوامر "الأممية"، يوجّه جوليا ميخائيلوفنا التي كانت تستخدم الأوغاد تنفيذاً لتعليماته. ويتساءل العقلاء منا مذهولين كيف أمكن تضليلهم هذا التضليل.

لا أحد يعرف (ربما باستثناء بعض الأجانب)، ولا أنا أعلم ماذا كان ذلك التملل العام والانزعاج الشامل ولا ما هو "الانتقال" المقصود: انتقال إلى أي حال؟ ومع ذلك وقعنا جميعاً تحت سيطرة أولئك الأشقياء من الأشخاص الصغار الذين طفقوا ينتقدون بصراحة كل ما هنالك من أمور هي أقدس الأمور، هم الذين كانوا قبل ذلك لا يجسرون حتى أن يفتحوا أفواههم، وراح الآخرون الذين كانوا إلى ذلك الحين يحتلون أرفع مقام يصغون إليهم صامتين، حتى ليشجعونهم بضحكاتهم في بعض الأحيان. إن أناساً مثل ليامشين، وتلياتنيكوف، وتنتنيكوف، وإن أغراً مدعين مثل رادشتيف، وإن يهوداً صغاراً من أصحاب الابتسامة الأليمة المتغطرة في آن واحد، وإن ضاحكين ومسافرين عابرين، وشعراء لبراليين وافدين

من العاصمة، شعراء يقوم عندهم قميص من قمصان الفلاحين وحذاء من مدهونان بالقطران مقام اللبرالية والموهبة، وإن ضباطاً برتبة ميجر وكولونيل ممن لا يشعرون نحو رتبهم العسكرية إلا بالاحتقار والازدراء، والذين لا مانع لديهم في سبيل زيادة قدرها روبل واحد أن يرموا سيوفهم ليلتمسوا وظيفة في مصلحة للسكك الحديدية، وإن جنرالات ممن أصبحوا محامين أو موظفين بلا عمل ولكنهم يحسنون تدبير أمورهم وتصريف شؤونهم ويعرفون من أين تؤكل الكتف، وإن شباباً من أبناء التجار اعتنقوا الأفكار الجديدة، وطلاباً لا نهاية لعددهم، ونساء يعددن أنفسهن بطلات مكافحات في سبيل قضية المرأة، هؤلاء جميعاً هم الذين أصبحت لهم الغلبة والسيطرة. وعلى من؟ على أعضاء نادينا، على موظفين محترمين، على جنرالات فقدوا في الحرب بعض أعضاء أجسامهم، على سيداتنا المتعاليات المتكبرات. ومهما يكن من أمر فإننا لا نملك إلا أن نعذر سيداتنا على أنهن فقدن صوابهن حين نرى أن فراراً بتروفاً نفسها قد خضعت لسطوة هؤلاء الأشرار، إلى أن حلت الكارثة التي أصابت ابنها.

سبق أن قلت إن الناس الآن يحتملون "الأممية" تبعة كل ما وقع. وقد بلغت هذه الفكرة من قوة الرسوخ في الأذهان أنهم يعللون بها الأمور حتى للوافدين إلينا من الخارج (وما أكبرهم!) حتى إن المستشار كوبريكوف الذي يبلغ الثانية والستين من عمره، ويحمل وسام سان ستانلاس، قد جاء في الآونة الأخيرة من تلقاء نفسه يصرح للسلطات بلهجة نافذة جازمة أنه ظل مدة ثلاثة أشهر خاضعاً لتأثير "الأممية"، فلما سُئل بما ينبغي لسنة ورتبته من مداراة ومراعاة أن يذكر بعض الإيضاحات الدقيقة، اكتفى بأن قال إنه "شعر بذلك شعوراً داخلياً"، ولكن هذا لم يمنعه من الإصرار على تصريحه. لذلك ترك له أن ينصرف من دون أن يُلقى عليه مزيد من الأسئلة.

أكرر مرة أخرى: لقد وجدت فئة صغيرة من العقلاء تنحّت جانباً منذ البداية، حتى لقد سحبت نفسها في بيوتها وأغلقت عليها الأبواب بالأقفال. ولكن ما من قفل يقاوم قوانين الطبيعة. ففي الأسر العاقلة المحاذرة توجد

دائماً فتيات لا يستطعن الاستغناء عن الرقص، فهو لهن ضرورة. لذلك رأينا أكثر الأشخاص تحفظاً يشترطون في النهاية بطاقات لحضور حفلة الرقص التي نُظِّمت لمساعدة المعلّّمت، لا سيما وأن الحفلة ستكون باهرة إلى أقصى حد. كان يقال إنها ستكون معجزة من المعجزات: تحدّث الناس عن أمراء سيحضرونها، وعن عشرات من خيرة أبناء الأسر سيتولون الإشراف على تنظيمها عاقدين على أكتافهم اليسرى شريطاً يميزهم عن غيرهم، وتحدّثوا عن شخصية سياسية من بطرسبرج لا أدري من هي، وعن كارمازينوف الذي ارتضى في سبيل تضخيم البرنامج أن يقرأ قصيدته "شكراً" وهو في لباس معلّّمة، وتحدّثوا عن "رباعي أدبي" سيرتدي راقصوه أبهى الأزياء، فكل زي من هذه الأزياء يرمز إلى اتجاه أدبي، وتحدّثوا عن سيد سيلبس رداء خاصاً ويمثل "الفكر الروسي الصادق الأصيل"، وسيرقص هو أيضاً، وذلك كله شيء جديد لا عهد بمثله من قبل. فكيف يمكن أن يمتنع المرء عن الاشتراك في حفلة رقص كهذه الحفلة؟ هكذا انقاد الجميع للإغراء.

2

تتضمّن الحفلة، وفقاً للبرنامج، جزأين: صبيحةٌ أدبية من الظهر حتى الساعة الرابعة، وحفلة رقص تبدأ في الساعة التاسعة وتمتد على طول الليل. ولكن هذا البرنامج يشتمل بذاته على عناصر فوضى. من ذلك أولاً أن الجمهور تخيّل أن سيكون ثمة غداءً بعد الصبيحة الأدبية فوراً أو أثناءها، خلال فترة استراحة تُخصّص لهذا الغرض، غداءً مع شمبانيا، بالمجان طبعاً، لأنه جزء من البرنامج. إن المبلغ الباهظ الذي يدفعه المشترك ثمناً للبطاقة (وهو ثلاثة روبلات) قد ساهم في ترويج هذه الإشاعة وتعزيزها: "هل كان يمكن أن أشارك لولا هذا؟ إن الحفلة تدوم أربعاً وعشرين ساعة، فلا بد من إطعام الحضور الذين سيأخذ منهم الجوع كل مأخذ". كذلك كان يفكر الناس في الأمر. يجب أن أقول إن جوليا ميخائيلوفنا نفسها هي التي خلقت بطيشها وتسرعها هذه الأوهام المشؤومة، إنها قبل موعد الحفلة بشهر،

كانت وقد هزّتها الحماسة الشديدة لمشروعها، تزعم لكل قادم أنها ستقيم حفلةً ستُشرب فيها الأنخاب. حتى لقد أعلنت عن هذه الأنخاب التي كانت تحرص عليها حرصاً خاصاً، في جريدة من جرائد العاصمة. كانت تريد أن ترفع الأنخاب بنفسها، وكانت تهيئها منذ ذلك الحين. كان ينبغي لهذه الأنخاب في نظرها أن تجمع العقول حول "رايتا الجديدة" (ما هي تلك الراية الجديدة؟ أراهن أن المسكينة كانت هي نفسها لا تعرفها!). فإذا نُشرت في جرائد العاصمة في صورة أنباء يبعث بها المراسلون الصحفيون، فسوف تثير عاطفة السلطات العليا وسوف تفتن ألباب هذه السلطات حتماً، ثم إذا هي تنتشر بعد ذلك في البلاد باعثةً على الدهشة والتنافس في كل مكان. ولكن رفع الأنخاب يقتضي شمبانيا. والشمبانيا لا تُشرب على جوع طبعاً، فلا بد إذاً من وجبة غداء. ولكن حين تشكّلت بعد ذلك لجنة لدراسة المشروع من جميع جوانبه، فإن أعضاء اللجنة لم يلبشوا أن برهنوا لجوليا ميخائيلوفنا أن إقامة مأدبة ستكلف نفقات طائلة فلا يبقى للمعلّمت شيء ذو بال مهما يكن إيراد الحفلة. وهكذا أصبح الوضع كما يلي: فإما مأدبة فاخرة وأنخاب ثم لا يبقى للمعلّمت إلا زهاء تسعين روبلاً، وإما إيراد كبير إذا اقتضت الحفلة على ما هو ضروري ولم تكن إلا ذريعة لمساعدة المعلّمت. وكانت اللجنة من جهة أخرى تنصح بالتعقل والحكمة، وتقترح حلاً ثالثاً يصلح بين الأمرين ويتّصف بالاعتدال والتبصّر: اقترحت اللجنة أن تكون الحفلة لائقة من جميع النواحي، ولكن بغير شمبانيا، فإذا تمّ ذلك كان في الإمكان أن تنال المعلّمت مبلغاً كبيراً، مبلغاً يزيد كثيراً على تسعين روبلاً. ولكن جوليا ميخائيلوفنا لم تشأ أن تسمع شيئاً عن هذا الحل الوسط. إنها تحتقر التسويات البورجوازية. وما دامت فكرتها الأولى مستحيلة التحقيق، فهي هي ذي تعدل عنها لتدفع إلى الطرف الأقصى الآخر: سنحاول أن نظفر بأكبر ريع، فنستثير غيرة سائر الأقاليم. قالت في خطاب ملتهب ألّقته على أعضاء اللجنة إن الأهداف الأساسية الكبرى التي نرمي إليها أهم كثيراً من ملذات الجسم العابرة، وإن حفلتنا إنما هي في الواقع تعبير عن فكرة عظيمة، فيجب أن نكتفي

إذا بحفلة رقص صغيرة على الطريقة الألمانية، لا تكلف نفقات كبيرة، حفلة رقص رمزية إن صح التعبير ما دام يستحيل الاستغناء عن حفلة الرقص هذه الكريهة التي لا تطاق!". والحق أنها كانت قد كرهت هذه الحفلة. ولكنهم استطاعوا أن يهدئوا روعها. وعندئذ إنما تخيلوا "الرباعي الأدبي"، كما تخيلوا تسليات فنية أخرى من شأنها أن تحل محل مباحج الجسم وملذات الطعام والشراب. وعندئذ أيضاً إنما رضي كارمازينوف الذي لم ينقطع عن التصنع والتدلل، ولم يكف عن استدرار الرجاء والضراعة، أقول عندئذ إنما رضي كارمازينوف أن يقرأ قصيدته "شكراً" وأن يستأصل بذلك حتى فكرة الطعام من نفس الجمهور الشره المسرف في الشراة. هكذا تسترد الحفلة بهاءها، ولكنه بهاء من نوع خاص. ومن أجل أن لا يغرق القائمون عليها غرقاً كاملاً في السحاب، قرروا أن يقدموا في بداية حفلة الرقص شيئاً مع الليمون وحلويات جافة، ثم أن يطوفوا بعصير البرتقال والليمون بعد ذلك، بل وأن يقدموا في النهاية مثلجات، ولكن لا شيء غير ذلك. أما الذين هم جائعون وظامئون في كل وقت وفي جميع الظروف، فسيُهيأ لهم "بوفيه" خاص يتعهد به بروخورتش (رئيس طهاة النادي)، ويمكن أن يُقدم فيه تحت رقابة قاسية تمارسها اللجنة كل ما يشتهي المشتبهون، ولكن أثمان الطعام والشراب لن تكون من أصل ثمن البطاقة، وإنما يدفعها المستهلكون على حدة، إذ يُعلن لهم ذلك بإعلان خاص يوضع على الباب. وحماية للقراءة من التشويش أثناء الصبيحة الأدبية، يظل "البوفيه" مغلقاً، رغم أن خمس غرف تفصله عن الصالة البيضاء التي سينشد فيها كارمازينوف قصيدته "شكراً". والأمر الغريب هو أن اللجنة، ومن بين أعضائها أناس عمليون جداً، كانت تضيف على هذا الحادث، أعني قراءة القصيدة، قيمة كبيرة وشأناً عظيماً. أما النفوس الشعرية فكانت حماسها أشد. حسبي أن أستشهد على ذلك بمثال زوجة مارشال النبالة التي قالت لكارمازينوف إنها بعد إنشاده القصيدة فوراً ستأمر بأن يُرَّصَّ جدار صالتها بلوحة من مرمر يُكتب عليها بأحرف من ذهب أن الكاتب الروسي والأوروبي الكبير قد أنشد قصيدته "شكراً" للجمهور

المتمثّل في شخصيات مدينتنا، وذلك في يوم كذا، وهو اليوم الذي ترك فيه قلمه وودّع الكتابة. وستكون هذه اللوحة بما عليها من كتابة، مهياة عند افتتاح حفلة الرقص، أي بعد الحادث التاريخي بخمس ساعات. وإنني لأعلم من مصدر موثوق به أن كارمازينوف خاصةً هو الذي طالب مصرّاً بأن يظل "البوفيه" مغلقاً أثناء الصبيحة الأدبية، رغم ما ارتآه بعض أعضاء اللجنة من أن هذا ليس من مألوف عاداتنا.

هذا ما كان قد تقرر بينما كان الناس في المدينة يأملون أن يحضروا مأدبة، أي أن يأكلوا ويشربوا بالمجان. لقد ظلوا يعوّلون على هذا إلى آخر لحظة. وكانت الأنسات تحلم بسكاكر وحلويات توزّع وافرة بغير عد، وتحلم كذلك بأمر خارقة لا أدري ما هي! كان معلوماً أن الرّيع ضخم، وأن المدينة كلها ستتهافت على حفلة الرقص، وأن كثيراً من الناس يفدون من المقاطعات المجاورة خصيصاً لشهود الحفلة، وأن الجمهور يتخاطف التذاكر تخاطفاً. وكان معلوماً كذلك أن عطايا ضخمة قد قدّمت: فالسيدة فر فارا بتروفا مثلاً قد اشترت تذكرتها بثلاثمائة روبل ووهبت من مزارعها جميع الأزهار التي ستزين الصالة. وزوجة مارشال النبالة (وهي عضو في اللجنة) قد قدّمت منزلها والإضاءة. كما أن النادي تبرّع بالموسيقى والخدم، وتنازل عدا ذلك عن طباخه طوال النهار. إنني أصرف النظر عن عطايا أخرى أقل ضخامة. وقد خطر بالبال تخفيض ثمن التذكرة وجعله روبلين لا ثلاثة. ذلك أن اللجنة قد خشيت في أول الأمر أن يكون من شأن الثمن الباهظ، وهو ثلاثة روبلات، أن يحول دون مجيء الأنسات، حتى لقد قام في الأذهان بيع بطاقات عائلية. فالآباء قد لا يدفعون ثمن بطاقة الدخول إلا لواحدة من بناتهم، فلا مانع أن تدخل الأخريات بالمجان ولو كان عددهن عشراً. غير أن هذه المخاوف لم تلبث أن تبددت: فالآنسات جئن زرافات ووحدانا، وأصغر الموظفين اصطحبوا بناتهم جميعاً. طبعي أنهم ما كانوا ليفكروا في المجيء لولا أن لهم بنات. إن سكرتيراً صغيراً فقيراً قد جاء بيناته السبع، مع امرأته طبعاً، ومع ابنة أخته كذلك، فكانت كل واحدة منهن تحمل بيدها عند الدخول بطاقتها

التي ثمنها ثلاثة روبلات. تستطيعون أن تتصوروا بسهولة أن المدينة كلها كانت في ثورة. وإذا كانت الحفلة تشتمل على صبيحة أدبية وحفلة رقص، فقد كان على السيدات أن يكون لكل منهن ثوبان: واحدٌ للاجتماع الأدبي والثاني للرقص. لذلك فإن عدداً من رجال الطبقة المتوسطة، كما علم ذلك في ما بعد، قد رهنوا لهذه المناسبة كل ما يملكون من بياض، حتى لقد رهنوا أغطية الأسرة، إن لم يكونوا قد رهنوا الفرش نفسها، لدى يهود كانوا منذ سنتين قد أخذوا يتوافدون إلى مدينتنا ويستقرون فيها ويزداد عددهم شيئاً بعد شيء. وجميع الموظفين تقريباً قد اقترضوا سُلفاً على مرتباتهم. حتى أن بعض الملاكين قد باعوا بعض مواشيهم. كل ذلك من أجل أن تلبس بناتهم لباساً حسناً، وأن لا يظهرن دون غيرهن. أما التزين فلم يُر له مثيل قبل ذلك في مدينتنا. غير أن نوادر كثيرة عن الحياة الخاصة التي يعيشها عدد من أسر المدينة قد تناقلها الناس في كل مكان قبل الحفلة بخمسة عشر يوماً، وتطوَّع بعض المازحين فأسرعوا ينقلونها إلى جوليا ميخائيلوفنا. وقد تناقل الناس كذلك صوراً كاريكاتورية رأيت بعضها في ألبوم جوليا ميخائيلوفنا. وذلك كله قد وصل إلى مسامع أولئك الذين كانوا موضوع هذه النوادر وتلك الرسوم. وأغلب ظني أن ذلك هو مصدر الكره الذي حمله كثير من الناس لامرأة الحاكم في الأيام الأخيرة. إن جميع الناس لا يتذكرون الآن تلك الذكريات حتى يثور غضبهم. ولكن كان واضحاً منذ ذلك الحين أن أيسر هفوة تقع فيها اللجنة وأن أيسر خلل يحدث يمكن أن يفجّر غضب الجمهور قوياً عنيفاً. لذلك كان كل واحد يتوقع بينه وبين نفسه حدوث فضيحة ما. وإذا كان الجميع يتوقعون الفضيحة فلا بد أن تقع الفضيحة حتماً.

في الظهر تماماً بدأت الأوركسترا تعزف. ولما كنتُ واحداً من الشبان المشرفين الذين يبلغ عددهم اثني عشر شخصاً ويزدان كنفهم بعقدة من شريط، فقد رأيت بنفسي كيف بدأ ذلك النهار المخزية ذكراه. لقد بدأ الأمر بتزاحم وتدافع عند المدخل. لماذا جرى كل شيء مجرى شيئاً منذ اللحظة الأولى، ولماذا لم تكن الشرطة نفسها في مستوى الظروف؟ إنني لا أنهم

الجمهور الحقيقي. إن آباء الأسر، مهما تكن رتبهم عالية، لم يستعملوا أكواعهم ولم يحاولوا أن يدخلوا قبل غيرهم. بل إنه يقال، خلافاً لذلك، إنهم تنحوا جانباً، وضاقوا صدراً بهذا المشهد الذي لا عهد لنا بمثله، مشهد الحشد محاصراً درجات المدخل متزاحماً على الباب. وكانت العربات تصل أثناء ذلك إلى أن سدّت الطريق آخر الأمر.

في الساعة التي أكتب فيها هذه السطور، أستطيع أن أؤكد، بالاستناد إلى وقائع ثابتة، أن ليامشين وليبوتين وربما غيرهما أيضاً، وهم جميعاً مشرفون مثلي، قد سمحوا بالدخول من غير بطاقة لأفراد من أوباش الناس. لقد رؤي انبجاس أشخاص مجهولين تماماً، جاؤوا من الريف أو وفدوا لا أدري من أين! فما إن دخل هؤلاء الجفاة المتوحشون إلى الصالة (وكانهم ينفذون كلمة سر) حتى أخذوا يسألون عن "البوفيه". فلما علموا أن ليس ثمة "بوفيه" أخذوا يطلقون شتائم فظة، بوقاحة لا مثيل لها وبذاءة غير معروفة عندنا حتى ذلك الحين. وكان عدد منهم سكارى قد أخذ منهم الثمل كل مأخذ. وكان بعضهم يبدو مشدوهاً مبهوتاً من عظمة الصالة لأنه لم ير قبل اليوم شيئاً يبلغ هذا المبلغ من البهاء والأبهة، فهؤلاء جمدوا في مكانهم لحظةً، وجعلوا ينظرون من حولهم فاغرين أفواههم. إن هذا الصالة البيضاء الواسعة، رغم أنها قديمة جداً منذ الآن، لها في الواقع مظهر رائع باهر: صفّان من النوافذ المنضودة، بعضها فوق بعض، سقف مغطى بنقش وحفر وتذهيب، وشرفات، وجدران تزينها مرايا ومفارش حمراء، وتمائيل من مرمر (إنها تماثيل مهما تكن)، أثاث مهيب (يرجع عهده إلى عصر نابوليون) مدهون ببياض وذهب ومكسو بمخمل قرمزي اللون. وفي آخر القاعة نُصب منبر للذين سيشاركون في الصبيحة الأدبية. وفي سائر القاعة صُفّت كراسٍ كما تُصّف في مسرح، وجُعِلت بين صفوفها مسافات عريضة تسمح بمرور الجمهور. ولكن ما إن انقضت دقائق الدهشة الأولى حتى أخذ الناس يتبادلون ملاحظات من أغرب ما تكون الملاحظات، ومن أغبى ما تكون الملاحظات. "ربما كنا لا نريد إنشاد الشعر... لقد دفعنا ثمن تذاكر الدخول مبلغاً طائلاً... خدعوا

الجمهور... نحن هنا السادة لا آل لمبكه!..." الخلاصة: لكنهم ما أدخلوا
 إلّا ليحدثوا لغطاً وفوضى. أتذكر على وجه الخصوص حادثاً كان بطله ذلك
 الأمير الذي يلتف عنقه بياقة عالية مسرفة في العلو، والذي يشبه أن يكون
 وجهه آلة متحركة من تلقاء ذاتها، إنه ذلك الأمير الذي لقيته أمس عند جوليا
 ميخائيلوفنا. لقد قبل بعد إلحاح من جوليا ميخائيلوفنا أن يعلّق على كتفه
 اليسرى عقدة شريط، وأن يكون بذلك أحد المشرفين. فهذا الشخص الأبكّم
 الذي تكاد حركاته أن تكون حركات آلة انضج أنه يستطيع أن يفعل إذا كان لا
 يستطيع أن يتكلم. لقد ناداه كابتن محال على التقاعد، ناداه بفضافة وغلظة،
 وهو رجل عملاق في وجهه بقايا من بشور الجدرى، شجعتة عصبية من
 الأوغاد فطالب بأن يُقاد إلى "البوفيه". فما كان من الأمير إلّا أن أوماً لرجل
 من رجال الشرطة، فأسرع الشرطي يتدخل فوراً ليخرج الكابتن من القاعة
 رغم احتجاجاته الصارخة وزعيقه المتصل. وفي أثناء ذلك أخذ الجمهور
 "الحقيقي" يصل ويجلس متسللاً بين الممرات الثلاثة التي جُلعت بين
 صفوف الكراسي. وصمت الصياحون شيئاً فشيئاً. ولكن الجمهور "الرفيع
 المقام" كان يبدو عليه عدم الرضى وكانت تبدو عليه الدهشة. وكان عدد من
 السيدات يبدو مرتاعاً لا أكثر ولا أقل.

واستقر كل فرد في مكانه أخيراً. وصمتت الموسيقى. كان الناس
 يتمخّطون وينظرون من حولهم. وكان للانتظار أبهة وفخامة. وهذا في
 العادة نذير سوء. لم يصل لمبكه وزوجته حتى الآن. لا ترى العين في ما
 حولها إلّا حريراً ومخملاً وماساً. العطور تملأ الجو. السادة يحملون جميع
 أوسمتهم، حتى إن المتقدمين في السن وأصحاب الرتب العالية يرتدون
 بزاتهم الرسمية. وأخيراً دخلت زوجة مارشال النبالة تصحبها ليزا. لم تكن
 ليزا في يوم من الأيام باهرة الجمال ولا رائعة الزينة كما كانت في ذلك اليوم.
 إن شعرها يتهدل على كتفيها صفائر، وإن عينيها تسطعان سطوعاً براقاً، وإن
 بسمه مشرقة تشعّ في وجهها. أحدث دخولها أثراً عظيماً. التفتت نحوها
 جميع الأبصار وأخذ الناس يتبادلون الملاحظات والآراء عنها بصوت

خافت. وأكّد بعضهم أنها كانت تبحث بنظراتها عن ستافروجين. ولكن لا ستافروجين ولا فرفارا بتروفا كانا في الصالة. لم أدرك عندئذ المعنى الذي عبّر عنه وجه ليزا، ولا فهمت لماذا كان محياها يفيض سعادة وفرحاً وقوة. وخطر ببالي ما حدث بالأمس، فطفقت أحس وأفترض وأخمن. لا يزال آل لمبكه غائبين لم يصلوا بعد. تلك خطيئة. علمت في ما بعد أن جوليا ميخائيلوفنا قد انتظرت بطرس ستيفانوفتش إلى آخر لحظة. لقد أصبحت لا تستطيع الاستغناء عنه، رغم أنها ترفض الاعتراف بذلك في قرارة نفسها. بالأمس، في آخر اجتماع عقدته اللجنة، كان بطرس ستيفانوفتش قد ردّ عقدة الشريط التي توضع على كتف المشرف، فاستاءت جوليا ميخائيلوفنا استياءً شديداً وخاب أملها حتى أوشكت الدموع أن تترقق في عينيها حزناً ولوعة. فلما لم تره في الغد، أدهشها ذلك كثيراً ثم أدخل الاضطراب والبلبل إلى نفسها (إنني أستبق الأحداث): إنه لم يجرى لشهود الصبيحة الأدبية، وجاء المساء من دون أن يسمع أحد عنه شيئاً.

أخذ الجمهور يُظهر بعض التملل. لا تزال المنصة خالية. ودوى تصفيق في الصفوف الأخيرة، كما يحدث في المسرح. السيدات والرجال المسنون يبدو عليهم الامتعاض، "إن آل لمبكه لا يزعمون أنفسهم!". ووصلت إشاعات سخيفة حتى إلى الصفوف الأولى: لن تُقام الحفلة، فالحاكم قد بلغ به المرض أنه لن... إلخ إلخ! ولكن وصلت أسرة لمبكه أخيراً ولله الحمد. كانت الزوجة متأبطة ذراع زوجها. أعترف أنني كنت قد فقدت الأمل في وصولها. إن الحقيقة تنتصر على الإشاعات الكاذبة. بدا الهدوء وظهرت الطمأنينة على الجمهور. كانت هيئة أندره أنطونوفتش تدل على أن صحته جيدة. ذلك كان شعور الجميع: في وسعكم أن تتصوّروا كيف كان الناس ينظرون إليه بانتباه شديد. يجب أن أقول من جهة أخرى - وذلك يميّز الحالة النفسية التي كان عليها الجمهور - إن قلة من الأفراد في المجتمع الراقي كانت تصدّق أن لمبكه مريض: ففي تلك البيئة كان لمبكه يتصرّف تصرفاً سليماً جداً، حتى لقد أيدوا الموقف الذي وقفه بالأمس في الميدان. كانت

الشخصيات الرفيعة المقام تقول: "بهذا إنما كان ينبغي له أن يبدأ. إن هؤلاء الموظفين البطرسبرغيين الذين يصطنعون في البداية دور محبي البشر يتتهون إلى الاعتقاد، كسائر الناس، من دون أن يشعروا بذلك، أن هذه الطريقة هي أحسن الطرق التي يجب أن يستعملها محبو البشر". هكذا كانوا يفكرون في نادينا. وكانوا يلومونه على أنه انقاد للغضب: "كان ينبغي له أن يحافظ على هدوئه. ولكن سبب اندفاع الغضب واضح: إنه تعوزه الخبرة والتجربة". كذلك كان يقول الأخصائيون في الموضوع. وقد رأت جوليا ميخائيلوفنا أنها محط جميع الأنظار أيضاً. لا يمكنكم أن تطالبوني طبعاً بتفاصيل دقيقة جداً عن بعض الوقائع: نحن بصدد امرأة، وبصدد سرٍّ من أسرار حياتها الصميمة، إنني لا أعرف إلا شيئاً واحداً: هو أن جوليا ميخائيلوفنا قد لحقت بآندره أنطونوفتش مساء أمس إلى حجرة عمله، ولبثت معه هنالك إلى ما بعد منتصف الليل. فما زالت به حتى غفرت له وعفت عنه، وواسته وعزته. واتفق الزوجان على جميع النقاط، ونُسي كل شيء. وحين تذكر فون لمبكه، في نهاية المصارحة، حين تذكر مذعوراً انفجار غضبه في الليلة السابقة، لم يستطع أن يكبح جماح نفسه، فجثا راکعاً على ركبتيه. فما كان من جوليا ميخائيلوفنا إلا أن مدت يدها الفاتنة ترفه عنه وأخذت تلمسه بشفتيها مخففة اندفاعات الندامة لدى هذا الرجل الفارس المرهف الشعور المسرف في الانقياد لعواطف الرقة والحنان، أعني آندره أنطونوفتش.

لاحظ جميع من في الصالة ما يشع في وجه جوليا ميخائيلوفنا من معاني السعادة. كانت تتقدم في زهو وخيلاء، وهي ترتدي ثوباً رائعاً. لكان أقصى أمانيتها قد تحققت: إن هذه الحفلة التي كانت هدفاً وتوجيهاً لسياستها قد أصبحت واقعاً في آخر الأمر. اتجه لمبكه وزوجته إلى مكانيهما في الصف الأول، مرسلين تحيات كثيرة عن يمين وشمال. ولم يلبس أن أحاطت بهما جمهرة كبيرة. ومضت نحوهما زوجة مارشال النبالة... فإذا بغلطة مؤسفة تقع في تلك اللحظة: لقد أخذت الأركسترا، على حين فجأة، بدون أي سبب، تنفخ في البوق لحناً من تلك الألحان المألوفة في المآدب الرسمية

حين يشرب الناس نخب شخص من الأشخاص. إنني أعلم الآن أن ليامشين، بصفته مرشداً من مرشدي الحفلة، قد أراد أن يستقبل أسرة لمبكه هذا الاستقبال. ولقد كان في وسعه عند اللزوم أن يتحل لهذه الفعلة أي عذر من الأعدار، فيقول إنه تصرف هذا التصرف عن حماقة، أو أنه قد دفعته إليه الحماسة. وأسفاه! لقد كنت أجهل حينذاك أن ليامشين والآخرين أصبحوا لا يفكرون في الاعتذار ولا يريدون انتحال الحجج والتعلّات، وأنهم سيزيحون النقاب عن وجوههم في ذلك المساء تماماً. ولكن المظاهرة لم تقتصر على لحن عُزف بأبواق: فبينما كان الناس يتبادلون نظرات مدهوشة وابتسامات، ترجعت في آخر الصالة وعلى المنصات صيحات استحسان موجهة إلى لمبكه وزوجته. إن الصيحات ضعيفة، لكنها استمرت زمناً!... احمرّت جوليا ميخائيلوفنا احمراراً شديداً، والتمعت عيناها. ووقف فون لمبكه إلى جانب كرسيه، والتفت إلى الجهة التي كانت تصدر عنها الأصوات، وأجال على الحضور نظرة فيها فخامة وقسوة... فسرعان ما أجلسوه. ولاحظتُ على وجهه، من جديد، تلك الابتسامة المقلقة نفسها التي ظهرت على شفثيه بالأمس، في صالون زوجته، حين همّ أن يتقدم من ستيفان تروفيموفتش. لقد بدالي أن هيئته لا تبشّر بخير، بل أسوأ من ذلك إنها مضحكة قليلاً، فهي تعبر عن عزيمة رجل قرر أن يضحي بنفسه إرضاءً للأهداف العليا التي ترمي إليها زوجته!... أسرعت جوليا ميخائيلوفنا تستدعيني بإشارة من رأسها، وقالت لي بدمدمة خافتة أن أجري إلى كارمازينوف فأضرع إليه أن يبدأ. ولكن ما إن أوليتها ظهري حتى حدثت دناة جديدة أبشع من الأولى أيضاً. فعلى المنبر، على المنبر الخالي الذي اتجهت إليه حتى الآن جميع الأبصار وانصب عليه كل الانتظار، والذي كان لا يرى فيه المرء إلا مائدة صغيرة أمامها كرسي وفوقها كأس ماء على صينية من فضة - أقول: على هذا المنبر الخالي ظهرت على حين فجأة قامة مديدة ضخمة هي قامة الكابتن لبيادكين مرتدياً رداء فراك مع ربطة عنق بيضاء. بلغت من شدة الذهول أنني لم أصدق عيني في اللحظة الأولى. وكان الكابتن يبدو خجلاً وجلاً وقد وقف في آخر المنبر.

غير أن أحداً صرخ يقول في الجمهور: "كيف؟ أهذا أنت يا لبيادكين؟". فإذا بوجه لبيادكين، إذا بوجهه الغبي المحتقن المحمر من فرط الطعام والشراب (ولقد كان سكراناً تماماً)، إذا به يتألق لدى سماع هذه الكلمات فتنتشر فيه ابتسامة بلهاء، وإذا هو يرفع يده، ويحك جبينه، ويهزّ رأسه الكث الأشعث، ثم يجمع قواه ويعزم أمره فيتقدم خطوتين إلى أمام، ويطلقها ضحكةً مقهقهة طويلة سعيدة هزّت جسده الضخم كله، وغضّنت عينيه. فأخذ عدد كبير من الجمهور يضحك لهذا المشهد، بينما راح الجادون من المشاهدين يتبادلون نظرات حانقة. وذلك كله لم يدم إلاّ زهاء ثلاثين ثانية على كل حال، هرع بعدها لبيوتين إلى المنصة يتبعه خادمان أمسكا الكابتن بلطف من إبطيه، بينما همس لبيوتين في أذنيه ببضع كلمات. فقطب الكابتن حاجبيه، ودمدم يقول وهو يحرك يده: "إذا كان الأمر كذلك..."، ثم أدار للجمهور ظهره الضخم وانقاد للممسكين به. ولكن ما هي إلاّ لحظة حتى عاد لبيوتين إلى المنصة وفي يده ورقة من الورقات التي تكتب عليها الرسائل، فاصطنع ابتسامة عذبة من ابتساماته تلك التي يختلط فيها السكر بالخل، وتقدم بخطى قصيرة إلى حافة المنبر، وقال:

- أيها السادة، لقد أوقعنا السهو والإهمال في غلطة مضحكة سرعان ما وضعنا لها حداً من حسن الحظ على كل حال. لكنني أخذت على عاتقي أن أنقل إليكم - آملاً أن تقبلوا ذلك - رجاءً زائراً بالاحترام يوجهه إليكم أحد شعراء مدينتنا. إن هذا الشاعر الذي هزّته وحركت أوتار قلبه فكرة إنسانية رفيعة (رغم مظهره الخارجي) هي تلك الفكرة نفسها التي جمعتنا في هذا المكان... إن هذا السيد... أريد أن أقول إن هذا الشاعر... على رغبته في كتمان اسمه يود كثيراً لو تُتلى قصيدته قبل حفلة الرقص، أقصد قبل الجلسة الأدبية. وهذه الأبيات الشعرية، رغم أن برنامج الحفلة لا يتضمن إلقاءها، قد بدت لنا نحن (من "نحن"؟ إنني أنقل هنا نص خطابه المضطرب المفكك كلمة كلمة بل حرفاً حرفاً) إنها بما تتميز به من براءة العاطفة، بالإضافة إلى ما تتصف به كذلك من الظرف وروح المرح، تستحق أن تقرأ، لا من حيث

أنها قصيدة جادة طبعاً، ولكن لأنها تتعلق نوعاً من التعلق بالفكرة. أو قولوا
بالغاية التي ترمي إليها حفلتنا هذه... لا سيما وأنها لا تعدو أن تكون أبياتاً
قليلة. خلاصة الأمر أنني أستأذن الحضور الكرام في أن...

أعول صوت من آخر الصالة يقول:

- اقرأ.

- أأقرأ؟

فصرخ عدة أشخاص يقولون:

- اقرأ! اقرأ!

قال ليوتين وهو لا يزال يرسم على شفتيه تلك الابتسامة المتعاذبة:

- سوف أقرأ إذا.

ومع ذلك كان يبدو عليه التردد. حتى لقد قدّرت أنه منفعل بعض
الانفعال. إن أمثال هذا الإنسان، مهما يكونوا وقحين، يتفق لهم أحياناً أن
يتخاذلوا. لو كان طالباً لما تردد حتماً، ولكن ليوتين ينتمي رغم كل شيء
إلى الجيل القديم.

- أنبئكم سلفاً، أقصد يشرفني أن أنبئكم سلفاً أن القصيدة ليست من تلك
القصائد التي كان ينظمها الشعراء في الماضي لمناسبات ذات أبهة وجلال.
فما هي في حقيقة الأمر إلا مزاحاة، ولكنها زاحرة بعاطفة خالصة، بالإضافة
إلى ظرف لاذع وواقعية صادقة إن صح التعبير.

- اقرأ! هلا قرأت!

فضّ ليوتين الورقة. لم يتسع وقت أحد للتدخل طبعاً. ثم إن ليوتين كان
يحمل شارة مشرف من المشرفين على الحفلة. وها هو ذا ينشد بصوت رنان:
قصيدة مهداة من الشاعر إلى معلّمتنا الوطنية في هذه المناطق
بمناسبة هذا الاحتفال:

تحية تحية أيتها المعلّمة

انتصري وابتهجي

رجعية كنت أم كنت مثل جورج صاند

ابتهجي كائنة ما كنت!

صاحت بعض الأصوات تقول:

- ولكن هذا شعر لبيادكين. نعم، هذا شعر لبيادكين.
وانطلقت ضحكات، بل سمعت أيضاً تصفيقات، وإن تكن قليلة.

تعلمين اللغة الفرنسية

لأطفال صغار بلداء

وتصطنعين السرور

لكل من يرغب في أن يدفع الأجور

- صحيح، صحيح. هذا من الواقعية. لا حيلة للمرء بغير مال.

لكننا بفضل هذا الاحتفال

أصبحنا نملك رأس مال

هذا مهر كنهديه إليك

وهذه هدية من أصدقاء

رجعية كنت أم كنت جورج صائد

تستطيعين أن تختاري زوجك

وأن تبصقي، أيتها المعلمة

بعد أن تملكي المهر

على كل شيء!

لم أصدق أذني. إن في هذا من الوقاحة ما لا يمكن معه أن يُعذر لليبوتين ولو تعلل بالحماسة والغباء. لا سيما وأن ليبوتين لم يكن غيباً البتة. لقد كانت النية واضحة، في نظري على الأقل: إنهم يتعجلون إحداث فوضى وبلبلة وفضيحة. إن بعض أبيات هذه القصيدة الغبية، ولا سيما الأخير منها، شيء لا يمكن قبوله، مهما يكن قائله أبله. وأظن أن ليبوتين قد أحس بأنه أسرف: فبعد أن فعل فعلته جمّده هذه الجرأة نفسها في مكانه، فلبث على المنصة كأنما هو يريد أن يضيف شيئاً آخر. لعله كان يتوقع أن يُستقبل غير هذا الاستقبال، وأن يُحدث غير هذا الأثر. ولكن الذي حدث هو أن فئة الأوباش الصغيرة نفسها التي قاطعته بالتصفيق قد صمتت مذعورة على حين فجأة. وكان عدد

كبير منهم قد أخذ القصيدة مأخذ الجد، وعدّها شعراً واقعياً لبراليّ الاتجاه. غير أن ما اشتملت عليه الأبيات من عامية مثيرة مزعجة قد ضايقتهم هم أيضاً آخر الأمر. أما السواد الأعظم من الجمهور فقد شعر بفضيحة كبيرة، لا بل أحس أنه أهين. لا أخشى أن أكون مخطئاً حين أزعّم هذا. لقد اعترفت جوليا ميخائيلوفنا في ما بعد أنها أوشكت أن يُغمى عليها. وهناك سيد عجوز محترم وامراته قد نهضا وغادرا الصالة على مرأى من الناس الذين كانت نظراتهم تعبر عن القلق. ومن يدري؟ لعل أشخاصاً آخرين كانوا سيققدون بهما ويفعلون مثلهما لولا أن كارمازينوف الذي يرتدي رداء فراك ويضع ربطة عنق بيضاء ويمسك بيده دفترأ قد ظهر على المنصة في تلك اللحظة نفسها. لقد استقبلته جوليا ميخائيلوفنا بنظرة مفتونة مسحورة كما يُستقبل منقذ... لكنني أسرعت أمضي إلى ما وراء الكواليس. كنت أريد أن ألقى ليبوتين.

قلت له مستاءً وأنا أمسك ذراعه:

- أنت فعلت هذا عامداً.

فأجابني وهو ينكمش على نفسه ويصغّر جسمه ويتظاهر بأنه آسف لما وقع أشد الأسف:

- لم يخطر ببالي هذا... حقاً لم يخطر ببالي هذا... أحلف لك. لقد جاؤوني بهذه الأشعار، فظننتها تبعث على التسلية والضحك.

- لا، لم تظن ذلك. يستحيل عليك أن تعد مثل هذه القذارة مزاحة جميلة! - بل هكذا تصورتها!

- أنت تكذب. وليس صحيحاً كذلك أنهم جاؤوك بهذه الأشعار من هنية قصيرة. لقد كتبتها مع ليبادكين، ربما في مساء أمس، لا شيء إلا إثارة فضيحة. لا شك أنك أنت قائل البيت الأخير منها. لماذا كان ليبادكين يرتدي رداءً رسمياً؟ أكان هو الذي سيقراً القصيدة لولا أنه كان سكراناً؟

اصطنع ليبوتين هيئة باردة شريرة. وسألني بهدوء غريب:

- فيم يعنيك هذا؟

- فيم يعنيني؟ ما هذا السؤال؟ أنت أيضاً تحمل على كتفك شارة مشرف من المشرفين على الحفلة... أين بطرس ستيفانوفتش؟
- لا أعلم. في مكان ما هنا. لماذا تسأل عنه؟
- لأنني أفهمكم الآن. هذه مؤامرة على جوليا ميخائيلوفنا لإفساد الحفلة. رشقني ليبوتين بنظرة مأكرة:
- ولكن ما شأنك أنت؟
وابتسم، ورفع كتفيه، وتركني.

صُغت. تأكدت شبهاتي وشكوكي كلها. ما كان أغباني حين كنت أمل أن أكون مخطئاً في ظنوني! ماذا يجب أن أفعل؟ بدالي في اللحظة الأولى أن أستشير ستيفان تروفيموفتش. ولكن ستيفان تروفيموفتش الذي كان متمسراً أمام مرآة، كان يجرب ابتسامات ويراجع في كل لحظة من اللحظات ورقه كان قد دوّن عليها بعض الملاحظات. لقد كان عليه أن يتكلم بعد كارمازينوف رأساً، ولم يكن في وسعه حتماً أن يبدي إليّ أية نصيحة. هل يجب أن أسعى إلى جوليا ميخائيلوفنا؟ ولكن الألوان لم يحن بعد: إنها لا تزال في حاجة إلى درس أقسى من هذا الدرس لتشفي من أوهامها ولتبرأ من اعتقادها بأن الذين يحيطون بها متعصبون في إخلاصهم لها متفانون في سبيل خدمتها. ما كان لها أن تصدقني، وما كان لها إلا أن تعذني إنساناً تراوده الهواجس وتستبد به الوسواس. ثم ماذا في وسعها أن تفعل؟ ثم قلت لنفسني: "وفيم يهمني هذا فعلاً؟ سوف أنزع الشارة عن كتفي، وأمضي إلى بيتي، حين سيبدأ الأمر". لقد نظقت فعلاً بهذه الكلمات: "حين سيبدأ الأمر". إنني أتذكر هذا جيداً.

ولكن يجب أن أمضي أستمع إلى كارمازينوف. فلما طفت ببصري على الكواليس مرة أخيرة رأيت ناساً مجهولين يتجولون فيها، حتى إن بينهم نساء. فبعضهم يدخل، وبعضهم يخرج. إن هذه الكواليس مساحة ضيقة تفصلها عن الصالة ستارة، ويصلها بالحجرات الأخرى دهليز. فهناك إنما كان الذين سيظهرون على المسرح ينتظرون أن يجيء دورهم. فلما هممت أن أخرج خطف بصري على حين فجأة منظر الشخص الذي سيعقب ستيفان

تروفيموفتش. إنه أستاذ في ما أظن (حتى اليوم لا أعرف ماذا كان على وجه الدقة): يقال إنه ترك بمحض إرادته المؤسسة التي كان يعلم فيها، وذلك في أعقاب اضطرابات حدثت بين الطلاب، وهو اليوم في مدينتنا لا أدري لأية أسباب. هو أيضاً قد زُكي لجوليا ميخائيلوفنا فاستقبلته باحترام. إنني أعرف الآن أنه لم يجرى إليها إلا مرة واحدة، وأنه لم يفتح فمه بكلمة واحدة طوال السهرة، مكتفياً بأن يتسم ابتسامة ساخرة من الأمازيح التي كان يتبادلها الحاضرون عند جوليا ميخائيلوفنا ومن اللهجة التي كانوا يتكلمون بها. ولقد أحدثت هيئته المتغطرة وحساسيته المتأذية أثراً مزعجاً جداً. يجب أن أذكر أن جوليا ميخائيلوفنا نفسها هي التي طلبت منه أن يشترك في الصبيحة الأدبية. كان حين رأته يمشي طويلاً وعرضاً، ويكلم نفسه، مثل ستيفان تروفيموفتش، ولكنه كان خافض العينين. لم يكن يدرس ابتساماته أمام المرأة، رغم أنه كان يتسم كثيراً فتعبّر ابتساماته عن خبث وشر وقسوة. هو أيضاً كان لا يمكن أن يخاطب طبعاً. إنه قصير القامة، أصلع الرأس، شائب اللحية، محتشم الملبس، يبدو في نحو الأربعين من عمره. لكن أغرب ما في الأمر هو أنه كان كلما استدار يرفع قبضة يده اليمنى ويلوح بها فوق رأسه ثم يسقطها فجأة كأنه يسحق خصماً من الخصوم. كانت هذه الحركة تتكرر بانتظام. شعرت بضيق وغم وأسرعت أمضي إلى سماع كارمازينوف.

3

مرة أخرى كان الجو في الصالة مشحوناً بالكهرباء. إنني أعلن لكم سلفاً أنني أجلّ عظمة العبقريّة، ولكنني أتساءل لماذا نرى هؤلاء السادة، رجالنا العباقرة، يتصرفون تصرف صبيّة صغار حين يصلون إلى نهاية سنيهم المجيدة؟ مهما يكن كارمازينوف عظيماً مشهوراً، ومهما يكن دخوله إلى القاعة محفوفاً بهالة من الفخامة والأبهة كأنه ياوران ملك من الملوك، فهل كان في وسعه أن يحمل على الصبر جمهوراً كجمهورنا مدة ساعة كاملة؟ لقد لاحظت على وجه العموم أن الخطيب لا يمكنه في اجتماعات أدبية

من هذا النوع أن يحتل المنصة أكثر من عشرين من دقيقة دون أن يعاقبه الجمهور، مهما يكن عبثياً. يجب أن أذكر على كل حال أن هذا الرجل العظيم قد استُقبل استقبلاً فيه أقصى الاحترام، وأن الشيوخ الوقورين قد أظهروا ترحيبهم وتأييدهم ولاح عليهم كثير من حب الاطلاع. أما السيدات فقد بانن عليهن الحماسة. ولقد كان التصفيق قصيراً مع ذلك، ولم يكن شاملاً. غير أن الصفوف الأخيرة ظلت هادئة ساكنة إلى اللحظة التي بدأ فيها السيد كارمازينوف الكلام. وحتى في تلك اللحظة لم يحدث شيء ذو بال. فكل ما حدث عندئذ لا يعدو أن يكون سوء تفاهم. لقد سبق أن قلت إن صوت السيد كارمازينوف صارخ قليلاً، نسوي بعض الشيء، وأنه عدا ذلك متعاذب تعاذباً أرستقراطياً. لذلك فما كاد يتكلم حتى رأينا أحدهم يبيح لنفسه أن يضحك: ربما كان الضاحك رجلاً أحمق لا أكثر، رجلاً لم ير في حياته شيئاً، فكل شيء يفرحه ويضحكه. ولا شك في أنه لم يخطر بباله إحداث فضيحة. وسرعان ما قامت في الصالة أصوات قوية تأمر بأن يخرس، فسكت وجمد في مكانه. ولكن ها هو ذا السيد كارمازينوف يصرح متصنعاً بأنه "كان في أول الأمر لا يريد أن يقرأ شيئاً أمام جمهور، مهما تكن الأسباب". (لقد كان في حاجة إلى أن يقول هذا، حقاً!). "إن هناك أسطراً تنبع من القلب رأساً كأنها غناء. فإذا قرأتها على جمهور كنت تسيء إليها وتحط من قدرها وتجردّها من قدسيّتها." (لماذا يقرأها والحالة هذه؟) ولكنهم بلغوا من الإلحاح عليّ أنني وافقت أخيراً. ولما كنت من جهة أخرى أهجر القلم إلى الأبد، ولما كنت قد آليت على نفسي أن لا أكتب بعد اليوم شيئاً، فقد قررت هذه المقالة الأخيرة، ولما كنت قد حلفت أن لا أقرأ على الجمهور بعد اليوم شيئاً، فقد قررت أن أقرأ الآن ما كتبت توديعاً للجمهور، إلى آخر ما هنالك من كلام مشابه.

ولكن ذلك كله ما كان ليعدّ شيئاً. من ذا الذي يجهل مقدمات الكتاب؟ يجب أن أذكر مع هذا أن أمثال هذا الكلام يمكن أن تحدث آثاراً سيئة كل سوء في مثل هذا الجمهور الذي تعوزه الثقافة، ولا سيما إذا كانت الحالة

النفسية لدى المستمعين في آخر القاعة هي ما كانت عليه فعلاً. لقد كان من الأفضل للسيد كارمازينوف أن يقرأ قصة قصيرة، أو أن يقرأ حكاية صغيرة من نوع الحكايات التي كان يكتب مثلها في الماضي، وهي حكايات إن كان فيها تصنع وافتعال، فإن فيها فكاهة في بعض الأحيان على كل حال. فلو فعل ذلك لأنقذ كل شيء. ولكن لا. لقد كان يريد شيئاً آخر. لقد ألقى خطاباً لا نهاية له. رياه! ما أكثر ما احتوى مقاله من كلام! إنني لعلّى يقين بأن جمهور العاصمة نفسه ما كان يمكن أن يتحمّل هذا الخطاب كله، فما بالك بجمهور مدينتنا! تصوروا ملزمتين من ملازم المطبعة مملوءتين ثرثرة متأنقة فارغة! زد على ذلك أن كارمازينوف كان يقرأ بلهجة المتفّصل المتواضع، فكانه يُنعم علينا ويغمرنا بإحسانه. فمن شأن هذا أن يسيء إلى كبرياء الناس طبعاً. أما الموضوع فمن ذا الذي كان يمكنه أن يفهمه؟ لقد كان مدار المقال على بعض الانطباعات وبعض الذكريات. ولكن بأية مناسبة؟ ما أكثر ما قطب المستمعون حواجبهم وحكّوا جباههم أثناء سماع الجزء الأول من القصة عسى أن يفهموا شيئاً ولكنهم لم يظفروا بطائل. لذلك لم يصغوا إلى الجزء الثاني إلّا من قبيل الكياسة والتهذيب. لقد كان في المقال كلام كثير عن الحب، عن الحب الذي ملأ قلب الكاتب العبقري يوم توله بغرام فتاة شابة. أعترف لكم أن هذا قد بدا محرجاً بعض الإحراج، بل مزعج بعض الإزعاج. فما أكبر التعارض في رأيي بين وجهه المتكشر المترهل وبين القصة التي يرويها لنا عن قبلته الأولى!... والشيء الذي كان مثيراً أكثر من كل ما عداه هو أن قصة القبله هذه لم تحدث كما تحدث لجميع الناس. كان لا بد أن تحيط بها أزهار الورّال (أزهار الورّال أو أية نباتات مزهرة أخرى لا تستطيع أن تعرفها إلّا إذا رجعت إلى كتب النبات)، وكان لا بد أن يكون لون السماء فوقها ضارباً إلى لون البنفسج، وهو لون لم يستطع أن يميّزه في السماء أحد من البشر يوماً، بل قل إن البشر رأوه ولكنهم لم ينتبهوا إليه ولم يحفلوا به "أما أنا فقد ميّزته، ميّزت هذا اللون، وإنّي لأصفه لكم أيها الأغبياء، كما يوصف شيء بسيط كل البساطة". وإن الشجرة التي كان الكاتب العبقري وحييته

جالسين تحتها لا بد أن تكون بلون البرتقال. والحبيبان موجودان في مكانٍ ما بألمانيا. وهما يبصران بومبيوس أو كاسيوس على حين فجأة، عشية معركة خاضها، فإذا بالحبيبين يتجمدان افتناناً. وهذه حورية من حوريات البحر تطلق صرخة وراء أحد الأدغال. وهذا جلوك يأخذ يعزف على الكمان، بين شجيرات القصب، لحناً عنوانه: "في جميع الآداب"، ولكن لما لم يكن أحد قد سمع عن هذا اللحن فلا بد من مراجعة معجم موسيقى لمعرفة. وفي أثناء ذلك ينتشر ضباب، ثم يتكاثر الضباب. بل يبلغ من الكثافة أنه يصبح أقرب إلى زغب منفوش منه إلى ضباب مألوف. وفجأة يغيب كل شيء، ويأخذ الرجل العظيم باجتياز نهر الفولغا أثناء تكسر الجليد. إنه يصف لنا عبور النهر في صفحتين ونصف صفحة. لقد سقط في الماء. إنه يغرق. هل يهلك؟ لا، لا، لن يهلك أبداً. لقد حكى لنا العبقري ذلك كله من أجل أن يقول إنه حين أوشك أن يغور في قاع المياه، لمح قطعة من الجليد فجأة، قطعة صغيرة جداً، لكنها صافية شفافة "كدمعة متجلدة"، وعليها كانت تتألق ألمانيا أو قل تتألق سماء ألمانيا. وهذا التألق المتلون بألوان قوس قزح يذكر الرجل العظيم بتلك الدمعة نفسها التي "كما تتذكرين، انحدرت من عينيك، حين كنا جالسين تحت شجرة الزمرد، فصرخت تقولين وقد زحرت نفسك فرحاً: "لا وجود للجريمة!"، فأجبتك من خلال عبراتي قائلاً: "نعم، ولكن لا وجود للصالحين العادلين أيضاً!"، ثم أجهشنا باكيين منتحيين، وافترقنا إلى الأبد". وذهبت الفتاة لا أدري إلى أي شاطئ من شواطئ البحر، وذهب هو يعتصم بمغارة في موسكو تحت برج سوخاريف. ولا يزال يهبط من مغارات إلى مغارات أعمق خلال ثلاث سنين حتى رأى في باطن الأرض مصباحاً قد وقف أمامه ناسك يصلي. ويقترب الكاتب من كوة ذات قضبان حديدية، فإذا هو يسمع زفرة. هل تظنون أن الناسك هو الذي تنهد؟ نعم إنه الناسك. ولكن الزفرة لا تزيد على أن تذكر الكاتب بالتنهيدة الأولى التي خرجت من صدر حبيبته قبل سبعة وثلاثين عاماً، "متى؟ هل تتذكرين؟ في ألمانيا، حين كنا جالسين تحت شجرة عقيق، فقلت لي: علام الحب؟ انظر إلى نباتات زهر

الوزال هذه التي تحيط بنا. لسوف أكف عن الحب متى صوّحت!". وهنا يتكاثر الضباب من جديد، وإذا هوفمان يظهر، وإذا حورية البحر تصفرّ لحناً من ألحان شوبان. وفجأة، فوق سطوح المنازل بروما، ينبجس من الضباب آنكوس ماركيوس متزناً بأغصان أشجار الغار. فإذا رعدة نشوة تهزنا، ثم افترقنا إلى الأبد" إلخ إلخ. لعلني لم أنقل ثرثرة صاحبنا نقلاً دقيقاً كل الدقة، ولكنني نقلت معنى الكلام وطابعه العام. تُرى ما مصدر هذا الشغف الشديد المخجل، لدى عظماء رجالنا، بأمثال هذه الشعوذات الدعية؟ إن الفلاسفة الأوروبيين، والعلماء، والمخترعين، والعاملين، والأبطال، إن جميع أولئك الذين يجهدون ويتألمون هم في نظر العبقري الروسي أشبه بخدم. إنه هو السيد، أما هم فلا يمثلون أمامه إلا رافعين قبعاتهم بأيديهم ينتظرون أوامره. صحيح أنه ينظر إلى روسيا من عل أيضاً، وأنه لا شيء أحب إلى نفسه من أن يعلن أن روسيا قد أفلست إفلاساً تاماً إزاء العقول الأوروبية العظيمة. ولكن هذا لا يصدق عليه هو، لا يصدق على شخصه: فهو من جهته يحلق عالياً فوق جميع العقول الأوروبية العظيمة التي لا تزيد على أن تمدّه بمادة عبث. إنه يستولي على فكرة غيره، فيضم إليها النقيض الذي يتصوره، فيتم العبث، وتنتهي اللعبة. الجريمة موجودة، الجريمة غير موجودة. الحقيقة لا وجود لها. ليس هناك صالحون عادلون. الإلحاد. الداروينية. أجراس موسكو... لكنه لا يؤمن بأجراس موسكو مع الأسف! روما، أكاليل الغار! ولكنه أصبح لا يؤمن حتى بأكاليل الغار!... أضف إلى ذلك وصولاً اضطرارياً إلى سأم على طريقة بايرون، وتصغيرة وجه على طريقة هايني، وجملّة من كلام بتشورين! وتسير الآلة... وتسير!... "ولكن عليكم خاصة أن تمدحوني! امدحوني! ذلك ما أريده! وحين أعلن أنني أهجر القلم، فما ذلك مني إلا تظاهر! انتظروا قليلاً! لسوف أضجركم ثلاثمائة مرة أخرى... حتى تضيقوا ذرعاً بقراءة ما أكتب!".

كان طبيعياً أن لا تكون خاتمة ذلك حسنة. ومع ذلك فإذا كانت الأمور قد جرت مجرى سيئاً، فإنما الذنب في هذا ذنب كارمازينوف. لقد أخذ الناس

منذ مدة يتمخطون ويسعلون ويتحركون متململين، كما يحدث دائماً حين يحتل الخطيب المنصة أكثر من عشرين دقيقة، كائناً من كان الخطيب. ولكن الكاتب العبقرى لم يلاحظ شيئاً. لقد ظل يتكلم بصوته المتعاذب المترقق وظل يتظارف ويتغنج من دون أن ينتبه إلى الجمهور الذي أخذ يُدهش من هذه الحالة. وفجأة تعالى صوت قوي من آخر الصالة يصيح قائلاً:

- ما هذه السخافات!

كانت صيحة غير مقصودة. أنا واثق بذلك. هي صيحة إنسان استبد به التعب والضجر، ولم يكن يخطر بباله قط أن يحدث لغطاً ولبلة. ولكن السيد كارمازينوف توقف عن الكلام، وألقى على الحضور نظرة سخرية، واصطنع على حين فجأة لهجة ياوران منزعج قائلاً:

- يبدو أيها السادة أنني أضجركم بعض الإضجار، أليس كذلك؟

لقد كان خطأه أنه تكلم أول من تكلم. إنه بإلقائه هذا السؤال قد منح أي وغد حق الإجابة بطريقة من الطرق. فلو أنه سيطر على نفسه وأمسك عن الكلام، لأمكن أن يستمر الناس في التمخط والسعال، ولربما قضت الأمور عند ذلك الحد لا تتعداه!... لعل كارمازينوف كان يتوقع أن يجيء الجواب عن سؤاله تصفيقاً. ولكن أحداً لم يصفق. بالعكس: ظهر على الناس القلق، ولبثوا ساكنين لا يتحركون.

قال صوت مغتاض يكاد يكون حانقاً:

- أنت لم ترَ أنكوس مارسيوس في حياتك. ما هذه إلا جمل منمقة.

وقال آخر مؤيداً:

- تماماً. لا أحد اليوم يميل إلى الرؤى الخيالية. وإنما تحب الناس في هذا الزمان العلوم الطبيعية. هلا اطلعت على العلوم الطبيعية؟

قال كارمازينوف مذهولاً:

- أيها السادة، حقاً لم أكن أتوقع اعتراضات من هذا النوع.

إن هذا الرجل العظيم كان قد نسي في كارلسروه ووطنه.

صرخ شاب يقول بصوت كأنه صوت طائر من الجوارح:

- إنه لمن المخزي في هذا العصر أن يزعم لنا زاعم أن الأرض تحملها ثلاث سمكات. أنت لم تهبط إلى مغارة في يوم من الأيام، ولا رأيت ناسكاً. ومن ذا الذي يتكلم عن ناسك في هذا الزمان؟
قال كارمازينوف:

- إن الشيء الذي يدهشني أكثر من كل ما عداه هو أنكم تأخذون الأمر مأخذ الجد إلى هذا الحد. على كل حال، على كل حال، أنتم على حق. ما من أحد يحترم الحقيقة أكثر مني...
لقد كان مذهولاً مشدوهاً، رغم أنه ظل يتسم ساخراً. وكان وجهه يقول: "أنا لست أبداً ما تظنون. أنا معكم. ولكن امدحوني، اغمروني بالمديح. إني أعبد المديح...".

وقال أخيراً وقد اغتاض اغتياظاً عميقاً:
- أرى أيها السادة أن قصيدتي الصغيرة المسكينة لم تجئ في محلها، وأني أخطأت هدفي.
- رمى غراباً فأصاب بقرة.

كذلك صرخ يقول بأعلى صوته غبيّ ربما كان سكراناً. ولا شك في أنه كان لا ينبغي الرد على هذه المقولة التي أشارت بضع ضحكات يعوزها الاحترام والحق يقال، ولكن كارمازينوف استجاب استجابة عنيفة. فصاح يقول بصوت كان ما ينفك يزداد صياحاً:

- بقرة؟ في ما يتعلق بالغربان والأبقار، أعتقد أن الأفضل أيها السادة أن أمتنع عن التعليق. إنني أحترم جمهوري أشد الاحترام، أياً كان هذا الجمهور، فلا يمكن أن أسمح لنفسي بتشبيهات ولو كانت بريئة، ولكنني أظن...
قال واحد من آخر القاعة:

- أراك تسرف مع ذلك!
- ولكنني ظننت أنني إذ أهجر القلم وأودع القارئ كنتُ سأسمع...
فارتفعت في الصفوف الأمامية أخيراً بضعة أصوات جريئة تقول:
- نعم، نعم، نريد أن نسمعك، نريد أن نصغي إليك!

وصرخت سيدات متحمسات تقول:

- اقرأ! اقرأ!

ودوّت أخيراً تصفيقات وإن تكن ضعيفة هزيلة. فابتسم كارمازينوف ابتسامة متقلصة ونهض.

وقالت زوجة مارشال النبالة نفسها:

- ثق يا كارمازينوف أن الجميع يعدون الإصغاء إليك شرفاً عظيماً...

ومن آخر الصالة قام معلّم مدرسة هو شاب رقيق الحاشية مهذب وفد إلينا واستقر بمدينتنا منذ مدة قصيرة، قام وهو يصيح قائلاً:

- يا سيد كارمازينوف، لو قد أسعدني الحظ فأحببت الحب الذي تصف، لما تكلمت عن حبي في مقالة تُقرأ على جمهور.

وعاد الشاب يجلس وقد صار كالجمر احمراراً.

فصرخ كارمازينوف يقول:

- أيها السادة، لقد انتهت. إنني أترك الخاتمة وأنسحب. ولكن اسمحوا

لي أن أقرأ لكم الأسطر الأخيرة.

قال كارمازينوف ذلك وبدأ يقرأ ناظراً في مخطوطته من دون أن يعود إلى

الجلوس فقال:

"صديقي القارئ، وداعاً. وداعاً أيها القارئ. لا أريد حتى أن ألح كثيراً

على ضرورة أن نفترق كما يفترق أصدقاء. علام أزعجك؟ إن في وسعك

حتى أن تشتمني. فاشتمني ما شئت، إذا كان ذلك يحدث لك أية مسرة.

ولكن الأفضل هو أن لا يفكر أحدهنا في الآخر بعد اليوم. وهبكم جميعاً أيها

القرءاء مضيتهم بشهامتكم فجأة إلى حد استعطافي راعين داعمين قائلين:

اكتب أيضاً يا كارمازينوف، اكتب لنا، لوطنك، للأجيال القادمة، للمجد!"،

فسوف أجيئك شاكرًا بأدب كبير طبعاً: "لا يا مواطني الأعزاء! لقد قضينا

معاً حتى الآن وقتاً طويلاً كافياً. شكرًا لكم. لقد آن أن نفترق. شكرًا. شكرًا.

شكرًا!"

وهنا حيّا كارمازينوف الجمهور بكثير من الاحتفال وانسحب محمراً

الوجه احمراراً شديداً.

- ما من أحد يخطر بباله أن يركع أمامه. يا لها من فكرة!

- يا له من غرور!

- هذه فكاهة.

كذلك علّق واحد أعلم من الآخرين. فأجابه ثان:

- اعفني من هذه الفكاهة.

- ويا لها من وقاحة أيها السادة!

لقد انتهى على الأقل!

- حقاً لقد أضجرنا كثيراً!

لكن هذه الصيحات الفظة التي كانت لا تصدر عن آخر الصالة فحسب، قد غلبتها تصفيقات الجزء الآخر من الجمهور الذي أخذ ينادي كارمازينوف. وتجمع عدد من السيدات، في طليعتهن جوليا ميخائيلوفنا وزوجة مارشال النبالة، حول المنصة. كانت جوليا ميخائيلوفنا تحمل إكليلاً رائعاً من الغار موضوعاً على وسادة من مخمل أبيض ومحاطاً بإكليل آخر من ورود طبيعية. قال كارمازينوف وهو يتسم ابتسامة فيها قليل من السخرية:

- إكليل من الغار! إن هذا اللطف يؤثر في نفسي طبعاً، وأنا أقبل شاكراً هذا الإكليل الذي سبق تحضيره ولكن لم يذبل بعد. غير أنني أؤكد لكن يا سيداتي أنني قد بلغت من الواقعية على حين فجأة أنني صرت أرى أن أكاليل الغار تكون في هذا الزمان في مكانها الطبيعي حين توضع بين يدي طباح ماهر أكثر مما تكون في مكانها الطبيعي حين تُقدّم إليّ. - فعلاً، الطباح أنفع.

كذلك قال الطالب الذي شارك في "جلسة" فرجنسكي. إن كثيراً من الأفراد كانوا قد غادروا أماكنهم واحتشدوا حول المنصة ليروا المشهد رؤية أكمل.

وأضاف آخر وهو يرفع صوته عالياً، بل عالياً جداً:

- أنا مستعد أن أدفع ثلاثة روبلات لطباح الآن.

- أنا أيضاً!

- وأنا أيضاً!

- أليس ههنا إذاً بوفيه؟

- كانت تلك خدعة لا أكثر، أيها السادة.

ومع ذلك فإن هؤلاء الرعايا جميعاً كانوا لا يزالون يشعرون بالوجل من شخصياتنا الكبرى، ومن مفوض الشرطة الذي كان واقفاً في الصلاة. وعاد الناس إلى الجلوس بعد زهاء عشر دقائق. غير أن شيئاً من الفوضى كان لا يزال قائماً. وفي وسط هذا السديم الناشئ إنما وقع المسكين ستيفان تروفيموفتش.

4

مضيت ألقاه في الكواليس مرة أخرى (وكنت خارجاً عن طوري)، فنبهته إلى أن كل شيء قد ضاع في نظري، وأن الأفضل أن يعدل عن الكلام، وأن يرجع رأساً إلى البيت بحجة مغص انتابه فجأة. وقلت له إنني مستعد لأن أراجع معه، تاركاً إشارة المشرف على الحفلة. وكان هو قد أخذ يتجه نحو المنصة، ولكنه توقف بغتة، وألقى عليّ نظرة احتقار وقال بلهجة فخمة: - كيف يمكنك أن تتصور أن في وسعي أن أرتكب صغاراً كهذا الصغار أيها السيد؟

فتركته يمر. كنت واثقاً، كوثوقي بأن اثنين واثنين أربعة، أن خطابه سيؤدي إلى كارثة. وفيما كنت باقياً في مكاني وقد صُغقت تماماً، أبصرت مرة أخرى الأستاذ الذي سيتكلم بعد ستيفان تروفيموفتش، والذي كان لا يني يرفع قبضته في الهواء ويخفضها مهدداً. إنه لا يزال يمشي طويلاً وعرضاً، غارقاً في أفكاره، مجمجماً بكلمات غير مفهومة، مبتسماً ابتسامة حانقة. فناديته رغم إرادتي تقريباً (حتى إنني لا أعرف ما الذي دفعني إلى مناداته). قلت له:

- إنك تعرف أن الخطيب إذا احتل المنصة أكثر من عشرين دقيقة، كفَّ

الجمهور عن الاستماع إليه. هذا ما تشهد به أمثلة كثيرة. فما من رجل شهير،
أياً كان شأنه، يمكن أن يُحتمل أكثر من نصف ساعة...

فوقف الرجل مرتعشاً، جريح الكبرياء، وعبر وجهه عن غطرسة لا نهاية
لها، ودمدم يقول لي باحتقار:
- لا تخش شيئاً.

واستأنف سيره. وفي تلك اللحظة بلغ إلى سمعي صوت ستيفان
تروفيموفتش من الصالة.

قلت بيني وبين نفسي: "أذهب إلى الشيطان!". وهرعت إلى الصالة.
كان ستيفان تروفيموفتش قد جلس قبل أن يستتب الهدوء تماماً. استقبلته
الصفوف الأولى بنظرات كارهة (لقد أصبح الناس في النادي في الآونة
الأخيرة، لا يحملون له من المودة والاحترام ما كانوا يحملون له منهما قبل
ذلك). وأسعدني على كل حال أن رأيتهم لا يصفرون له استنكاراً. لا أدري
لماذا كنت منذ أمس أتخيل أنهم سيصفرون له متى ظهر. ولكن، في وسط
الاضطراب الذي كان يسود الجو، لم يلاحظ وجوده فوراً. ماذا كان يمكن أن
يتوقع هذا المسكين من الناس إذا كانوا لم يتحرجوا حتى مع كارمازينوف،
ولم يتورعوا عن معاملته تلك المعاملة؟ كان ستيفان شاحب اللون. هذه أول
مرة يظهر فيها أمام الجمهور منذ عشر سنين. أدركت إدراكاً واضحاً حين
لاحظت انفعاله ورأيت بعض العلامات التي أعرفها فيه جيداً، إن ستيفان
تروفيموفتش كان يعد ظهوره على المنبر لحظة حاسمة في حياته أو شيئاً
من هذا القبيل. وذلك بعينه ما كنت أخشاه. لقد كان الرجل عزيزاً في نفسي.
لهذا تستطيعون بسهولة أن تتصوروا ما أحسست به حين فتح فاه ونطق بجملة
الأولى...

بدأ يتكلم بصوت مخنوق وكأنه عقد العزم على أن يجازف بكل شيء
فقال:

- أيها السادة! هذا الصباح أيضاً كانت أمامي ورقة من تلك الورقات التي
توزع سراً في البلاد، فتساءلت للمرة المائة: "ما سرُّ هؤلاء؟".

صمتت القاعة فوراً. واتجهت الأنظار كلها إلى ستيفان تروفيموفتش في شيء من القلق، لا شك أنه استطاع منذ الكلمات الأولى أن يجتذب اهتمام سامعيه، حتى لقد ظهرت رؤوس من خلف الكواليس. وكان ليبوتين وليامشين يصغيان طبعاً.

نادتني جوليا ميخائيلوفنا إليها من جديد، وهمست تقول لي مرتاعة:
- أسكتته، أسكتته مهما كلف الأمر!

فلم أزد على أن رفعت كفتي. أين لي أن أسكت إنساناً "عزم أمره أخيراً؟
وا أسفاه! لقد فهمت الآن ستيفان تروفيموفتش!

دمدم بعض أفراد الجمهور يقولون:

- هذه منشورات تحريرية.

وظهر في الصالة اضطراب.

- أيها السادة! لقد حللت هذا اللغز: إن سر عملهم هو غباؤهم.

قال ذلك وسطعت عيناه. وتابع كلامه فقال:

- نعم أيها السادة! لو كانت هذه الغباوة مقصودة، متظاهراً بها، محسوبة،

لكاد الأمر أن يكون عبقرياً. ولكن يجب أن ننصف كتاب هذه الورقات: ليس

غباؤهم مزيفاً، بل هو الغباء الخالص العاري البريء المسكين، "هو الغباء في

جوهره الصافي صفاء عنصر كيماوي بسيط" (بالفرنسية). لو كانوا يعبرون

ولو بقليل جداً عن الذكاء، لأدرك جميع الناس غباءهم التافه. ولكن جميع

الناس يتوقفون الآن أمام هذه الأوراق مشدوهين، ولا يستطيعون أن يصدّقوا

أنها يمكن أن تكون غبية إلى هذا الحد من الغباء. إن كل واحد منا يقول

لنفسه: "يستحيل التسليم بأن ليس فيها شيء أكثر من هذا". ونمضي نبحث

عن سرهم ويتراءى لنا أننا نكتشف لغزهم، ونحاول أن نقرأ بين السطور.

وبذلك يتحقق الغرض ويحدث الأمر المنشود. آه... إن الغباء لم يحقق في

يوم من الأيام انتصاراً كهذا الانتصار، انتصاراً مسوَّغاً هذا التسويغ، رغم أنه

يستحق هذا الانتصار في كثير من الأحيان... ذلك أن الغباء - أقول هذا بين

قوسين - مفيد للإنسانية كالعبقرية سواء بسواء.

قال صوت خجول في الواقع، لكنه وضع في البارود ناراً:

- هذه من مزاحات سنوات الأربعينات!
وهتف ستيفان تروفيموفتش يقول متحدياً الجمهور:
- أيها السادة! مرحى مرحى! إنني أشرب نخب الغباء!
أسرعت إلى المنصة كما لو كنت أريد أن أصب له ماء. وقلت له:
- ستيفان تروفيموفتش، انصرف! إن جوليا ميخائيلوفنا تتوسل إليك أن
تنصرف...

فقال لي غاضباً:
- بل دعني وشأني أيها الشاب العاقل!
فوليت هارباً. وتابع هو كلامه فقال:
- أيها السادة! لماذا هذا الاضطراب؟ لماذا هذه الأصوات المستاءة التي
أسمعها؟ إنني أجيء إليكم حاملاً غصن زيتون. إنني آتيكم بقول فصل، ذلك
أنني أنا الذي أعرف هذا القول الفصل، وسوف تتصالح.
أعول بعضهم يقول:
- فليسقط! فليسقط!
وصاح آخرون:
- صمتاً! دعوه يتكلم! ليقبل ما يريد أن يقوله.

وكان أشدهم حماسة، في ما يبدو، إنما هو معلّم المدرسة الشاب الذي
تجاسر فتكلم مرة، فإذا هو قد أصبح لا يستطيع التوقف عن الكلام.
- أيها السادة! إن القول الفصل لهو قول صفح وعفو ومغفرة. إنني لأعلن
لكم جهاراً، أنا الشيخ الذي انتهت حياته، أن روح الحياة تهبّ اليوم مثلما
كانت تهبّ في الماضي، وأن الجيل الجديد لا يزال زاخراً بالقوة. إن حماسة
شباب اليوم لا تقل نقاءً وضياءً وسناءً عن حماسة شباب زماننا المنصرم.
هناك شيء واحد تغير: ذلك الشيء إنما هو الغاية، إنما هو الهدف. إن مثلاً
أعلى جديداً قد حل محل المثل الأعلى القديم. والقضية كلها ترجع إلى هذا
السؤال: هل شكسير أعلى قيمة من حذاءين، وهل رافائيل أرفع شأنًا من
صفيحة نפט؟
- هذه وشاية!

- هذه مسائل تعرّض للخطر!

- يا للعميل المحرّض!

صرخ ستيفان تروفيموفتش يقول بصوت حاد:

- أما أنا فأقول لكم أن شكسبير ورافائيل أجلُّ شأنًا من تحرير الفلاحين، وأرفع قدرًا من القومية، وأعظم قيمة من الاشتراكية، وأسمى منزلة من الجيل الجديد، وأهم خطراً من الكيمياء، وأنهما فوق الإنسانية بكاملها تقريباً، لأنهما ثمرة الإنسانية، ثمرتها الحقيقية، لأنهما ربما كانا أجمل الثمار الإنسانية التي يمكن أن تهبط الإنسانية يوماً، لأنهما يحققان منذ الآن صورة من الجمال كاملة قد لا أحب بدونها أن أحيأ... آه... رباها!... (قال ذلك وضمّ يديه إحداهما إلى الأخرى)... منذ عشر سنين، في بطرسبرج، ناديت من أعلى المنبر بهذه الأفكار نفسها، معبراً عنها بهذه الألفاظ نفسها تماماً. وكما لا تفهمونني الآن، كذلك سخروا مني يومذاك، وصفّروا لي. يا للبشر المساكين! ماذا يعوزكم حتى تفهموني؟ هل تعلمون... هل تعلمون أن الإنسانية تستطيع أن تستغني عن الإنجليز إذا لزم الأمر، وأن تستغني عن ألمانيا، وأنها تستطيع جداً جداً أن تستغني عن الروس، وعن الخبز، وعن العلم، ولكنها لا تستطيع أن تستغني عن الجمال؟ إن الجمال وحده لا غنى لها عنه، إذ بدون الجمال لا يبقى لنا على الأرض ما نعمله! هذا هو السر كله! ذلكم هو كل التاريخ! العلم نفسه لا يمكن أن يعيش لحظةً بعد زوال الجمال! هل تعلمون ذلك أنتم يا من تضحكون؟ نعم، إن العلم بدون الجمال يتدهور إلى تفاهة، فتصبحون عاجزين عندئذ حتى عن اختراع مسمار!

قال ذلك ثم أعول فجأة وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية:

- لن أراجع عن رأيي!

ولكن بينما كان ستيفان تروفيموفتش يهذر هذا الهذر كانت الفوضى في الصالة تزداد، إن جزءاً من الجمهور قد هبّ واقفاً، وإن عدداً من الناس قد أخذوا يقتربون من المنصة متدافعين. وهذا كله حدث بسرعة تبلغ من الشدة أن الوقت لم يتسع لاتخاذ الإجراءات الضرورية. وربما لم يشأ أحد أن تتخذ

هذه الإجراءات.

زأر الطالب قائلاً وقد وصل إلى قرب المنصة، وكان يضحك ضحكة خبيثة كاشفاً لستيفان تروفيموفتش عن جميع أسنانه:
- هذا يصلح لكم أيها الكسالى الذين تعيشون عائلة على غيركم كما تعيشون...

فلما رآه ستيفان تروفيموفتش وثب إلى حافة المنصة.
- أألسـت أنا الذي قلت إن حماسة الجيل الجديد لا تقل صفاء وضياء وسناء عما كانت عليه حماسـتنا نحن، وإنها لا تضع إلّا لخطأ في فهم صور الجمال؟ ألا يكفيكم هذا؟ هل يستطيع إنسان، يا أيها المحدودون، أن يكون أكثر حياداً وإنصافاً، وأن يكون أعظم هدوءاً ورصانة؟... يا لكم من عاقين ناكرين للجميل!... لماذا، لماذا لا تريدون أن تتصالحوا؟...
ألقى ستيفان تروفيموفتش هذا السؤال وأجهش باكياً منتحباً، وأخذ يمسح بأصابعه دموعه التي طففت تسيل على وجهه كله. كان جسمه يرتعش متشنجاً. وكان قد فقد صوابه تماماً.

وهبّت على الصالة ريح ذعر. إن جميع الحضور تقريباً قد وقفوا وانتصبت جوليا ميخائيلوفنا فجأة، شادة زوجها من ذراعه لينهض هو أيضاً... وبلغت الفوضى ذروتها.

هتف الطالب يقول فرحاً:

- ستيفان تروفيموفتش! إن فدكا، المحكوم عليه بالأشغال الشاقة قد هرب من السجن وهو الآن يطوف في المدينة وفي الضواحي. إنه يسرق ويقتل. ولقد ارتكب في الآونة الأخيرة جريمة قتل جديدة. فهلاً أذنت لي أن ألقى عليك هذا السؤال، لو أنك منذ خمسة عشر عاماً لم تبقى جندياً لتسد دينا ترتب عليك في القمار، أو قل بتعبير آخر، لو أنك لم تخسر فدكا في اللعب بالورق، أفكان ذهب إلى السجن؟ أفكان يقتل كما يفعل الآن في كفاحه من أجل البقاء؟ ما رأيك في هذا يا عاشق الجمال؟
إنني أعزف عن وصف ما جرى حينذاك. لقد هبّت في أول الأمر عاصفة

من التصفيق. صحيح أن الذين صفقوا لا يتجاوز عددهم خمس عدد الحضور في القاعة، ولكنهم صفقوا بحماسة تشبه الهذيان. واتجه الآخرون نحو باب الخروج. ولكن لما كان المصفقون يتدافعون نحو المنصة، فقد عمَّ اضطراب شامل، فالسيدات يطلقن صرخاتٍ صغيرة، والفتيات يبكين ويطلبن إعادتهن إلى البيوت. ولمبكه واقف أمام كرسيه يجبل على ما حوله نظرات زائفة. وجوليا ميخائيلوفنا تبدو كأنها فقدت صوابها. أما ستيفان تروفيموفتش فقد بان عليه في البداية أن كلام الطالب قد سحقه سحقاً بالفعل. ولكنه لم يلبث أن مدَّ ذراعيه فوق الجمهور على حين بغتة وأعول يقول:

- إنني أنفض غبار حذائي وألعن!... هذه هي النهاية! النهاية!...

واستدار إلى وراء، وفرَّ إلى الكواليس ملوحاً بذراعيه على هيئة التهديد. أعول المسعورون يقولون:

- لقد أهان الجمهور! هاتوه! أرجعوه!

وأراد بعضهم أن يركض في أثره. لقد كان يستحيل استحالة مطلقة، في تلك اللحظة على الأقل، أن تعود الأفكار إلى هدوئها، وأن يرجع إلى النفوس صفاؤها وسكونها.

ولم يطل انتظار وقوع الكارثة الحاسمة. فها هي ذي تنفجر انفجار قبلة: إن المحاضر الثالث، ذلك الرجل المهووس الذي كان لا يني شهر قبضة يده في الكواليس قد انبجس الآن على المنصة فجأة.

كانت هيئته هيئة مجنون تماماً. وجهه يشرق بابتسامة نصر، ويزخر بزهو كبير، وهو يتأمل الصالة مفتوناً بالفوضى التي تسودها، لا يقلقه ولا يشوشه أن عليه أن يتكلم في وسط هذا اللغط وهذه الضوضاء، حتى وكأنه مسرور بذلك أعظم السرور. وكان ابتهاجه يبلغ من الوضوح أنه سرعان ما لفت إليه انتباه الناس كافة على الفور.

هتفت بضعة أصوات تسأل:

- ما هذا أيضاً؟ من هذا؟ سكوت! ماذا يريد أن يقول؟

صاح المهووس يقول بأعلى صوته، واقفاً على حافة المنصة:

- أيها السادة...

إن صوته صارخ كصوت كارمازينوف، ولكن ليس فيه ما في صوت كارمازينوف من تعاقب أرستقراطي.

- أيها السادة! منذ عشرين سنة، قبل أن تدخل روسيا حرباً ضد نصف أوروبا، كانت روسيا تجسد المثل الأعلى لجميع مستشاري الدولة وغيرهم من المستشارين. وكان الأدب عبد الرقابة. وكانت الجامعات تعلم الخطوة العسكرية، وكان الجيش قد أصبح فرقة باليه. أما الشعب فكان يدفع الضرائب ويصمت مجلوداً بسيطا القنانة. وكانت الوطنية تعني قبض الرشوات، فأما الذين لا يقبضون رشوات فيعدون عصاة ثائرين لأنهم يشوشون انسجام النظام. وكانت غابات أشجار السندر تُقطع دائماً في سبيل الحفاظ على النظام. وكانت أوروبا ترتعش... ولكن روسيا خلال السنين الألف من حياتها البليدة لم تكن قد بلغت ذلك المبلغ من السقوط إلى الدرك الأسفل... قال الخطيب هذا ورفع قبضة يده وشهرها غاضباً فوق رأسه ثم هوى بها كأنه يحطم خصماً من الخصوم. فضجت القاعة بأصوات معولة مجنونة في كل جهة من الجهات. وطفق نصف من في القاعة يصفقون تصفيقاً محمواً. وحتى الخجلون الوجلون انقادوا للحماسة العامة. إن روسيا تُشتم وتلطح بالوحل على رؤوس الشهداء. فكيف لا تثور الحماسة تأييداً واستحساناً؟

- هذا رجل! هل اسمه كلام! ما هذه بجمل منمقة في علم الجمال!...

وتابع المهووس خطابه قائلاً وقد سكر بما أصاب من نجاح:

- انقضت على ذلك العهد عشرون سنة. افتتحت جامعات جديدة. الخطوة العسكرية أصبحت أسطورة. وأصبح يعوزنا ألوف الضباط لإكمال القيادات في جيشنا. السكك الحديدية التهمت العواصم، وغطت روسيا كخيوط العنكبوت، فما إن تمضي خمس عشرة سنة أخرى حتى يكون في وسع المرء أن ينتقل إلى أي مكان في أغلب الظن. الجسور لا تحترق إلا من حين إلى حين، في أوقات متباعدة. أما المدن فتحترق واحدة بعد أخرى بانتظام، حين يجيء موسم الحرائق. المحاكم تصدر أحكاماً كأحكام سليمان

الحكيم، والمحلّفون لا يتقاضون مالاً إلا من أجل أن لا يموتوا جوعاً. ذلك هو الكفاح في سبيل البقاء. الأقنان أحرار، يضرب بعضهم بعضاً لأن السادة أصبحوا لا يضربونهم. بحار من الخمرة بل أوقيانوسات من الخمرة يشربها الشعب مساعدةً للميزانية. وفي نوفغورود، أمام كاتدرائية القديسة صوفيا، القديمة التي لا فائدة منها، نصبت كرة فخمة كبيرة من البرونز تخليداً لذكرى السنين الألف التي قضيناها من حياتنا في فوضى وغباء. وأوروبا تقطب حاجبيها، وتستأنف قلقها... خمسة عشر عاماً من الإصلاحات! ومع ذلك لم تسقط روسيا يوماً، حتى في أحلك عهود فوضاها، إلى مثل هذا الدرك الأسفل...

لم يمكن سماع كلماته الأخيرة: لقد غطّتها هتافات الجمهور وأغرقتها إغراقاً. وظل المجنون يُرى رافعاً قبضة يده، هاوياً بها على ظفر وانتصار. تجاوزت الحماسة العامة كل الحدود. كان الناس يعولون، ويضربون أكفهم، حتى لقد أخذت إحدى السيدات تصيح قائلة: "كفى! لن تقول خيراً مما قلت!". كان الناس كالسكارى. وكان الخطيب يطوف ببصره على الجمهور ويتلذذ بانتصاره. رأيت لمبكه مضطرباً اضطراباً لا سبيل إلى وصفه، وكان يصدر إلى أحدهم أوامره. ورأيت جوليا ميخائيلوفنا شاحبة كل الشحوب تقول بضع كلمات سريعة للأمر الذي هرع إليها... ولكن ستة رجال هم جميعاً أشخاص رسميون قليلاً أو كثيراً، قد ظهروا على المنصة في تلك اللحظة نفسها، فأمسكوا بالخطيب واقتادوه إلى الكواليس. لا أدري كيف استطاع أن يفلت منهم. ولكنه قد أفلت في الواقع، وركض إلى حافة المنصة، وأمكنه أن يصرخ مرة أخرى شاهراً قبضة يده قائلاً بصوت عالٍ: - ولكن روسيا لم تسقط يوماً هذا السقوط...

واقتادوه من جديد. وأراد نحو خمسة عشر رجلاً أن يخلّصوه، فأحدقوا بالمنصة وحطموا الدرابزين الهزيل الذي يحيط بها فسرعان ما سقط... وبعد ذلك رأيت، من دون أن أصدق عيني، رأيت الطالبة (أخت فرجنسكي) تظهر على المنصة فجأة وقد انبجست لا أدري من أين. إنها لا

تزال مدوِّرة الجسم وردية اللون، ولا تزال ترتدي ذلك الثوب نفسه، ولا تزال تتأبط تلك اللفيفة من الأوراق نفسها. وكان يصحبها عدة أشخاص، رجال ونساء، عرفت منهم طالب المدرسة الثانوية، عدوُّها اللدود. لم أستطع أن أدرك إلا عبارة واحدة قالتها:

"أيها السادة، لقد جئت لأطلعكم على آلام الطلاب التعساء، ولأدعوكم إلى الاحتجاج..."

ولَّيت هارباً. دسست في جيبى عقدة الشريط الذي كانت موضوعاً على كتفي، وخرجت إلى الشارع من باب خلفي كنت أعرفه. وقبل كل شيء ذهبت طبعاً إلى ستيفان تروفيموفتش.

الفصل الثاني

نهاية الحفلة

1

لم يقبل ستيفان تروفيموفتش أن يستقبلني. كان قد سجن نفسه، وأخذ يكتب. قرعت مرة أخرى وناديته من خلال الباب فأجابني بقوله:
- لقد أنهيت كل شيء يا صديقي، فماذا يُراد مني أيضاً؟
- لم تنه أي شيء البتة، وإنما أنت أسهمت في الكارثة. كفاك مزاحاً، أرجوك! ستيفان تروفيموفتش، افتح! يجب اتخاذ إجراءات. قد يجيئون إلى هنا ويهينونك.

رأيت من واجبي أن أكون قاسياً بل صارماً معه. كنت أخشى أن يندفع في حماقة أشد وأخطر. ولكن ستيفان تروفيموفتش قاوم مقاومة غير معهودة فيه، مقاومة أدهشتني كثيراً.

- لا تهني، أنت خاصة. إنني شاكر لك كل ما صنعت لي حتى الآن، لكنني أكرر لك إنني قد أنهيت صلتني بالناس، أخيارهم وأشرارهم على السواء. أنا أكتب الآن إلى داريا بافلوفنا التي أهملها إهمالاً لا يغتفر، في الآونة الأخيرة، فاحمل رسالتي إليها غداً إذا شئت. والآن - "شكراً".

- ستيفان تروفيموفتش، أؤكد لك أن الأمر أخطر شأنًا مما تظن. أتتصور أنك سحقت أحداً؟ إنك لم تسحق أحداً. وإنما أنت تحطمت كما تحطم زجاجة فارغة...

كنت فظاً في مخاطبته، وما زلت أتألم حين أتذكر هذا. وتابعت كلامي أقول:

- ليس ثمة سبب يدعوك أن تكتب إلى داريا بافلوفنا... وماذا عسى أن تصير بدوني؟ ماذا تفهم أنت من شؤون الحياة العملية؟ أغلب الظن أنك تهين ضربة أخرى، أليس كذلك؟ إذا صح هذا فإن شقاء جديداً سينزل عليك...

نهض ستيفان تروفيموفتش واقترب من الباب. وقال:

- إنك قد بقيت بقرهم زمناً قصيراً، ولكنك أخذت عنهم لغتهم ولهجتهم. "عفا الله عنك يا صديقي، وحماك!" (بالفرنسية). لقد لاحظت فيك نوعاً من الشرف على الدوام، وربما كانت لك عودة أخرى إلى أفكار أفضل - بعد فوات الأوان - شأننا جميعاً معشر الروس. أما عن ملاحظتك التي تعرض فيها بنقص خبرتي في الشؤون العملية، فإنني أذكرك بكلمة من كلماتي: إن لدينا، في روسيا، أناساً كثيرين، يتهافون تهافت الذباب وراء واحد منهم ويعيبون على الآخرين أنهم يفتقرون إلى الحس العملي، من دون أن يرجعوا إلى أنفسهم في يوم من الأيام... "يا عزيزي"، تذكر أنني منفعل جداً، فلا تعذبني. "شكراً" مرة أخرى لكل ما صنعتته من أجلي، وللفتق كما افترق كارمازينوف عن جمهوره، أو قل بتعبير آخر: لنكن كريمين سمحين، فتنساني كما سأنساك. إن كارمازينوف كان يمكر حين طلب من قرائه أن ينسوه. أما أنا فإنني أقل غروراً وأقل حبا للظهور. ثم إنني أعتمد خاصة على كونك في عفوان الشباب: كيف يمكنك أن تحتفظ مدة طويلة بذكرى شيخ لا خير فيه؟ "عش مدة أطول"، يا صديقي، على حد التعبير الذي قالته لي ناستاسيا مؤخراً بمناسبة عيد ميلادي ("إن للفقراء كلمات رائعة زاخرة بالفلسفة أحياناً") (بالفرنسية). إنني لا أتمنى لك سعادة كثيرة - فالسعادة تعب - ولكنني لا أتمنى لك الشقاء أيضاً. وإنما أنا أكرر حكمة الفلسفة الشعبية: "عش مدة أطول"، وحاول أن لا تضجر كثيراً. وهذا التمني الذي لا سبيل إلى تحقيقه، أنا الذي أضيفه. والآن، وداعاً، وداعاً! ولا تبق أمام بابي. فلن أفتح الباب.

وعاد يكتب. ولم أستطع أن أجني منه أكثر من ذلك. ولقد تكلم بلهجة متساوية رغم "انفعاله"، تكلم بغير تعجل، بل تكلم بفخامة، بغية أن يفرض عليّ مهابته. لا شك أنه حاقّد عليّ بسبب المسارّات التي استرسل في الإفشاء بها إليّ أمس عن "الزلاجة"، وعن "الأرض التي تميد تحت خطواته". ثم إن الدموع التي ذرفها أمام الجمهور منذ قليل قد وضعت في ظرف مضحك رغم هيئة الانتصار التي كان قد اصطنعها، وهو يدرك هذه الحقيقة. فإذا تذكرنا أنه ما من أحد يحرص حرص ستيفان تروفيموفتش على أن يحافظ في علاقاته بأصدقائه على قواعد الأصول وآداب اللياقة، كان في وسعنا أن ندرك ما هو عليه الآن من حالة نفسية خاصة. معاذ الله أن أتهمه! ومهما يكن من أمر فإن هذا التأذي السريع وهذه اللهجة الساخرة اللذين احتفظ بهما رغم كل شيء قد طمأناني: لقد بدا لي قليل الاختلاف جداً عما عهدته فيه عادةً، فلا يمكنه الآن إذاً أن يتخذ قراراً فاجعاً غير عادي. ولكنني أخطأت الظن... لقد غابت عني أشياء كثيرة.

وها أنا ذا أستبقّ الحوادث فأورد لكم مستهل الرسالة التي بعثها إلى داريا بافلوفنا، فاستلمتها هذه في الغد فعلاً.

"بنيتي، إن يدي ترتعش، ولكنني أنهيت كل شيء. لم تشهدي ساعة معركتي الأخيرة مع الناس. إنك لم تجيئي لسماع المحاضرة. وحسناً فعلت. ولكنهم سيقولون لك إن رجلاً شجاعاً في بلادنا روسيا التي تفتقر أشد الافتقار إلى رجال شجعان قد نهض مقتحماً تهديدات الموت التي كانت تتقاطر عليه من كل جهة، فأعلن لأولئك الحمقى الصغار حقيقتهم، أي قال لهم إنهم ليسوا إلا حمقى صغاراً. آه... ما هم في حقيقة الأمر إلا صغار تافهون لا قيمة لهم، ما هم إلا صغار أغبياء، نعم هذه الكلمة التي تصفهم بما فيهم" (بالفرنسية). لقد قلت كلمتي وحددت مصيري. سأبارح هذه المدينة إلى الأبد، وأذهب لا أدري إلى أين. إن جميع الذين كنت أحبهم قد أشاحوا عني. أما أنت، أيها النفس الطاهرة البريئة النقية، أنت أيها الإنسانية العذبة الرقيقة، الذي أوشك مصيرها أن يتحد بمصيري تنفيذاً لإرادة امرأة طاغية

ذات نزوات، أنت التي لعلك كنت تنظرين باحتقار إلى العبرات تذرفها عيناى بحقارة وجبانة عشية خطبتنا، أنت التي لن تملكي إلّا أن تعديني رجلاً مضحكاً، فاقبلي هذه الصرخة الأخيرة يطلقها قلبي. إنني إذ أوجه إليك هذه الصرخة إنما أحقق واجباً أخيراً. ذلك أنني لا أستطيع وأنا أتركك إلى الأبد أن أدعك تظنين أنني لست إلّا إنساناً عقوقاً، إنساناً غليظ القلب، إنساناً أناثياً كما يؤكد لك ذلك كل يوم، في أغلب الظن، شخص عقوق قاسٍ لا أستطيع أن أنساه وأأسفاه!..."

وهكذا دواليك على مدى أربع صفحات كبار.

حين قال لي ستيفان تروفيموفتش إنه لن يفتح، قرعت الباب بقبضة يدي ثلاث مرات وصرخت أقول له إنه سيعث ناستاسيا لاستدعائي في ذلك اليوم نفسه، ولكنني أنا الذي سأرفض عندئذ أن أجيء. ثم تركته وأسهرت أذهب إلى جوليا ميخائيلوفنا.

2

هناك حضرت مشهداً يثير الأعصاب فعلاً: كانوا بصدد غش المرأة المسكينة بوقاحة لا حياة فيها، ولم أستطع أن أفعل شيئاً. ماذا كان في وسعي أن أقول لها في الواقع؟ كنت قد ثبت إلى رشدي وعدت إلى صوابي وأدركت أن ليس لديّ على وجه الإجمال إلّا انطباعات ومشاعر وشبهات وشكوك وتوجسات لا أكثر. رأيتها غارقة في دموعها توشك أن تصاب بنوبة عصبية. كانت تشرب ماء، وتمسح وجهها بالكولونيا. وكان بطرس ستيفانوفتش واقفاً أمامها يتكلم بغير توقف أو انقطاع، بينما كان الأمير هنالك أيضاً لا ينطق بكلمة واحدة. إنها تأخذ على بطرس ستيفانوفتش، بصرخات ودموع، ما كانت تصفه بأنه "خيانة" منه. ما كان أشدّ دهشتي حين رأيتها تنسب إخفاق الاجتماع وكل ما جرى إلى مجرد غياب بطرس ستيفانوفتش عن الحفلة. ولقد لاحظت فيه تغييراً كبيراً: كان يبدو مشغول البال كثيراً. إن وجهه رصين جاد. إن هيئته لا تعبر في العادة عن جد: فهو يضحك دائماً حتى حين

يغضب، وذلك ما يحدث له في أحيان كثيرة. إنه الآن أيضاً حانق، ولكنه يتكلم بلهجة فظة، متذمرة، متململة، خالية من التخرج زاحرة بالإهانة. كان يؤكد أنه قد أصيب بصداق شديد وتقيؤ عند جاجانوف الذي ذهب إليه في الصباح. واحسرتاه! لقد كانت المرأة المسكينة لا تتوق إلا إلى أن تُخدع مرة أخرى. كانوا اللحظة دخولي يتناقشون في أمر حفلة الرقص: أنقام أم لا؟ فكانت جوليا ميخائيلوفنا تصرّ على أنها لن تظهر في هذه الحفلة بحال من الأحوال بعد "الإهانات التي نالتها في الصباح". قل بتعبير آخر: إنها كانت تريد أن تُجبر إجباراً على حضور الحفلة، وأن يجبرها على ذلك بطرس ستيفانوفتش نفسه، كانت تنظر إليه نظرتها إلى عرّاف لا يخطئ. وأظن أنها كانت ستمرض لو انصرف. ولكن بطرس ستيفانوفتش لا يخطر بباله أن ينصرف: إنه يصبر إصراراً قاطعاً على أن تقام حفلة الرقص، وعلى أن تحضرها جوليا ميخائيلوفنا حتماً...

- ما بالك تبكين؟ أنت حريصة هذا الحرص كله على خلق مشكلة؟ ألا بد لك من صبّ غضبك على أحد؟ طيب! صبّي غضبك عليّ أنا، ولكن أسرع، لأن الوقت يمضي سريعاً، ولا بد من اتخاذ قرار. أخفقت صبيحتك الأدبية؟ طيب... إن حفلة الرقص ستصلح من الأمر ما فسد. انظري إلى الأمير. إنه يوافقني على رأيي. نعم، لو لم يكن الأمير هناك، لما عرف أحد كيف كان يمكن أن تنتهي القضية!

لقد كان من رأي الأمير في البداية أن لا تُقام الحفلة (أو قل كان من رأيه أن لا تحضرها جوليا ميخائيلوفنا، إذ لا بد من إقامة حفلة الرقص على كل حال)، ولكنه بعد أن ذكر مرتين أو ثلاث مرات قال في النهاية بضع كلمات مبهمّة يفهم منها أنه موافق.

وقد دهشت كثيراً كذلك من لهجة بطرس ستيفانوفتش التي كانت خالية من الأدب والتهذيب. آه... معاذ الله أن أصدّق الإشاعات الدنيئة السافلة التي أذيعت، في ما بعد، عن العلاقات التي قالوا إنها كانت قائمة بين جوليا ميخائيلوفتش وبطرس ستيفانوفتش. إن أمثال تلك العلاقات المزعومة لم

توجد ولا كان يمكن أن توجد بينهما. ولئن استطاع بطرس ستيفانوفتش أن يكون له على جوليا ميخائيلوفتش شيء من السيطرة، فالسبب الوحيد في ذلك هو أنه كان يشجع أحلامها الطموحة، مقنعاً إياها بأنها تستطيع أن تؤثر في المجتمع وأن تؤثر في الوزير. لقد دخل في خططها منذ البداية، وكان يلقتها هذه الخطط هو نفسه، ويغمرها بأنواع المديح المبذول، فاستطاع أخيراً أن يلتف عليها ويكبلها من أخمص القدمين إلى قمة الرأس بحيث أصبحت لا تستطيع الاستغناء عنه.

حين رأتني جوليا ميخائيلوفنا أطلقت صرخة، وسطعت عيناها، وقالت تخاطب بطرس ستيفانوفتش:

- ها هو ذا. اسأله. إنه هو أيضاً لم يتركني، كالأمير.

وأردفت تقول لي:

- قل لهم، أليس بديهياً أن المسألة كانت مؤامرة، مؤامرة دنيئة وقحة تهدف إلى إيذائي أنا وأندره أنطونوفتش؟ أوه! لقد كانوا متواطئين متفاهمين! كانت لهم خطة مرسومة. إنهم حزب، حزب حقيقي.

قال لها بطرس ستيفانوفتش:

- إنك تبالغين، على عادتك. لا بد من قصيدة في رأسك دائماً.

ثم أردف يقول لي:

- على كل حال، يسعدني أن أراك يا سيد...

وتظاهر بأنه نسي اسمي. وتابع كلامه:

- ... سوف يقول لنا رأيه.

أجبت متعجلاً:

رأيت مطابق لرأي جوليا ميخائيلوفتش في كل ما قالت. بديهي كل البدهة أن ثمة مؤامرة محبوكة. إنني أرد إليك هذه الشرائط يا جوليا ميخائيلوفنا. لا أدري هل تقام حفلة الرقص. ذلك أمر لا شأن لي به. لكنني لن أكون واحداً من المشرفين على الحفلة. انتهى دوري هذا. اغفري لي حدثي. ولكنني لا أستطيع أن أتصرف تصرفاً مخالفاً للعقل والحس السليم، منافياً لقناعاتي.

فصاحت تقول وهي تضم ذراعيها:

- هل سمعت؟ هل سمعت؟

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يلتفت نحوي:

- سمعت. وفي رأيي أنكم جميعكم قد بلغت شيئاً شَوْش عقولكم وبلبل أفكاركم. في رأيي أنه لم يقع أي شيء خارق. لم يقع شيء يزيد على ما سبق أن وقع هنا وما يمكن أن يقع في كل زمان. أين المؤامرة التي تتخيلون؟ كان الأمر سخيلاً بشعاً مخزياً، ولكن أين ترون مؤامرة؟ أمؤامرة على جوليا ميخائيلوفنا، حاميتهم التي تدلّهم كل الدلال، وتغفر لهم كل العيوب؟ جوليا ميخائيلوفنا، ماذا كنت أقول لك بلا انقطاع في الشهر الأخير؟ ألم أنبّهك وأحذرك سلفاً؟ ما كانت حاجتك إلى هؤلاء الناس جميعاً؟ ما كانت حاجتك إلى الارتباط بهؤلاء الأوغاد؟ فيم كان ذلك كله؟ أكان لتحقيق وحدة المجتمع؟ هلاً فكرت في ما تقولين! هؤلاء قادرون على أن يتحدوا؟ - أنت نبهتني وحذرتني؟ بالعكس! كنت دائماً تشجعني، بل كنت دائماً تطالبني بالمزيد. حقاً إنك لتدهشني الآن غاية الإدهاش! أنت نفسك جئتني بأشخاص عجيبين جداً.

- لا، أبداً. كنت أشاجرك في هذا الأمر، وكنت لا أؤيدك ولا أحبّد تصرفك، لقد جئتك بأناس عجيبين... هذا صحيح... ولكن بعد أن كان منزلك قد امتلأ بأمثالهم... ثم إنني لم أجئك بهم إلا في الآونة الأخيرة من أجل "الحفلة الأدبية": لقد كان يصعب الاستغناء عن هؤلاء الأوباش. أراهن أن دسّته أو دسّتين منهم قد أدخلوا بغير تذاكر.

قلت مؤيداً:

- أنا من هذا على يقين.

- أرايت؟ إنك توافق. ثم تذكّر اللهجة التي كانت تسود المدينة كلها في الآونة الأخيرة. لم يكن ثمة إلّا وقاحة، واستهتار، واستخفاف... وفضائح متصلة لا نهاية لها. من ذا الذي كان يشجع ذلك؟ من ذا الذي كان يحميه بسلطته؟ من ذا الذي شوّش الأفكار كلها؟ من ذا الذي أحقّ هؤلاء الصغار

من الناس جميعاً؟ ألم تكن جميع أسرارهم العائلية الصغيرة مودعة في ألبومك؟ ألم تكوني تمسحين بيدك على رؤوس شعرائنا ورساميننا؟ ألم تمدي يدك إلى ليا مشين ليقبلها؟ ألم يتجراً أحد الطلاب أن يشتم بحضورك مستشاراً من مستشاري الدولة؟ ألم يوسخ بحذاءيه المدهونين بالقطران ثوب ابنة ذلك المستشار؟ فكيف تعجبين بعد هذا أن يقوم عليك الجمهور؟ - ولكنك أنت الذي كنت تدفعني. هذه خطيئتك. آه... رياه!

- لم يحدث هذا أبداً! لقد نبهتك وحذرتك. وكنا نختصم ونشتجر في هذا الأمر. نعم، كنا نختصم ونشتجر...
- أنت تكذب بغير حياء.

- سهل عليك طبعاً أن تقولي هذا الآن. لا بد لك من ضحية تصيين عليها نار غضبك. وقلت لك: صبي نار غضبك عليّ أنا. لا بأس. ولكنني أؤثر أن أتجه إليك أنت يا سيد... (هنا أيضاً لم يفلح في أن يتذكر اسمي). لنعدّ على أصابعنا: أنا أؤكد أنه، باستثناء ليوتين، لم تكن هناك مؤامرة، لم تكن هناك أية مؤا... مرة! سوف أبرهن على هذا. ولكن فلنحلل أولاً حالة ليوتين. لقد ظهر على المنصة حاملاً أشعار ذلك الأحمق، لبيادكين. وأنت ترى أن هذه مؤامرة، أليس كذلك؟ ولكن ألا يجوز أن يكون ليوتين قد وجد الأشعار فكهة فعلاً؟ إنني ألقى هذا السؤال جاداً. لقد ظهر على المنصة آملاً أن يُسلي الجمهور، وأن يضحك الناس كافة، وعلى رأسهم حاميته جوليا ميخائيلوفنا. ألا تصدق هذا؟ ولكن ألا ينسجم هذا مع كل ما كان يجري هنا منذ شهر؟ هل تريد أن أقول لك كل شيء؟ يميناً إن هذه المزاحة كان يمكن في ظروف أخرى، أن تمر بسلام. صحيح أنها فظة غليظة، صحيح أنها قوية قليلاً، ولكنها مضحكة، هل تستطيع أن تنكر هذا؟
صاحت جوليا ميخائيلوفنا تسأله مستاءة:

- كيف يمكنك أن ترى مهزلة ليوتين مضحكة؟ هذه قلة كياسة... بل هذه دناءة مقصودة محسوبة! آه... إنك تقول هذا الكلام عامداً. واضح بعد هذا أنك أنت أيضاً ضالع في المؤامرة.

- كيف؟ إذا كنت مختبئاً وراءهم أحركهم كما تحرك الدمى! ولكن لو أنني اشتركت في المؤامرة - اعلمي هذا - لكان هنالك أشياء أخرى كثيرة غير ليبوتين! وأنت تتصورين إذا أنني تواطأت مع أبي العزيز على أن يثير فضيحة. من ذا الذي طلب من أبي العزيز أن يقرأ؟ ومن الذي حاول أن يشيك عن هذا أمس، نعم أمس؟

- آه... لقد كان بالأمس زاخراً بالفكر والظرف! كنت معتمدةً عليه أكبر الاعتماد، لا سيما وأن له آداباً رفيعة وسلوكاً أنيقاً! كنت أظن أنه هو وكارمازينوف سوف... ولكن انظر ماذا حدث!...

- نعم... انظري ماذا حدث! إن أبي قد أفسد كل شيء رغم كل ما يتحلى به من "فكر وظرف" كما تقولين. ولو كنت أعلم سلفاً أنه سيتصرف هذا التصرف، وأنا ضالع في المؤامرة التي دُبّرت لإفساد حفلتك، لما ألححت عليك راجياً منك أن لا يُترك التيس في مزرعة الخضار! أليس كذلك؟ ولكنني حاولت أن أثنيك عن دعوة أبي، لأنني كنت أوجس ما سوف يقع. ومن المستحيل على المرء أن يتوقع كل شيء طبعاً. هو نفسه كان قبل أن يظهر على المنصة بدقيقة واحدة يجهل ما سوف يقوله. هل هؤلاء الشيوخ العصبيون رجال؟ على أن في إمكاننا أن نصلح الأمور: فلكي تُرضي الجمهور، أرسلني إلى أبي منذ الغد طيبين يفحصانه، أرسليهما إليه على جناح السرعة رسمياً. بل يمكن إرسالهما في هذا اليوم نفسه، فينقل إلى المستشفى رأساً، ويعالج هناك بكمادات وحمامات باردة. عندئذ سوف يضحك جميع الناس، وسوف يرون أنه ما كان لهم أن يشعروا بإهانة. حتى إنني أستطيع أن أخطب جمهور الحفلة في الأمر هذا المساء، بصفتي ابن الرجل. أما كارمازينوف، فشأنه شأن آخر. لقد تصرف كارمازينوف تصرف حمار ذي بردعة، لا أكثر. لقد جعل خطابه يطول ساعة كاملة. لا شك أنه تواطأ معي. لا شك أنه قال لنفسه: "هيا، فلن فعل خطيئة من شأنها أن تزعج جوليا ميخائيلوفنا!" هه؟...

- أوه! كارمازينوف! "يا للعار!" (بالفرنسية). لقد احمرّ وجهي خجلاً من جمهورنا.

- أما أنا فلو كنت في مكانك لما احمرّ وجهي خجلاً، أؤكد لك... وإنما كنت أضربه، صاحبك كارمازينوف! لقد كان الجمهور على حق. وأعود فأسألك مرةً أخرى: من المذنب في هذا؟ من المخطئ؟ أنا الذي فرضت عليك كارمازينوف؟ أنا شاركتك في تعظيمه إلى حد العبادّة؟ شيطان يأخذه! وأما عن المهوروس الثالث، المهوروس السياسي فتلك حكايةٌ أخرى، الجميع مسؤولون عن أمره، أنا مسؤول وأنت مسؤولة.

- آه... لا تجيء على ذكره! لا تكلمني عنه! شيء فظيع، فظيع! في هذه الحالة أنا المذنب، أنا المخطئة، أنا وحدي!

- طبعاً، ولكنك معذورة. أتني للمرء أن يحذر أناساً يبلغون هذا المبلغ من الصراحة؟ حتى في بطرسبرج لا تمكن محاذرتهم دائماً. ألم يُزكّوه لك؟ ألم يوصوك به خيراً؟ بلى! ولقد فعلوا ذلك بكثير من الحماسة. والآن يجب عليك أن تفكري في الأمر وأن تتخذي قرارك: إنك مضطرة أن تحضري حفلة الرقص. الأمر خطير: إنك أنت التي أظهرته على المنصة، فمن واجبك إذا أن تعلن على رؤوس الأشهاد أنك لست متعاونة معه، وأنه الآن بين يدي الشرطة، وأنت خُدعت في أمره. يجب عليك أن تصرّحي، مستاءةً، بأنك كنت ضحية رجل مجنون. لأنه ليس في الواقع إلا مجنوناً! على هذا النحو إنما يجب شرح الأمور. إنني أكره هؤلاء الناس الذين يعصّون. إنه ليتفق لي أن أقول أموراً أسوأ من تلك التي قالها، ولكنني لا أقولها من على منبر. والناس إنما تجري أحاديثهم الآن حول عضو من أعضاء مجلس الشيوخ.

- أي عضو من أعضاء مجلس الشيوخ؟ وماذا يقولون؟

- أنا نفسي لا أفهم مما يقولون شيئاً. ولكن ألم تسمعي أنت يا جوليا ميخائيلوفنا شيئاً عن وصول عضو من أعضاء مجلس الشيوخ؟

- عضو من أعضاء مجلس الشيوخ؟

- اسمعي. إن الناس جميعاً مقتنعون الآن بأن عضواً من أعضاء مجلس

الشيخ سيصل قريباً، وإنكم ستعفون من منصبكم. سمعت هذا الكلام في كل جهة من الجهات.

قلت مؤيداً:

- وأنا سمعت هذا الكلام.

- ولكن من الذي يقول هذا؟

واصطبخ وجه جوليا ميخائيلوفنا بحمرة شديدة.

- من الذي أطلق هذه الشائعة؟ أتني لي أن أعرف! على كل حال، الناس يتحدثون في هذا الأمر بمنة ويسرة. بالأمس خاصة، كانوا يتكلمون فيه كثيراً، وقد لاح في وجوههم الجد، وإن خالط هذا الجد تحفظ وتردد، طبعي أن أذكاهم وأخبرهم ببواطن الأمور يلتزمون الصمت، ولكن ذلك لا يمنع بعض هؤلاء من الإصغاء بانتباه.

- يا للصغار! و... يا للحماقة!...

- هذا سبب آخر يدفعك إلى أن تظهر، وإلى أن تبرهنى لهؤلاء الحمقى

على أن...

- نعم، إنني أدرك بنفسي أن هذا من واجبي... ولكن ماذا لو كنت أعرض نفسي لإهانة جديدة؟ ماذا إذا لم يجيئوا إلى حفلة الرقص؟ إن أحداً لن يحضر حفلة الرقص... لا... لن يجيء أحد!...

- إنك مسرفة في التعجل! أنتصرون أن الناس لن يحضروا حفلة الرقص؟ أنتخيلين هذا؟ فما عساهم فاعلين بالأثواب التي أعدوها لهذه المناسبة، وما عساهم فاعلين بما زُيّنت به الفتيات؟ ألسن امرأة؟ ألا إنك لا تعرفين العالم حق معرفته!

- إن زوجة مارشال النبالة لن تجيء جتماً. أنا واثقة بهذا!

صاح بطرس ستيفانوفتش يقول وقد أصبح لا يستطيع السيطرة على تمللمه وحنقه:

- ولكن أي شيء رهيب حدث؟ لماذا تتصورين أنهم لن يجيئوا؟

- حدث شيء مخجل، شيء مخز، شيء دنى، ذلك ما حدث. شيء لا

أفهمه، ولكنني لا أستطيع أن أظهر للناس بعد أن حدث.

- لماذا؟ ما هي أخطاؤك وذنوبك في الحساب الأخير؟ لماذا تحمّلين نفسك كل التبعة، وتلفين على عاتقك بكل الخطأ؟ أليس المخطئ هو الجمهور، وهؤلاء الشيوخ الكبار، وأرباب الأسر أولئك؟ لقد كان عليهم أن يحتجزوا الأوباش والأوغاد، وما هم في الواقع إلا أوباش وأوغاد، ثم ينتهي الأمر. إن الشرطة لا يمكن أن تكفي لكل شيء. وإنما ينبغي للمجتمع أن يقوم بواجبه ويبدل جهده. إن كل إنسان في بلادنا يتطلب عند دخوله إلى حفلة أن يتدب له شرطي خاص يسهر على سلامة شخصه العظيم. الناس في بلادنا لا تدرك أن عليها أن تحافظ على نفسها بنفسها في مثل هذه الظروف. ماذا يفعل أرباب أسرنا وكبار موظفينا، وسيداتنا، وآساتنا؟ يصمتون ويحردون. ما من مبادرة يقومون بها، ولو لقمع سفالة السفلة!

- آ... نعم... ما أصدق هذا الذي تقول!... إنهم يصمتون ويحردون ولا يزدون على أن ينظروا إلى ما يجري!

- إذا كان ما أقوله صادقا فأعلنه جهاراً، أعلنه بكبرياء، أعلنه بقسوة، لكي تظهرني أنك لم تُصعقي وتُغلبني، لكي تظهرني ذلك لأولئك الشيوخ وأمّهات الأسر. آ... لسوف تعرفين كيف تفلعين هذا! إنك تملكين الموهبة اللازمة حين تكونين صافية الذهن. اجمعينهم، وأعلنني لهم الحقيقة بصوت عالٍ... ثم نبعث برسالة صحافية إلى جريدة "الصوت" أو "البورصة". انتظري. سوف أشرع في العمل. وسوف أدبر كل شيء بنفسني. لا بد طبعاً من الانتباه واليقظة. يجب أن يراقب البوفيه. ويجب الإلحاح على مجيء الأمير، ومجيء السيد... إنك لا تستطع يا سيدي أن تتركنا في اللحظة التي يجب علينا فيها أن نبذل جهداً جديداً. وسوف تظهرين متأبطة ذراع أندره أنطونوفتش. كيف حاله الآن؟

فصاحت جوليا ميخائيلوفنا فجأة تقول باندفاع غير متوقعة حتى لكان دموعاً أخذت تترقرق في عينيها:

- أوه! ما كان أظلمك دائماً في حق هذا الإنسان الملائكي! لقد كانت

آراؤك فيه خاطئة كل الخطأ، مهينة كل الإهانة!
ورفعت منديلها إلى عينيها. فجمد بطرس ستيفانوفتش في الوهلة الأولى
مذهولاً.

- رحماك... أنا... أنا... ما هذا الذي تقولين؟ لقد كنت دائماً...

- لا، أبداً، أبداً، لم تنصفه في يوم من الأيام!

- يستحيل على المرء أن يفهم النساء.

كذلك جمجم يقول بطرس ستيفانوفتش وهو يتسم ابتسامة مقهورة.

قالت جوليا ميخائيلوفنا:

- إنه بين الناس أصدقهم قولاً، وأرهفهم شعوراً، وأقربهم إلى أن يكون

ملاكاً من الملائكة! هو خير الناس طراً!

- أرجوك... في ما يتعلق بطيبة قلبه وشهامته نفسه، أنا أنصفه دائماً...

- لا، أبداً. ولكن دعنا من هذا. لقد كان كلامي الآن خراقة في غير محلها.

منذ قليل، رمتني زوجة مارشال النبالة تلك، رمتني هي أيضاً، ببضعة سهام

عن أحداث الأمس، مأكرة مكر يسوعي.

- هوه! إن في رأسها الآن هموماً أخرى غير أحداث الأمس. إن أحداث

اليوم تكفيها. لماذا تقلقين هذا القلق كله من أنها قد لا تحضر حفلة الرقص؟

إنها لن تحضر حتماً بعد الفضيحة التي وجدت نفسها مقحمة فيها. قد لا

يكون لها بها شأن. ولكن سمعتها ستأثر، ويديها ستظلان متسختين.

سألته جوليا ميخائيلوفنا مدهوشة أشد الدهشة:

- ما هو الأمر؟ إنني لا أفهم: لماذا "ستظل يداها متسختين"؟...

قال بطرس ستيفانوفتش:

- لاحظني أنني لا أؤكد شيئاً، إلا أن شائعة تجري في المدينة قائلة إنها

كانت هي الوسيطة.

- وسيطة؟ بين من ومن؟

- كيف؟ ألا تعلمين بعد؟

كذلك صاح يقول بطرس ستيفانوفتش مدهوشاً دهشة كاذبة، وأردف

يقول:

بين ستافروجين وليزافتا نيقولايفنا.

- ماذا؟ كيف؟

كذلك صحنا نسأل جميعاً في آن واحد.

قال بطرس ستيفانوفتش:

- هل يُعقل أن تكونوا جاهلين بالأمر؟ عجيب! إنها "تراجيديا-كوميديا":

إن ليزافتا نيقولايفنا قد انتقلت رأساً من مركبة زوجة مارشال النبالة إلى مركبة ستافروجين، وهربت معه إلى سكفورشنيك في وضح النهار، منذ ساعة واحدة، بل منذ أقل من ساعة.

جمدنا من الدهول. وأردنا أن نحصل على تفاصيل طبعاً. فما كان أشد دهشتنا حين رأيته عاجزاً عن أن يمدنا بأية تفاصيل، رغم أنه قد شهد الحادث "مصادفةً". يظهر أن الأمور جرت كما يلي: بعد الجلسة الأدبية، حين كانت مارشالة النبالة تصطحب في مركبتها ليزا ومافريكي نيقولايفتش إلى منزل أم ليزا (التي كانت لا تزال تعاني آلاماً في ساقها)، لمحوا مركبة كانت مرابطة على مسافة خمسة وعشرين متراً من باب المنزل. فما كان من ليزا إلا أن وثبت إلى الأرض، وركضت رأساً إلى تلك العربة، فركبتها، ولكن من دون أن تنسى أن تصرخ قائلةً لمافريكي نيقولايفتش: "ارحمني!". وأسرعت العربة تطوي الأرض متجهةً إلى سكفورشنيك، فلما سألناه "هل كانا على اتفاق؟ ومن ذا كان بالعربة؟"، أجاب بطرس ستيفانوفتش بأنه لا يعلم. قال: لا بد أنه كان ثمة اتفاق بين الشاب والفتاة، ولكنه لم يستطع أن يتعرف الشخص الذي كان بالعربة، فلعله الخادم العجوز ألكسي إيغوروفتش. سألناه: "ولكن أنت، كيف اتفق أن كنت هناك؟"، و"كيف عرفت أنها ذهبت إلى سكفورشنيك؟"، فأجاب بأنه كان ماراً بالمكان عرضاً، فلما لمح ليزا أسرع نحو العربة (ورغم ذلك، ورغم فضوله، لم يستطع أن يتعرف الشخص الذي كان بالعربة)، وأضاف أن مافريكي نيقولايفتش لم يحاول حتى أن يلاحق ليزا، بل إنه على عكس ذلك أنسكت زوجة مارشال النبالة التي أخذت تصيح بصوت عالٍ قائلة: "إنها ذاهبة إلى ستافروجين، إنها ذاهبة إلى ستافروجين!".

فجأة رأيتني أفقد صبري وأصرخ قائلاً لبطرس ستيفانوفتش وقد أخذ مني الغضب كل مأخذ:

- أنت الذي دبرت كل شيء أيها الشقي! في تدبير هذه المؤامرة إنما قضيت الصباح! أنت الذي ساعدت ستافروجين! أنت الذي كنت في العربة! أنت الذي فتحت الباب لليزا!... أنت... أنت... يا جوليا ميخائيلوفنا، هذا عدو لك فاحذريه! سيهلكك أنت أيضاً!

قلت هذا ووليت هارباً كمجنون.

ما أزال إلى هذا اليوم لا أفهم كيف أمكنني أن أصبّ على رأسه هذه الكلمات. ولكن رأيي كان على صواب: فكما علمنا في ما بعد كان كل شيء قد تمّ على ذلك النحو الذي ذكرته له، على ذلك النحو نفسه تقريباً. والعذر الذي انتحله لينبئنا بالخبر كان زائفاً زيفاً واضحاً كل الوضوح. إنه بدلاً من أن ينبئنا بالخبر فور دخوله من حيث أنه خبرٌ هامٌ جداً مثيراً جداً، تظاهر بأنه يظن أننا على علم به قبل وصوله هو، وذلك في الواقع مستحيل، لأن الحادث وقع منذ هنيئة قصيرة. ولو كنا نعرف الخبر قبله لبادرناه نحن بالكلام عنه. ولم يكن في إمكانه كذلك أن يعرف ماذا تقول المدينة عن زوجة مارشال النبالة وماذا تشيّع عنها لأن المدة التي انقضت على وقوع الحادث أقصر من أن تتيح رواج الإشاعات. وكنت قد لاحظت عدا ذلك ابتسامة الاحتقار التي ارتسمت على شفتيه مرتين أثناء رواية القصة: فلعله كان يعدنا أناساً بلهاء يسهل الضحك عليهم والتغريب بهم، ولكن ما شأني وبطرس ستيفانوفتش! لقد أخذت أفكر في الأمر الأساسي. فهربت من عند جوليا ميخائيلوفنا خارجاً عن طوري. إن هذه الكارثة قد طعنت قلبي في الصميم، فبلغت من الحزن والكرب أنني لعلني بكيت. كنت لا أعرف ماذا يجب أن أفعل. أسرعرت راكضاً إلى عند ستيفان تروفيموفتش، ولكن الشيخ اللعين رفض أن يفتح لي أيضاً. وهمست ناستاسيا تقول لي خائفة: "إنه يرتاح". فلم أصدّق من ذلك شيئاً. وذهبت إلى دار ليزا فاستطعت أن أسأل الخدم فأكدوا لي نبأ هروبها ولكنهم كانوا لا يعرفون شيئاً عدا ذلك. كان المنزل قد انقلب عاليه سافله.

براسكوفيا إيفانوفنا تُصاب بإغماء. وما فريقي نيقولا يفتش لا يتركها. بدالي مستحيلاً أن أستدعيه. وحين سألت عن بطرس ستيفانوفتش وعن دوره في القضية قيل لي أنه في الآونة الأخيرة أصبح لا يجيء إلى البيت أحدٌ غيره، وأنه ربما جاء في اليوم الواحد مرتين. كان الخدم حزانى، وكانوا يتكلمون عن ليزا بلهجة الاحترام. إنهم يحبونها. لم يراودني أي شك في أنها ضاعت، في أنها ضاعت ضياعاً لا خروج لها منه. ولكن الجانب السيكولوجي من هذه القضية كان لا يزال مجهولاً عندي، وكنت ما أزال عاجزاً عن فهمه كل العجز، لا سيما حين كنت أتذكر مشهد الأمس بين ليزا وستافروجين. وكنت أكره أن أسعى في المدينة سائلاً بعض الأصدقاء والمعارف الذين لا شك في أنهم كانوا على علم بالحادث وكانوا يعلقون عليه أسوأ التعليقات في أغلب الظن. لا سيما وأن مثل هذه المساعي تشتمل في رأيي على مذلة ألحقها بليزا. ولكن لا أدري لماذا ذهبت إلى داريا بافلوفنا (على أنني لم أستقبل هناك. فإن منزل آل ستافروجين قد أوصد في وجه كل قادم منذ أمس). لا أدري أنا نفسي ما الذي كان يمكنني أن أقوله لها لو أتيح لي أن ألقاها. ومن هنا ذهبت إلى عند أخيها. بدا لي شاتوف مربداً الوجه اربداداً شديداً. أصغى إلى كلامي ذاهلاً مفكراً كأنه يبذل جهداً خاصاً من أجل أن يتابع ما أقوله له. ولم يكذبني بشيء، بل جعل يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً بخطى أثقل من خطاه المعهودة. ولم ألبث أن تركته. ولكن بينما كنت أهبط السلم، صاح ينصحنني بأن أذهب إلى ليوتين، قائلاً: "هناك ستعرف كل شيء". ولكنني لم أذهب إلى ليوتين. فبعد أن قطعت شوطاً كبيراً من الطريق قررت فجأة أن أعود إلى شاتوف. لم أدخل عليه. ولكنني شققت بابه وسألته هل يريد أن يذهب إلى ماريا تيموفتشنا. فأجابني شاتوف بشتيمة. فرجعت أهبط السلم. أحب أن أذكر هنا، خشية النسيان، أن شاتوف في ذلك المساء نفسه قد مضى إلى الطرف الآخر من المدينة، إلى عند ماريا تيموفتشنا التي لم يكن قد رآها منذ مدةً طويلة. فوجدها في ذلك اليوم موفورة الصحة مشرقة المزاج. أما أخوها لبيادكين فكان قد اضطجع على الديوان في الحجرة الأولى ونام وهو

في حالة سكر شديد. كانت الساعة هي التاسعة تماماً كما ذكر لي شاتوف ذلك في الغداة حين لقيني عرضاً في الشارع. وفي الساعة العاشرة قررت أن أحضر حفلة الرقص، لا "مشرفاً" (فإن عقدة الشريط كانت قد بقيت عند جوليا ميخائيلوفنا)، بل مشاهد يدفعه حب الاطلاع وتدفعه الرغبة في أن يسمع ما تقوله المدينة عن جميع هذه الأحداث من دون أن يلقي على أحد سؤالاً، ثم إنني كنت أريد أن أرى جوليا ميخائيلوفنا ولو من بعيد: لقد لمت نفسي كثيراً على أنني تركتها بمثل تلك السرعة.

3

تلك الليلة، مع جميع أحداثها المستحيلة و"خاتمتها" الرهيبة، لا تزال تبدو لي اليوم كابوساً فظيماً، ولا تزال تؤلف في ما يتعلق بي أنا على الأقل، أشق جزء من أجزاء هذه القصة، لقد وصلت الحفلة متأخراً، ولكنني استطعت أن أشهد نهايتها، فإنها لم تدم طويلاً. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة قليلاً حين دخلت باب منزل زوجة مارشال النبالة، لقد أعدوا الصالة البيضاء الكبيرة التي قامت فيها الصبيحة الأدبية لتكون صالة رقص، إذ كانوا يعتقدون أن المدينة ستشارك في الحفلة. ولكن الواقع تجاوز أسوأ التنبؤات. وكنت أنا منذ الصباح متشائماً في ما يتصل بالإقبال على هذه الحفلة. غاب المجتمع الراقي كله، وغاب كذلك جميع الموظفين الذين لهم قدر من الشأن، وتلك وحدها علامة سوء ونذير شر. أما عن السيدات والآنسات فإن حسابات بطرس ستيفانوفتش (وهي حسابات خادعة مضللة طبعاً) فقد اتضح بطلانها وكذبها: إن عدد السيدات والآنسات اللواتي حضرن الحفلة عدد ضئيل جداً. لا تكاد توجد سيدة واحدة في مقابل أربعة رجال. ويا لهن من سيدات! إنهن نساء ضباط صغار، وزوجات كتاب في الدواوين، وثلاث ممرضات مع بناتهن، وأسرة السكرتير التي سبق لي أن جئت على ذكرها، واثنتان أو ثلاث من المالكات الفقيرات بمقاطعتنا، وبائعات... أفهذا ما كانت تتوقعه وترجوه جوليا ميخائيلوفنا؟ أما السادة فإنهم، رغم غياب

الطبقة الأرستقراطية، كانوا كتّة كثيفة. ولكنهم يحدثون في النفس تأثيراً سيئاً، ويثيرون الشبهة. كان بينهم طبعاً ضباط متواضعون محترمون مع زوجاتهم، وكان بينهم أرباب أسر طيّعون، مثل ذلك السكرتير الذي له سبع بنات، إن هؤلاء الناس البسطاء إنما جاؤوا بنوع من "الاضطرار"، على حد تعبير واحد منهم، ولكن كان بينهم أشخاص من طينة أخرى: فتيان مستهترون، وأشخاص من نوع الذين قدّرنا أنا وبطرس ستيفانوفتش أنهم أدخلوا الجلسة الأدبية بدون تذاكر. حتى لقد كان عددهم الآن أكبر كثيراً من عددهم في الصباح. إنهم الآن واقفون في قاعة البوفيه. وقد لاحظت أنهم ما إن دخلوا حتى مضوا إليها رأساً، كأنهم على موعدٍ فيها. وكان البوفيه قد أعدّ في نهاية سلسلة من الغرف، في قاعة فسيحة أقام فيها بروخورتش وسط مجموعة من أشهى المأكولات والمقبلات التي يعبدها مطبخ النادي مع أعداد كبيرة من قناني الخمرة. ولاحظت هنالك أفراداً لا يدري إلا الله من أين خرجوا، وقد أخذهم السكر منذ تلك الحين، وكانت هياتهم المزرية لا تليق بحفلة رقصٍ حتماً. كنت أعرف أن جوليا ميخائيلوفنا قد ارتأت أن تقيم حفلة ديموقراطية إلى أبعد حد، وأن تسمح بدخول الحفلة حتى "للبورجوازيين الصغار إذا كان بينهم من يملك ثمن تذاكر دخول". وهي حين قالت هذا الكلام أمام لجنتها لم تكن تجازف بشيء، لأنها تعلم علم اليقين أن لا أحد من بورجوازيينا الصغار، وكلهم فقراء، يخطر بباله أن يشتري بطاقة دخول. مهما يكن من أمر، ورغم الميل الديموقراطية لدى اللجنة، فإن حضور هؤلاء الأشخاص المشؤومين الذين يرتدون ملابس مرقعة مثقبة لم يبد لي أمراً مقبولاً. ولكن من ذا الذي تركهم يدخلون وماذا كان غرضه من ذلك؟ إن ليويتين وليامشين كانا قد حرّما من شارتي المشرفين (ولكنهما حضرا الحفلة على كل حال، لأنهما كانا سيشاركان في الرقصة الرباعية). ولكن ما كان أشد دهشتي حين رأيت أن ليامشين قد حلّ محله في مهمة الإشراف ذلك الطالب الذي أحدثت مشاحنته مع ستيفان تروفيموفتش فضيحة كبرى في "الصبيحة الأدبية". وأما ليامشين فقد ناب عنه في وظائفه بطرس ستيفانوفتش نفسه.

فماذا كان يمكن أن يُتَظَرَّ إذا؟ لقد أصحخت بسمعي إلى المحادثات فأدهشني في بعضها غباؤها وخبثها. ففي جماعة من الجماعات مثلاً كانوا يؤكدون أن هرب ليزا إنما دبرته جوليا ميخائيلوفنا نفسها، وأن جوليا ميخائيلوفنا قد قبضت من ستافروجين ثمن ذلك مبلغاً من المال. حتى لقد حددوا المبلغ، وأن إقامة الحفلة لم يكن لها من غرض إلا تنفيذ هذه الخطة، فلهذا السبب تخلف نصف المدينة عن المجيء بعد أن علم بالأمر. وقد بلغ لمبكه من الدهشة لهذه القصة كلها أنه فقد عقله ولكنه ينقاد لامراته ولا يخرج على إرادتها. وكان الناس يضحكون ضحكاً فظاً سمجاً شريراً ولم يفهم أن يتقدوا حفلة الرقص انتقاداً عنيفاً، وأن ينعتوا جوليا ميخائيلوفنا بأبشع الأوصاف من دون أي تحرج. ولكن كان يصعب على المرء أن يستخرج أي شيء محدد معيّن من هذه الثثرة المشوشة الحانقة المحمومة. وكان الملجأ كذلك ملاذاً للأشخاص الذين يريدون أن يتسلّوا ويتندروا ويضحكوا لا أكثر. فهناك يرى المرء نساءً من أولئك السيدات اللواتي يطفحن نشاطاً ومرحاً، واللواتي أصبح لا يدهشن شيء ولا يرهبن شيء. إنهن في صحبة أزواجهن، الضباط في الغالب الأعم، وكان أزواجهن هؤلاء قد جلسوا إلى موائد صغيرة يشربون الشاي ويتمازحون ضاحكين. وما هي إلا فترة وجيزة حتى أصبح نصف الجمهور في تلك الحجرة، شعرت بخوف حين تصورت ما قد يحدث حين يتزاحم هذا الجمهور كله دفعةً واحدة في صالة الرقص حيث كانت قد تكونت بمساعدة الأمير ثلاث رقصات رباعية بسيطة.

كانت الفتيات ترقصن أمام آبائهن وأمهاتهن، وكان الآباء والأمهات يبتهجون بذلك ويسرّون له. ولكن عدداً كبيراً من هؤلاء الآباء والأمهات كانوا يقولون بعضهم لبعض أن بناتهن قد تسلّين بما فيه الكفاية، فيحسن الانصراف في الوقت المناسب قبل أن "يبدأ الأمر". ذلك أن الجميع كانوا مقتنعين بأن "أمراً سيبدأ" لا محالة. يصعب عليّ أن أصف الحالة النفسية التي كانت عليها جوليا ميخائيلوفنا. ورغم أنني وجدتني بقربها عدة مرات، فإنني لم أكلّمها، كما أنها لم ترد التحية التي حييتها بها عند دخولي، لا

لشيء إلا كونها لم تلاحظني. كان وجهها منقلباً، وكان في نظرتها غطرسة واحتقار، ولكن كان في هذه النظرة قلق أيضاً. واضح أنها كانت تحاول أن تتغلب على نفسها. لماذا؟ ولمن؟ لقد كان ينبغي لها أن تنصرف، وأن تقتاد زوجها خاصةً، ومع ذلك بقيت. يكفي أن ينظر المرء إلى وجهها حتى يدرك أن عينيها قد "زالت عنهما الغشاوة"، وأنها لم يبق لديها أي وهم. أصبحت لا تنتبه حتى إلى بطرس ستيفانوفتش (وكان بطرس ستيفانوفتش يتحاشاها على كل حال، لقد لمحت في البوفيه، فرأته شديد المرح). لقد بقيت جوليا ميخائيلوفنا مع ذلك ولم تترك زوجها. في ذلك الصباح نفسه، لو أن أحداً ألمع إلماعاً إلى صحة آندره أنطونوفتش لرفضت هذا الإلماع مستاءةً أصدق الاستياء حتماً. ولكن عينيها قد زالت عنهما الغشاوة الآن في هذا الأمر أيضاً ولا شك. أما أنا فقد بدا لي منذ النظرة الأولى أن هيئة آندره أنطونوفتش أسوأ مما كانت في الصباح. لكنه الآن لا يعي ما يعمل، بل لا يدرك أين هو من المكان. كان من حين إلى حين يلقي على ما حوله نظرات قاسية. وقد تلبث إحدى هذه النظرات عليّ مرتين. وفجأة أخذ يتكلم بصوت قوي، ولكنه لم يستطع أن يكمل جملة، فامتلاً من ذلك بالرعب قلبُ موظفٍ عجوز خجول كان حينذاك بقربه مصادفةً. ثم إن هذا الجزء نفسه من الجمهور الذي كان واقفاً في الصالة البيضاء بتواضع، كان يتعد عن جوليا ميخائيلوفنا مكفهر الهيئة حانقاً، ملقياً على زوجها نظرات غريبة، نظرات يتناقض إصرارها وتناقض دلالتها تناقضاً قوياً مع ما كانت تعبر عنه هيئاتهم من وجل.

لقد أسرَّت إليّ جوليا ميخائيلوفنا، في ما بعد، قائلةً:

- ذلك بعينه هو ما فاجأني. وعندئذ إنما أخذت أدرك حقاً الحالة النفسية التي كان عليها آندره أنطونوفتش.

نعم، مرةً أخرى ارتكبت غلطة. إنه لمن الجائز أنها منذ قليل، حين خرجتُ من عندها هارباً، وكانت قد قررت بالاتفاق مع بطرس ستيفانوفتش أن الحفلة ستقام، وأنها ستحضرها، أقول إنه لمن الجائز أن تكون قد ذهبت إلى حجرة آندره أنطونوفتش الذي كانت الصبيحة الأدبية قد قلبت نفسه رأساً

على غقب، فما زالت به تغريه وتغريه حتى حصلت منه على موافقته على مصاحبتها إلى حفلة الرقص. ولكن لا شك أنها تلوم نفسها على ذلك أشد اللوم الآن! ومع ذلك لم تشأ أن تنصرف. أكان العجب هو الذي يعذبها؟ لا أدري! إنها رغم زهوها قد حاولت عدة مرات أن تعقد حديثاً بينها وبين بعض السيدات، موجّهةً إليهن ابتسامات متواضعة، ولكن السيدات سرعان ما كن يتخوفن ثم يتخلصن من الحديث بكلمة نعم أو بكلمة لا، موجزات مقتضبات، ويتعدن عنها متعجلات تعجلاً واضحاً.

وكان لا يمثل الطبقة الأرستقراطية في الحفلة إلا ذلك الجنرال المحال على التقاعد الذي سبق أن أتيح لي الكلام عنه والذي "فتح باب التذمر على مصراعيه للناس كافة" بعد المباراة التي قامت بين ستافوجين وجاجانوف. كان الجنرال يتجول في القاعات مهيب المنظر، مُلاحظاً كل شيء، حريصاً أشد الحرص على أن يُظهر بوضعه أنه لم يجرى إلا من باب حب الاطلاع على عادات أهل الإقليم. وانتهى به الطواف إلى التثبيت بجوليا ميخائيلوفنا، فلم يتركها بعد ذلك، محالاً أن يسرّي عنها ويواسيها ويهدئ روعها. إن الرجل الممتاز، المهيب المنظر، كان قد بلغ من التقدم في السن أن المرء يقبل منه العطف والشفقة. ومع ذلك كان واضحاً على جوليا ميخائيلوفنا أنها يُحنقها أن ترى نفسها مضطرة إلى الاعتراف بأن هذا العجوز الثرثار قد أباح لنفسه أن تأخذه بها شفقة وأن يكون لها بمثابة الحامي تقريباً، شاعراً بأنه إذ يفعل ذلك إنما يشرّفها. ومع ذلك لم يتركها الجنرال، وظل يتكلم بلا توقف. - يقال إن مدينة من المدن لا يمكن أن تبقى إلا إذا كان يحميها سبعة صالحين... نعم... سبعة... في ما أظن... لا أتذكر العدد المطلوب على وجه الدقة. ومن بين صالحينا السبعة الذين لا يُجحدون، لا أعرف عدد الذين يشهدون حفلتك هذه، ولكنني رغم حضورهم لا أشعر بالثقة والطمأنينة. إنك تغفرين لي، يا سيدتي الفاتنة، أليس كذلك؟ إنني أتكلم رمزاً. ولكنني ذهبت إلى البوفيه فعددت نفسي سعيداً لأنني استطعت أن أخرج منه سليماً لم يمسنني سوء. إن صاحبنا الطيب بروخورتش ليس في مكانه، وأنا أخشى

أن لا يطلع الصباح إلا ويكون مبناه قد انقلب عليه سافله! أنا أمزح على كل حال. ولكنني أنتظر الرقصة الرباعية التي مدارها على الأدب، وبعد ذلك أمضي إلى سريري فأنام. اعذريني فأنا مريض بداء النقرس. إنني أنام في ساعة مبكرة. وعلى كل حال، فأنا أنصحك بأن تنامي أنت أيضاً. أنا إنما جئت خاصة لأمتع بصري بالجمال الغض النضر. ولست أستطيع طبعاً أن أجد منه تشكيلة غنية كالتشكيلة التي يمكن أن أراها في هذا المكان... إنهن جميعاً من الحي الذي يقع على الضفة الأخرى من النهر. وهو حي لا أذهب إليه أبداً. هناك زوجة أحد الضباط، الضباط القناصة إذا لم يخطئ ظني. إنها حسناء... وتعرف أنها حسناء. لقد تحدثت مع الصغيرة الغنجة. ما هي بالخجول!... ثم... إن الفتيات نضيرات. ولكن ليس فيهن شيء غير هذا. على كل حال، لقد سررت بمرآهن. إن بينهن لبراعم ورد حقاً. خسارة أن شفاهن سمكة قليلاً. إن الجمال الروسي بوجه عام يفتقر إلى اتساق القسمات... "تغفرين لي، أليس كذلك؟ (بالفرنسية). الأعين جميلة، يجب الاعتراف بهذا... هي أعين ضاحكة. إن براعم الورد هذه لذيذة ما ظلت فية... أي مدة ستين... أو ثلاث سنين... ثم هي تفتح تفتحاً شديداً، فتشوه، إلى الأبد... فتبعث في الأزواج ذلك النوع من "اللا.. اكتر.. ثية" التي تساهم كثيراً في مفاخرة قضية المرأة... إذا صح ما أفهمه من هذه القضية وما أعرفه عنها... هم... الصالة جميلة، والغرف قد أعدت إعداداً لا بأس به. كان يمكن أن يكون إعدادها أسوأ. والموسيقى أيضاً كان يمكن أن تكون أردأ. لا أقول إنها كان ينبغي أن تكون أردأ!... الشيء الذي لا يرتاح إليه النفس هو قلة عدد السيدات. لا أقول شيئاً عن زينة السيدات، بل عن عددهن. من المؤسف أن هذا الرجل، الذي يرتدي بنطلوناً رمادياً، قد أباح لنفسه أن يرقص الكانكان منذ الآن. إنني أعذره لو كان يتهزّز هذا التهزّز عن فرح. ثم إنه أحد الصيادلة عندنا... إنه لكثير على صيدلي أن يبدأ منذ الساعة الحادية عشرة. لقد بكر كثيراً... وفي البوفيه رأيت رجلين يتبادلان اللكمات منذ لحظات، ولم يطردوهما. إن الذين يتضاربون في الساعة الحادية عشرة يجب أن يطردوا، مهما تكن

عادات الجمهور وأخلاقه. لا أقول شيئاً عن الساعة الثالثة من الصباح، ففي الساعة الثالثة من الصباح لا بد من بعض التنازلات. ولكن هل يمكن أن تدوم هذه الحفلة حتى الساعة الثالثة؟... أرى أن فرفاراً بترفنا لم تبرّ بوعدها فترسل أزهاراً. هم... إن هموم رأسها الآن لا تسمح لها بالتفكير في هذا الأمر. يا للأم المسكينة! والشقية ليزا! هل سمعت؟ هذه قصة ملغزة في ما يقال، إن ستافروجين يظهر على المسرح من جديد!... هم... يحلولي أن أذهب الآن فأنام. إن عينيّ تغمضان. والرقصة الرباعية الأدبية، متى عساها تبدأ؟

وبدأت الرقصة الرباعية الأدبية أخيراً. وكان الناس بالمدينة، في الآونة الأخيرة، ما إن يجيء الحديث على ذكر الحفلة حتى يتعرضوا لأمر هذه الرقصة، فإن حب الاطلاع كان يشور حتى يبلغ أقصاه. ولا شيء يمكن أن يكون خطراً على نجاح هذه الرقصة كهذه الحالة النفسية. لذلك ما كان أشد خيبة أمل الناس حين رأوها!

انفتح أحد أبواب الصالة البيضاء التي ظلت مغلقة حتى ذلك الحين، وخرج منه فجأة عددٌ من الراقصين المقتنعين. فسرعان ما أحاط بهم الجمهور. وجميع الذين كانوا في البوفيه هرعوا إلى القاعة. وتهياً المقتنعون للرقص مصطفين. واستطعت أنا أن أتسلل إلى أمام، فصرت وراء جوليا ميخائيلوفنا وأندره أنطونوفتش والجنرال تماماً. وفي تلك اللحظة رأيت بطرس ستيفانوفتش الذي ظل متنحياً طوال الوقت، رأيته يهرع نحو جوليا ميخائيلوفنا، ويهمس قائلاً لها بهيئة تلميذ مذنب.

- سوف أبقى في البوفيه وأراقب الناس.

وكان ذلك منه تظاهراً زائفاً مفضوحاً لا يهدف في الواقع إلا إلى إحناق المرأة المسكينة مزيداً من الحق. فاحمرّ لونها احمراراً شديداً من فرط الغضب.

فأفلت من لسانها قولها بصوت عالٍ سمعه الناس:

- لا تحاول أن تخدعني بعد الآن أيها الشخص الوقح.

فولّي بطرس ستيفانوفتش هارباً، راضياً عن نفسه كل الرضى.

إنه ليصعب على المرء أن يتخيل رقصة رمزية أبشع ولا أغبى ولا أدعى إلى الرثاء من تلك "الرقصة الرباعية الأدبية"! ولا شيء أبعد منها عن ذوق جمهورنا، وأبعث منها على نفوره! ومع ذلك فإن كارمازينوف، في ما يظهر، هو الذي وضع فكرتها. صحيح أن التنفيذ قد تولاه ليوتين، وساعده فيه الأستاذ الأعرج الذي شهد سهرة فرجنسكي. ولكن واضع الفكرة هو كارمازينوف على كل حال. حتى لقد أكّد بعضهم أن كارمازينوف خطر بباله أن يتنقّع وأن يشارك هو نفسه في "الرقصة الرباعية الأدبية". لم يتجاوز عدد المقتنعين ستة أزواج، هذا إذا صح أن يطلق اسم المقتنع على شخص يرتدي ملابس كملايس سائر الناس: كان أحد المقتنعين مثلاً، وهو سيد متقدم في السن، قصير القامة، يلبس رداء فراك، وله لحية بيضاء محترمة (هي الشيء الوحيد المصنوع الذي كان بمثابة قناع)، كان هذا الرجل يرقص أو قل يتهزّز في مكانه بجهد لا يزحزحه عنه شيء، ولا يعكره عليه شيء، وينطق أحرفاً غريبة بصوت خافت مبحوح، فكانت هذه البهجة هي الشيء الوحيد الذي يرمز إلى جريدة معينة معروفة. وأمام هذا الشخص كان يرقص رجلان عريضان هما "جيم" و "دال". كان هذان الحرفان معلقين بدبوسين على رداءيهما (الفراك)، ولكن لم يعرف أحد ماذا يعنيان ولا إلى شيء يرمزان. وكان "الفكر الروسي الشريف، إنما يمثله سيد متوسط العمر، على عينية نظارتان، وفي يديه قفازان، ولباسه فراك، مع جنزير في قدميه (جنزير حقيقي من جنازير السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة). إنه يتأبط محفظة تحتوي على "ملف" لا أدري ما هو. ومن جيبه تخرج رسالة مفوضة مرسلة إليه من الخارج تبرهن لأكثر الناس شكاً وريبة على شرف "الفكر الروسي الشريف"، كما سُرح لنا ذلك بصوت عالٍ، لأن الرسالة لم تكن قراءتها ممكنة بطبيعة الحال. والرجل يحمل بيده اليمنى قدحاً كأنه يتهياً لأن يقترح نخباً. وعلى جانبيه يتواثب اثنان من العدميين قد قُصَّ شعرهما قصيراً. وأمام هذا "الثلاثي" يرقص رجل كهل يرتدي فراكاً ويحمل بيده هراوة. إنه

يمثل جريدة يومية تصدر بموسكو، وكأن هيئته تقول: "انتظروا قليلاً فلاسوف ترون ما أفعل بكم!". ولكنه رغم هراوته لا يستطيع أن يتحمّل النظرة التي يطارده بها "الفكر الروسي الشريف" من خلال نظارتيه، فهو يحاول أن يشيح عينيه، حتى إذا خطا خطوةً من اثنتين، انحنى وتلوّى، ثم لم يعرف أين يدس نفسه من شدة ما يعاني من عذاب الضمير! ... لا أتذكر الآن بقية سخافات هذه الرقصة ولكنها كانت جميعاً من هذا الطراز على كل حال، حتى شعرت أخيراً بعار شديد وخزي أليم. وقد تجلّى هذا الشعور بالعار في جميع الوجوه، حتى في الوجوه المشؤومة التي وفدت من البوفيه. ولقد ظل الناس صامتين خلال مدة من الوقت، يتأملون هؤلاء المقنّعين مدهوشين دهشةً غاضبةً حانقة. ولكن من عادة الإنسان أن الشعور بالعار يجعله شريراً ميالاً إلى الاستهتار والاستخفاف. فهذه جلبة صماء تعلو شيئاً بعد شيء:

دمدم أحد أصدقاء البوفيه متسائلاً:

- ما معنى هذا كله؟

وقال آخر:

- يا للبلالة!

فأجاب ثالث:

- هذا أدب. إنهم ينتقدون جريدة "الصوت".

- ولكن فيم يعني أنا هذا؟

وبين جماعة أخرى دار الحوار التالي:

- هؤلاء حمير!

- أنا لست حماراً!

- وأنا لست حماراً!

وفي جماعة أخرى دار الحوار التالي:

- يجب أن يُركل قفاهم بالأقدام وأن يرسلوا إلى الشيطان!

- تعال نخرب الصالة كلها.

وفي حلقة أخرى:

- كيف لا يستحي آل لمبكه أن يروا هذا كله؟

- علام يستحون؟ وأنت لماذا لا تستحي؟

- إنني لأشعر بالحياء فعلاً، ثم إنه هو حاكم!

- وأنت أيضاً خنزير!

- لم أشهد في حياتي كلها حفلة رقص تبلغ هذا المبلغ من العامة

والابتذال.

كذلك قالت بلهجة مسمومة وصوت عالٍ، رغبةً في أن تُسمع، سيدةٌ كانت بقرب جوليا ميخائيلوفنا. إن جميع الناس في المدينة تقريباً يعرفون هذه السيدة التي تبلغ من العمر زهاء أربعين عاماً، السمينّة، المثقلة الوجه بالمساحيق والأصباغ، المرتدية ثوباً من حرير صارخ الألوان. ولكنها لم تكن تُستقبل في منازل عليّة القوم. إنها أرملة مستشار دولة، وأورثها زوجها منزلاً من خشب وراتباً هزيباً. وكانت قبل شهرين قد مضت إلى منزل جوليا ميخائيلوفنا تحاول زيارتها، ولكن جوليا لم تستقبلها.

أضافت تقول وهي تلقي على جوليا ميخائيلوفنا نظرة وقحة:

- على كل حال كان هذا متوقّعاً.

- فلم تستطع جوليا ميخائيلوفنا أن تسيطر على نفسها، فأجابتها قائلةً:

- إذا كان متوقّعاً، فما كان ينبغي لك أن تجيئي.

فسرعان ما ردّت السيدة تقول رافعةً رأسها في تحدٍ:

- كنت ساذجةً مسرفةً في السذاجة.

كان واضحاً أن السيدة كانت تتحرّق شوقاً إلى مشاجرة جوليا ميخائيلوفنا.

ولكن الجنرال تدخل قائلاً بصوت خافت وهو يميل نحو جوليا

ميخائيلوفنا:

- سيدتي العزيزة، حقاً إنه لمن الأفضل أن تنصرفي. نحن لا نريد هنا على

أن نضايقهم. فلو انصرفنا لتسلّوا وابتهجوا أكثر من هذا. لقد قمت بواجباتك

الآن... لا سيما وأن أندره أنطونوفتش ليست صحته حسنةً في ما أظن... قد

يحصل شيء خطير.

ولكن كان قد فات الأوان.

إن أندره أنطونوفتش، منذ أن ظهر المقتنون، لم ينقطع عن النظر إليهم بدهشة يمازجها غضب. وحين أخذ الجمهور يضحك، ألقي على ما حوله نظرات قلقة عدة مرات. وحينذاك إنما لاحظ لأول مرة وجوهاً كريهة تستحق العقاب. فارتسمت على وجهه عندئذ أقصى معاني الشدة. وانفجرت قهقهات على حين فجأة: إن ناشر الجريدة اليومية "الرهية" بموسكو، الذي كان يرقص مع هراوة، وقد عجز عن أن يحتمل النظرة التي يرشقها بها "الفكر الروسي الشريف" مزيداً من الاحتمال، وأصبح لا يعرف كيف يتجنبها، لم يجد وسيلة أفضل من أن يمشي على يديه، رافعاً قدميه في الهواء، وهذه إشارة لطيفة إلى الفوضى الفكرية التي تتخبط فيها هذه الجريدة وإلى ما تتصف به من بعدٍ عن الحس السليم ونأي عن العقل. ولما كان ليا مشين هو الشخص الوحيد الذي يستطيع السير على يديه، فقد تولى بنفسه تمثيل دور هذه الشخصية التي تحمّل الهراوة. لم يكن يخطر ببال جوليا ميخائيلوفنا أن مشهداً كهذا المشهد سيُمثّل: "لقد أخفوا عني هذا الأمر، لقد كتموه عني!". كذلك كانت تردد فيما بعد مستاءة غاضبة حانقة. وكان الناس يضحكون ولكنهم لا يضحكون طبعاً من "الرمز" الذي لا يهم أحداً، وإنما كانوا يضحكون من منظر سيد يرتدي فراكاً وقد جعل رأسه في أدنى وقدميه في أعلى. وارتعش فون لمبكه غضباً. وها هو ذا يأخذ يصيح مشيراً إلى ليا مشين: - شقي!... امسكوه!... اقلبوه!... اجعلوا قدميه في أسفل، ورأسه في أعلى... في أعلى!...

استقام ليا مشين على قدميه. وتضاعفت القهقهات.

وصاح فون لمبكه آمراً على حين فجأة:

- اطرّدوا جميع هؤلاء الأوغاد الذين يضحكون!

فاشتد الضحك صخباً، وطفق الجمهور كله يضحج مرحاً:

- هذا سلوك غير لائق يا صاحب السعادة!

- لا تجوز إهانة الجمهور!

وصاح صوت في ركن من الصلاة يقول:

- أنت الغبي!

وقذف آخر قوله:

- نصابون!

فلما سمع لمبكه هذا الصيحة التفت فجأة، واصفرّ وجهه اصفراراً شديداً. وألّمت بشفتيه ابتسامة مبهمة. وكأنه كان يتذكر شيئاً ويسترد وعيه. قالت جوليا ميخائيلوفنا وهي تحاول أن تقتاد زوجها وأن تُخرجه من الجمهور الذي كان يزحمهما من كل جهة:

- أيها السادة! اعدروا أندره أنطونوفتش. إن أندره أنطونوفتش مريض. اعدروه. اغفروا له...

نعم، لقد سمعتها تنطق بهذه الجملة "اغفروا له". وقد جرى المشهد سريعاً جداً. ولكنني أتذكر جيداً أن جزءاً من الجمهور قد ارتاع حين سمع ذلك، فهرع يخرج من الصلاة. بل إنني أتذكر تلك الصرخة التي أطلقتها امرأة جعلت تبكي بكاءً عصبياً وتقول:

- آه... تجدد الأمر!

وفي وسط هذه الفوضى والبلبلة، انفجرت قبلةٌ جديدة. فهذا صوتٌ يصيح قائلاً:

- النيران! النيران! الضاحية تحترق!

لا أدري على وجه الدقة من أين انبعثت هذه الصرخة. أظن أن أحداً في حجرة المدخل قد أطلقها بعد أن صعد درجات السلم أربعاً أربعاً. المهم أن هلعاً وجزعاً عامين لا يوصفان قد استوليا على الناس. إن أكثر من نصف الجمهور إنما يسكن في الضاحية (أي في الحي الذي يقع على الضفة الأخرى من النهر). وهرع الناس إلى النوافذ، فأبعدوا الحجب وانتزعوا الستائر. كانت الضاحية تحترق فعلاً. إن الحريق لم يبدأ إلا منذ برهة قصيرة. ولكن المرء يرى رؤيةً واضحةً أن النار قد شبت في ثلاثة أماكن مختلفة. وذلك هو أفظع ما في الأمر.

أعول الجمهور يقول:

- عمال مصنع شيبجولين هم الذين أشعلوا النار.

وإني لأتذكر بضع صيحات ذات دلالة كبيرة:

- كنت أتوقع أن يشعلوا النار! كنت أوجس هذا طوال هذه الأيام الأخيرة!

- هذه ضربة من عمال مصنع شيبجولين. ليس في هذا شك.

- لقد جمعونا هنا عمداً لإشعال النار في بيوتنا.

إن هذه الصرخة الأخيرة، وهي أغرب سائر الصرخات كافة، إنما أطلقتها

على غير إرادة منها، من دون أن تفكر فيها، امرأة جُنت من الذعر يقال لها كوروبوتشكا.

واتجه الناس نحو باب الخروج. لن أحاول أن أصف عويل النساء المروّعات، وبكاء الفتيات، والتراحم والتدافع في حجرة المدخل حول المعاطف والشالات. ولا غرابة في أن عدداً من الناس قد انصرف في وسط هذه الفوضى قبل أن يعثر على معطفه. ولكنني لا أعتقد أنه كان هناك سرقات كما رُوي ذلك بالمدينة في ما بعد. وقد أوشك لمبكه وجوليا ميخائيلوفنا أن يداسا في هذا الزحام فيهمشما تهشيماً.

وكان لمبكه يصرخ مرغياً مزبداً، ماداً نحو الجمهور ذراعه، مهدداً:

- أوقفوا الجميع! اعتقلوا الجميع! لا يخرجنَّ أحداً!

فجاءه الجواب على ذلك شتائم وسباباً من كل جهة بالقاعة.

وصرخت جوليا ميخائيلوفنا تقول له وقد طاش صوابها:

- أندره أنطونوفتش! أندره أنطونوفتش!

فصرخ يقول وهو يومئ إليها بإصبعه:

- اعتقلوها هي قبل أي شخص آخر. وفتشوها قبل أن تفتشوا أي شخص

آخر! لقد أقيمت حفلة الرقص لإشعال النار في المدينة.

فأطلقت جوليا ميخائيلوفنا صرخة، وسقطت مغشياً عليها (لقد أغمي

عليها إغماء حقيقياً في هذه المرة). فأسرعنا إلى نجدتها أنا والأمير والجنرال.

وهبَّ إلى مساعدتنا في هذه اللحظة الصعبة أشخاص آخرون، حتى إن عدداً

من السيدات كنَّ بين الذين هبوا إلى مساعدتنا. وأفلحنا في أن نخرجها من هذا الجحيم وأن نركبها عربتها. ولكنها لم تستيقظ من إغمائها إلا حين وصلت إلى البيت. فكانت الكلمات الأولى التي نطقت بها هي السؤال عن آندره أنطونوفتش. لقد أصبحت لا تفكر إلا فيه وسط انهيار جميع أحلامها. وأرسلنا نستدعي طبيباً. وبانتظار وصول الطبيب قضيت إلى جانبها ساعة أنا والأمير. وقد عصفت بالجنرال نوبة كرم وأريحية (رغم أنه كان هو نفسه خائفاً مذعوراً) فقرر أن يبقى ساهراً على "سرير المسكينة" طول الليل. ولكنه ما إن انقضت عشر دقائق حتى أخذه الكرى فنام على مقعد، وترك شأنه.

وقد استطاع رئيس الشرطة الذي كان يريد أن ينتقل إلى مكان الحادث المشؤوم بأقصى سرعة، استطاع أن يخرج لمبكه من صالة الحفلة وأن يركبه العربة إلى جانب جوليا ميخائيلوفنا، ناصحاً "صاحب السعادة" الحاكم بأن ينال قسطاً من الراحة. إنني لا أفهم لماذا لم يلحّ مزيداً من الإلحاح. وطبيعي أن كان فون لمبكه لا يريد أن يسمع أحداً ينطق بكلمة "الراحة"، ويصرُّ على أن يرى الحريق بنفسه إصراراً شديداً. ولم يكن هذا بالحجة الكافية، ولكن رئيس الشرطة اصطحبه في عربته أخيراً وأخذه إلى "الضاحية". وقد روي بعد ذلك أن فون لمبكه ظل طوال الطريق يحرك يديه بإشاراتٍ معينة ويصدر أوامر غريبة عجيبة "يستحيل تنفيذها". وفي التقرير الذي قدمه في ما بعد صرَّح بأن "صاحب السعادة" كان في تلك اللحظة، بسبب ذعرٍ مفاجئٍ وهلعٍ مباغتٍ، يعاني نوبة حمى حارة".

لا داعي إلى أن أروي عليكم كيف انتهت الحفلة. لقد هرب الجميع إلا عشرين أو ثلاثين شخصاً وبضع سيدات. أما الشرطة فلم يبق منها أحد. وهؤلاء الذين لم يهربوا لم يسمحوا لأعضاء الأوركسترا أن ينصرفوا، حتى إنهم ضربوهم حين أرادوا الفرار. وفي الصباح كانت "دكان" بروخورتش قد خوت تماماً. لقد ظلوا يشربون حتى ضاعت عقولهم، وظلوا يرقصون بخطى مترنحة مبعثرة، وملأوا بالأوساخ الأرض ولطخوا بالأقذار الجدران. فلما طلع الفجر اتجه جزء من العصابة إلى الضاحية سُكاري تماماً، وكانت

النيران قد بدأت تنطفئ. وهناك استرسلوا في أنواع جديدة من الفوضى والتشويش... أما الجزء الآخر منهم، فكانت الخمرة قد خربتهم تخريباً، فقصوا بقية الليل على الأرض أو على أرائك المخمل يعانون جميع ما يعانيه السكارى من عقابيل السكر البشعة الأليمة. حتى إذا شرقت الشمس أخرجوا من المنزل جراً من أقدامهم. فهكذا انتهت حفلة الرقص التي أقيمت لمعاونة معلّّات إقليمنا.

إن النار لم تنشب في الضاحية من تلقاء نفسها. لقد كان واضحاً أنها من فعل فاعلين. وذلك خاصةً هو ما بث الذعر والهلع بين سكان "الضاحية". يجب أن نلاحظ أن الصرخة التي انطلقت قائلة: "النيران!" قد أعقبتها على الفور صرخة أخرى تقول: "إنهم عمال مصنع شبيجولين!". ولقد أصبح معروفاً اليوم أن ثلاثة من عمال مصنع شبيجولين هم الذين أشعلوا النار فعلاً. ولكن زملاءهم جميعاً قد اتضح براءتهم، للقضاة وللناس على حد سواء. إن أولئك الأوغاد الثلاثة (الذين قبض على واحد منهم فاعترف بكل شيء، ولا يزال الآخران هاربين)، قد فعلوا فعلتهم هذه مع فدكا، السجين الهارب من سجن الأشغال الشاقة: ذلك أمر لم يبق أي شك فيه الآن. وهذا مجمل ما نعرفه عن أصل الحريق الذي شب في "الضاحية". أما الافتراضات التي قامت في الأذهان بشأنها شأن آخر. ماذا كان هدف هؤلاء الجناة الثلاثة؟ أكان يوجههم أحد أم لا؟ لا تزال الإجابة عن هذا السؤال صعبة أشد الصعوبة حتى الآن!

المهم أن ريحاً قوية قد أورت النيران، فاذا بالحريق الذي اندلع في ثلاثة أماكن مختلفة في آن واحد، ينتشر انتشاراً سريعاً جداً فيمتد في حي بكامله، لا سيما وأن المنازل التي تقع على هذه الضفة الأخرى من النهر كانت جميعها تقريباً من خشب (سيبيّن لنا في ما بعد أن واحداً من المساكن الثلاثة قد اكتشفت فيه النار فسرعان ما أطفئت). على أن مراسلي صحف العاصمة قد ضحّمت الحادث: فالنيران لم تلتهم في الواقع إلا ربع الضاحية في أكثر تقدير (إن لم يكن أقل من ذلك). إن رجال المطافئ في مدينتنا،

رغم أن عددهم قليل بالقياس إلى سعة المدينة وعدد سكانها، قد عملوا بهمة ونشاط، وتصرفوا تصرفاً يتسم بالجرأة والجسارة. ومع ذلك فإن جميع جهودهم كان يمكن أن تذهب سُدى، رغم مساعدة الأهالي لهم، لولا أن الريح قد سكنت فجأة عند طلوع الشمس. إنني حين وصلت إلى "الضاحية" بعد ترك الحفلة بساعة رأيت الحريق يستعر استعاراً مجنوناً. كان الشارع الموازي للنهر مشتعلًا كله. وكان المرء يرى على وهج النيران كل شيء كأنه في وضوح النهار. لن أسهب في وصف المشهد تفصيلاً: من ذا الذي لا يعرف روسيا؟ في الشوارع الصغيرة المجاورة، بلغ الاضطراب حدًا رهيباً. السكان الذين ما تفك النيران تقترب منهم مهددةً، ينقلون أثاث بيوتهم وأمتعتهم العتيقة، ولكنهم لا يستطيعون أن يعزموا أمرهم على الابتعاد عن منازلهم، فيظلون في الشارع، جالسين على صناديقهم وألحفتهم، تحت نوافذ بيوتهم. الرجال يندفعون في القيام بأعمال قاسية: يهدون ألواح الحواجز بغير رحمة، ويهدون حتى الخصاص والأكوخ حين تكون في متناول النيران والرياح. الأطفال الذين انتشلوا من نومهم يكون. النساء اللواتي فرغن من جمع أمتعتن حولهن يتحبن انتحاباً شديداً. واللواتي لم يفرغن من ذلك ما زلن يعملن في نقل متاعهن صامتات. الشرارات وجمرات الفحم تتطاير إلى بعيد، فيسارع المسارعون إلى إطفائها كيما اتفق لهم ذلك. أناس يهرعون من جميع أركان المدينة يحتشدون في أمكنة الكارثة. فبعضهم يساعد رجال المطافئ وبعضهم لا يزيد على أن ينظر إلى الحريق مشاهداً. إن رؤية نيران عظيمة في الليل يُحدث على الدوام أثراً يهيج الأعصاب ويحرّض النفس في آن واحد. ذلك هو سرُّ تأثير الأسهم النارية التي تُطلق في الأعياد ابتهاجاً. ولكن الأسهم النارية زينة مقصودة، وليس فيها خطر مهدد. لهذا لا تحدث في النفس إلا إحساسات خفيفة ونشوة يسيرة كتلك التي تحدثها كأس شمبانيا. ولا كذلك الحريق: فيها هنا دُعر وشعور بخطر شخصي يضافان إلى احتياج فرح تولده نيران الليل، فإذا بالمشاهد (اللهم إلا إذا ألمت به الكارثة هو نفسه) يشعر بنوع من هزّة عصبية وتستيقظ في نفسه غرائز التدمير،

الغافية عند كل إنسان - وأسفاه! - وحتى عند موظفٍ خجول هادئ! إن هذا الاحساس الغامض يكاد يكون مسكراً دائماً. "أشك أن يكون من الممكن أن يتأمل المرء حريقاً من دون أن يشعر من ذلك بلذّةٍ ما". ذلكم ما قاله لي، كلمةً كلمةً، في ذات يوم، ستيفان تروفيموفتش، حين عاد من رؤية حريق شهده في الليل مصادفةً، ولقد قال لي هذا الكلام وهو لا يزال يشعر بالأثر الأول الذي تركه في نفسه منظر ذلك الحريق. لست أنفي طبعاً أن هذا الهاوي نفسه من هواة الحريق قد يكون قادراً قدرة تامة على أن يلقي بنفسه في النار لإنقاذ طفلٍ أو امرأةٍ عجوز عند اللزوم. ولكن هذا الأمر أمرٌ آخر.

تبعث جمهور المستطلعين فاستطعت من دون سؤال أحد أن أصل إلى أخطر مكان في الحريق، وهنالك لمحت أخيراً لمبكه الذي كنت أبحث عنه بإلحاح من جوليا ميخائيلوفنا. فرأيت الرجل في ظرف من أعجب الظروف. كان واقفاً فوق بقايا سجاج. وفي يساره، على مسافة ثلاثين خطوة، يرى المرء هيكلأ أسود لمنزل خشبي من طابقين، احترق احترقاً شبه كامل، وباتت في مكان نوافذه فوهات مفعورة. لقد انهار سقف المنزل. وهذه حيّات من النار لا تزال تعلق عوارضه المتفحمة هنا وهناك. وفي الفناء يحاول رجال من رجال المطافئ أن يكافحوا ألسنة اللهب التي أخذت منذ ذلك الحين تخرج من جناح في وسط فناء ذي طابقين. وعلى اليمين، كانوا يحاولون أن يحموا مبنى كبيراً من خشب قد تسللت إليه النار مراراً، وكان واضحاً أن مصيره إلى الاحتراق. فكان لمبكه يصرخ، ويحرك يديه بإشارات كثيرة أمام الجناح، ويصدر أوامر لا ينفذها أحد. أحسست أنهم قد تركوه لشأنه يصيبه ما يصيبه. والواقع أن الجمهور الذي كان يحيط به وكان كثيفاً وكان متنوعاً، وقد عرفت منه عدداً من السادة، بل لقد عرفت منه كبير كهنة الكاتدرائية، أقول إن هذا الجمهور كان يصغي إلى لمبكه مدهوشاً مستغرباً مستطلعاً، غير أن أحداً لا يكلمه. كان لمبكه أصفر الوجه، ملتئم العينين، يلقي خطباً عجيبة ويقول كلاماً غريباً. وكان إلى ذلك حاسر الرأس، لأنه فقد قبعته منذ مدة طويلة.

- هذا فعل فاعلين! إنهم عديمون! حين يشب حريق فالمذهب العدمي هو المسؤول...

هذا ما سمعته مرتاعاً. والحق أنه أصبح على المرء أن لا يستغرب من لمبكه شيئاً. ولكن حتى حين يتوقع الإنسان كل شيء، لا يملك إلا أن يهزه الواقع القاسي الأليم وأن يبث الاضطراب في نفسه.

قال له واحد من مفوضي الشرطة وقد هرع إليه مسرعاً:
- صاحب السعادة، عليك أن تعود إلى المنزل وأن تنال قسطاً من الراحة... بل إنه خطر عليك أن تبقى هنا يا صاحب السعادة!...

إن هذا الموظف، كما علمت ذلك في ما بعد، كان قد كلفه رئيس الشرطة بأن يسهر على أندره أنظونوفتش وأن يحاول اقتياده إلى المنزل ولو بالقوة في حالة الخطر، وذلك أمر يفوق طاقة مفوض الشرطة طبعاً.

- دموع الضحايا ستكفكف، ولكن المدينة ستهلك. إنهم أولئك الأوغاد الأربعة... الأربعة والنصف!... اعتقلوا هذا الشقي! إنه وحده المسؤول. أما الآخرون فقد افترى عليهم زوراً! هو يتسلل إلى الأسر، ويدمر شرفها. لقد كلفوا المعلمات بإشعال النيران في البيوت. هذا جبن! هذه حقارة! هذه خسة ودناءة!...

هكذا كان يتكلم الحاكم. وإذا رأى فجأة على سطح البيت المحترق رجلاً من رجال المطافئ تحدق به ألسنة اللهب، صرخ يقول:

- آي... ماذا يفعل هنا؟ اسحبوه من هذا المكان! سوف يسقط! سوف يهلك! أطفئوه! ماذا يعمل هنالك؟

- إنه يطفئ النيران يا صاحب السعادة.

- مستحيل! النيران في الضمائر لا في المنازل. اسحبوه من هناك، ودعوا كل شيء! الأفضل أن يُترك كل شيء! سيتهي الأمر من تلقاء نفسه!... من ذا الذي يبكي أيضاً! عجوز! العجوز تبكي! لقد نسوا العجوز!

في الطابق الأرضي من الجناح المحترق كانت تصرخ فعلاً عجوز في الثمانين من العمر، هي قريبة صاحب المنزل التي كانت تلتهمه النيران.

لكنها لم تكن قد نُسيت، وإنما هي رجعت بإرادتها كالمجنونة تريد أن تشتعل لحافها من غرفة لم تكن النيران قد نالتها، ولكنها بلغتها الآن فهي تشتعل. فكانت العجوز وقد خنقها الدخان والحرارة الشديدة تصرخ صراخاً قوياً مع استمرارها في دفع لحافها من إطار النافذة بكلتا يديها. فأسرع لمبكه يحاول نجاتها: رؤي يركض نحو النافذة، ويمسك طرف اللحاف ويشده إليه بكل ما يملك من قوة. ولكن المصادفة شاءت بما يشبه العمد أن يسقط لوح من ألواح خشب السقف في تلك اللحظة نفسها، فيصيب عنق آندره أنطونوفتش. لم يقتل لوح الخشب حاكمنا، ولكنه وضع خاتمةً لحياته بالوظيفة، في إقليمنا على الأقل. لقد قلبته الصدمة، ووقع مغشياً عليه.

وطلع الفجر أخيراً... طلع كالحأ مشووماً حزناً. خبت النيران، وسكنت الريح. وأخذ يهطل مطر ناعم كسول. كنت قد صرت في حي آخر من الضاحية، بعيداً عن مكان الحادث الذي وقع للحاكم. وهناك علمت أشياء غريبة جداً، علمت أنه في أرضٍ نائية مقفرة، وراء بساتين الخضار، على مسافة خمسين خطوة من المساكن الأخرى في أقل تقدير، كان يوجد بيت صغير من خشب، جديد كل الجدة، وفي ذلك البيت المنعزل إنما اشتعلت النار قبل أي مكان آخر، في أول ظهور الحريق. فلو أن هذا البيت قد احترق، لما أمكن أن تصل السنة اللهب إلى المنازل الأخرى من "الضاحية". وكذلك كان يمكن أن تحترق الضاحية كلها دون أن يكون هذا البيت مهدداً بأي خطر، مهما تكن الريح شديدة عاتية. فكيف اشتعلت النار في هذا البيت إذا؟ هل كان ذلك عن فعل فاعل متعمد؟ ولكن الأمر الأقرب من هذا هو أن النار التي شبت في البيت قد أمكن إطفائها منذ البداية، فإذا بأمر خارقة رهيبة تتكشف فيه. إن مالك البيت، وهو تاجر صغير كان يسكن غير بعيد عن ذلك المكان، قد رأى النار تشتعل في بيته الجديد، فأسرع يطفئها بمساعدة الجيران على الفور، ونجح في ذلك فعلاً ببعثرة الحطب المتكوم عند الحائط. ولكن البيت كان مسكوناً. فماذا رأى في البيت؟ رأى ساكنيه، وهم كابتن معروف في المدينة، وأخته وخادمتها العجوز، وآهم جميعاً مذبحين في تلك الليلة

نفسها، وقد سُلبوا ما يملكون حتماً (من أجل أن يذهب إلى مكان الجريمة إنما كان رئيس الشرطة قد ترك فون لمبكه قبيل إنقاذ اللحاف). كان نبأ جريمة الاغتيال هذه قد انتشر بسرعة، فما طلع الصباح حتى كان جمهور كبير من الناس قد غزا الأرض الخاوية حول البيت الصغير، وقد انضم إليه حتى أناس من المنكوبين. وبلغ الازدحام من الشدة أنه أصبح يستحيل على المرء أن يتقدم. وقد ذُكر لي أن الكابتن وُجد منحور الرقبة، راقداً على دكة وهو يرتدي ثيابه كلها، ولعله حين طُعن كان نائماً كال ميت من فرط السكر، فلم يشعر بشيء، وإنما نرف كما "نرف بقرة"، أما أخته ماريا تيموفثنا فقد كانت "مخرقة بطعنات سكين"، راقدة على العتبة. وهذا ما يمكن أن يُستنتج منه أنها تخبطت وقاومت القاتل. وأما الخادمة التي لا شك أن الضجة هي التي أيقظتها من نومها فقد كانت مهشمة الرأس. ومما رواه مالك البيت أن الكابتن قد جاء إليه في صبيحة الأمس سكراناً كل السكر، وأراه على سبيل التباهي والمفاخرة بالغننى، حزمة من الأوراق المالية قدرها مائتا روبل على وجه التقريب. وقد وُجدت المحفظة الخضراء التي كان لبيادكين يضع فيها نقوده، ووجدت فارغة ملقاة على أرض الغرفة. ولكن صندوق ماريا تيموفثنا لم يمسسه أحد، وكذلك إطار الأيقونة المصنوع من فضة، وأمتعة الكابتن. ووضح أن القاتل، وهو مستعجل أمره، كان يعرف المكان، وكان لا يريد أن يأخذ إلا مال الكابتن، وكان يعرف أين يوجد هذا المال. ولو أن مالك البيت لم يصل بالسرعة المناسبة لأحرق كومة الحطب البيت كله، ولكان من الصعب اكتشاف الحقيقة.

ذلك ما كان يرويه الجمهور. وكانوا يضيفون إلى هذا أن البيت إنما استأجره نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين، ابن الجنرالة ستافروجين، وإنه هو الذي فاوض مالك البيت على استئجاره: لقد كان مالك البيت لا يريد تأجير بيته، لأنه كان يقدّر أن يفتح فيه حانة، ولكنه استجاب للإحاح ستافروجين الذي دفع له أجرة ستة أشهر سلفاً من دون أن يكثر بمقدار الأجرة أصلاً.

كل الناس يقولون في الجمهور:

- لا شك أن هناك أمراً مدبراً.

ولكن أكثرهم كان يلزم الصمت. الوجوه مظلمة مريدة مكفهرة. ولكن النفوس لا تبدو مهتاجة احتياجاً شديداً على أنهم لا يكفون عن الكلام على ستافروجين. كانوا يقولون: إن المرأة القتل زوجته. وبالأمر استمال إليه "بحيلة غير مشروعة" ابنة الجنرال دروزدوف، وهي أنسة تنتمي إلى أكرم أسر المدينة. وكان سيُشكى إلى بطرسبرج. فمن أجل أن يستطيع تزوج الأنسة دروزدوف إنما قُتلت إذاً زوجته.

لم تكن سكفورشنكي تبعد عن المكان أكثر من فرسخين ونصف. لذلك تساءلت (ما زلت أذكر هذا): ألسْتُ أحسن صنعاً إذا أنا مضيت أنبيء آل ستافروجين بما حدث من دون أن أذكر مع ذلك أنهم يستثيرون الجمهور ويحرّضونه؟ ولكنني أبصرت عدداً من أفراد مشبوهين عرفتهم فوراً لأنني كنت قد رأيتهم في حفلة الرقص. وإني لأذكر منهم على وجه الخصوص شاباً طويلاً هزياً، جعد الشعر، أذكن اللون: إنه فقّال كما عرفت ذلك فيما بعد. لم يكن الشاب سكراناً، ولكن على خلاف الجمهور القاتم الصامت، كان يبدو خارجاً عن طوره. إنه لا يني يتكلم فيقول أموراً مفككة مبعثرة، ويحرك يديه بإشارات كثيرة، ويستشهد بالشعب سائلاً: "ما معنى هذا أيها الأخوة؟ هل يجوز لنا أن ندع الأمور تجري على هذا النحو؟...".

الفصل الثالث

نهاية رواية

1

من الصالة الكبرى بسفور شنيكي (تلك الصالة نفسها التي استقبلت فيها فر فارابرو فنا صاحبنا ستيفان ترو فيموفتش آخر مرة)، كان المرء يستطيع بنظرة واحدة أن يشمل منظر الحريق كله. وفي الفجر، في نحو الساعة السادسة من الصباح)، كانت ليزا واقفة قرب النافذة الأخيرة على اليمين تتأمل الضياء الأحمر الواسع الذي كان يشحب شيئاً فشيئاً. لقد كانت وحيدة. إنها ترتدي ذلك الثوب نفسه الذي كانت ترتديه أمس، في الصبيحة الأدبية، وهو ثوب أنيق جداً، أخضر كاب، مغطى بالدنتيلا، لكنه الآن مجعد تماماً. واضح أن ليزا قد لبسته بسرعة لتغطي به جسمها، حتى إن جزأه الأعلى عند الصدر لم يزرّر تماماً. فيما لاحظت الفتاة ذلك احمرّ وجهها، وأسرعت تصلح من فوضى هندامها، وتناولت خمراً كانت قد ألقته عنها في الليلة البارحة على مقعد حين دخولها، فلفّت به الآن جيدها. إن شعرها الكثيف يتدلى حلقات على كتفها اليمنى وإن وجهها يبدو منهكاً مهموماً، ولكن عينيها تلتمعان تحت حاجبيها المقطبين. وها هي ذي تقترب من النافذة، وتسند جبينها الملتهب على زجاجها البارد.

وفُتح الباب، ودخل نيقولاي فسيفولودوفتش. قال:

- مضى يستطلع الأخبار خادم يركب حصاناً. فما هي إلا دقائق حتى نعرف كل شيء. يقول الناس إن جزءاً من "الضاحية" قد احترق، على

طول الشاطئ، يمينَ الجسر. وقد اشتعلت الناريين الساعة الحادية عشرة ومتصف الليل. وهي الآن تنطفئ.

لم يمض ستافروجين إلى النافذة، وإنما لبث وراء ليزا. ولم تلتفت ليزا. قالت ليزا غاضبةً:

- لو صدق التقويم لكان ينبغي أن يطلع الصبح منذ ساعة. ومع ذلك لا يزال يخيم الظلام كأننا في الليل.

فقال نيقولا فيسيفولودوفتش ستافروجين بابتسامة لطيفة محببة:

- التقاويم كلها تكذب...

ولكنه لم يلبث أن شعر بالخجل من قول كلام مبتذل معاد مكرور، فأسرع يضيف:

- لشد ما تكون الحياة مضجرة إذا عشت وفقاً لحسابات التقاويم يا ليزا! وغضب ستافروجين مرةً أخرى من إفلات لسانه بسخافة جديدة، فسكت ثم لم ينطق. فابتسمت ليزا بمرارة، وقالت:

- إن مزاجك ليلبغ من الحزن إنك لا تدري ما عساك تقول لي. ولكن هدي نفسك! لقد صدقت في ما قلت: إنني أعيش دائماً على حسب التقويم. كل خطوة من خطاي مرتبة وفقاً للتقويم. أنت مدهوش؟

والتفت ليزا بقوة وجلست على مقعد. وقالت:

- اجلس أنت أيضاً، أرجوك! لن نبقي معاً مدةً طويلة. ويجب أن أقول لك كل ما بنفسي... لماذا لا تقول لي أنت أيضاً كل ما تود أن تقوله؟
جلس نيقولا فيسيفولودوفتش إلى جانبها، وأمسك يدها برفق أو قل بما يشبه الوجع.

- ما هذه اللغة يا ليزا؟ لماذا هذه اللغة؟ ما معنى قولك: "لن نبقي معاً مدةً طويلة؟" هذه هي المرة الثانية التي تقولين لي فيها هذه الجملة الملعزة خلال نصف ساعة منذ أن استيقظت.

قالت وهي تبتسم ابتسامة خفيفة:

- ها أنت ذا قد أخذت تحصي جملي الملعزة. ولكن هل تتذكر أنني

بالأمس، حين دخلنا، قد قلت لك إنك تستقبل ميتة؟ لقد رأيت من المناسب أن تنسى هذه الجملة، أن تنساها وأن لا توليها انتباهاً.
 - لا أذكر هذا يا ليزا. لماذا "ميتة"؟ يجب أن نحيا...
 - وها أنت ذا تقف. لست اليوم جمّ الفصاحة والبلاغة. لقد دقت ساعتني على هذه الأرض ويكفيني هذا. هل تتذكر كريستوفر إيفانوفتش؟
 - أجاب ستافروجين وقد أظلم وجهه:
 - لا!

- كريستوفر إيفانوفتش؟ في لوزان؟ كان يضجرك إضجاراً رهيباً. كان يقول دائماً حين يدخل: "إنني آتٍ للحظة واحدة"، ثم يمكث يوماً بكامله. لا أريد أن أكون مثل كريستوفر إيفانوفتش، فأبقى يوماً بكامله.
 - ليزا، هذه اللغة الساخرة تؤلمني. وهذا التمثيل يؤلمك أنت نفسك.
 علام هذا؟ لماذا؟

وسطعت عيناه. وتابع كلامه يقول:
 - ليزا، أحلف لك: إنني أحبك الآن أكثر مما كنت أحبك بالأمس حين دخلت إلى هنا.

- ياله من اعترافٍ غريب! لماذا هذه المقارنة بين الأمس واليوم؟ لماذا القياس؟

واستأنف ستافروجين كلامه فقال بلهجة تكاد تعبر عن اليأس:
 - لن تتركيني! سوف نسافر معاً، في هذا اليوم نفسه! أليس كذلك؟
 - آي! إنك توجعني! لقد ضغطت يدي ضغطاً شديداً جداً! نسافر معاً؟ في هذا اليوم نفسه؟ إلى أين؟ "انبعاث جديد" مرة أخرى؟... لا...
 كفى تجارب!... ثم إنني عاجزة عن هذا. هذا كله أكبر مني وأعظم مني! إذا سافرنا، فسيكون سفرنا إلى موسكو، من أجل أن نستقبل الناس ونزور الناس. ذلك هو مثلي الأعلى. إنك تعرفه جيداً. أنا لم أخفِ عنك حقيقتي منذ كنا بسويسرا. ولما كان من المستحيل أن نسافر إلى موسكو وأن نقوم بزيارات، ما دمت متزوجاً، فلا داعي إلى الكلام على السفر...

- ولكن ما الذي جرى بالأمس إذًا يا ليزا؟

- جرى ما جرى!

- مستحيل. هذه قسوة!

لا يهم أن تكون هذه قسوة! احتملها!

فدمدم ستافروجين يقول بابتسامة صفراء:

تنتقمين مني لنزوتك بالأمس.

فاحمرت ليزا.

- يا لها من فكرة ذنيئة.

- فلماذا وهبت لي إذًا "تلك السعادة كلها"؟ هل من حقّي أن أعرف

جواب هذا السؤال؟

- لا!... استغن عن هذا الحق. لا تضيف الحماقة إلى دناءة افتراضك.

لا حظّ لك اليوم! بالمناسبة: أتراك تخشى رأي الناس، وأن يدينوك بسبب

تلك "السعادة"؟ إذا كان الأمر كذلك، فهدئ روعك، ناشدتك الله! أنت لم

ترتكب إثماً، وليس لأحد أن يحاسبك! حين فتحت أنا بابك بالأمس، كنت

أنت لا تدري من ذا الذي يدخل عليك. لم يكن الأمر إلا نزوة مني، كما قلت

منذ هنيئة، ولا شيء غير ذلك، في وسعك أن لا تغض الطرف أمام أحد، وأن

تسير في الناس مرفوع الرأس.

- إن أقوالك وضحكاتك تجمّديني ذعراً منذ ساعة. إن هذه "السعادة" التي

تكلميني عنها الآن بهذه اللهجة المبغضة الكارهة، تكلفني... كل شيء! هل

يمكنني في هذه اللحظة أن أفقدك؟ أؤكد لك أنني كنت أحبك أمس أقل مما

أحبك اليوم. فلماذا تنتزعين مني اليوم كل شيء؟ هل تعلمين ماذا كلفني هذا

الأمل الجديد؟ لقد دفعت ثمنه حياة...

- حياتك أنت أم حياة أحد غيرك؟

فنهض ستافروجين فجأة. وقال يسألها وهو يحدّق إليها بانتباه:

- ماذا تعنين؟

- أردت أن أعرف فقط هل دفعت ثمنه من حياتك أو من حياتي أنا...

ثم هتفت تسأله:

- أتراك أصبحت لا تفهم شيئاً؟ لماذا نهضت ذلك النهوض المفاجئ؟
لماذا تنظر إليّ على هذا النحو؟ إنك تخيفني! ما الذي تخشاه؟ إنك تبث
الرعب في نفسي! لكأنك خائف. إنني ألاحظ منذ مدة طويلة أنك خائف،
ولا سيما الآن... في هذه اللحظة بالذات... رياه! ما أشد اصفرار وجهه!
- إذا كنت تعرفين شيئاً يا ليزا، فإنني أنا لا أعرف شيئاً... أحلف لك. وما
عن "هذا" تكلمت حين قلت لك إنني دفعت الثمن...

دمدمت ليزا تقول خائفة:

- لا أفهمك البتة!

وسرحت على وجه ستافروجين ابتسامة مبهمة بطيئة آخر الأمر. وعاد
يجلس، وأسند كوعيه إلى ركبتيه، وأخفى وجهه في يديه.

- حلم سيئ... كابوس ثقيل... كنا نتكلم في أمرين مختلفين.

- لا أدري عمّ كنت تتكلم. هل يُعقل أن لا تكون قد حزرت بالأمس أنني
سأتركك اليوم؟ أكنت تعلم هذا أم لا؟ لا تكذب. أكنت تعلمه؟

دمدم ستافروجين يقول:

- كنت أعلمه.

- فماذا تريد أكثر من ذلك؟ كنت تعلم، ومع هذا اختلستها، تلك
"اللحظة"... فعلام هذا الحساب كله الآن؟

صاح ستافروجين يسألها بلهجة أليمة:

- قل لي الحقيقة كلها: حين فتحت بابي بالأمس، أكنت تعلمين أنك لا
تفتحينه إلا من أجل يوم واحد؟

فرشقته بنظرة كره وبغض، وقالت:

- يتفق لأكثر الرجال جداً أن يلقوا أسئلة سخيفة مضحكة. فيم تقلق هذا
القلق؟ أهى الكبرياء التي تدفعك إليه؟ أهو تصوُّرك أن امرأة هي التي تتركك
ولست أنت الذي تتركها؟ هل تعلم يا نيقولا في سيفولودوفتش أنني منذ
دخلت هذا المكان لاحظت في ما لاحظت أنك كريم معى غاية الكرم. ذلك

بعينه هو ما لا أستطيع أن أحتمله منك.

نهض ستافروجين وسار بضع خطوات في الغرفة.

- طيب... أسلم بأن الأمر كان لا بد أن ينتهي هذه النهاية... ولكن كيف

حدث كل هذا؟

- يا له من اهتمام يشغل بالك! لا سيما وأنت تعرف الأمر، وتدركه خيراً

مما يدركه أي إنسان آخر، وأنت كنت تتوقع هذه النهاية! أنا آنسة، وقد نشأ

قلبي وترعرع في الأوبرا. هكذا بدأت المسألة. ذلك هو السر كله.

- لا.

- لا شيء في هذا يمكن أن يجرح كبرياءك. هذه هي الحقيقة كلها. بدأ

الأمر بلحظة جميلة لم أستطع مقاومتها. أمس الأول، حين آذيتك بالكلام

على مسمع من الناس، فأجبتني بطريقة تزخر فروسية، حررت فوراً أنك

تتحاشاني وتتجنبني لأنك متزوج، لا لأنك تحتقني، وهو أمر كنت أخشاه

أكثر مما أخشى أي شيء آخر بصفتي فتاة من فتيات المجتمع. لقد أدركت

أنك إذ تتجنبني إنما كنت تحمي هذه المجنونة، أنا. فانظر كم أقدر لك

كرمك! وفي تلك اللحظة هرع بطرس ستيفانوفتش، فشرح لي كل شيء.

قال إنك ملك فكرة عظيمة لانسائي نحن بالقياس إليها شيئاً، لا أنا ولا

هو، غير أنني مع ذلك حبر عشرة في طريقك، ثم إنه لا يريد أبداً أن يتركنا،

وإنما هو يحرص على أن يكون الثالث. قال لي أشياء رائعة عن "سفينة" لا

أدري ما هي، سفينة شراعية لها مجاديف من أشجار القيقب، وأنشدني أغنية

روسية. أزجيت له المديح، وقلت له إنه شاعر، فقبل ذلك وسلم به على أنه

أمر محقق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وإذا كنت أعلم منذ زمن

طويل أن قراراتي ليست إلا كنار القش، عزمت أمري على أن أتصرف فوراً.

ذلك كل شيء. وكفى هذا الآن. أرجوك، لا تسألني إيضاحات أخرى. وإلا

فقد نتشاجر. لا تخف من شيء. إنني أتحمّل التبعة كلها. أنا شريرة، ذات

نزوات، انقذت لإغراء سفينة أوبرا... أنا آنسة! ولكن هل تعلم أنني كنت

أتخيل، رغم كل شيء، أنك تحبني حباً جنونياً؟ لا تحتقر الحمقاء ولا تسخر

من هذه الدفعة التي سالت من عيني الآن. إنني أحب سكب الدموع على نفسي، رثاءً لمصيري، وتألماً لحظي! ولكن كفى كفى! إنني غير قادرة على شيء، ولا أنت قادر على شيء، فليعزّ كل منا صاحبه بمدّ لسانه له تهكماً وسخرية! بهذا لا تتألم كبرياؤنا على الأقل.

هتف نيقولا ي فسيقولودوفتش وهو يعقف يديه:

- حلم! جنون! عزيزتي المسكينة ليزا، ماذا فعلت؟

وكان يذرع الغرفة بخطى كبيرة.

حرقّت إصبعي، وهذا كل شيء. أرجو أن لا تأخذ في البكاء. أصلح وقفك، وكن أقل حساسية!

- لماذا جئت؟

- أتراك لا تدرك أخيراً سخافة الموقف الذي تضعني فيه أمام الناس إذ تلقي عليّ هذه الأسئلة؟

- لماذا ضيّعت نفسك بهذه الطريقة الغبية، السخيفة؟ وما العمل الآن؟

- أهذا هو ستافروجين، "الدموي ستافروجين"، كما تسمّيك سيدهُ تهواك هوّى شديداً؟ اسمع، لقد سبق أن قلت الأمر: إنني أعطيت حياتي كلها من أجل ساعة. وأنا الآن هادئة. فافعل مثلي!... على كل حال، أنت شأنك شأن آخر، ستكون لك "ساعات" أخرى كثيرة، و"لحظات" أخرى كثيرة!...
- على قدر ما سيكون لك منها، على قدر ما سيكون لك منها. أعاهدك على ذلك. لا ساعة واحدة أكثر منك.

كان لا ينفك يمشي. لم يرَ النظرة السريعة الثاقبة التي ألقتها عليه، والتي سطع فيها على حين فجأة شعاع أملٍ سرعان ما انطفأ.

- ليتك تعرفين ثمن "صدقي" المستحيل في هذه اللحظة، ليتني أستطيع فقط أن أكشف لك يا ليزا!...

- أن تكشف لي؟ هل تريد أن تكشف لي عن شيء أيضاً؟ وقاني الله شرّ مكاشفاتك...

كذلك قاطعته ليزا شبه مذعورة.

فوقف وانتظر قلقاً مهموماً. قالت ليزا:

- يجب أن أعترف لك بأنني منذ كنا في سويسرا قد رسخ في ذهني أن ضميرك يخفي شيئاً ما، شيئاً رهيباً، موحلاً، دائماً... لكنه في الوقت نفسه يجعلك مضحكاً إلى درجة فظيعة. فحذار أن تكشف لي عن هذا الشيء إن صح تقديري: وإلا فسوف أضحك منك، وأتهكم على حياتك كلها... أي... ها أنت ذا يصفر لونك من جديد! فلن أقول بعدُ شيئاً، لن أقول شيئاً! ها أنا ذا منصرفة...

كذلك هتفت تقول وهي تنهض بحركة احتقار واشمئزاز.
قال ستافروجين يائساً:

- عذبيني! أدينيني! صبّي عليّ غضبك! من حقك أن تفعلني هذا. لقد كنت أعلم أنني لا أحبك وأني ضيعتك! نعم، "لقد انتهزت اللحظة". كان لي أمل... منذ مدة طويلة... أمل أخير... ولم أستطع أن أقاوم الضياء الذي بهرني حين جئت من تلقاء نفسك، بمحض إرادتك. عندئذٍ، ظننت فجأة... ولعلني ما زلت أظن...

- سأجيب على صراحتك النبيلة بصراحة مثلها. لا أريد أن أكون لك راهبة رحمة وإحسان. إن لم أفلح في أن أموت اليوم - وهذا يجيء في حينه إذا جاء - فقد أصبح في يوم من الأيام راهبة ممرضة، ولكنني لن أكون ممرضة لك أنت، رغم أنك أشبه بكسيح أو أكتع. لقد خيل إليّ دائماً أنك ستقودني في يوم من الأيام إلى مكان يسكنه عنكبوت ضخّم في حجم إنسان، وأنا سننقضي حياتنا ناظرين إلى العنكبوت مرتعشين من الخوف، وأن هذا هو ما سيؤول إليه حبنا. اذهب إلى داشا: إن داشا ستبعبك إلى حيث تقودها.

- لا تستطيعين أن تنسيها، حتى في هذه اللحظة!

- يا للكلبة الصغيرة المسكينة! سلّم لي عليها! هل تعلم أنك منذ كنت في سويسرا، تدّخرها لشيخوختك؟ يا للتبصر بالمستقبل! أي... مَنْ هناك؟ لقد شقّ الباب الذي في آخر الصالة، فأطل من شقه الضيق رأس سرعان ما اختفى في تلك اللحظة نفسها.

قال ستافروجين سائلاً:

- أهذا أنت يا إيغورتش؟

فعاد الرأس يظهر من شق الباب، فإذا هو رأس بطرس ستيفانوفتش يجب عن السؤال قائلاً:

- بل هذا أنا. نعمت صباحاً يا ليزافتا نيقولايفنا. كنت أعلم أنني سأجدكما كليكما في هذه الصالة. لم أجيء إلا للحظة واحدة يا نيقولاي فسيفولودوفتش: يجب عليّ حتماً أن أقول لك كلمتين... إنه أمرٌ مستعجلٌ جداً، ولا غنى عنه أبداً. كلمتان فقط!

اتجه ستافروجين نحو الباب. ولكنه ما إن قطع ثلاث خطوات حتى رجع إلى ليزا، وقال:

- إذا سمعت شيئاً يا ليزا، فاعلمي أن الجاني هو أنا.

فارتعشت ونظرت إليه مرتاعة. وخرج مسرعاً.

انتقل ستافروجين إلى الغرفة المجاورة، وهي حجرة مدخل كبيرة بيضوية الشكل. وكان بطرس ستيفانوفتش، عند دخوله، قد رأى الخادم العجوز ألكسي إيغورتش، فطلب منه أن يتركه وحيداً.

أغلق نيقولاي فسيفولودوفتش باب الصالة وانتظر، فشمله بطرس ستيفانوفتش بنظرة سريعة فاحصة.

قال ستافروجين:

- هيه؟

فأجاب الزائر ولا تزال نظرتة كأنها تريد أن تنبش أعماق ستافروجين، أجاب قائلاً:

- إذا كنت على علم بما جرى، فيجب أن أقول لك إن أحداً منا ليس مذنباً طبعاً، ولا سيما أنت، ولا يعدو الأمر أن يكون مصادفة... لا يعدو أن يكون تضافر عدد من الظروف... الخلاصة... من الناحية القانونية لا يمكن أن تُمسّ، وقد جئت لأننيك...

- هل حُرِّقوا؟ هل قُتلوا؟

- قتلوا! ولكن أجسامهم لم تمسسها النار. ذلك هو الشيء المؤسف. أقسم لك بشرفي أنني غير ضالع في ما حدث، مهما تكن شكوكك وشبهاتك. ذلك أن من الجائز أن تشبه فيّ، هه؟ هل تريد أن تعرف الحقيقة كلها؟ اسمع: في لحظة من اللحظات، خطر بيالي فعلاً أن... وأنت الذي أوحيت إليّ بهذه الفكرة، لا إichاء جاداً بطبيعة الحال، بل من باب السخرية لا أكثر... (ذلك أنك لا يمكن أن توحى إليّ بشيء كهذا إichاء جاداً)، ولكنني لم أستطع أن أعزم أمري، وما كنت لأعزم أمري بحال من الأحوال، بأي ثمن، ولو كان مائة روبل... لا سيما وأن ذلك لا يعود عليّ بأي نفع، عليّ أنا طبعاً... (كان تدفق كلامه يزداد سرعة). ولكن انظر إلى هذه المصادفة العجيبة! من مالي الخاص (نعم، من مالي الخاص، فليس لك في هذا الأمر روبل واحد، وإنك لتعرف هذا حق المعرفة)، أعطيت ذلك الأبله لبيادكين مائتين وثلاثين روبلاً مساء أمس الأول. هل تسمع؟ مساء أمس الأول، لا أمس، بعد الجلسة الأدبية. لاحظ هذا. فهو أمر هام. ذلك أنني في أمس الأول لم أكن قد تيقنت بعد من أن ليزافتا يقولانينا ستجيء إليك. أعطيت لبيادكين ذلك المبلغ من جيبي، لأنك في أمس الأول دبّرت لي مكيدة وكشفت عن سرّك لجميع الناس. لا أدخل الآن في بحث الأسباب التي... فهذا من شأنك... لقد تصرّفت تصرف فارس... ولكنني أعترف لك أن ذلك كان ضربة عصا على ظهري... لقد ذهلت و صُعقت. لقد طاش صوابي. ومع ذلك فإنني وقد سئمت جميع هذه التراجيديات، وكان هذا يعرقل خططي أخيراً فقد عاهدت نفسي على أن أرحل لبيادكين وأخته إلى بطرسبرغ مهما كلف الأمر، على غير علم منك، لا سيما وأن الكابتن كان لا يحلم إلّا بهذا. لم أرتكب إلّا خطيئة واحدة: هي أنني أعطيته المال زاعماً أنه منك أنت. أهذا خطأ أم لا؟ ربما لم يكن هذا خطأ؟ هه؟ ولكن اسمع الآن، اسمع كيف جرت الأمور... قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وهو في قمة الحرارة من حديثه، واقترب من ستافروجين فأمسك ثنية ردنجوتيه (لعله فعل ذلك عامداً) فما كان من ستافروجين إلّا أن هوى على ذراعه بضربة قوية.

قال بطرس ستيفانوفتش:

- ماذا جرى لك؟ انتبه... كدت تكسر ذراعي...

واستأنف حديثه الأول بمزيد من التدفق، غير مدهوش للضربة:

- نقدته المال مساء أمس الأول، وتمّ الاتفاق على أن يسافر هو وأخته

في الغداة عند طلوع الصباح. وكلفت ذلك الوغد لبيوتين أن يضعه في

القطار. ولكن لبيوتين كان حريصاً أشد الحرص على أن يدبر للجُمهور ذلك

"المقلب" القدر في الصبيحة الأدبية. لعلك سمعت عن هذا؟ فاسمع إذاً،

اسمع! لقد شرباً معاً، ونظماً أشعاراً. وكان نصف الأبيات على الأقل من نظم

ليبوتين. وألبس لبيوتين صاحبه الكابتن رداء فراك (مؤكداً لي مع ذلك أنه قد

اصطحب لبيادكين إلى المحطة في ذلك الصباح نفسه)، وأخفاه لا أدري

أين، ليدفعه إلى المنصة في اللحظة المنشودة. ولكن لبيادكين يسكر بسرعة،

لذلك تولى لبيوتين قراءة الأشعار نيابةً عنه. وقامت الفضيحة. اقتيد الكابتن

لبيادكين إلى البيت شبه ميت من فرط السكر، واختلس منه لبيوتين مائتي

روبل ولم يترك له إلا قليلاً من نقود صغيرة. ولكن كان من سوء حظ لبيادكين

أنه في ذلك الصباح قد تباهى وأظهر على المائتي روبل أولئك الذين ما كان

ينبغي لهم أن يروها. ولما كان فدكا لا ينتظر إلا هذه الفرصة، ولا سيما أنه

كان قد سمع بعض الأمور عند كيريلوف (هل تذكر تلميحك) فقد قرر أن

ينتهز هذه الفرصة. تلك هي الحقيقة كلها. يسرّني على الأقل أن فدكا لم يجد

المال، بينما كان يعوّل أن يعثر على ألف روبل حتماً. ولقد كان متعجباً.

فإن النيران قد أخافته هو أيضاً... هل تصدّق؟ لقد كان الحريق أشبه بضربة

مطرقة على رأس، شيء غير مقبول، هذا الخروج على النظام والانضباط!

اسمع! إنني أعلق عليك آمالاً كباراً وأنتظر منك أموراً كثيرة، لذلك لن أخفي

عنك شيئاً: الحق أن فكرة الحريق هذه تراودني منذ مدة طويلة. إنها وسيلة

من وسائل العمل شائعة جداً في وطننا. ولكنني كنت أحتفظ بهذه الوسيلة

للحظة الحرجة، للدقيقة الرائعة العظيمة التي سنقوم فيها كلنا قومةً واحدة...

ولكن ها هم أولاء أباحوا لأنفسهم أن يتصرفوا من تلقاء أنفسهم، من دون أمر يصدر إليهم عني، وفي لحظة نحن أحوج ما نكون فيها إلى أن نبقي ساكنين، هذا قلة نظام وانضباط!... الخلاصة، لا أعرف بعد شيئاً... وإنما يجري الحديث عن عاملين من عمال مصنع شبيجولين!... ولكن إذا كان واحد من جماعتنا قد شارك في إشعال هذا الحريق، وضلع في هذه القضية من قريب أو بعيد، فالويل له! إنك تعرف ما يحدث متى تراخى المرء معهم قليلاً! لا، لا، يستحيل الاعتماد على معونة هذا الوغد الديموقراطي و"حلقاته" إن ما نحن في حاجة إليه هو إرادة واحدة عليها طاغية تعتمد على شيء ثابت... عندئذ تأتي الجماعات تلتق أحذيتنا وتستطيع عندئذ أن نستعملها. على كل حال، رغم ما يُذاع في كل مكان بالمدينة الآن من أن المدينة قد أحرقت لأن ستافروجين يريد أن يقتل زوجته...

- ماذا؟ أيداع هذا منذ الآن؟

- لا، لا منذ الآن والحق يقال. وأنني لأعترف بأنني لم أسمع شيئاً من هذا القبيل. ولكن ماذا يمكن أن يُنتظر من الجمهور؟ ولا سيما المنكوبين: "صوت الخلق صوت الحق" (باللاتينية)! هل من الصعب نشر أسخف الإشاعات؟ ولكن ليس هناك ما يجب أن تخشاه على كل حال. أنت من الناحية القانونية بريء، بل أنت بريء في الواقع حتى من الناحية النفسية، لأنك لم ترد جريمة القتل هذه، أليس كذلك؟ هل كنت تريد لها؟ لا. وليس هناك أي دليل يدينك... هي مصادفة محض مع ذلك قد يتذكر فدكا كلماتك الطائشة عند كيريلوف (لماذا قلت تلك الكلمات؟). ولكن هذا لا يبرهن على شيء، وسوف تُسكت فدكا سأتولى الأمر في هذا اليوم نفسه.

- ألم تنل النيران أجسامهم البتة؟

- البتة! إن هذا الوغد لم يحسن حتى القيام بالمهمة. إن ما يبهجنني على الأقل هو أنك هادئ هذا الهدوء كله... فإنك، وإن تكن بريئاً كل البراءة، حتى من جهة النية والتفكير... على كل حال، لاحظ أن هذا يرتب أموراً على

خير وجه: ها أنت ذا قد ترمّلت، ففي وسعك أن تتزوج على الفور فتاةً أخاذة واسعة الثراء، عدا أنها بين يديك منذ الآن! انظر ماذا يمكن أن ينتج عن مجرد تضافر عدد من الظروف. هه؟

- أتهددني أيها الأحمق؟

- دعك من هذا الكلام. ما أسرع ما تصفني بأنني أحمق! ما هذه اللهجة؟ عليك أن تكون راضياً مسروراً، فإذا أنت، بدلاً من ذلك... انظر كيف تكافئني أنا الذي هرعت أخبرك بالنبأ خصيصاً... بماذا عساني أهددك؟ إنني لا أريد أن أملكك بالتهديد. وإنما أنا في حاجة إلى إرادتك الحرة. أنت الضياء والشمس. وأنا الذي أخاف منك خوفاً رهيباً. أنا لست مافريكى نيقولا يفتش... بالمناسبة، تصور: لقد رأيت مافريكى نيقولا يفتش في قرارة حديقتك قرب السياج حين مررت هناك. لا شك أنه قضى الليلة كلها في ذلك المكان. ليس للجنون الإنساني حدود.

- مافريكى نيقولا يفتش؟ صحيح؟

- هي الحقيقة خالصة! إنه جالس قرب السياج... على مسافة ثلاثمائة خطوة من هنا، إن لم يخطئ ظني. مررت أمامه بأقصى سرعة استطعتها، ولكنه رأي. ألم تكن تعلم؟ يُسعدني إذاً أنني أنبأتك. إن أمثال هذا الرجل يمكن أن يصبحوا خطرين جداً إذا كان في حوزتهم مسدس. أضف إلى ذلك، الليل والمطر وما يعتمل في نفسه من حنق طبيعي في مثل هذه الظروف. فعلاً: تصوّر وضعه الآن! هاها!... ما رأيك؟ لماذا تُراه يبقى متربصاً هناك؟

- واضح أنه ينتظر ليزافتا نيقولا يفنا.

- تماماً! ولكن لماذا عساها تلحق به؟ ثم... في مطر منهمر كهذا المطر...

يا له من أحمق!

- ستلحق به.

- هه هه... يا لها من فكرة عجيبة! معنى ذلك... ولكن اسمع: إن وضعها الآن قد تغير رأساً على عقب: ما حاجتها إلى مافريكى نيقولا يفتش؟ أنت أرمل، وفي وسعك أن تتزوجها منذ غد. إنها لا تعرف شيئاً بعد. دعني

فأتصرف في الأمر كله. أين هي؟ يجب أن نرف إليها النبأ الجميل، إليها هي أيضاً.

- النبأ الجميل؟

- أظن أنه نبأ جميل. هيّا!

- ألا يدور في خلدك أن هذه الجثث سوف تثير شبهاتها؟

كذلك سأله ستافروجين وهو يلقي عليه نظرة ذات دلالة.

فأجابه بطرس ستيفانوفتش يقول متغايباً:

- لا، أبداً... إذ من الناحية القانونية... ثم هبها حزرت شيئاً ما! إن هذه

الأمور تُرتّب مع النساء بسهولة! إنك لا تعرف النساء بعد!... ومن جهة

أخرى فإن من مصلحتها أن تتزوجك، لأن سمعتها قد ساءت مهما يكن

من أمر. زد على ذلك أنني كلّمتهما عن السفينة الشراعية التي لها مجاديف

من خشب القيقب، فلاحظت أن هذه الأشياء تفعل فيها فعل السحر. هذه

فتاة حارة الطبع. لا تخشى شيئاً، لسوف تخطو من فوق هذه الجثث حتى

لتستغرب أنت نفسك ذلك، لا سيما وأنك بريء، ألسنت بريئاً؟ ولكنها

ستدّخر لك ذكرى هذه الجثث لتقدمها إليك بعد سنتين من الزواج مثلاً.

إن كل امرأة تدّخر لزوجها بعض الخطايا القديمة لتستعملها في الوقت

المناسب. ولكن هل يعلم المرء ماذا يمكن أن يحدث بعد سنة؟ ها ها ها...!

- إذا كنت قد جئت راكباً عربية فاصطحبها فوراً إلى مافريكي نيقولايفتش.

لقد قالت لي منذ هنيهة إنها تكرهني وإنها تتركني. ولن تقبل عربتي أنا طبعاً.

- عجيب! تريد أن تنصرف؟ لماذا؟

كذلك سأل بطرس ستيفانوفتش مذهولاً. فأجابه ستافروجين بقوله:

- لعلها حزرت في هذه الليلة من بعض العلامات والقرائن أنني لا

أحبها... وذلك ما تعرفه منذ زمن طويل على كل حال.

سأله بطرس ستيفانوفتش متظاهراً بالدهشة:

- هل صحيح أنك لا تحبها؟ ولكن إذا كان الأمر كذلك، فلماذا احتجزتها

بالأمس بدلاً من أن تنصرف تصرف رجل شريف فتعلن لها أنك لا تحبها.

هذا جبن من جانبك. وما أدنا الوضع الذي وضعتني فيه إزاءها!
فانفجر ستافروجين ضاحكاً. ثم أسرع يشرح قائلاً:
- إنني أضحك من قردي.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يضحك مرحاً:
- آ... حزرت إذاً أنني إنما كنت أمثّل. لقد أردت أن أضحكك. تصور أنني
منذ رأيتك داخلاً عليّ أدركت من وجهك فوراً أن ثمة "مصيبة" قد حلت. بل
ربما إخفاق كامل، هه؟

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك ثم هتف يصيح وقد غمره الفرح:
- أراهن أنكما قضيتما الليلة كلها جالسين أحكما إلى جانب الآخر على
كرسيين، تضيّعان وقتاً ثميناً في مناقشة أمور رفيعة نبيلة سامية!... اغفر لي!
اغفر لي! ما شأني أنا على كل حال... لقد كنت أعلم منذ الأمس أن ذلك كله
سينتهي بينكما إلى سخافات. إنني لم آتُك بها إلا لأسلّيك، ولأبرهن لك
على أنك لن تضجر معي. سوف أخدمك خدمات كثيرة من هذا النوع. إنني،
على وجه العموم، أحب أن أسرّ الناس. إذا كنت قد سئمت منها الآن - وهذا
ما كنت أتوقعه وأعوّل عليه حين أتيت إلى هنا - فإنني في هذه الحالة...

- ألم تجنني بها إذاً إلا لتسليني؟
- طبعاً.

- وليس لتجعلني أقرر قتل زوجتي؟

- ولكن هل أنت الذي قتلتها؟

- بل أنت، فكأن..

- أنا؟ ألم أقل لك أنني لا شأن لي في الأمر. لقد بدأت تقلقني...

- أكمل. لقد قلت لي منذ برهة: "إذا كنت قد سئمت منها الآن، فإنني في
هذه الحالة...".

- نعم، فإنني في هذه الحالة أتولّى كل شيء. سأزوجهما مافريكي
نيقولا يفتش بسهولة. يجب أن أذكر لك عابراً أنني لست أنا الذي جعلته
يرابط في آخر الحديقة. فلا ينصرفن بك الخيال إلى هذا أيضاً. أوكد لك

أنني خائف منه. لقد جئت منذ قليل على ذكر العربية، فاعلم أنني مررت أمامه بأقصى سرعة... ذلك لأن معه مسدساً. من حسن الحظ أن معي مسدسي أنا أيضاً. هو ذا (هنا أخرج بطرس ستيفانوفتش المسدس وأراه ستافروجين ثم أسرع يخبئه). لقد تزودت به احتياطاً للطوارئ... على كل حال سأدبر لك الأمر كله في برهة وجيزة: إن قلبها يتألم الآن حين تفكر في مافريكي... أو على الأقل لا بد أن قلبها يتألم. وإني لأشفق عليها حقاً. وما إن أخذها إلى مافريكي حتى تعود تفكر فيك، وتتغنى بمحاسنك، وتندد بعيوبه. ذلك هو قلب المرأة... ها أنت ذا تضحك من جديد. لشد ما يسرني أن أراك مرحاً هذا المرح كله. طيب. هيا بنا! سأبدأ أولاً بمافريكي... أما الآخرون... الذين قُتلوا... فلعل الأفضل أن لا نذكر عنهم شيئاً الآن أليس كذلك؟ ستعلم هي بالأمر قريباً.

- أي أمر سأعلم به؟ من الذي قُتل؟ ماذا قلت عن مافريكي نيقولايفتش؟
كذلك صاحت ليزا سائلة وهي تفتح الباب.

- آه... أكنت تنتصتين وراء الباب؟

- ماذا قلت عن مافريكي نيقولايفتش؟ هل قُتل؟

- إذاً لم تسمعي. هدئي نفسك. إن مافريكي نيقولايفتش حي، وإن صحته جيدة، كما تستطيعين أن تقتنعي من ذلك بنفسك فوراً، لأنه مرابط في الحديقة، قرب الطريق... أظن أنه بقي هنالك طوال الليل، تحت معطفه. لا بد أنه مبلل. وقد رأيته حين وصلت.

- ليس هذا صحيحاً. لقد نطقَت بكلمة "قتل". فمن الذي قُتل؟

كذلك ألحت تقول بشك أليم.

فقال ستافروجين بصوت ثابت:

- زوجتي هي التي قُتلت مع أخيها لبيادكين وخادمتهما.

ارتعشت ليزا، واصفرت واصفراراً شديداً.

وأسرع بطرس ستيفانوفتش يتدخل فقال:

- مصادفة غريبة، عجيبة، يا ليزا فتنا نيقولايفنا. اغتيال من أغبي وأسخف

الاغتيالات. استغل الجناة الحريق ليقتلوا ويسلبوا. إنه فدكا السجين الهارب من سجن الأشغال الشاقة. لقد كان هذا الأحمق ليادكين يتباهى في كل مكان بأن جيو به ملأى مالا... ذلك ما جعلني أهرع... ضربة فظيعة فعلاً. لقد كاد ينقلب ستافروجين حين أبلغته النبأ. وكنا نتباحث الآن لنقرر أنعلمك بالخبر أم لا!

قالت ليزا تسأل ستافروجين وهي تنطق كل كلمة بمشقة:

- نيقولاي فسيفلودوفتش، أهو يقول الحقيقة؟

- لا، إنه لا يقول الحقيقة.

فصرخ بطرس نيقولاي فتش يقول:

- كيف؟ ما هذا أيضاً؟

صاحت ليزا:

- رباه! أكاد أجن!

فصرخ بطرس ستيفانوفتش صراخاً قوياً يقول:

- ألا فاعلمي إذاً أن هذا الرجل قد فقد عقله. مهما يكن من أمر، فإن

زوجته هي التي قُتلت، انظري إلى شحوبه الشديد!... لقد قضى الليلة كلها

معك، ولم يتركك. فكيف يمكن الاشتباه فيه؟

- نيقولاي فسيفلودوفتش. قل لي صادقاً كما لو كنت أمام الله. أنت

جان أم لا؟ يميناً لأصدقن كلامك كأنه كلام الله، ولأتبعنك إلى آخر الدنيا!

نعم، نعم! سأتبعك، مثل كلب!...

زأر بطرس ستيفانوفتش يقول غاضباً غضباً مسعوراً:

- ما بالك تعذبها هذا التعذيب أيها الإنسان العجيب! يا ليزا فتا نيقولاي فنا.

أحلف لك صادقاً، ولتدقيني في هاون إن كنت أكذب. إن نيقولاي

فسيفلودوفتش بريء. والأحرى أن يقال إنه هو الذى قُتل بهذا النبأ. إنه

يهذي. ها أنت ذا ترينه بعينيك. إنه عاجز عن أن يفعل شيئاً من هذا القبيل،

حتى بالخيال!... إن الذين فعلوا هذه الفعلة أناس من قطاع الطريق، سيُعرفون

حتماً في غضون ثمانية أيام، وسيُجلدون. هو فدكا السجين الهارب من

سجن الأشغال الشاقة وعمال من مصنع شبيجولين. المدينة كلها تتحدث في الأمر... وهذا هو السبب في أنني... أنا أيضاً...
قالت ليزا تسأل ملحة:

- أهذا صحيح؟ أهذا صحيح؟
وكانت تنتظر الكلام الحاسم واجفة راعشة.
قال ستافروجين:

- لم أقتل، وكنت أعارض هذا القتل، ولكنني كنت أعرف أنهم سيقتلونهم، فلم أمنع القتل من ارتكاب ما ارتكبوا. دعيني يا ليزا.
قال ستافروجين ذلك، ورجع إلى الصالة.

خبأت ليزا وجهها بيديها وخرجت من المنزل. فأراد بطرس ستيفانوفتش أن يركض وراءها، ولكنه عدل عن رأيه هذا، وهرع يعود إلى الصالة.
دمدم يقول وقد جُن جنونه غضباً وأخذ الزبد يخرج من بين شفثيه:
- آ... هكذا إذن! هكذا إذن! لست خائفاً إذن من شيء.

كان ستافروجين واقعاً في وسط الصالة. فظل صامتاً ولم يجب بكلمة.
وكان يشد شعره بيده اليسرى وقد ألتمت بوجهه ابتسامة غامضة.
شدّه بطرس ستيفانوفتش من كمّه بقوة، وقال له:

- هل فقدت عقلك؟ إلى هنا وصلت؟ إنك سوف تشي بجميع الناس ثم تمضي تعتكف في أحد الأديرة، أو تمضي إلى جهنم!... ألا فاعلم إذا أنني سأقتلك، وإن لم تكن خائفاً مني.

دمدم ستافروجين يقول وكأنه لم يلاحظ وجود بطرس ستيفانوفتش إلا في تلك اللحظة:

- هه؟ أنت الذي تحدث هذه الجلبة كلها؟

وبدا عليه فجأة أنه رجع إلى وعيه، فأضاف يقول له:

- اركض وراءها! خذ العربة! لا تتركها!... ما بالك لا تركض؟ أعدها إلى بيتها، ولا يعلم أحد!... امنعها خاصة من الذهاب إلى هناك ورؤية الجثث... الجثث! أركبها في العربة قسراً!... يا ألكسي إيجورتش، يا ألكسي إيجورتش!

- انتظر! لا تصرخ! هي بين ذراعي مافريكي منذ الآن!... لن يركب مافريكي عربتك.. انتظر... ليس الأمر الآن أمر عربة!
وأخرج مسدسه ثانية، فألقى عليه ستافروجين نظرة رصينة، وقال له بصوت هادئ:

- اقتلني!

فصاح بطرس ستيفانوفتش يقول مرتعشاً من شدة الغضب:

- عجيب! هل يمكن للمرء أن ينطلي عليه تمثيله هو نفسه! حقاً يجب عليّ أن أقتلك! وقد كان ينبغي لها أن تبصق في وجهك! لا، ما أنت "سفينة"! أنت قارب عتيق مثقوب، لا يصلح في أكثر تقدير إلا حطباً للموقد. ذلك أنت!... هلاً غضبت بعض الغضب على الأقل. لا شك أن جميع الأشياء تستوي في نظرك الآن، ما دمت تطلب بنفسك أن تُقتل!

ابتسم ستافروجين ابتسامة غريبة وقال:

- لولا أنك مهرّج لكان يمكن أن أقول لك نعم... ليتك أذكى قليلاً على الأقل...

- أنا مهرّج. ولكنني لا أريد أن تكون أنت مهرّجاً، أنت الجزء الأساسي من نفسي. هل تفهمني؟

ولقد كان ستافروجين يفهم. ولعله الوحيد الذي كان يستطيع أن يفهم بطرس ستيفانوفتش. إنكم تذكرون دهشة شاتوف حين قال له ستافروجين إن بطرس ستيفانوفتش قادر على أن يتحمس.

- اذهب الآن إلى الشيطان! قد أستطيع من الآن إلى الغد أن أتخذ قراراً ما. ارجع غداً.

- في الغد إذن؟ أهذا أكيد؟

- أئني لي أن أعرف! اذهب إلى الشيطان!

قال ستافروجين ذلك وخرج.

فجمع بطرس ستيفانوفتش يحدث نفسه قائلاً: "ربما كان هذا أفضل... من يدري!". وأعاد المسدس إلى جيبه.

أسرع بطرس ستيفانوفتش يلحق بليزافتا نيقولا يفنا التي لم تكن قد ابتعدت كثيراً.

كان ألكسي إيجورتش قد حاول أن يشيها عن الخروج، ولكنه لم يفلح، فهو الآن يتبعها باحترام، لا بسأ رداء الفراك، حاسر الرأس، على مسافة منها. إن الخادم العجوز مرتاعٌ أشد الارتياح، يهيمُ أن يبكي من الهلع، وهو يضرع إليها أن تنتظر العربة.

قال له بطرس ستيفانوفتش وهو يدفعه:

- ارجع إلى البيت . مولاك يطلب شايًا، وليس هناك من يجيئه بالشاي غيرك.

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك للخادم العجوز، وأمسك ذراع ليزافتا نيقولا يفتش بسطوة. فلم تسحب ليزا ذراعها. ولم تكن تملك وعيها كاملاً على كل حال: إنها لم تعد إلى صوابها بعد. دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول لها:

- أولاً: لقد سرت في اتجاه خطأ، فما ينبغي أن نمر أمام الحديقة، لنمضي من هنا. وثانياً: يستحيل عليك استحالةً مطلقة أن تعودى إلى بيتك سيراً على القدمين، فالمسافة تبلغ ثلاثة فراسخ، ولست ترتدين معطفاً. فالأفضل أن تنتظري قليلاً. لقد وصلت أنا بعربة. وهي الآن في فناء المنزل. سأستدعيها فتركيها وأوصلك إلى بيتك. فلا يراك أحد.

- قالت ليزا بصوتٍ رقيق عذب:

- ما أطيب قلبك! ...

- ما هذا الذي تقولين؟ إن كل إنسان شريف لا بد أن يفعل ما أفعل، في مثل هذه الحالة.

فنظرت إليه ليزا مدهوشة تقول:

- رباه! كنت أظنه الخادم العجوز! ...

- اسمعي. يسرني أن تأخذي الأمر هذا المأخذ، فما ذلك كله على كل حال إلّا وهم من الأوهام الاجتماعية الباطلة. ولكن، إذا كان الأمر كذلك، أفليس الأفضل أن نأمر العجوز بإعداد المركبة، فما تنقضي دقائق عشر إلّا وتكون المركبة مهياً؟ وبانتظار ذلك نحتمي بسقيفة الباب، هه؟

- أريد قبل كل شيء... أين هي الجثث؟

- يا لها من نزوة غريبة! ذلك ما كنت أخشاه... لا... لا تفكري في هذا.

لنترك هذه الجثث اللعينة حيث هي. ما بك حاجة إلى رؤيتها.

- أنا أعرف أين هي؟ إنني أعرف ذلك البيت!

- ليس بالأمر الهام أن تعرفيه. اسمعي. إن المطرينهم، والضباب

يغشى كل شيء - رباه! ما أغناني عن هذا العناء كله!... اسمعي يا ليزافتا

نيقولايفنا! أحد أمرين: إما أن تركبي في العربة معي، وفي هذه الحالة فلنقف

هنا، ولنتتظرنني، إذ لو سرنا عشرين خطوة أخرى فسوف نلقى مافريكي

نيقولايفتش...

- مافريكي نيقولايفتش؟ أين هو؟ أين؟

- إذا كنت تحرصين حرصاً مطلقاً على أن تذهبي إليه، فإنني أوافق على

أن أسير معك بضع خطواتٍ أخرى، لأدلك أين هو، ولكنني أفرُّ بعد ذلك.

إنني لا أريد الاقتراب منه الآن.

صاحت ليزا قائلةً وهي تقف فجأة:

- رباه! إنه ينتظرني!...

واصطبغ وجهها بحمرة شديدة.

- إذا كان رجلاً متحرراً من الأوهام الاجتماعية، فلا قيمة للأمر البتة.

تعلمين يا ليزافتا نيقولايفنا أنني لا شأن لي في هذه القضية كلها. تعلمين

هذا علماً تاماً. ولكنني مع ذلك لا أريد لك إلّا الخير. إذا لم تنجح "سفيتنا"،

واتضح أنها ليست إلّا قارباً قديماً بالياً...

- آه... رائع!

- ها هي ذي تبكي الآن! يجب أن يتحلّى المرء بالشجاعة في مثل هذه

المناسبات. لا ينبغي للمرأة أن تخضع أمام الرجل. في أيامنا هذه... حين يحدث لامرأة أن...

هنا كاد بطرس ستيفانوفتش أن يبصق من شدة الغضب. ولكنه أردف يقول:

- الشيء الرئيسي هو أن لا تأسفي على شيء: إن من الجائز أن تسوّى الأمور في النهاية. إن مافريكي يقول لا يفتش رجل... رجل حساس... رغم أنه صموت... والصمت صفة ممتازة على كل حال... المهم أن يكون متحرراً من الأوهام الاجتماعية.

- رائع! رائع!

كذلك هتفت ليزا وهي تضحك ضحكاً عصبياً.

فقال بطرس ستيفانوفتش منزعجاً على حين فجأة:

- هو! لاحظي يا ليزا فتا نيقولا يفنا أنني في سبيلك إنما أسعى الآن هذا السعي كله. ما شأنني أنا!... لقد ساعدتك أمس حين أردت أنت نفسك... واليوم!... إننا نستطيع أن نرى مافريكي نيقولا يفتش من هنا. انظري. هو ذا. إنه لم يبصرنا. ليزا فتا نيقولا يفنا، هل قرأت "باولين ساكس".

- ماذا؟

- "باولين ساكس". هي رواية. قرأتها حين كنت طالباً. إنها تحدثنا عن موظف، غني جداً، رأى زوجته متلبسةً بالجرم المشهود، في الريف. دعينا من هذا على كل حال! ما شأنني أنا؟ إن مافريكي نيقولا يفتش سيعرض عليك الزواج حتى قبل أن تصلي إلى البيت. سوف ترين. لم يبصرك حتى الآن. هتفت ليزا تقول كالمجنونة:

- آه... ما يجب أن يراني. فلنهرب! فلنهرب! في الغابة! في الحقول!... وعادت أدراجها راکضة.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يركض وراءها:

.. ليزا فتا نيقولا يفنا! ما هذا الضعف!... لماذا لا تريد أن يراك! بالعكس: حدّقي في عينيه، بكبرياء!... إذا كانت المسألة هي مسألة...

هي مسألة بكارتك... فذلك وهم اجتماعي سخي... ذلك تأخر فكري كبير!... ولكن إلى أين تذهبين؟ إلى أين تذهبين؟ إنها تركض!... لنعد إلى سكفورشنكي، لتركب عربتي... ولكن إلى أين تركضين هذا الركض... في الحقول؟!... ها... ها هي ذي تقع!

وقف بطرس ستيفانوفتش. كانت ليزا تركض كالمجنونة من دون أن تعرف إلى أين تمضي. وكان بطرس ستيفانوفتش قد أصبح بعيداً عنها. وتعثرت أخيراً بتلعة من الأرض فسقطت. وفي تلك اللحظة دَوَّت صرخة رهبة: إنه مافريكي يقول لا يفتش رأى هرب الفتاة وسقوطها، فهو الآن يركض لنجدتها عبر الحقول.

فسرعان ما رجع بطرس ستيفانوفتش إلى منزل ستافروجين ليركب عربته بأقصى سرعة.

ها هو ذا مافريكي يقول لا يفتش يقف بقرب ليزا مرتاعاً. لقد نهضت ليزا. وها هو ذا يميل عليها ويتناول يدها بيديه. إن الظروف الخارقة التي تكتنف هذا اللقاء قد بثت في نفس الفتى اضطراباً شديداً، وهذه دموع تسيل غزيرة على خديه. لقد رأى تلك التي يحبها حباً يبلغ العباد، رآها تركض كالمجنونة خلال الحقول، في هذه الساعة المبكرة من الصباح، تحت المطر، من دون معطف، بثوبها الجميل الذي كانت ترتديه أمس، مشعّة ملطخة بالوحل... فلم يملك أن يقول كلمة واحدة، ولم يزد على أن خلع عنه معطفه، ودثر به كتفي ليزا بيديه المرتعشتين. وها هو ذا يهتف قائلاً على حين فجأة، إذ أحس بشفتي ليزا على يده:

- ليزا! أنا لا أصلح لشيء. ولكن لا تنبذيني! لا تطرديني!

فقال له ليزا:

- لننصرف من هنا! لا تتركني!

وأمسكت ذراعه وجرتّه وراءها. وأردفت تقول بصوت خائف:

- مافريكي يقول لا يفتش، كنت أظهر الشجاعة هناك، ولكنني هنا خائفة من الموت. سوف أموت، سوف أموت بعد قليل، ولكنني خائفة، خائفة من الموت...

بهذا دمدت ليزا وهي تضغط على ذراع صاحبها.
فقال مافريكي نيقولا يفتش وهو يلقي من حوله نظرات يائسة:
- ليت أحداً هنا على الأقل... قدماك سبتلان... سوف... سوف تفقدن عقلك.

دمدتم تقول محاولة أن تبث فيه شيئاً من الشجاعة:
- لا تخف! ما هذا بشيء! ما هذا بشيء! لقد قلّ خوفي منذ أصبحت أنت بجانبني. أمسك يدي، قدني!... إلى أين نذهب الآن؟ إلى الدار؟ لا...
إنني أريد أن أرى الجثث أولاً. يقال إنهم قتلوا زوجته. ولكنه يقول إنه هو الذي قتلها. ليس هذا صحيحاً أليس كذلك؟ ليس صحيحاً، هه؟ أريد أن أرى بعيني... الأشخاص الذين قتلوهم بسببي أنا!... بسببهم إنما فقدت حبه هذه الليلة... سوف أرى كل شيء وأعرف كل شيء. أسرع! أسرع! إنني أعرف ذلك البيت.. ولقد أشعلوا فيه النار... مافريكي نيقولا يفتش، لا تغفر لي، لقد كان سلوكي غير شريف! لماذا عسى يُغفر لي؟ ما بالك تبكي؟ اصفعني، واقتلني، في هذا المكان نفسه، كما يفعل بكلب!

قال مافريكي نيقولا يفتش بصوت ثابت:
- لا أحد يحق له أن يحكم عليك. وأنا آخر من يحق له أن يحكم عليك!
غفر الله لك!

إن الحوار الذي جرى بينهما سيبدو للقارئ غريباً عجيباً إذا أنا نقلته. كانا يمشيان يداً بيد، بخطى وثيدة، كمجنونين، سائرين نحو الحريق قُدماً لا يلويان على شيء. لم يكن مافريكي نيقولا يفتش قد فقد الأمل، بعد، في أن يلتقى عربةً ما، ولكن الطريق كانت خالية مقفرة. وإن رذاذاً من المطر يحجب المنظر، مديباً الأشكال والألوان، مغشياً كل شيء بنقاب أشهب. كانت الشمس قد شرقت منذ مدة، ومع ذلك كان الجو كأنه ليل. وفجأة، من هذا الضباب المتجلّد، انبجست قامة غريبة، شاذة. إنني حين أتصور هذا المشهد أتخيل أنني لو كنت في محل ليزا فتا نيقولا يفنا لما صدّقت عيني. ولكن ليزا فتا نيقولا يفنا سرعان ما تعرّفت صاحب القامة، فأطلقت صرخة فرح.

إنه ستيفان تروفيموفتش. كيف هرب من بيته؟ كيف استطاع أن ينفذ ذلك المشروع الخيالي الغريب الذي كان يساوره منذ زمن طويل؟ - ستعرفون كل شيء في ما بعد. وحسبي الآن أن أشير إلى أنه كان مريضاً منذ الصباح: كانت به حمى. ولكن لا شيء كان يستطيع أن يثنيه عما عقد النية عليه. إنه يسير في الطريق الموحلة بخطى ثابتة. ومن يره يدرك أنه كان قد أعد قراره كما يمكن أن يُعدّه رجل غير ذي خبرة، وحيداً في غرفة مكتبة الهادئ الساكن. كان ستيفان تروفيموفتش مرتدياً "لباس السفر"، أي أن معطفه كان مشدوداً على جسمه بحزام عريض من جلد لامع، وكان يحتذي جزمتين عاليتين. لعل هذه الصورة هي التي كانت في خياله عن "المسافر". أما حزام الجلد وحذاء الفارس اللذين كانا يضايقانه في سيره كثيراً، فأغلب ظني أنه كان قد هياهما منذ عدة أيام. وكان يُكمل هذا اللباس قبعة عريضة الحافة، ولثام مشدود حول عنقه. وكان يحمل بيسراه كيساً للسفر صغيراً لكنه محشو حتى ليكاد ينفجر، ويحمل بيمنه عصا ومظلة مفتوحة. إن هذه الأشياء الثلاثة - العصا، والكيس، والمظلة - كان حملها مزعجاً جداً، وقد ثقلت على ستيفان تروفيموفتش منذ الفرسخ الثاني.

هتفت ليزا تقول:

- أهذا أنت؟ هل يُعقل أن تكون أنت؟

لقد كانت حركتها الأولى فرحاً، ولكن سرعان ما حلّ محل الفرح دهش أليم!

وهتف ستيفان تروفيموفتش هو أيضاً يقول وهو يهرع إليها:

- ليزا! عزيزتي! عزيزتي! هل يُعقل أن... أن تكوني أنت قد... في هذا

الضباب المظلم؟ هل ترين الحريق؟ "إنك شقية، أليس كذلك؟" (بالفرنسية). إنني أرى هذا. لا تقصّي عليّ شيئاً، ولا تسأليني عن شيء أيضاً. "نحن جميعاً أشقياء، ولكن يجب أن نغفر لهم جميعاً! فلنغفر يا ليزا!" (بالفرنسية) ولكن أحراراً إلى الأبد! ولكي ننتهي من الناس ونصبح أحراراً يجب أن نغفر، وأن نغفر، وأن نغفر! (بالفرنسية).

- ولكن ما بالك تجثو راکعاً على ركبتك؟
- لأنني وأنا أودّع العالم أريد أن أودّع في شخصك ماضيّ كله!
وأخذ ستيفان تروفيموفتش يبكي، وحمل يدي ليزا إلى عينيه وأردف
يقول:

- إنني أجتو راکعاً أمام كل ما كان في حياتي جميلاً. إنني أقبل يديك
وأقول لك شكرًا! لقد شطرتُ حياتي شطرين: مجنوناً هناك كان يحلم
بأن يرتقي السماء، "اثنتين وعشرين سنة!" وشيخاً هنا، مسحوقاً، متجمداً،
معلماً... "عند ذلك التاجر، هذا إذا وُجد ذلك التاجر" (بالفرنسية).
وصاح ستيفان تروفيموفتش قائلاً وهو ينهض لأنه أحس بالأرض رطبةً
تحت ركبتيه:

- ولكنك مبتلة يا ليزا! وكيف يمكن هذا؟ أبهذه الملابس؟... وسيراً على
القدمين؟... وسط الحقول؟... إنك تبكين! "أأنت شقية؟" (بالفرنسية). آ...
نعم... سمعت... ولكن من أين أنت الآن آتية؟
كان يلقي عليها هذه الأسئلة وجلّ الهيئة، ملقياً على مافريكي نيقولايفتش
نظرات دهشة. وأردف يسأل:

- ولكن هل تعلمين كم الساعة الآن؟
قالت ليزا:

- ستيفان تروفيموفتش، هل سمعت عن أولئك الأشخاص الذين
قتلوا؟... أهذا صحيح؟... أهذا صحيح؟...
- أولئك الأشخاص! لقد لبثت الليل كله أتأمل حمرة لهيب جريمتهم.
كان لا يمكن أن ينتهوا إلى غير هذا.

وسطعت عيناه من جديد. وواصل كلامه يقول:

- إنني هارب من هذيانهم. إنني أنتزع نفسي من كوايسهم. إنني ماضٍ
أبحث عن روسيا. أهى توجد، روسيا؟ آه... هذا أنت أيها الكابتن العزيز! لم
يساورني أبداً شك في أنني سأراك في يوم من الأيام تحقق عملاً نبيلًا. ولكن
خذي مظنتي. ثم لماذا السير على الأقدام؟ ناشدتك الله! خذي مظنتي على

الأقل! وسأجد في النهاية عربةً تقلني. لقد رحلت سيراً على القدمين لأن ستازي (يريد أن يقول ناستاسيا) كان يمكن أن تهيج الشارع كله لو عرفت أنني راجل. لقد تسللت مجهولاً. إن جريدة "الصوت" ملأى بقصص عن قاطعي طرق. ولكن يستحيل، في ما أظن، أن أقع على واحد من قطاع الطرق فور سيرتي في الطريق. عزيزتي ليزا، يخيل إلي أنك قلت منذ هنيهة أن أحداً قُتل، أليس كذلك؟ رباه! إنها يُغمر عليها.

هتفت ليزا تقول بحرارة وهي تجر مافريكي نيقولا يفتش من جديد:
- هيا بنا، بسرعة! يا ستيفان تروفيمو فتش، لحظة...

قالت ذلك وعادت إلى ستيفان تروفيمو فتش. وتابعت مخاطبة:
- أريد أن أرسم عليك إشارة الصليب، أيها الرجل المسكين! لعل الأفضل أن توثق بالأغلال، ولكنني أوثر أن أباركك. أنت أيضاً صلّ للمسكينة ليزا، قليلاً، من دون أن تتعب نفسك.

وعادت تخاطب مافريكي نيقولا يفتش فقالت له:
- يا مافريكي نيقولا يفتش، أعد إلى هذا الطفل مظلته. أعدها إليه حالاً.
هلم بنا... فلنمش!

ووصلا إلى المنزل المشؤوم بعد أن كان الجمهور الذي يحتشد في مكان الجريمة قد سمع كلاماً كبيراً عن ستافروجين وعن الفوائد التي يجنيها من مقتل امرأته. ومع ذلك ظل أكثر الناس هادئين صامتين. وإنما كان يضطرب ويصرخ بينهم عددٌ من السكارى والمندفعين، كذلك القفال الذي سبق أن تكلمت عنه. إن هذا القفال مشتهر بأنه رجل وديع مسالم، ولكنه يفقد صوابه تماماً حين يعصف به انفعال قوي، فلا يدرك عندئذ ماذا يفعل.

إنني لم أر وصول ليزا ومافريكي نيقولا يفتش. فما كان أشدَّ دهشتي حين لمحتهما في وسط الجمهور المحتشد، بعيداً عني! أما مافريكي نيقولا يفتش، فإنني لم أميزه في اللحظة الأولى. جائز أن يكون الجمهور قد فصله عن الفتاة، فأصبح متخلفاً عنها قليلاً. كانت ليزا تشق الحشد الغفير من دون أن ترى أو أن تسمع ما يجري حولها، كأنها مجنونة هاربة من المستشفى. لذلك

لم تلبث أن لفتت إليها الأنظار. فدوّت عندئذٍ صيحات كثيرة، وصرخ أحدهم يقول فجأةً: "هذه آنسة ستافروجين!"، وقال صوت آخر: "لا يكفهم أن يقتلوا الناس، وإنما يريدون أيضاً أن يروا جثثهم!".

وفجأةً رأيت ذراعاً ترتفع فوق ليزا وتهوي على رأسها. وسمعت في تلك اللحظة نفسها صيحةً رهيبة: إنه مافريكي نيقولا يفتش يثب لنجدة الفتاة، ويضرب بجميع قواه الرجل الذي كان يفصله عن ليزا. ولكن القفال الذي كان وراءه أمسك يديه.

كان الاضطراب والازدحام يبلغان من الشدة أنني خلال بضع ثوان لم أستطع أن أرى شيئاً. أظن أن ليزا نهضت، ولكنها لم تلبث أن سقطت مرةً أخرى بضربةٍ جديدة. وابتعد الجمهور فجأةً فشكّل دائرةً حول ليزا الراقدة على الأرض ومافريكي نيقولا يفتش المسعور النازف دماً، الذي كان يميل على الفتاة عاقفاً يديه. لا أتذكر على وجه الدقة ماذا جرى بعد ذلك. ولكنني أتذكر أن الناس حملوا ليزا. وركضت أنا وراءهم: كانت ليزا ما زالت تتنفس. بل لعلها لم تكن قد أغمي عليها. واعتقل القفال وثلاثة أفراد آخرين. إن هؤلاء الثلاثة لا يزالون إلى اليوم يحتجون ببراءتهم ويؤكدون أنهم اعتقلوا خطأً. ولعلمهم صادقون. أما القفال فرغم أنه شوهد متلبساً بالجرم، لم يمكن أن يُستخرج منه شيء، بسبب اضطراب أفكاره. وحين دُعيت للشهادة، رغم أنني لم أر شيئاً كثيراً، أفدت بأن هذا القتل كان نتيجة تضافر ظروف سيئة، وأن القتل قد هاجهم كل ما كانوا قد سمعوه، عدا أنهم سكارى، إنما تصرّفوا بغير وعي أو شعور، ولم يدركوا ما كانوا يفعلون. ولا يزال هذا رأيي إلى اليوم.

الفصل الرابع

قرار أقصى

1

إن أشخاصاً عدة التقوا ببطرس ستيفانوفتش في ذلك الصباح. وقد تذكروا في ما بعد أنه بدا لهم مهتاجاً احتياجاً شديداً.

وفي الساعة الثانية بعد الظهر مرَّ بمسكن جاجانوف الذي وصل أمس من الريف. كان البيت مليئاً بالناس، وكان هؤلاء يناقشون أحداث المدينة بحرارة واندفاع. وقد تحدّث بطرس ستيفانوفتش أكثر مما تحدث الآخرون، واستطاع أن يحملهم على الإصغاء إليه. إن الناس عندنا كانوا دائماً يعدّونه "طالباً ثرثاراً مختلاً بعض الاختلال"، ولكنه أدار الحديث على جوليا ميخائيلوفنا، فكان ذلك موضوعاً مثيراً للاهتمام، في وسط تلك البلبلة العامة الشاملة. وقد ذكر عن جوليا ميخائيلوفنا، بصفته من خلصائها المقرّبين، عدداً من التفاصيل الجديدة غير المتوقعة. ونقل كذلك (كأنما عن طيش ومن دون أن يريد ذلك) عدداً من أحكامها على بعض الأشخاص المرموقين، فكان من شأن هذا طبعاً أن قرّص كبرياء الحاضرين منهم. وكان يعبر عن نفسه بكلام مبهم مقطّع مفكّك. لذلك أشعر الناس بأنه رجلٌ قليل المكر لكنه شريف، اضطر أن يشرح دفعةً واحدة طائفةً من أنواع سوء التفاهم، فهو لسذاجته الخرقاء لا يعرف من أين يبدأ وأين ينتهي. وقد أفلت من لسانه قوله بغير حذر: إن جوليا ميخائيلوفنا كانت على علم بسرّ ستافروجين، وأنها هي التي حبكت المؤامرة التي كان بطرس ستيفانوفتش هو نفسه ضحية لها، لأنه

كان هو أيضاً مغرمًا بحب تلك المسكينة ليزا. وقد بلغت من إحكام حبك المؤامرة أنه هو، بطرس ستيفانوفتش قد تولى بنفسه "تقريباً" إيصال ليزا إلى ستافروجين بالعربة. "نعم، يا سادة، إنه لسهلٌ عليكم أن تضحكوا! ولكن لو أنني عرفت، لو أنني عرفت، ما استؤول إليه الأمور!". وجواباً عن الأسئلة القلقة التي ألقتها عليه بصدد ستافروجين صرَّح بقوله إنه يعتقد أن مقتل لبيادكين لم يكن إلا مصادفةً محضاً، وأن لبيادكين كان ضحية حماقته نفسها، لأنه راح يتباهى في كل مكان بأن عنده مالا. وقد بدت تعليقات بطرس ستيفانوفتش في هذا الصدد واضحة جداً. ومع ذلك علّق أحد مستمعيه على كلامه قائلاً: "هذا تمثيل لا ينطلي على أحد": لقد شرب وأكل حتى لقد نام عند جوليا ميخائيلوفنا إن صح التعبير، وها هو ذا رغم ذلك أول من يقول فيها سوءاً. ليس ذلك بالأمر المستحسن منه كما قد يُظن. ولكن بطرس ستيفانوفتش دافع عن نفسه بلهجة وقورة جداً يقول:

- إذا أكلتُ وشربتُ عندها، فليس ذلك عن عوز. أأكون مذنباً إذا هي دعنتني دائماً؟ اسمح لي أن أكون بنفسي حكماً على ما يجب لها عليّ من شكر وامتنان!

كان الشعور العام مؤيداً له على وجه الإجمال. "إنه لم يخترع البارود طبعاً، ولكن لا يمكن أن يُعدَّ مسؤولاً عن حماقات جوليا ميخائيلوفنا. بالعكس كان في ما يبدو يحاول أن يكبح جماحها..."

في نحو الساعة الثانية سرت إشاعة على حين فجأة تقول إن ستافروجين قد سافر إلى بطرسبرج في قطار الظهر. وقد أثار هذا النبأ فضولاً قوياً، حتى إن بعضهم اكفهر وجهه. أما بطرس ستيفانوفتش فقد بلغ من الاضطراب للنبأ أنه غيّر سحنته في ما يقال، وصرخ يسأل: "من ذا الذي تركه يسافر؟". ولم يلبث أن غادر الحفل فوراً. ولكنه رُئي في منزلين آخرين أو في ثلاثة منازلٍ أخرى.

وفي نحو المساء استطاع أن ينفذ إلى عند جوليا ميخائيلوفنا، بغير قليل من العناء، لأنها كانت ترفض رفضاً قاطعاً أن تلقاه. إنني لم أعلم بهذه الزيارة

إلا بعد ثلاثة أسابيع، وذلك من جوليا ميخائيلوفنا نفسها قبيل رحيلها إلى بطرسبرج وهي لم تطلعني على التفاصيل، ولكنها اعترفت وهي ترتعش بأنه في تلك الزيارة قد "أدهشها إدهاشاً يفوق كلّ حد". أظن أنه هددها بأن يشي بها شريكة إذا هي تكلمت. لقد كان صمت ميخائيلوفنا لا غنى عنه إطلاقاً لمشاريع بطرس ستيفانوفتش التي كانت المرأة المسكينة تجهلها طبعاً. ولم تدرك جوليا إلا بعد خمسة أيام لماذا كان يحرص ذلك الحرص كله على أن تصمت و لماذا كان يخشى أن يتجلى استياؤها صريحاً.

وفي نحو الساعة الثامنة من المساء، حين خيم الظلام كاملاً، كان "أصحابنا" يجتمعون كلهم، هم الخمسة، في مسكن الضابط حامل الراية، إركل، الذي كان يقيم في منزلٍ صغير بأقصى المدينة يوشك أن يتداعى. إن بطرس ستيفانوفتش نفسه هو الذي دعا إلى عقد هذا الاجتماع. ولكنه تأخر عن الموعد فلم يصل حتى الآن، فأعضاء الحلقة ينتظرونه منذ ساعة كاملة. إن إركل هو ذلك الضابط نفسه الذي لبث في سهرة فرجنسكي جالساً طوال الوقت أمام دفتر الملاحظات، وفي يده قلم رصاص. إنه مقيم عندنا منذ مدة قصيرة، وهو يقطن في شارع صغير صامت، لدى أختين عانسيتين. وكان يقول إنه سيغادر مدينتنا بعد وقتٍ قصير. لقد عُقد الاجتماع في بيته لأن عقد الاجتماع في هذا المكان غير معرّض لأن يلاحظ كما يمكن أن يلاحظ في مكانٍ آخر. ولقد كان هذا الفتى الغريب صموتاً صمتاً خارقاً: كان يمكن أن يقضي عشر سهراتٍ متتاليات في مجتمع يبلغ أقصى درجات الحركة والحماسة، وأن يستمع إلى أحاديث طويلة تبلغ أقصى درجات الجلبة والصخب، من دون أن ينبس بكلمة واحدة، وإنما هو ينصت إلى المتحدثين ساكناً، منقلاً بينهم عينيه اللتين تشبهان عيني طفل، متفرساً فيهم بانتباه. وكان له وجه جميل لا يخلو من ذكاء. إنه ليس واحداً من حلقة "الخمس" التي كان أعضاءها يعدّونه مكلفاً بمهمة خاصة تنفيذية لا أكثر. ولكننا نعلم الآن أنه لم يكن مكلفاً بأية مهمة. ولعله هو نفسه كان لا يدرك وضعه إدراكاً واضحاً. لقد كان يكفيه أن يعبد بطرس ستيفانوفتش الذي عرفه منذ مدة قصيرة. يميناً لو

التقى إركل بأي مخلوق شاذ، فاستطاع هذا المخلوق الشاذ أن يضفي على حديثه إليه ثوباً اشتراكياً رومانسياً ما، في سبيل أن يدفعه إلى تأليف عصابة من قطاع الطرق، ثم أمره من أجل وضعه في موضع الاختبار أن يقتل ويسلب أول فلاح قادم، لانصاع إركل للأمر الذي صدر إليه ولنَفْذه بغير أي تردد. كانت أمه المريضة تعيش في الريف، وكان يرسل إليها نصف راتبه الهزيل. فما كان أعظم شوق الأم إلى تقبيل هذا الرأس الأشقر، وما كان أشد قلقها عليه، وما كان أقوى حبّها له. لا شك أنها كانت تدعو له كثيراً!

كان "أصحابنا" مضطربين اضطراباً شديداً. لا شك أن أحداث الليلة البارحة قد أدهشتهم وروّعتهم. إن الفضيحة التي ساهموا في إحداثها راضين قد انتهت إلى خاتمة لم تكن في الحسبان قط. فحريق الليل، ومقتل لبيادكين، وتهشيم ليزا، كل ذلك مفاجآت لم تكن جزءاً من برنامجهم. إنهم يهتمون بطرس ستيفانوفتش بالاستبداد ويأخذون عليه بكثير من المرارة أنه يخفي عنهم الأمور. الخلاصة أنهم بانتظار وصول بطرس ستيفانوفتش قد بلغوا من الحق أنهم قرروا أن يسألوه إيضاحات قاطعة، وأن يطلبوا منه تفسيرات فاصلة. فإذا راوغ مرة أخرى، فسوف يحلون حلقتهم، وسوف ينشئون بدلاً منها جمعية سرية جديدة ترمي إلى هدف واحد هو "الدعاية للأفكار"، وتقوم على قواعد المساواة والديموقراطية. وكان لبيوتين وشيغالوف والشخص الذي يقول إنه يعرف الشعب الروسي حق معرفته، يؤيدون هذا المشروع بحرارة وحماسة، وكان ليامشين صامتاً ولكن هيئته تعبر عن تأييد وتحبّيز. أما فرجنسكي فكان لا يزال متردداً، وكان يلح على ضرورة انتظار الإيضاح من بطرس ستيفانوفتش. وتقرر أخيراً أن يُفصح لبطرس ستيفانوفتش مجال الإيضاح. ولكن بطرس ستيفانوفتش ما يزال متأخراً عن الحضور، فكان إهماله هذا يصب على النار زيتاً. وكان إركل صامتاً يحضّر الشاي ويقدمها بنفسه في أقداح على صينية حتى لا تدخل الخادمة الغرفة.

لم يصل بطرس ستيفانوفتش إلا في الساعة التاسعة والنصف. وها هو ذا يتقدم بخطى سريعة نحو المائدة المستديرة التي جُعِلت أمام الديوان

وتحلّقت حولها الجماعة. وقُدّمت إليه قدح من الشاي لكنه رفضها. وكان وجهه يُعبّر عن حنق وقسوة وتكبر. لعله أدرك من هيئة الحاضرين فوراً أن الحلقة "تمرّد".

قال وهو يبتسم ابتسامةً صفراء ويطوف ببصره على الوجوه:

- قبل أن أفتح فمي، أفرغوا ما في أنفسكم من كلام!

فانبرى لبيوتين يتحدث "باسم الجميع" فقال بلهجةً مستاءةً "إن الاستمرار على هذا الأسلوب يهدد كل واحد بتحطيم جبهته". ونحن لا نخشى أبداً أن نتحطم جباهنا، لا، بل إننا مستعدون لهذا أتم الاستعداد، ولكن على شرط أن يكون الهدف هو خدمة العمل المشترك وحده.

هنا قام أفراد الجماعة بحركات شتى تنم عن التأييد. وتابع لبيوتين كلامه فقال: فيجب إذاً أن تكون صريحاً مع أعضاء الجماعة ليعرفوا سلفاً إلى أين هم سائرون، وإلا فما عسى يحدث؟".

هنا أيضاً ظهرت حركات تأييد وقامت دمدومات شتى. وواصل لبيوتين كلامه يقول: إن هذا التصرف يشتمل على إذلال، كما أنه محفوف بالخطر. "ليس معنى ذلك أننا خائفون. ولكن إذا عمل فردٌ واحد بينما الآخرون لا يزيدون على أن يكونوا بيادق شطرنج يحركها كما يشاء، فإنه سيورّطهم جميعاً في ما لا يد لهم فيه".

"نعم، نعم!". كذلك تعالت أصوات الآخرين مؤيدةً.

- ماذا تريدون مني؟

- ما شأن المكائد الصغيرة التي يديرها ستافروجين بالعمل المشترك

والقضية العامة؟

كذلك تابع لبيوتين كلامه سائلاً باستياء. وأردف يقول:

- ربما كان عضواً في اللجنة المركزية - هذا إذا كان لتلك اللجنة السرية العجيبة وجوداً حقاً - ولكننا لا نريد أن نعرف من ذلك شيئاً. غير أن جريمة قتل قد ارتكبت، والشرطة تبحث القضية، فإذا تابعت الخيط إلى آخره وصلت إلينا.

قال تولكاتشنكو الرجل الذي يعرف الشعب الروسي حق معرفته، قال مضيفاً إلى كلام لیبوتین:

- إذا أخذت مع ستافروجین، فسوف نؤخذ نحن أيضاً.

وقال فرجنسکی یختم الحديث:

- وسوف نؤخذ بدون أية فائدة تعود على قضیتنا المشتركة.

- یا للحماقة! إن جريمة القتل هذه لا ترجع إلّا إلى المصادفة. إن فداکا هو

الذي فعل هذه الفعلة لیسلب الکابتن ما معه من مال.

قال لیبوتین معقّباً، وهو یحرّك قسّمات وجهه بمعنی التهکم:

- هم!... مصادفة عجيبة مع ذلك.

- ثم إن الخطأ خطأكم على کل حال.

- خطأنا نحن؟ كيف هذا؟

- أولاً: لقد شاركت أنت نفسك في تدبیر الحيلة یا لیبوتین. والأخطر من

هذا ثانياً أنني أمرتك بترحيل لیبادکن إلى بطرسبرج، حتى لقد أعطيتك المال

اللازم. فماذا فعلت؟ لو أنك رحّلت لما حدث شيء مما حدث.

- ولكن ألسنت أنت الذي أوحيت إليّ فكرة حملة على قراءة أشعار في

الصبيحة الأدبية؟

- إذا أوحيت إليك فكرة فليس معنى ذلك أنني أصدرت إليك أمراً. إن

الأمر الذي أصدرته إليك هو أن ترحّله.

- "الأمر" الذي أصدرته إليّ؟ یا له من تعبير غريب... إن الواقع هو نقيض

هذا: لقد أمرت بالتریث، وإرجاء رحيله.

- أخطأت الفهم، وبرهنتَ على أنك شديد الحماقة وعلى أنك لا تنقید

بالنظام. إن جريمة القتل كانت من فعل فادکا. وقد تصرف من تلقاء نفسه بغية

الاستيلاء على مال الکابتن. وأنت سمعت أقاويل فصدّقتها فوراً، فخفت.

ليس ستافروجین غيباً إلى هذا الحد. والبرهان أنه سافر ظهر هذا اليوم بعد أن

قابل نائب الحاكم. فلو كان هناك ما يدعو إلى الاشتباه فيه، لما أذن له بالسفر

في وضح النهار.

استأنف لبيوتين كلامه بلهجة تشتمل الآن على حقيد وتخلو من التخرج:
- نحن لا نقول البتة إن السيد ستافروجين قتل بيديه. حتى ليتمكن أن يكون
جاهلاً بكل شيء، مثلي أنا. إنك لتعلم علم اليقين أنني كنت أجهل كل شيء،
وها أنا ذا مع ذلك قد أقحمت في الفخ.

- فمن ذا تتهم إذا؟

كذلك سأله بطرس ستيفانوفتش مربدّ الوجه.

فأجابه لبيوتين:

- أتتهم أولئك الذين يحرقون المدن.

- أنكى ما في الأمر أنك تمكر وتراوغ. على كل حال، أرجو أن تحمّل
نفسك عناء قراءة هذه الورقة، وأن تنقلها بعدئذ بين الآخرين من باب العلم
بالشيء.

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك واستل من جيبه رسالة غير مذيلة باسم
صاحبها (وهي رسالة كان لبيادكين قد كتبها إلى لمبكه)، ومدّها إلى لبيوتين.
فقرأها لبيوتين ثم ناولها جاره ذاهل الهيئة. ولم تلبث الرسالة أن طافت على
الحضور جميعاً.

سأل شيجالوف:

- أهذا خط لبيادكين حقاً؟

فقال لبيوتين وتولكاشنكو مؤكدين:

- نعم، هو خط لبيادكين.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يعيد الرسالة إلى جيبه:

- لم أطلعكم على الرسالة إلا لتكونوا على علم، ولأنني رأيت أنكم ترثون
لمصير لبيادكين. هكذا يكون فدكا قد خلّصنا إذا من رجل خطر إلى أقصى
حدود الخطر. هناك مصادفات غريبة أحياناً. أليس هذا بليغ الدلالة يا سادة؟
تبادل أعضاء الحلقة نظرة سريعة.

قال بطرس ستيفانوفتش وقور الهيئة:

- والآن يا سادة جاء دوري أنا لأسألكم. كيف أبحتم لأنفسكم أن تشعلوا

الحريق في المدينة بدون إذني.

- ماذا؟ أنحن أشعلنا الحريق في المدينة؟

تابع بطرس ستيغافوفتش يقول من دون أن يقيم وزناً لسؤالهم المتعجب:

- أفهم أن تكونوا قد اندفعتم فتطرفتكم وأسرفتم. ولكن الأمر ليس أمر

فضيحة صغيرة في هذه المرة. لقد جمعتكم هنا أيها السادة لأريكم مدى الخطر الذي أدت حماقتكم الشديدة إلى وضعه فوق رؤوسكم والذي يهدد مصالح أخرى غير مصالحكم أنتم.

هتف فرجنسكي يقول مستاءً وكان قد ظل ساكناً حتى ذلك الحين:

- اسمح لي. نحن الذين كنا ننوي أن نحتج على استبدادك وطغيانك

للذين فرضا هذا التدبير الغريب العجيب الخطير!

- إذا أنتم تنكرون، ولكنني أنا أؤكد أنكم أنتم أحرقتم المدينة. لا تكذبوا

أيها السادة. إنني أملك معلومات دقيقة. إن عدم انضباطكم يجعل القضية المشتركة والعمل المشترك في خطر. ما أنتم إلا حلقة واحدة في شبكة واسعة، فيجب أن تخضعوا للجنة المركزية خضوعاً أعمى. ومع ذلك فإن ثلاثة منكم لم يصدر إليهم أي أمر في هذا الموضوع هم الذين دفعوا عمال مصنع شبيجولين إلى إشعال النار في المدينة، فشبَّ الحريق.

- من هم هؤلاء الثلاثة؟ اذكر أسماءهم!

- أمس الأول، في الساعة الثالثة من الصباح، في كاباريه "ميوزوتس"،

قمت أنت يا تولكاتشنكو بتحريض زافيا لوف.

قال تولكاتشنكو متنفذاً:

- اسمح لي. أنا لم أكد أقول إلا كلمة واحدة في هذا الصدد، ولم أكن

أنتوي أي شيء معيّن محدّد، ولم أتكلّم إلا لأنه كان قد جُلد في الصباح. ثم سرعان ما تركته إذ لاحظت أنه سكران. ولولا أنك دكرتني بهذا الحادث الآن، لما خطر ببالي من تلقاء نفسه في لحظة من اللحظات. إن كلمة تقال عرضة ومصادفة لا يمكن أن تشعل النار في مدينة.

- أنت أشبه بإنسانٍ يدهشه كثيراً أن تفجّر شرارةً مخزون بارود.

هتف تولكاتشنكو يقول:

- لقد كلمته بصوتٍ خافت، همساً في أذنه، وكنا في آخر الصلاة. فكيف علمت بالأمر؟

- كنت مختبئاً تحت المائدة. لا تخشوا شيئاً أيها السادة. إنني أعرف كل واحد منكم. أراك تبتسم ساخراً يا سيد ليبوتين. طيب. أنا أعلم مثلاً أنك منذ ثلاثة أيام، في منتصف الليل، حين رقدت على فراشك، قرصت زوجتك حتى أدميتها.

فغر ليبوتين فاه من الدهشة واصفرَّ لونه.

(وقد علّم في ما بعد أن بطرس ستيفانوفتش قد علم بفعله ليبوتين هذه من آجافيا، خادمة ليبوتين التي كانت منذ البداية تتجسس لبطرس ستيفانوفتش).
سأل شيجالوف وهو ينهض فجأةً:
- هل أستطيع أن أقرر واقعة؟
- افعّل.

فعاد شيجالوف يجلس، وفكّر لحظةً، ثم قال:

- إذا كان ما فهمته صحيحاً - ومن المستحيل أن لا يكون صحيحاً - فإنك قد قلت منذ البداية ثم كررت مرةً أخرى، متكلماً بكثير من البلاغة والفصاحة، وإن يكن كلامك نظرياً، أن هناك شبكة تغطي روسيا كلها وأن جماعتنا ليست إلا حلقة في هذه الشبكة. فكل جماعة من هذه الجماعات، وهي جزء من الحزب الذي يتفرع ويتفرع إلى غير نهاية، يجب عليها أن تقود بدعاية منظمة تقوّض السلطات المحلية، وتشر الاضطراب في الأرياف، وتثير الفضايح، وتذكي الرغبة في حالٍ أفضل، وكذلك تعتمد إلى إشعال الحرائق التي هي وسيلةٌ شعبيةٌ جداً، لتغرق البلاد في وهدة اليأس في الوقت المناسب. أهذه أقوالك نفسها حاولت أن أحفظها كلمةً كلمةً أم لا؟ أهذا هو برنامجك الذي نقلته إلينا بصفحتك عضواً في لجنة مركزية لا نعرفها بعد، وتكاد تبدو لنا قائمة في عالم الغيب؟

- هذا صحيح. ولكن ما أطول إسهابك؟

- لكل إنسان أن يعبر عما بنفسه كما يشاء. إنك حين أفهمتنا أن الشبكة التي تغطي روسيا كلها تُعدّ منذ الآن بمئات الحلقات، وحين أفهمتنا أنه إذا قامت كل حلقة من هذه الحلقات بواجبها، فإن روسيا كلها، فإن روسيا كلها، بإشارة واحدة...

- شيطانٌ يأخذكم جميعاً! إن على عاتقي أعباء كافية، بدون أن تزيدوها أنتم...

كذلك قال بطرس ستيفانوفتش وهو يتحرك على مقعده.

قال شيجالوف:

- طيب. سأوجز. وسأكتفي بأن ألقى عليك السؤال التالي: لقد شهدنا هنا فضائح منذ الآن، ورأينا استياء الأهالي، وحططنا سلطة الإدارة المحلية، وشهدنا حريقاً. فممّ استياؤك إذا؟ أليس هذا برنامجك؟ ما الذي تستطيع أن تأخذه علينا؟

- آخذ عليكم عدم خضوعكم!

كذلك صرخ يقول بطرس ستيفانوفتش. وتابع كلامه فقال:

- ما دمت أنا هنا فإنه لمحظورٌ عليكم أن تنصرفوا بدون إذن مني. كفى! سيوشى بنا غداً بل ربما الليلة، وسنعتقل جميعاً. ذلك ما أردت أن أقوله لكم. معلوماتي أكيدة.

أذهلهم هذا النبأ بل صعقهم.

- سيوشى بنا من حيث إننا مشعلو حرائق، ومن حيث أننا ثوريون. إن الواشي يعرف جميع التفاصيل. هذه ثمرة حماقاتكم!

صاح لبيوتين يقول:

- هو ستافروجين حتماً.

- ستافروجين؟... لماذا؟...

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وجمد. ولكنه لم يلبث أن تاب إلى نفسه.

ثم قال:

- بل هو شاتوف. أظن أنكم تعلمون جميعاً أن شاتوف كان في الماضي

عضواً بالجمعية. ويجب عليّ أن أقول لكم إنني قد كلفت بمراقبته أنا سراً لا يُرتاب في أمرهم، فما كان أشد دهشتي حين عرفت أن تنظيم شبكتنا ليس سراً خافياً عليه... وأنه يعلم كل شيء!... ومن أجل أن يجعل السلطة تعفو عن اشتراكه في الجمعية، فإنه سوف يشي بالجميع. ولقد كان يتردد حتى الآن، وكنت أنا أداريه. أما الآن فإنكم بالحرق قد أطلقتم يديه، وحررتموه من التردد، فعزم أمره، ولن يصده عن الوشاية بنا شيء. سنُعْتَقِل جميعاً في الغد، بصفتنا مشعلي الحرائق وبصفتنا مجرمين سياسيين.

- ولكن هل هذا صحيح؟ كيف يعرف شاتوف؟

كان الانفعال الذي سيطر على أعضاء الجماعة لا يوصف.

- هذا صحيح كل الصحة. ليس من حقي أن أطلعكم على الوسائل التي استعملتها، ولا أن أذكر لكم كيف اكتشفت كل شيء. إليكم مع ذلك ما لا أزال قادراً على فعله لكم: إنني أستطيع، بواسطة شخص ما، أن أؤثر في شاتوف من دون أن يشبه في الأمر، فأحمله على إرجاء الوشاية أربعاً وعشرين ساعة. ففي وسعكم إذا أن تعدوا أنفسكم في مأمن حتى الصباح من بعد غد.

ساد الصمت دقيقة.

ثم صاح تولكاشنكو فجأة يقول:

- فلنرسل شاتوف إذاً إلى جهنم!

فتدخل ليامشين قائلاً بصوت حائق وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية:

- هذا ما كان ينبغي أن نفعله منذ مدة طويلة.

فدمدم لبيوتين سائلاً:

- كيف؟

فأسرع بطرس ستيفانوفتش يتلقف الكرة ويعرض خطته، فيقول إن المطلوب هو استدراج شاتوف غداً عند هبوط الليل إلى المكان النائي الذي دفن فيه آلة الطباعة، بحجة استردادها. فمتى وصل شاتوف إلى هناك

"تفعلون اللازم". وقد دخل بطرس ستيفانوفتش في تفاصيل سأسكت عنها الآن، وعرض وضع شاتوف في الجمعية، وهو وضع ملتبس كما يعرف القارئ.

قال لبيوتين بصوتٍ متردد:

- هذا كله حسن، ولكن حكاية القتل الجديدة هذه... سوف تبلى الأذهان...

فأجابه بطرس ستيفانوفتش مؤيداً:

- حتماً. ولكن هذا أيضاً محسوب. إننا نملك الوسيلة التي تمكننا من أن نصرف عنا الشبهات تماماً.

وبذلك الوضوح نفسه تكلم عن كيريلوف، وعن اعتزامه الانتحار، وذكر أن كيريلوف لن ينتحر إلا في اللحظة المطلوبة، وأنه سيرك رسالةً يتهم فيها نفسه بكل ما يطلب إليه أن يتهم به نفسه (إن القارئ مطلع على هذه الأمور كلها).

وأضاف بطرس ستيفانوفتش معقّباً:

- إن اعتزام كيريلوف الانتحار، وهو اعتزامٌ قاطعٌ يفسّره هو تفسيراً فلسفياً ولكنه ليس في رأيي إلا محض جنون، معروفٌ "هناك". و"هناك" لا يدعون لشيء أن يضيع، لا يتركون لشعرة أن تُفقد، بل لا يسمحون لذرة غبار أن تذهب سدى. إن كل شيء يمكن أن يفيد عملنا المشترك. وهكذا فإن "اللجنة" إذ تنبأت بالفائدة التي يمكن أن تجني من انتحاره، وإذا اقتنعت بأن نية الانتحار لديه جدٌ لا هزل، قد أعطته مالا ليعود إلى روسيا (ذلك أن كيريلوف - لا أدري لماذا! - يحرص حرصاً مطلقاً على أن يموت بروسيا)، وعهدت إليه بمهمة تكفل بإنفاذها، وهو ينفذها فعلاً، وتعهّد عدا ذلك بأن لا يطلق الرصاص على رأسه إلا حين يصدر إليه الأمر بهذا. لاحظوا أنه يريد أن ينفع المجتمع. لا أستطيع أن أقول لكم أكثر من ذلك. ففي الغد، "بعد شاتوف"، سأملئ عليه رسالةً يصرّح فيها بأنه هو الذي قتله. وسوف يظهر هذا الأمر معقولاً: فقد كان الرجلان صديقين، وقد سافرا معاً إلى أمريكا

وتشاجرا هناك... سوف يذكر هذا كله في الرسالة... و... حتى لقد يمكننا، إذا كانت الظروف مواتية، أن نملي على كيريلوف أشياء أخرى أيضاً... في ما يتعلق بالمنشورات التحريضية مثلاً... بل في ما يتعلق بالحريق كذلك... على كل حال، سأفكر في الأمر مزيداً من التفكير. لا تخشوا شيئاً: إنه متحرر من الأوهام الاجتماعية الباطلة، وسوف يوقّع كل شيء يمكن أن نمليه عليه. أظهر الحضور بعض الشكوك. إن هذا كله يبدو عجباً كأنه الخيال. ومع ذلك كانوا قد سمعوا جميعاً عن كيريلوف، ولا سيما ليبوتين.

فقال بطرس ستيفانوفتش قاطعاً:

- لا تقلقوا أيها السادة. سوف يقبل. وبمقتضى الاتفاقات التي تمت بيننا، يجب أن أبلغه الأمر قبل موعد التنفيذ بيوم، أي يجب أن أبلغه في هذا اليوم. لذلك اقترح أن يصحبني ليبوتين، ويشهد لقاءنا، ويقول لكم عند عودته، في هذا اليوم نفسه، أننا ذكرت لكم الحقيقة أم لا.

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك ثم أسرع يضيف في حنق، كأنه أحس أنه بمحاولة إقناع هؤلاء الناس الصغار يهب لهم شرفاً عظيماً لا يستحقونه:

- على كل حال، افعلوا ما تشاءون! فإذا لم تعزموا أمركم فقد انفرط عقدكم وانفكت رابطتكم، وكان ذلك كله إنما يرجع إلى عدم طاعتكم وإلى خيانتكم. وبعد تلك اللحظة، يمضي كل منا في سبيله ولكن اعلّموا أنكم مهدّدون عندئذٍ بالنتائج التي ستترتب على وشاية شاتوف بكم، وأنكم مهدّدون عدا ذلك بانزعاج سبق أن بُهّتم إليه عند إنشاء هذه الحلقة. إنني، من جهتي، لا أخشاكم كثيراً أيها السادة... لا تظنّوا أن مصيري مرتبطٌ بمصيركم... على كل حال، ليس لهذا كله من قيمة...

قال ليامشين:

- نحن عازمون على العمل.

ودمدم تولكاتشنكو قائلاً:

- ليس هناك حلٌّ آخر، وإذا أكّد ليبوتين أقوالك عن كيريلوف...

هنا صاح فرجنسكي يقول وهو ينهض:

- أنا معارضٌ! إنني أحتج احتجاجاً شديداً على هذا القرار الدموي.
- ولكن؟

كذلك سأله بطرس ستيفانوفتش. فقال فرجنسكي:
- ماذا "ولكن"؟

- أنت قلت "ولكن"، وأنا أنتظر أن تتم كلامك...
- أظن أنني لم أقل "ولكن"... وإنما قصدت أنني إذا اتخذتم هذا القرار،
سوف...

- سوف ماذا؟

صمت فرجنسكي.

وتدخل إركل فجأة فقال:

- قد لا يكثرث الإنسان بأمنه وسلامته، ولكن إذا كان الأمر يضرّ بالقضية،
فلا يحق للمرء عندئذ أن يهمل أمنه وسلامته...

وارتبك إركل وسكت. ونظر الجميع إليه مذهوشين، رغم انشغال بال
كل منهم بمصيره الشخصي. ذلك أنهم لم يألّفوا أن يفتح إركل فمه بكلمة
أبداً.

قال فرجنسكي:

- في سبيل القضية، أنا مستعدٌ لكل شيء.

ونهضوا. وتقرر أن لا يُعقد اجتماعٌ في الغد، ولكن أعضاء الحلقة
سيُطلعون على الوضع ظهراً، وسيُتفق عندئذ على التفاصيل. وشرح بطرس
ستيفانوفتش أين توجد آلة الطباعة، ووزّع على الأفراد أدوارهم واحداً
واحداً، ثم مضى إلى كيريلوف يصحبه ليبوتين.

2

صحيحٌ أن "أصحابنا" أصبحوا مقتنعين بأن شاتوف يستعد للوشاية بهم،
ولكنهم مقتنعون في الوقت نفسه بأن بطرس ستيفانوفتش يحركهم كما تحرك
البيادق على رقعة الشطرنج. ومع ذلك كانوا يعرفون جميعاً أنهم سيذهبون

إلى المكان الذي حدّده لهم، وأن مصير شاتوف قد تقرر. يشعرون بسخطٍ وحق، ولكنهم في الوقت نفسه يرتعون خوفاً.

لا شك أن بطرس ستيفانوفتش قد أخطأ في حقهم. لقد كان يمكن تدبير الأمور كلها تدبيراً أقرب إلى الكياسة، وأدنى إلى السر والسهولة لو أنه كلّف نفسه عناء تجميل الواقع ولو قليلاً. فبدلاً من أن يعرض لهم الوقائع عرضاً يظهر جانبها النبيل، كأن يحدثهم عن الرومانيين وعن تقيدهم بالنظام وتفانيهم في سبيل الوطن، عمد إلى التخويف وحده، فجعل كل واحدٍ منهم يخشى على جلده هو، وذلك شيءٌ يفتقر إلى اللطف والكياسة حقاً. صحيح أن كل شيءٍ إنما يرتد إلى الصراع في سبيل الحياة، أي إلى تنازع البقاء، فذلك هو المبدأ الوحيد: هذا أمر يعرفه الجميع. ولكن، مع ذلك...

ولكن بطرس ستيفانوفتش لم يتسع وقته للاستعانة بالرومانيين. لقد كان هو نفسه في حالة تشوشٍ وحيرة. إن اختفاء ستافروجين قد بث في قلبه كثيراً من الاضطراب. كذب بطرس ستيفانوفتش حين قال إن نيقولا ي فسيغولودوفتش قد تحدّث مع نائب الحاكم قبل أن يسافر. الواقع أن ستافروجين استقل القطار من دون أن يرى أحداً، حتى أمه. والشيء الغريب أن الشرطة لم تقلقه (حوسبت السلطات على ذلك في ما بعد). ولقد حاول بطرس ستيفانوفتش أن يستعلم عن ستافروجين، ولكنه لا يعرف حتى الآن شيئاً. لذلك كان مضطرباً أشد الاضطراب. هل كان يمكنه فعلاً أن يستغني هذا الاستغناء عن نيقولا ي فسيغولودوفتش، وأن يذعن لفقده؟ ذلكم هو السبب في أنه لم يكن رقيقاً مع "أصحابنا"، لا سيما وأنهم كانوا يكبلون يديه: فلقد كان يريد في الواقع أن ينطلق ساعياً وراء ستافروجين على الفور. ولكن كان عليه أن يهتم بأمر شاتوف، وكان عليه أن يعزز ارتباط الخمسة بعضهم ببعض: "من يدري؟ قد أظل أستفيد منهم!". ذلك ما لعله كان يحدث به نفسه.

زد على ذلك أن بطرس ستيفانوفتش كان مقتنعاً اقتناعاً تاماً بأن شاتوف يستعد للوشاية بهم. لقد كذب على "الخمسة": فالحق أنه لم ير تلك الوشاية

أبداً، ولا سمع عنها في يوم من الأيام ولكنه كان مقتنعاً بوجودها. كان يُخَيَّل إليه أن شاتوف لن يستطيع احتمال الأحداث الأخيرة - موت ليزا، مقتل ماريا تيموفتسنا - وأنه سيعزم أمره أخيراً على أن يفعل. من يدري؟ لعل بطرس ستيفانوفتش كان من حقه أن يفكر هذا التفكير. ولقد عُرف منذئذٍ أنه يكره شاتوف كرهاً شخصياً، فهما قد تشاجرا مرةً في الماضي، وليس بطرس ستيفانوفتش الذي يغفر إهانةً في يوم من الأيام. بل إنني لمقتنع بأن هذا هو السبب الرئيس في المؤامرة التي دبرها لشاتوف.

إن أرصفة الأجر ضيقة جداً في بعض الأماكن عندنا حتى لقد تنوب عنها ألواح خشبية أحياناً. فكان بطرس يسير في وسط الرصيف فيشغله كله، غير مكتربٍ بلبوتين أي اكتراث، وكان لبوتين مضطراً أن يركض وراءه أو أن تتخبط قدماه في وحل الشارع إذا هو أراد أن يكلمه. وتذكر بطرس ستيفانوفتش فجأةً كيف كان يحب هو نفسه هذا الخبب منذ بضعة أيام إلى جانب ستافروجين الذي كان هو أيضاً (مثل بطرس ستيفانوفتش في هذه اللحظة تماماً) يسير في وسط الرصيف فيشغله كله. فحين وافته ذكرى هذا المشهد كاد يختنق غضباً.

ولكن لبوتين كان غاضباً هو أيضاً، في وسع بطرس ستيفانوفتش أن يتصرف مع الآخرين كما يحلو له، ولكن لا معه هو، هو لبوتين، الذي يعرف أكثر مما يعرفه الآخرون، ويرتبط بالتنظيم ارتباطاً وثيقاً، ويشارك فيه مشاركةً أعمق، وذلك منذ مدة طويلة. صحيح أنه كان يدرك حق الإدراك أن بطرس ستيفانوفتش يستطيع حتى في هذه اللحظة أن يتخلص منه، بل أن يضيقه إذا لزم الأمر. ولكنه كان قد أخذ يكره بطرس ستيفانوفتش منذ مدة طويلة، بسبب موقف الغطرسة هذا الذي يقفه، وليس بسبب الأخطار التي يقوده إليها. أما الآن وقد تقرر قتل شاتوف، فإنه حائق أكثر من سائر "أصحابنا" مجتمعين، ولكنه يعرف مع ذلك أنه سيشرع غداً في عمله أول واحد، "كعبد ذليل"، بل إنه سيحمل عليه الآخرين. لذلك لا يساورني أي شك في أنه لو كان يستطيع أن يقتل بطرس ستيفانوفتش فوراً، من دون أن يهلك نفسه طبعاً، لفعل حتماً بغير تردد.

كان غارقاً في إحساساته ومشاعره، ملتزماً الصمت، يخبُّ وراء جلاده. وكان يبدو أن بطرس ستيفانوفتش قد نسيه تماماً. ولكنه يصدمه بكوعه من حينٍ إلى حين، من دون أن ينتبه إلى ذلك أي انتباه. وفجأة وقف في شارعٍ من شوارعنا الصغيرة التي تحفل بالناس، ودخل أحد المطاعم.

هتف ليبوتين يسأله:

- إلى أين؟ ألا ترى أن هذا مطعم؟

- أريد أن أكل شريحةً من اللحم.

- المكان يغص بالناس هنا.

- لا يهمني.

- ولكن... سنصل متأخرين. الساعة قد بلغت العاشرة.

- يستطيع المرء أن يذهب إلى كيريلوف مهما يكن الوقت متأخراً.

- أنا الذي سوف أتأخر. إنهم ينتظرون عودتي.

- فلينتظروا! ومن الغباء أن تعود إليهم. إنني لم أصب غدائي اليوم

بسببكم.

دخل بطرس ستيفانوفتش إلى حجرة خاصة من المطعم. واضطر ليبوتين أن يجلس متنعياً على مقعد، غاضباً حانقاً، ينظر إليه وهو يأكل. دام ذلك أكثر من نصف ساعة. لم يتعجل بطرس ستيفانوفتش، وكان واضحاً أنه يتلذذ بتناول طعامه. وقد رنَّ الجرس ينادي الخادم عدة مرات، فطلب منه بيرة ثم طلب خردلاً من نوع خاص، كل ذلك من دون أن يتوجّه إلى ليبوتين بكلمة واحدة. كان يبدو غارقاً في أفكاره العميقة، إنه قادر في الواقع أن يفعل شيئاً في آنٍ واحد: يأكل بشهوة ويفكر. وكان ليبوتين من فرط ما يشعر به من كره وبغض لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره. شيء مرضي حقاً. كان يعدُّ كلّ لقمةٍ من لقم شريحة اللحم، التي كان الأكل يحملها إلى فمه. إنه يكرهه لطريقته في فتح هذا الفم، لطريقته في مضغ الطعام، لتذوّقه اللقم الدسمة أكثر من غيرها، إنه يكره شريحة اللحم نفسها. واضطرب بصره أخيراً، وأخذ يشعر بدوار، وسرت في ظهره رعادات.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يرمي إلى ليوتين ورقة:

- ما دمت لا تفعل شيئاً، فاقراً هذا.

دنا ليوتين من الشمعة. إن الورقة ملأى بكتابة مرصوفة، خطُّها لا يكاد يُقرأ وفيها شطب كبير. فلما انتهى ليوتين من قراءة الورقة بغير قليل من الصعوبة، كان بطرس ستيفانوفتش قد فرغ من طعامه، ودفع الحساب، ونهض لينصرف.

وردَّ إليه ليوتين الورقة في الشارع. فقال له بطرس ستيفانوفتش:

- بل احتفظ بها، سأشرح لك في ما بعد... ولكن ما رأيك على كل حال؟
فارتعش ليوتين.

- رأيي أن منشوراً من هذا النوع... سخيفٌ، ومضحك!

لقد أصبح ليوتين عاجزاً عن أن يحتمل أكثر مما احتمل، وأن يصبر مزيداً من الصبر، فكان يحس كأن شيئاً يُنهضه عن الأرض ويلقيه إلى أمام. واستطرد يقول وهو يرتعش حقاً مسعوراً:

- إذا نحن قررنا أن نوزع منشوراتٍ من هذا النوع، فإن الناس جميعاً سيحتقروننا لغبائنا وجهلنا بالواقع.

قال بطرس ستيفانوفتش بلهجة قاطعة وهو لا يزال يتقدّم بخطى ثابتة:

- هم... أما رأيي أنا فأرى آخر...

- ذلك رأيي. هل يُعقل أن تكون أنت الذي كتبت هذا البيان؟

- لا شأن لك.

- أرى أيضاً أن قصيدة "البطل" قصيدةٌ رديئةٌ جداً كذلك، ولا يمكن أن يكون هرتسن هو الذي نظم هذه الأشعار.

- أنت تكذب: القصيدة رائعة.

قال ليوتين نافضاً كلَّ ما كان يجيش في قلبه:

- يدعشني أن يُقترح علينا أن نعمل على تقويض كل شيء. في أوروبا

طبيعي أن يتمنى المرء أن يتقوّض كل شيء، لأن لديهم طبقة بروليتاريا، أما نحن فلنسا إلا هواة ولا نزيد على أن نشير غباراً. ذلك هو رأيي.

- كنت أظن أنك من أتباع فورييه.

- الأمر عند فورييه مختلف، مختلف تماماً.

- نعم، أعرف! ما آراء فورييه إلا سخافات.

- لا، ليس عند فورييه سخافات... معذرة، يستحيل عليّ أن أصدق أن الثورة ستقوم في شهر أيار (مايو).

اضطر ليوبتين أن يحل أزراره من شدة ما كان يشعر به من حر.

قال بطرس ستيفانوفتش منتقلاً بهدوء محيرٍ إلى موضوع آخر:

- كفى. والآن - قبل أن أنسى - يجب عليك أنت أن تجمع هذا البيان وأن تطبعه. سوف نخرج مطبعة شاتوف من مدفنها، ونسلمها لك غداً. وعليك، بأقصى ما تستطيع من سرعة، أن تطبع لنا عدداً من النسخ لنوزّعها أثناء الشتاء تنفيذاً للتعليمات الصادرة إلينا. عليك أن تطبع أكبر عدد ممكن من النسخ، لأن أقاليم أخرى. ستطلب منا نسخاً.

- لا، معذرة... لا أستطيع أن آخذ على عاتقي أن... إنني أرفض.

- لكنك ستنفذ مع ذلك ما أقوله لك. إنني أعمل وفق تعليمات اللجنة المركزية، وعليك أن تطيع.

وأنا أرى أن اللجنة المركزية في الخارج لا تدرك الواقع الروسي، وأنها قد قطعت كل صلة لها بالبلاد. إنهم هناك يخرفون. بل إن من رأيي أنه لا يوجد إلا حلقة خماسية واحدة هي حلقتنا، وأن الشبكة التي تتحدث عنها ليست إلا وهماً...

هذا ما انطلق به لسان ليوبتين وقد نفذ صبره. فقال بطرس ستيفانوفتش:

- إنه شيء يدعو إلى الاحتقار أن تكون قد لاحقت القضية من دون إيمان بها... وأن تظل تركض الآن ورائي مثل كلب صغير...

- لا، لست أركض. إن من حقنا أن ننسحب وأن ننشئ جمعية جديدة.

قال بطرس ستيفانوفتش بلهجة التهديد:

- غبي!

وقدحت عيناه شرراً.

بقي الاثنان متقابلين لحظات. وأشاح بطرس ستيفانوفتش وجهه أخيراً، وتابع سيره بخطى ثابتة.

التمعت في ذهن ليوتين فكرة سريعة كومض البرق فقال يحدث نفسه: "سأعود أدراجي وأقفل راجعاً. إن لم أفعل هذا الآن فلن أفعله يوماً". وحين قال ذلك لنفسه كان قد سار عشر خطوات. وفي الخطوة الحادية عشرة شقّت ذهنه فكرة جديدة، فكرة يائسة، فلم يعد أدراجيه، ولم يقفل راجعاً.

وكانا قد اقتربا من عمارة فيليوف، ولكنهما قبل أن يصلا إليها، سارا في شارع صغير بل قل في ممرٍ لا يكاد يُرى، مما يحاذي السياج ويمتد على طول حفرة. إنهما لا يتقدمان هناك إلا في مشقة وعناء، متشبّثين بالسياج في كل لحظة، لأن القدمين تنزلقان على المنحدر. فلما وصلا إلى ناصية ذلك السياج، أزاح بطرس ستيفانوفتش لوحاً من الخشب، ودخل من الثغرة. وتبعه ليوتين مدهوشاً بعض الدهشة. وأعاد لوح الخشب بعد ذلك إلى مكانه. هذا هو المدخل السري الذي كان يتسلل منه فدكا إلى المنزل.

دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول بلهجة قاسية:

- يجب أن لا يعرف شاتوف أننا هنا.

3

كان كيريلوف، على عادته في مثل تلك الساعة، جالساً على أريكته الجلدية يحتسي الشاي، فلما رأى الزائرين لم ينهض، ولكنه ارتعش وألقى عليهما نظرة قلقة.

قال بطرس ستيفانوفتش:

- لم يخطئ ظنك، فإنما أنا جئت لذلك الأمر نفسه.

- اليوم؟

- لا، لا، بل غداً... في مثل هذه الساعة تقريباً.

وأسرع يجلس أمام المائدة متأملاً كيريلوف بشيء من القلق. وكان

كيريلوف قد استرد هدوءه على كل حال، واستعاد وضعه المؤلف. قال بطرس ستيفانوفتش يسأله:

- إنهم لا يريدون أن يصدقوني. هل يسوؤك أنني اصطحبت لبيوتين؟

- لا، اليوم لا بأس... أما غداً فأريد أن أكون وحدي.

- ولكن الأمر سيتم بحضوري.

- بل أود أن لا تكون حاضراً.

- تذكر أنك وعدت بأن تكتب كل ما سأمليه عليك وأن تمهره بتوقيعك.

- سواءً عندي. والآن هل تبقيان مدةً طويلة؟

- هناك شخص يجب أن أراه وسأملكث عندك نحو نصف ساعة. فرتّب

أمورك كما تشاء، لكنني سأبقى نصف ساعة.

التزم كيريلوف الصمت. وكان لبيوتين في أثناء ذلك قد جلس متنحياً

تحت صورة الأسقف. إن الفكرة التي ساورته منذ قليل تستولي على فكره

الآن أكثر فأكثر. وكان كيريلوف لا يكاد يلقي إليه بالاً، ولا يكاد ينتبه إليه

أيّ انتباه. إن لبيوتين يعرف نظرية كيريلوف، وكان في الماضي يسخر منها.

ولكنه اليوم صامتٌ ينظر حوله مظلم الوجه.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يقترب من المائدة:

- يسرني أن أصيب شيئاً من الشاي. لقد أكلت شريحة لحم منذ قليل،

وكنت أعوّل على أن أشرب الشاي عندك.

- اشرب إذا شئت.

قال بطرس ستيفانوفتش بلهجةٍ لازعة:

- في الماضي كنت أنت الذي تقدم لي الشاي!

- سيان! وليشرب لبيوتين أيضاً.

- لا... لا أريد!

- لا أريد أو لا أستطيع؟

كذلك سأل بطرس ستيفانوفتش فجأةً وهو يلتفت إلى رفيقه.

فأجابه لبيوتين بلهجةٍ ذات دلالة:

- لن أشرب عنده.

فقط بطرس ستيفانوفتش حاجبيه.

- تفوح من هذا الكلام رائحة الغيبية. لا يعرف إلا الشيطان أي أناس أنتم جميعاً!

لم يجبه أحد. ودام الصمت دقيقةً كاملة.

عاد بطرس ستيفانوفتش يتكلم بخشونة وجفاف فقال:

- أنا لا أعرف إلا شيئاً واحداً، هو أنه ما من وهم من الأوهام الاجتماعية سيمنعنا من أن نحقق كل منا واجبه.

سأل كيريلوف:

- هل سافر ستافروجين؟

- نعم.

- أحسن صنعاً.

ألقى بطرس ستيفانوفتش على كيريلوف نظرةً جادة، ولكنه كظم ما في نفسه وسيطر على إرادته.

- لا يهمني كثيراً ما تراه من رأي، ولكن يهمني أن يفني كل واحدٍ بما قطعه على نفسه من عهد.

- سأفني بوعدي.

- على كل حال، كنت أنا دائماً على ثقة بأنك ستفني بعهدك، كما يفعل رجلٌ مستقل متقدم.

- أما أنت فرجلٌ مضحك.

- لا مانع. يسعدني أن أضحك. يسعدني دائماً أن أسرَّ أحداً.

- إنك ترغب رغبةً شديدةً في أن أنتحر، وتخشى خشيةً قوية أن أعزف عن ذلك.

- أنت الذي ربطت خطتك بعملنا. لقد شرعنا في عمل معين على أساس تلك الخطة، فلا يمكنك بحالٍ من الأحوال أن تعدل عنها إلا وتعرضنا للخطر.

- ليس لكم عليّ أيُّ حق..

- أفهم، أفهم تماماً: هذه إرادتك الحرة، وما نحن بشيء، وإنما المهم أن تتحقق هذه الإرادة الحرة.

- وسيكون عليّ أن أحمل على عاتقي جميع دناءاتكم؟

- اسمع يا كيريلوف: أترك خائفاً؟ إذا كنت تفكر في التراجع، فأعلن هذا فوراً.

- لست خائفاً.

- سألتك هذا السؤال لأنني رأيتك تلقي أسئلة كثيرة.

- أتسافر قريباً.

- أسؤال آخر؟

نظر إليه كيريلوف باحتقار.

وعاد بطرس ستيفانوفتش يتكلم وقد أخذ حنقه وقلقه يزدادان وأصبح يعجز عن العثور على اللهجة المناسبة:

- اسمع يا كيريلوف: إنك تريد أن أسافر من أجل أن تبقى وحدك، من أجل أن تخلو إلى نفسك. وهذه كلها أعراض خطيرة عليك، خطيرة عليك أنت قبل أي شخصٍ آخر. إنك تريد أن تفكر. وفي رأيي أن الأفضل أن لا تفكر، وإنما تُقدم على العمل ببساطة. لقد أخذت تقلقني.

- شيء واحد يثير في نفسي الاشمئزاز، هو أنني في لحظة كنتك اللحظة سيكون بقربي حشرة مثلك!

- إذا كان هذا ما تخشاه فالأمر بسيط! إنني مستعد لأن أخرج أثناء ذلك الوقت فأنتظر على درجات المدخل. إذا كنت تقيم هذا الوزن كله لأمر كهذه الأمور وأنت تنهي للموت، فذلك... فذلك شيء خطر. سأبقى على درجات المدخل، ولن يكون عليك إلا أن تتخيل إنني لا أفهم شيئاً، وأني دونك إلى غير نهاية.

- لا، لست دوني إلى غير نهاية: إنك لا يعوزك الذكاء، غير أن هناك أموراً كثيرة لا تفهمها لأنك إنسان فاسد شرير.

- طيب. طيب. أنا مفتونٌ بهذا الكلام. سبق أن قلت لك أنني يسعدني أن أسرك... في مثل هذه اللحظة.

- إنك لا تفهم شيئاً.

- أقصد أنني... على كل حال، ها أنا ذا أصغي إليك بإجلال وإعظام...

- بل أنت غير قادرٍ على شيءٍ البتة. إنك لا تستطيع حتى أن تخفي في هذه اللحظة حنقك الحقيقى وغيظك الدنيء، رغم أن ذلك يضرك. ستغضبني أخيراً، فأراني أرجئ الأمر ستة أشهرٍ على حين فجأة.

نظر بطرس ستيفانوفتش في ساعته. ثم قال:

- إنني لم أفهم من نظريتك شيئاً في يوم من الأيام، لكنني أعلم أنك لم تتخيلها من أجلنا نحن. معنى ذلك أنك ستنفذ عزمك حتى بدون أن يكون لنا في الأمر شأن. وأعلم أيضاً أنك لست أنت الذي التهمت الفكرة وإنما الفكرة هي التي التهمتك. فلن تراجع إذن!

- كيف؟ الفكرة التهمتني؟

- نعم.

- ولست أنا الذي التهمت الفكرة؟ هذا كلام ممتاز. إن لك بعض الذكاء. ولكنك تكتفي بالمزاح، أما أنا فلي كبريائي.

- عظيم، عظيم. ذلك بعينه هو ما نحن في حاجةٍ إليه: أن يكون لك كبرياؤك.

- كفى. لقد انتهيت من شرب الشاي، فانصرف الآن!

قال بطرس ستيفانوفتش وهو ينهض:

- يجب أن أنصرف فعلاً. ولكن لا يزال الوقت مبكراً. اسمع يا كيريلوف: هل أجد ذلك الرجل عند الجزارة؟ إنك تعلم من أعني، هه؟ أم تراها كذبت هي أيضاً؟

- لا، لن تجده عندها، لأنه هنا.

- هنا؟ شيطانٌ يأخذه! ولكن أين هو؟

- في المطبخ. يأكل. يشرب.

- كيف سمح لنفسه بأن...

احمر وجه بطرس ستيفانوفتش غضباً، وتابع كلامه فقال:

- لقد أمر أن ينتظر... يا للحماقة. إنه لا يملك لا مالاً ولا جواز سفر.

- لا أدري. لقد جاء يودّعني. وهو يستعد للسفر. سيسافر إلى غير رجعة.

يقول أنك رجلٌ وغد، وأنه لا يريد أن ينتظر مالك.

- آه... إنه يخاف أن أ... إذا... أين هو؟ في المطبخ؟

فتح كيريلوف باب حجرة صغيرة مظلمة فيها سلم ذو ثلاث درجات

يفضي إلى المطبخ الذي هو أشبه بزنزانية تسكنها الخادمة في العادة. ففي

ركن بهذا المطبخ، تحت الأيقونات، كان فدكا جالساً أمام قنينة فودكا وطبق

لحم بارد مع بطاطس. كان يأكل على مهل بغير تعجل، ويبدو نصف سكران.

وكان يرتدي سترته المصنوعة من جلد الخروف تأهباً للرحيل. إن السماور

يغلي ماؤه وراء الحاجز، ولكنه ليس لفدكا. بالعكس: إن فدكا نفسه هو الذي

أصبح منذ أسبوع يحضّر الشاي "لألکسي نيلتش لأن ألکسي نيلتش قد ألف

أن يشرب الشاي في الليل". وهناك ما يجعلني أعتقد أن الخادمة كانت غائبة،

وأن كيريلوف كان قد أمر بطهو اللحم والبطاطس منذ الصباح، من أجل فدكا.

هتف بطرس ستيفانوفتش سائلاً وهو يهرع إلى المطبخ:

- ما هذا أيضاً؟ لماذا لم تنتظرنني هناك كما أمرتك؟

و ضرب المائدة بقبضة يده ضربة سريعة.

فاصطنع فدكا هيئة قلة الاكتراث، ثم قال وهو يقطع كل كلمة من كلماته

متصنعاً:

- انتظر يا بطرس ستيفانوفتش، انتظر قليلاً. يجب عليك قبل كل شيء أن

تفهم أنك في زيارة السيد كيريلوف، ألکسي نيلتش، الذي يجب عليك أن

تلمّع له حذاءيه، لأنه بالقياس إليك رجلٌ مثقف، على حين أنك أنت لست

إلا....

قال ذلك والتفت فبصق بغير لعاب. إن لهجته المتغترسة، المتفهمة،

الهائثة هدوءاً كاذباً حتى حدوث أول انفجار، كانت خطيرة في أبعد حدود

الخطر. ولكن بطرس ستيفانوفتش لم يتسع وقته لملاحظة الخطر. هذا عدا أن فكره كان تائهاً بعد أن ذهبت بصوابه أحداث النهار وإخفاقاته... وكان ليويتين يراقب المشهد من أعلى السلم.

- أتريد أم لا تريد أن تملك جواز سفر وأن تنال مبلغاً ضخماً لتمضي إلى حيث أمرت أن تمضي؟ أنعم أم لا؟

- اسمع يا بطرس ستيفانوفتش: لقد خدعتني منذ البداية، وأنا لذلك أعدك وغداً حقيراً كقملة. هذا أنت في نظري. لقد وعدتني بمالٍ كثير لقاء الدم البريء، وعدتني به باسم السيد ستافروجين. ثم اتضح أن ذلك كله لم يكن إلا كذباً دنيئاً منك. فأننا لم أقبض ألفاً وخمسمائة روبل، بل لم أقبض كوبكاً واحداً، كما علمنا أن السيد ستافروجين قد صفعك منذ قليل على خديك. وها أنت ذا الآن تستأنف تهديدك لي، وتستأنف وعدي بالمال، ولكنك لا تذكر الغرض من ذلك. ولكنني أحس أنك ترسلني إلى بطرسبرج معتمداً على سذاجتي وسرعتي في التصديق، لتنتقم من السيد ستافروجين، نيقولا في سيفولودوفتش. فالقاتل حقاً إنما هو أنت. وهل تعلم ماذا ينتظر من جراء انغماسك في حمأة الرذيلة إلى أن كفرت حتى بالله، الخالق الحق؟ إنك أشبه بوثني، وإنك لا تفضل تترياً. لقد شرح لك ألكسي نيلتش مراراً، وهو فيلسوف كبير، شرح لك مراراً حقيقة الله، خالق كل شيء، وحدثك حديثاً طويلاً عن خلق العالم والحياة الآخرة، وعن بعث البشر والحيوان كما جاء في رؤيا القديس يوحنا. ولكنك ظللت لا تحس ولا تنطق، كشخصٍ أبله جامد. لقد أغويت الضابط إركل، مثل ذلك المغوي الشرير الذي يسمى ملحداً...

- يا للسكير! يسرق الأيقونات ثم يدعو إلى الإيمان بالله...

- هذا صحيح. أعترف لك بذلك يا بطرس ستيفانوفتش. لقد سلبت أيقونات. لكنني اكتفيت بأخذ اللائ. ومن يدري؟ لعل دموعي في هذه اللحظة نفسها تتحوّل إلى لآلئ أمام هيكل الرب، لأنني أهنت وأذيت، لأنني يتيم، حتى إنني كنت لا أعرف أين أرقد رأسي. هل قرأت في الكتب القديمة،

أنه حدث في الماضي، في الأزمنة السحيقة، أن رجلاً من البائعين قد سرق لؤلؤة من إكليل السيدة العذراء، أم المسيح وهو يصلي ويبكي؟ وبعد ذلك، على مرأى من الشعب المحتشد، سجد أمام الأيقونة، ووضع المبلغ كله عند قدميها، فألقت عليه الأم العذراء حجابها تستره عن أعين الناس جميعاً؟ لقد تحققت في تلك المناسبة إذاً معجزة حقيقية، وأصدرت السلطات أمرها بتدوينها دقيقةً في كتب الدولة. ولكنك أنت قد سلّلت فأراً. وبذلك تكون قد أهنت يد الرب نفسها. ولولا أنك السيد الذي حملته على ذراعيّ مراهقاً، لقتلتك في هذه اللحظة نفسها، فوراً.

جُنَّ جنون بطرس ستيفانوفتش من الغضب.

- أجبني، هل رأيت اليوم ستافروجين؟

- لا أسمح لك بأن تسألني. إن السيد ستافروجين يُدهش من أعمالك. إنه لم يصدر إليك أمراً ولا أعطاك مالاً. بل إنه لم يشارك في جريمة القتل أي مشاركة، ولو بالفكر والخيال. لقد كذبت عليّ.

- سوف تنال المال. وسوف تتلقى أيضاً ألفي روبل ببطرسبرج، في المكان المعين، بل سوف تتلقى هناك أكثر من ذلك.

- أنت تكذب، أنت تكذب يا عزيزي، بل إنني ليضحكني أن أراك واثقاً هذه الثقة كلها. إن ستافروجين هو بالقياس إليك رجلٌ يقف في قمة سلّم، وأنت في أسفل السلم تنبح نباح كلبٍ صغير، بينما هو يحس أنه يشرفك كثيراً إذا ارتضى أن يبصق عليك من أعلى.

أعول بطرس ستيفانوفتش يقول وقد بلغ ذروة الحق:

- ولكن هل تعلم أنني لن أدعك تخرج من هنا أيها الشقي، وأنني سأسلمك للشرطة فوراً؟

فنهض فدكا بوثبة واحدة وقد قدحت عيناه شرراً. فسرعان ما أخرج بطرس ستيفانوفتش مسدسه. إنه لمشهد سريع بشع. وقبل أن يتسع وقت بطرس ستيفانوفتش لإطلاق النار، كان فدكا، السريع كومض البرق، قد هوى على خده بلطمة رهيبه أتبعها بلطمة ثانية فثالثة فرابعة على الخد أيضاً. فدمدم

بطرس ستيفانوفتش يبضع كلمات مبهوتاً مصعوقاً، ثم خر على أرض الغرفة.
صاح فدكا يقول باعتزاز وزهو:
- هو ذا. افعل به ما تشاء.

ثم تناول قبعته وسحب خُرجه من تحت الدكة وانسل خارجاً.
كان بطرس ستيفانوفتش يحشرج مغشياً عليه، حتى لقد تخيل لبيوتين
خلال لحظة إنه قد مات. وهرع كيريلوف إلى المطبخ. وصرخ يقول:
- إليّ بماء.

وغرف ماءً من سطل، وسكب منه على وجه بطرس ستيفانوفتش. فتحرك
بطرس بعد لحظة، وأنهض رأسه، ونظر أمامه زائغ البصر.
سأله كيريلوف:

- هيه! كيف الحال الآن؟

فتأمله بطرس ستيفانوفتش ملياً، من دون أن يتعرفه في ما يبدو ولكنه حين
أبصر لبيوتين الذي كان ينظر إليه من أعلى السلم، ابتسم ابتسامته الشريرة
تلك، ثم إذا هو يتناول مسدسه فجأةً، وينهض عن الأرض.
وصرخ قائلاً وهو يهرع نحو كيريلوف كمجنون:

- إذا خطر ببالك غداً أن تهرب كما فعل ذلك الوغد ستافروجين (كان
شاحب اللون وكان صوته يختنق في حلقه)... فلسوف أجذك... في الطرف
الآخر من العالم... وسوف أقبض عليك... كذباية... فأسحقك... هل
فهمت؟...

وصوب مسدسه إلى جبهة كيريلوف. ولكن في تلك اللحظة نفسها تقريباً
ثاب إليه رشده تماماً، فخفض يده، ودسّ المسدس في جيبه وخرج راكضاً
من دون أن يقول كلمة واحدة. وتبعه لبيوتين. فسارا في ذلك الممر نفسه،
محاذيين المنحدر مرةً أخرى، متشبّئين بالسياج كما فعلا في المجيء. فلما
صارا في الشارع أخذ بطرس ستيفانوفتش يسير بخطى تبلغ من السرعة أن
ليبوتين لم يستطع أن يتبعه إلا بكثير من العناء. حتى إذا بلغ مفترق طرق
توقف على حين فجأةً.

وقال يخاطب لبيوتين بلهجة التحدي:

- طيب!

وكان لبيوتين لا يزال يرتجف ارتجافاً شديداً من ذكرى المسدس والمشهد الذي رآه. ولكن الجواب تساقط من شفثيه كأنما من تلقاء نفسه رغم إرادته، فقال:

- أظن... أظن "أنهم من سمولنسك إلى طشقند... لا ينتظرون الطالب نافدي الصبر إلى هذا الحد"...

- هل رأيت ماذا كان يشرب فدكا في المطبخ؟

- ماذا كان يشرب؟ كان يشرب فودكا...

طيب... فاعلم إذاً أنه قد شرب الآن فودكا آخر مرة في حياته. إنني أنصحك بأن تذكر هذا من أجل ما قد تراه من آراء في المستقبل. سوف يفيدك أن تذكره. والآن، اذهب إلى الشيطان!... لم أعد في حاجة إليك حتى الغد... ولكن حذار: لا ترتكب حماقات! رجع لبيوتين إلى بيته سريع الخطى.

4

كان لبيوتين قد صنع لنفسه منذ مدة طويلة جواز سفر باسم مزور. إن هذا الشخص الصغير الحيسوب، هذا الخادم الطاغية، هذا الموظف الذي ينتمي إلى أتباع فورييه ويتعاطى الربا في الوقت نفسه، قد بدت له منذ زمن طويل هذه الفكرة العجيبة، وهي أن يحصل على جواز سفر استعداداً لكل طارئ، كي يستطيع أن يسافر إلى الخارج إذا حدث أن... نعم لقد بدت له هذه الفكرة، مهما يدهشكم ذلك من مثله. لقد كان يسلم إذاً أن ذلك يمكن أن يحدث، ومع هذا، لو سأله ماذا تعنيه هذه العبارة "إذا حدث أن..."، لما استطاع أن يجيبك على وجه الدقة.

ولكن ها قد اتضح اليوم هذا الاحتمال على حين فجأة مكتسباً صورةً هي أبعد ما تكون عن التوقع. إن الفكرة اليائسة التي دخل بها على كيريلوف

والتي كانت قد ومضت في ذهنه حين وصفه بطرس ستيفانوفتش بالغباء هي أن يترك كل شيء وأن يهرب إلى الخارج في صباح الغد. إن الذي يرفض أن يسلم بأن أشياء خارقة من هذا النوع يمكن أن تحدث في واقعنا الحالي، ما عليه إلا أن يراجع حياة المهاجرين الروس. ما من أحد منهم هرب لأسباب معقولة أكثر من ذلك: هذا أفق العجائب، هذه رحاب اللاواقع!

فلما رجع ليوتين إلى البيت أغلق على نفسه الباب بالمفتاح، ثم أخذ يهيئ كيس السفر. وكانت مسألة المال تشغل باله أكثر من أي شيء آخر: كم يجب أن يأخذ؟ هل يتاح له أن ينقذ كل ما يملك؟ نعم، أن ينقذ. فهو يتصور أنه لم تبق ساعة واحدة يمكن أن يضيعها، وأن عليه أن يسير عند طلوع الشمس. وكان لا يعرف أيضاً أين يجب عليه أن يركب القطار: لعل الأفضل أن يركب القطار بعد محطتين أو ثلاث محطات من مدينتنا، ولو اقتضى الأمر يمضي إلى هناك سيراً على الأقدام. كانت هذه الأفكار كلها تدور في رأسه كالإعصار وهو يرتب أمتعته في كيسه، حين توقف فجأة، فترك كل شيء، وتهاوى على أريكته وهو يئن أنه طويلة.

لقد أحس إحساساً واضحاً وأدرك على حين فجأة أنه سيهرب طبعاً، ولكنه عاجز عن أن يقرر بنفسه هل يهرب "قبل" مقتل شاتوف أو "بعده". ذلك أنه الآن ليس إلا جسماً عاطلاً عن الحركة، ليس إلا كتلة ساكنة تحرّكها قوة غريبة رهيبة. إنه يملك جواز سفر من أجل أن يرحل إلى الخارج، فيستطيع إذاً أن يهرب "قبل" شاتوف (أكان يستعجل لولا أن الأمر كذلك؟)، ولكنه مع ذلك يدرك أنه لن يسافر "قبل" شاتوف، بل "بعده"، لأن الأمر قد تقرر، ووُقع، وخُتم. وها هو ذا يبقى على هذه الحال، مستلقياً على أريكته، يعذبه القلق، ويرتعد لأيسر ضجة، يئن تارة، ويحبس أنفاسه تارة أخرى، ولا يفهم هو نفسه ما الذي يحدث في نفسه، حتى حانت الساعة الحادية عشرة، فحدثت أخيراً الصدمة التي أطلقت قراره. ففي الساعة الحادية عشرة، ما إن فتح باب غرفته حتى أخبره ذووه أن فدكا، الهارب من سجن الأشغال الشاقة، الذي كان ينشر الرعب والقتل والحرائق في كل كان، والذي تلاحقه

الشرطة منذ مدة طويلة من دون أن تستطيع القبض عليه، قد وُجد مقتولاً هذا الصباح، على مسافة سبعة فراسخ من المدينة عند تقاطع الدرب الكبير وطريق زاخارينو. إن المدينة كلها لا تتحدث إلا عن هذا النبأ. أسرع ليبوتين يتقصى الأخبار فوراً فعرف ما يلي: إن فدكا الذي وُجد مهشم الرأس لا بد أنه قد سُلب ما كان معه، وأن الشرطة تعتقد، لأسباب وجيهة، في ما يبدو، أن القاتل هو فومكا، أحد عمال مصنع شيبجولين، الذي قتل لبيادكين وأخته مشتركاً مع فدكا، وحاول أن يشعل النار في بيتهما. ولعل الرجلين، فدكا وفومكا، قد تشاجرا في الطريق على المبلغ الضخم الذي كان فدكا (كما يظن رفيقه) قد سرقه من عند الكابتن لبيادكين...

أسرع ليبوتين إلى منزل بطرس ستيفانوفتش فعلم من الخادمة أن مولاها قد رجع إلى البيت في نحو الساعة الواحدة من الصباح، فنام نومًا هادئًا حتى الساعة الثامنة.

لا عجب طبعاً في موت فدكا: فعلى هذا النحو إنما يموت في العادة أمثال هؤلاء الرجال. ولكن تحقق نبوءة بطرس ستيفانوفتش ("فاعلم إذاً أنه قد شرب الآن فودكا آخر مرة في حياته!")، بدا له مليئاً بالدلالة، فوضع حداً لترده. لكان صخرة قد سقطت عليه فسحقته إلى الأبد.

وحين عاد إلى البيت دفع كيس السفر بقدمه حتى جعله تحت السرير. وفي الساعة المحددة من المساء وصل أول من وصل إلى المكان الذي كان يجب أن يلتقى فيه بشاتوف. ولكنه كان يحمل في جيبه جواز السفر.

الفصل الخامس

المسافرة

1

إن موت ليزا وموت ماريا تيموفتشنا قد سحقا شاتوف سحقاً، وهذّما نفسه تهديماً. سبق أن قلت إنني لقيته في ذلك الصباح، ففوجئت بهيئته التائهة ونظرته الزائفة. وقد ذكر لي، في ما ذكر، أنه في الليلة البارحة، في نحو الساعة التاسعة (أي قبل الحريق إذاً بثلاث ساعات) كان قد ذهب إلى ماريا تيموفتشنا. وفي الصباح مضى يشاهد الجثث، ولكنه احتفظ بافتراضاته ولم يبح بها لأحد. غير أن عاصفة حقيقة قد ثارت في نفسه آخر النهار... و... و... أظن أنني أستطيع أن أؤكد أنه في لحظة من اللحظات قد مرّت به لحظة قرر فيها أن يكشف عن كل شيء. أما ما هو "كل شيء" هذا فإنه كان هو نفسه لا يعرفه على وجه الدقة. ومن الواضح أن قيامه بهذه الخطوة ما كان يمكن أن يؤدي إلى أية نتيجة. كل ما هنالك أن الرجل كان سيعرّض نفسه للخطر. إنه لا يملك أية براهين تدين الجناة: إنه لا يملك إلا ظنونا وتخمينات لا تعدل اليقين إلا في نظره هو. ولكنه كان مستعداً لأن يضحّي بنفسه في سبيل "سحق هؤلاء الأشرقياء" على حد تعبيره هو. فلم يكن بطرس ستيفانوفتش إذاً على خطأ حين توقع هذا الانفجار عند شاتوف، وحين أدرك أنه يارجاء تنفيذ مشروعه الرهيب إلى الغد إنما يجازف كثيراً. ومع ذلك قرر الإرجاء. غير أنه على عادته كان يمتلئ ثقةً بنفسه واحتقاراً لجميع هؤلاء "الناس الصغار" ولشاتوف خاصة. إنه يحتقر شاتوف منذ مدة طويلة ويحتقر

"طبيعته الخاصة البكاء"، كما قال عنه حين كان لا يزال في الخارج، لهذا كان مقتنعاً أنه يستطيع أن يتغلب بسهولة على إنسان يبلغ مبلغه من السذاجة والبساطة: يكفيه من أجل هذا أن يكلف أحداً بمراقبته طول النهار، فإذا لاحظ شيئاً وقف في طريقه وسدَّ عليه سبيل إنفاذ ما يريد إنفاذه. ومع ذلك أستطيع أن أقول إن "الأشقياء" لم ينجوا ويسلموا في هذه المرة إلا بفضل حادثٍ غير متوقع ما كان لهم أن يتنبأوا به.

ففي الساعة الثامنة من المساء، بينما كان أصحابنا عند إر كل ينتظرون وصول بطرس ستيفانوفتش ويضطربون ويتحركون، كان شاتوف، المثقل الرأس المصاب بحمى، كان مستلقياً على سريره في الظلام. وكان في أثناء ذلك يتقلب بين قرارٍ وقرار، فيغتاظ ويحنق ويتعذب، ويلعن تردده، ويتنبأ بأنه عاجزٌ عن المبادرة إلى القيام بعمل. وشيئاً فشيئاً نام وحلم: حلم بأنه موثقٌ في سريره لا يستطيع حراكاً، ولكنه مع ذلك يسمع ضجةً رهيبية: إن طرقاتٍ قوية تهزُّ باب المنزل، وجدرانه، وجناح كيريلوف، وإن صوتاً بعيداً، مألوفاً أليماً، يناديه باسمه شاكياً متوجعاً. استيقظ شاتوف من نومه متفضأً، وانتصب على سريره. فما كان أشد دهشته حين أدرك أن الباب لا يزال يُطرق، وأن الطرقات وإن تكن أقلَّ قوةً مما كان يسمعها أثناء الحلم، متكررةً وعنيدة، وأن الصوت الغريب الأليم لا يزال يرتفع ولكنه ليس شاكياً متوجعاً، بل هو على عكس ذلك نافذ الصبر شديد الغضب. وكان يختلط به صوتٌ آخر أهدأ منه. وثب شاتوف عن سريره، وفتح النافذة الصغيرة، ومدَّ رأسه ناظراً، ونادى قائلاً وقد تجمد من الخوف حقاً:

- من هذا؟

فأجابه من تحت صوت جاف قاطع:

- إذا كنت شاتوف فأرجوك أن تقول لي بصراحةٍ وشرفٍ وصدقٍ أسمع

لي بأن أدخل أم لا؟

"إنها هي!".

لقد تعرَّف صوتها.

- ماري!... أهذه أنت؟

- نعم، أنا ماري شاتوف، وأؤكد لك أن الحوذي لا يستطيع أن ينتظر دقيقةً واحدةً أخرى.

فنادى شاتوف يقول بصوتٍ ضعيف:

- حالاً... سأشعل الشمعة...

وأخذ يبحث عن عيدان كبريت، ولكنه كما يحدث دائماً في مثل هذه الأحوال لم يهتد إليها، حتى لقد قلب الشمعدان والشمعة. غير أنه ترك أخيراً كل شيء، استجابةً للنداء المتكرر الذي أطلقه الصوت النافذ الصبر تحت، وانطلق على السلم يهبط درجاته أربعاً أربعاً، وفتح الباب.

قالت ماري شاتوف وهي تمد إليه كيساً خفيفاً من أكياس السفر المصنوعة من قماشٍ والمزودة بمسامير من نحاس، مما يُصنع بمدينة درسدن:
- تناول كيسي لحظةً، أرجوك، حتى أدفع لهذا الغبي أجره.
والتفت نحو الحوذي فقالت له بلهجةٍ غاضبة:

- أيسح لنفسي أن أقول لك إن مطابك غير عادلة. لقد ظلمت تجري بي هنا وهناك ساعةً كاملةً في هذه الشوارع الوسخة. فذلك خطأك: كنت لا تعلم مكان هذا الشارع الغبي وهذا المنزل البليد! خذ الثلاثين كوبكاً التي تستحقها وثق أنك لن تنال كوبكاً واحداً آخر غيرها.

- أنت التي سميت لي شارع "الصعود" يا سيدتي. أما هنا الشارع فهو شارع الايفانيا. إن شارع الصعود بعيدٌ جداً عن هنا. لقد أوشك حصاني أن يموت تعباً.

- شارع "الصعود"، شارع "الايفانيا"!... لا بد أن تعرف هذه الأسماء الحمقاء خيراً مني أنا، لأنك من هذه المدينة. ثم إنك مخطئ: أنا إنما سميت لك منزل فيليوف قبل كل شيء فأكدت لي أنك تعرفه. على كل حال، تستطيع أن تشكوني غداً إلى قاضي الصلح، أما الآن فأرجوك أن تدعني وشأني.
تدخل شاتوف قائلاً:

- هذه خمسة كوبكات أخرى...

وأخرج من جيبه قطعة نقدية مدها إلى الحوذي.

قالت السيدة شاتوف محتجة:

- ما تدخلك أنت؟ إنني أمنعك...

ولكن الحوذي كان قد انصرف.

أمسك شاتوف زوجته من يدها وأدخلها في الدهليز.

- لنصعد بسرعة يا ماري، بسرعة... لا قيمة لهذا البتة! إنك مبتلة تماماً!

انتهي... ههنا درجات. يؤسفني أننا من شدة الظلام لا نرى شيئاً السلم

وعر... تمسكي بالدرابزين جيداً. ها نحن وصلنا. هذه غرفتي. معذرة. ليس

عندي ضوء!... حالاً... حالاً...

وتناول الشمعدان من أرض الغرفة. ولكنه ظل لا يهتدي الى أعواد

الكبريت أيضاً. كانت السيدة شاتوف واقفة في وسط الغرفة، جامدة لا

تتحرك، تنتظر صامتة.

- الحمد لله. ها هي ذي عيدان الكبريت.

كذلك هتف شاتوف فرحاً. وأشعل الشمعة. فطافت ماري شاتوف

ببصرها على المسكن. ثم قالت بصوت مشمئز:

- ذكر لي أن مسكنك سيئ، ولكنني لم أتوقع كل هذا السوء. آه... ما أشد

ما أعانيه من تعب!...

وتهاكت على سرير شاتوف، الخشن القاسي، خائرة القوى. وأردفت

تقول:

- أرجوك، ضع الكيس على الأرض، واجلس على هذا الكرسي. بل افعل

ما يحلو لك. ولكن لا تبقى واقفاً هذا الوقوف أمامي. لن أمكث عندك إلا

وقتاً قصيراً، إلى أن أجد عملاً، ذلك أنني لا أعرف أحداً هنا، ولا أملك قرشاً

واحداً. ولكن إذا كان وجودي يضايقك، فأرجو أن تعلن لي هذا فوراً، كما

ينبغي أن تفعل إذا كنت رجلاً شريفاً صادقاً. مهما يكن من أمر، أستطيع أن

أبيع في الغد متاعاً ما، فأدفع أجر فندق، ولكن سيكون عليك في هذه الحالة

أن تقودني إلى فندق... آه... ما أشد ما أشعر به من تعب وإعياء.

قال شاتوف وهو يرتعش ارتعاشاً شديداً:

ماري، يجب ألا تتكلمي عن فندق! ما هذه الفكرة! لماذا؟ وضمت يديه إحداهما إلى الأخرى.

- إذا كان يمكن تدبير الأمور من دون الذهاب إلى فندق، فيجب مع ذلك توضيح الموقف. تذكر يا شاتوف أننا عشنا معاً بمدينة جنيف كما يعيش رجلٌ وزوجته، مدة خمسة عشر يوماً، قبل ثلاث سنين، ثم افترقنا، بغير شجار على كل حال. ولكن لا يذهبن بك الظن إلى أنني أعود الآن لأستأنف تلك الحماقة. أنا إنما أعود لأعمل، وإذا كنت قد اخترت هذه المدينة، فلأن الأمور كلها عندي سواء. إنني غير نادمة على شيء، أرجو أن لا تخطر ببالك سخافة من هذا النوع.

دمدم شاتوف يقول:

- أوه! ماري! هذا كله لا داعي إليه، لا داعي إليه البتة!

- ما دام الأمر كذلك، ما دمت تملك آراء تبلغ من التقدم هذا المبلغ الذي يتيح لك أن تفهم ما أقول، فإنني أبيع لنفسني أن أضيف أنني إذا كنت قد اتجهت إليك، إذا كنت قد جئت إليك رأساً، فمما يدفعني إلى ذلك أنني لم أعددك في يوم من الأيام رجلاً حقيراً، بل لعلي عددتك في جميع الأحيان فوق جميع أولئك... الأوغاد.

كانت عيناها تلتمعان، واضح أنها لا بد أن تكون قد تألمت كثيراً من بعض أولئك "الأوغاد".

- وثق أنني لم أكن أسخر منك منذ قليل حين وصفتك بأنك طيب. لقد تكلمت بصراحة، من دون اصطناع جمل مزوّقة، ثم إنني أحتقر الجمل المزوّقة. ولكن كفى عن هذا! لقد أملت دائماً أنك ستكون ذكياً ذكاءً يكفي لأن يجعلك تتركني هادئة، آه... كفى! ما أشد هذا التعب!

ونظرت إليه طويلاً، بألم، كان شاتوف واقفاً على مسافة بضعة خطواتٍ منها يصغي إلى كلامها خجل الهيئة. ولكن وجهه كان يسطع بنور جديد كمن ارتد عمره سنين عدة إلى وراء. إن هذا الرجل القوي القاسي، المشعث

دائماً، قد أحس بعذوبة كبيرة تنفذ فيه فجأة. إن شيئاً غريباً، غير متوقع، قد أخذ يهتز في نفسه. ثلاث سنوات من الفراق لم تكن قد محت من قلبه شيئاً. وفي خلال تلك السنوات الثلاث، لعله لم يمض يوماً واحد من دون أن يذكر فيه هذه الإنسانية الغالية التي قالت له ذات مرة: "أحبك". إنني أعرف شاتوف معرفةً كاملة، فأستطيع أن أؤكد واثقاً أنه لم يحلم يوماً أن تقول له امرأة "أحبك". لقد كان قوي العفة شديد الحياء إلى حد التوحش، وكان يظن في نفسه بشاعةً رهيبيةً، وكان يكره وجهه وطبعه، ويعد نفسه نوعاً من مسخ مشوه خليق بأن يُعرض في المعارض. لذلك كان يُنزل الشرف في أعلى منزلة، ويعده أسمى من كل شيء، وكان مخلصاً لاعتقاداته إلى حد التعصب، فكان يبدو مظلم الوجه صموتاً متكبراً في جميع الأحيان. وها هي ذي الآن، تلك الإنسانية الوحيدة التي أحبته طوال أسبوعين (من هذا هو على يقين)، الإنسانية التي كان يضعها في مقام أعلى من مقامه بما لا نهاية له، مع إدراكه الكامل لأخطائها، الإنسانية التي يغفر لها "كل شيء"، كل شيء على الإطلاق (حتى إن الأمر نقيض هذا، فإن شاتوف يحمل نفسه جميع الأخطاء)، هذه الإنسانية، ماري شاتوف، ها هي ذي أمامه من جديد، بقربه... ذلك أمر لا يكاد يفهم. إن دهشته تبلغ من القوة، وإن في هذا الحادث شيئاً يبلغ من الهول ويبلغ من السعادة في الوقت نفسه، أنه كان لا يستطيع حتماً، ولعله لا يريد، أن يثوب إلى رشده، فهو يخاف أن يفعل. هذا حلم. ولكنه حين لاحظ نظرتها الموجهة المرهقة المضنة أدرك أن هذه المرأة تتألم. فارتعش قلبه عندئذ، وتأمل قسمات وجهها بعطفٍ أليم: كانت نضارة الشباب الأول قد زائلت وهذا الوجه المتعب منذ مدة طويلة. ولكنها مع ذلك لا تزال جميلة، وهي في نظر شاتوف لا تزال رائعة الجمال (إنها في الخامسة والعشرين من عمرها، ممتلئة الجسم، طويلة القامة بل هي أطول من شاتوف، لها شعر كستنائي غزير، ووجه شاحب مستطيل، وعينان سوداوان جميلتان تعانيان الآن من حمى)، ولكن حيويتها القديمة التي تشتمل على سذاجة وتسودها قلة الاكتراث، والتي يعرفها شاتوف جيداً، قد حلت محلها الآن سرعة الغضب

والا هتياج وحل محلها نوع من الاستهتار لم تألفه حتى الآن فلا شك أنه شاق عليها. وهي الآن مريضة بخاصة. رأى شاتوف ذلك واضحاً كل الوضوح. لذلك اقترب منها وأمسك يديها رغم خوفه منها. وقال لها:

- ماري... اسمعي... لا بد أنك متعبة جداً... لا تزعلي، أتوسل إليك... ما رأيك في أن تجرعي شيئاً من الشاي، هه؟ الشاي مفيد دائماً. ليتك توافقين، هه؟...

- أوافق طبعاً. إنك لا تزال طفلاً كما كنت. أعطني شاياً إذا كان عندك شاي ما أضيق مسكنك هنا! وما أشد البرد!

- آه... سأجيء بحطب فوراً. عندي حطب!

كذلك هتف شاتوف وهو يتحرك ويسعى هنا وهناك. وتابع يقول:

- نعم... حطب... أي... وسأتيك بشاي أيضاً...

وتناول قبعته عازماً أمره.

- إلى أين تذهب؟ أليس عندك إذاً في البيت شاي؟

- سيكون عندي شاي، بعد لحظة واحدة. سوف يكون عندنا كل ما يجب.

وتناول مسدسه من على الرف.

- سأبيع هذا المسدس... أو أرهنه.

يا للغباوة! وسيستغرق هذا زمناً طويلاً. إليك بعض النقود ما دمت لا تملك شيئاً. ههنا أربعة وعشرون كوبكاً في ما أظن. ذلك كل ما معي. لكان مسكنك مسكن رجل مجنون.

- لا، لا، لست في حاجة إلى نقودك. أنا عائدٌ حالاً، بعد لحظة... سأدبر

أمري حتى بدون المسدس!

وأسرع إلى كيريلوف. حدث هذا قبل زيارة بطرس ستيفانوفتش وليبوتين بساعتين تقريباً. إن شاتوف وكيريلوف، وهما يقيمان في مبنى واحد، كانا لا يتزاوران أبداً، وإذا اتفق أن التقيا عرضاً لم يكلم أحدهما الآخر ولم يسلم أحدهما على الآخر: لقد عاشا في أمريكا جنباً إلى جنب مدة أطول مما يجب.

- كيريلوف، أنت عندك دائماً شاي. فهل تستطيع أن تعطيني شيئاً من الشاي وأن تعيرني السماور؟
كان كيريلوف يسير في الغرفة طويلاً وعرضاً على عادته (إنه يظل يسير هكذا طول الليل)، فوقف وتأمل شاتوف بانتباه، ولكن بغير دهشة كبيرة.
- عندي شاي، وسكر، ولكن لماذا السماور؟ الشاي ساخن: فاجلس واشرب.

- كيريلوف، لقد عشنا معاً في أمريكا... إن زوجتي وصلت إلى بيتي... وأنا... أعطني شايًا... وإني أحتاج أيضاً إلى السماور.
- إذا كانت زوجتك قد وصلت فأنت في حاجة إلى السماور. لكنك ستناله في ما بعد. عندي اثنان. أما الآن فخذ غلاية الشاي من على المائدة. إنها ساخنة، ساخنة جداً. خذ كل شيء، خذ السكر، خذ كل شيء. الخبز... عندي خبز كثير. خذ الخبز كله. وعندي أيضاً لحم عجل. وروبل.
- أعطني الروبل، سأرده إليك غداً. آه... كيريلوف!
- أهى زوجتك التي كانت بسويسرا؟ هذا حسن. وحسن أيضاً إنك هرعت إليّ.

صاح شاتوف يقول وهو يتأبط غلاية الشاي ويحمل بيديه الخبز والسكر:
- كيريلوف! كيريلوف! ليتك تستطيع أن تتخلى عن نزواتك الرهيبة وأن تنبذ إلحادك. إذا لصرت إنساناً كبيراً... يا كيريلوف!
- واضح أنك تحب امرأتك بعد الذي حدث بسويسرا. حسن جداً إذا احتجت إلى مزيد من الشاي فارجع إليّ. في أية ساعة تعال. إنني أسهر الليل كله. سيكون السماور مهياً. خذ الروبل. هذا هو. عد إلى زوجتك. سأبقى هنا وسأفكر فيك وفي زوجتك.

انقضت ماري شاتوف على الشاي بشراهة، مسرورة سروراً واضحاً بسرعة زوجها. ولكنهما لم يحتاجا إلى السماور: فإنها لم تشرب إلا نصف فنجانٍ من الشاي ولم تزدرد إلا قطعة صغيرة من الخبز. أما لحم العجل فقد نبذته مشتمرة حانقة الهيئة.

قال شاتوف خجلاً وجلاً مع استمراره على التحرك حولها:

- أنت مريضة يا ماري. فيك شيءٌ مريض.

- طبعاً أنا مريضة. اجلس اجلس. من أين جئت بهذا الشاي؟ لم يكن

عندك شاي.

شرح لها شاتوف، يبضع كلمات، من هو كيريلوف. وكانت قد سمعت

عنه على كل حال.

- أعرف أنه مجنون. كفى، أرجوك. لا ينقصنا أغبياء. إذا ذهبت إلى

أمريكا؟ أنا أعلم أنك كتبت من هناك.

- نعم... كتبت... إلى باريس.

- كفى عن هذا الموضوع! لتحدث عن شيء آخر! هل أنت من دعاة

السلافية.

- أنا... ليس معنى هذا أنني... ولكن لأنني لم أستطع أن أكون روسياً،

فقد أصبحت من دعاة السلافية.

قال شاتوف ذلك وهو يجبر نفسه على ابتسامة هي ابتسامة إنسانٍ يعلم أنه

يمزح في غير موضع المزاح.

- ألسنت إذاً روسياً؟

- لا.

- هذه كلها سخافات. اجلس، أرجوك. ما بالك تركض هذا الركض يمنةً

ويسرة؟ ألعلك تظن أنني أهذي؟ ربما هذيت بعد قليل. هل قلت إنكما في

هذا المنزل اثنان لا أكثر؟

- نعم، اثنان... وتحت...

- وكلاكما ذكي كصاحبه؟ وتحت؟ لقد قلت منذ لحظة: "تحت"... فماذا

تحت؟

- لا، لا شيء.

- كيف لا شيء؟

- أردت أن أقول إننا الآن اثنان لا أكثر، وتحت كانت تقيم أسرة لبيادكين.

- التي دُبِحت في هذه الليلة؟

- أَلقت ماري شاتوف هذا السؤال وهي تنتصب فجأة. وتابعت تقول:

- سمعت عن القتل من ذ وصولي. وشبت عندكم حرائق أيضاً؟

- نعم يا ماري. ولعلني ارتكب دناءة كبيرة في هذه اللحظة لأنني أغفر لأولئك الأوغاد...

قال شاتوف ذلك ونهض وأخذ يسير شاهراً قبضتي يديه في انتفاضة غضب.

ولكن ماري لم تفهمه. لقد كانت تسأل زوجها، غير أنها لا تصغي إلى أجوبته. قالت ماري:

- تحدث أشياء جميلة في مدينتكم! آه... ما أحقر هذا كله! ليس هؤلاء جميعهم إلا أوغاداً. ولكن لماذا لا تجلس؟ لشد ما تضايقني... ولم تطق صبراً على ما بها، فهوت برأسها على الوسادة.

- ماري، سوف أجلس. تحسّنين صنعاً إذا نمت يا ماري، ما رأيك؟

لم تجب ماري شاتوف وأغمضت عينيها. إنها بوجهها الشاحب أشبه بميتة. واستولى عليها الندم في تلك اللحظة نفسها تقريباً. نظر شاتوف حواليه. وقوم الشمعة. وبعد أن ألقى نظرة قلقة أخيرة على المرأة الشابة، ضمّ يديه إحداهما إلى الأخرى وخرج إلى فسحة السلم بخطى رقيقة لا يُسمع لها وقع. ولبت هنالك واقفاً قرابة عشر دقائق، ساكناً لا يتحرك، ملتفتاً بوجهه إلى الجدار. وكان يمكن أن يمكث مدة أطول لولا أنه سمع خطى خفيفة: إن أحداً كان يصعد السلم ببطء وحذر.

تذكر شاتوف أنه نسي أن يغلق باب فناء المنزل.

قال يسأل بصوتٍ خافت:

- مَنْ هنا؟

فلم يجب الزائر المجهول. حتى إذا وصل إلى فسحة السلم توقف. إن المرء لا يستطيع في هذا الظلام أن يميز وجهه. وها هو ذا يسأل مدمدماً على حين فجأة:

- إيفان شاتوف؟

فأجابه شاتوف بنعم، وأسرع يمد يده ليمنعه من الدخول. ولكن الزائر أمسك باليد الممدودة إليه، فارتعش شاتوف كأنه لامس حية. وقال بصوت مختنق:

- ابق هنا. لا أستطيع أن أستقبلك الآن. لقد وصلت زوجتي. سأجيء بشمعة.

فلما عاد حاملاً الشمعة رأى ضابطاً شاباً لا يعرفه إلا وجهاً. عرّف الآخر بنفسه قائلاً:

- أنا إركل. لقد التقينا عند فرجنسكي.

- أذكر هذا. كنت تدوّن ما يدور من نقاش.

وظل شاتوف يتكلّم بصوت خافت، وهو يقترب من الفتى خارجاً عن طوره:

- اسمع... أراك رسمت على راحة كفي إشارة. فاعلم إذا أنني أحتقر هذه الإشارات جميعاً وابصق عليها جميعاً. إنني لا أقبل... لا أريد... إنني أستطيع أن أرميك إلى أسفل السلم، هل تعرف هذا؟ فقال الزائر بسداجة:

- لا، إنني لا أعرف شيئاً. هناك شيءٌ عليّ أن أبلغك إياه. وهذا هو السبب في أنني جئت بغير إبطاء. إن عندك آلة مطبوعة ليست لك، ويجب عليك أن تردها إلى أصحابها كما تعلم ذلك أنت نفسك. لقد تلقيت أمراً بأن أقول لك إن عليك أن ترد الآلة غداً، في الساعة السابعة من المساء، إلى ليويتين. وأنا مكثف عدا هذا بأن أعلن لك أنك بعد ذلك لن يُطلب منك أي شيء.

- لن يُطلب مني أي شيء؟ صحيح هذا حقاً؟

- لن يُطلب منك شيءٌ على الإطلاق. ستتحقق رغبتك، ستكون حراً. ذلك بعينه ما كُلّفت بأن أنقله إليك.

- من أمرك بهذا؟

- الذين أبلغوني الإشارة.

- أأنت آتٍ من الخارج؟
 - يخيّل إليّ، يخيّل إليّ... إنك يجب أن لا تكثرث بهذا.
 - طيب. ولكن لماذا لم تأت قبل الآن، منذ صدر إليك الأمر؟
 - تقيدت بالتعليمات الصادرة إليّ، ولم أكن وحدي.
 - أفهم... أفهم أنك لم تكن وحدك. ولكن لماذا لم يجرى ليوبتين بنفسه؟
 - سأجيبك عليك غداً في الساعة السادسة من المساء، وسنمضي إلى هناك معاً، ولن يكون ثمة أحد غيرنا نحن الثلاثة.
 - وفرخوفنسكي؟
 - لن يكون هناك. إن فرخوفنسكي يسافر غداً في الساعة الحادية عشرة من الصباح.
 دمدم شاتوف يقول محققاً مغتاضاً وهو يلطم فخذه بقبضة يده:
 - قدّرت هذا. إنه يهرب، هذا الشقي!
 وشرّد ذهنه. وكان إركل ينتظر صامتاً، وهو يلاحظه بانتباه.
 - ما عساكم تصنعون بالمطبعة؟ لا يمكنكم أن تحملوها في خلال المدينة على مرأى وعلم من جميع الناس.
 - لن نأخذها. ستدّلنا على المكان المدفونة فيه، فتأكد من أنها موجودة حقاً. إننا نعرف الجهة ولكننا لا نعرف الموضع على وجه الدقة. هل سبق أن دللت أحداً على المكان؟
 حدّق إليه شاتوف متفرساً.
 - صبي مثلك... أحقق صغير... ها أنت قد وقعت في الفخ كخروف! إنهم في حاجة إلى شباب مثلك فعلاً! طيب. انصرف الآن. إن ذلك الوغد قد ورّطكم جميعاً، ولاذ بالفرار.
 كانت هيئة إركل، المسالمة الساذجة، تدل على أنه لا يفهم.
 وردّد شاتوف يقول كازاً أسنانه:
 - نعم، لقد هرب فرخوفنسكي، نعم، فرخوفنسكي!
 قال إركل بلهجة محببة مقنعة:

- ولكنه لا يزال هنا. إنه لم يسافر. لقد طلبت منه أن يحضر استرداد المطبعة شاهداً، كما تقتضي ذلك التعليمات التي صدرت إليّ... فما كان أشد أسفي حين رفض ذلك بحجة السفر.

قال إركل ذلك مصطنعاً السذاجة، وأضاف:

- والحق أنه يتعجل السفر، لا أدري لماذا!

ألقي شاتوف نظرة شفقة على الغر المسكين، مرةً أخرى، ثم رفع منكبيه كأنما ليقول: "هل يستحق أن أرثي لحاله؟".

ثم أعلن قائلاً:

- طيب، سأجيء! والآن، هيّا انصرف!

قال إركل وهو يحيي تحيةً مهذبة:

- سأتي إذاً لاصطحابك في الساعة السادسة تماماً.

وهبط السلم بغير تعجل. ولم يطق شاتوف أن يكظم ما بنفسه، فهتف يقول له من أعلى:

- مغفل!

وكان إركل قد وصل إلى تحت، فالتفت يسأله:

- ماذا؟

- لا شيء! هيّا انصرف!

- ظننتك تريد أن تقول لي شيئاً.

2

إن إركل واحدٌ من أولئك "المغفلين الصغار" الذين يعجزون عن التفكير بأنفسهم فينفذون أوامر غيرهم أحسن تنفيذ، حتى لقد يبرهنون في تنفيذها على شيء من حسن الحيلة والمكر. إنه مخلص "لل قضية" أو قل هو مخلص لفرخوفنسكي إخلاصاً متعصباً، إخلاصاً طفولياً، فهو يتصرف وفق التعليمات التي أصدرها إليه فرخوفنسكي عند "أصحابنا"، حين وزّعوا في ما بينهم أدوار العمل في الغد. حتى إن بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي قد

انتحى به جانباً قبل الافتراق، وتحدث معه بضعة دقائق. إن الطاعة حاجة ملحة من حاجات هذه الطبيعة الغبية، الشرهة إلى الخضوع، باسم "قضية كبرى" أو "فكرة عظيمة" طبعاً. ولكن الهدف ليس له على وجه الإجمال من شأن في هذه الحالة، لأن الشباب المتعصبين مثل إركل لا يفهمون الإخلاص لقضية إلا بمقدار ما تكون هذه القضية متجسدة في شخصية تمثلها في نظرهم. إن إركل، على أنه حساس ورقيق وطيب، قد يكون أبعد هؤلاء المتأمرين عن الرأفة والرحمة، وسوف يساهم في مقتل شاتوف ربما من دون أي كره شخصي، ولكن من دون أي تردد أيضاً. لقد أوصي مثلاً بأن يلاحظ وضع شاتوف بانتباه، وحين أفلت من لسان شاتوف (ربما من دون أن يشعر بذلك) أن امرأته قد عادت إليه، كان إركل ماكراً مكرراً كافياً من أجل أن يدرك أن عليه أن لا يظهر أي فضول بهذا الصدد. ومع ذلك حزر فوراً أن عودة ماري شاتوف يمكن أن تكون لها شأن كبير في نجاح ما عقدوا النية على تنفيذه.

والحق أن هذا الحادث وحده هو الذي كان له الفضل في نجاة هؤلاء "الأوغاد"، وأن عودة امرأة شاتوف هي التي أتاحت لهم أن يتخلصوا منه. إن عودة امرأة شاتوف قد قلبت شاتوف رأساً على عقب، وأخرجته عن عاداته، وجردته مما عهد فيه من محاذرة ونفاذ بصيرة. لقد غرق في مشاغله الجديدة، فأصبح الآن عاجزاً عاجزاً مطلقاً عن التفكير في الخطر الذي كان معرضاً له. بالعكس: صار يحلو له أن يصدق حكاية هرب فرخوفنسكي التي تأتي مؤيدة لجميع شكوكه أكبر تأييد.

عاد شاتوف إلى الغرفة، وجلس في ركن من الأركان، وأسند كوعه إلى ركبتيه، وخبأ وجهه في يديه. إن خطرات مرة تعذبه.

وكان ينهض من حين إلى حين، فيمضي إلى السرير ماشياً على رؤوس الأصابع ليتأملها، فيقول محدثاً نفسه: "يا إلهي! لا شك أن حمى خبيثة ستلثم بها غداً، بل لعل الحمى قد بدأت! واضح أنها قد أصابها برد. إنها لم تألف هذا الجو الفظيع. ثم... الدرجة الثالثة بالقطار... والرياح في الخارج والأمطار!... إن معطفها خفيف جداً!... ولا تكاد تكسوها ثياب! كيف

أتركها وأمنع عنها أية نجدة؟ وهذا الكيس... هذا الكيس الصغير، الخفيف، الذي لا يزيد وزنه على عشرة أرطال... في أكثر تقدير! مسكينة... كم تعذبت! كم احتملت من آلام! ولكنها ذات كبرياء، لذلك لا تتشكى! غير أنها غاضبةٌ محقة! ما أشد حنقها! الذنب في هذا ذنب مرضها! المرض يجعل حتى الملائكة شديدي الحنق! لا بد أن جبينها محترقٌ جاف. ويا لهذه الهالة الزرقاء حول عينيها! و... ومع ذلك ما أجمل استدارة وجهها المستطيل! وهذا الشعر الرائع!..."

قال ذلك محدثاً نفسه ثم حوّل عينيه بأقصى سرعة، وابتعد مروّعاً من مجرد أن يرى فيها أكثر من إنسانة شقية معنّاة مضناة يجب إسعافها. "هل يمكن أن تساور المرء آمال في مثل هذه اللحظة؟! ... ما أدنأ الرجل وما أسفله!"

ورجع إلى ركنه، وجلس ثانية، ودفن وجهه في يديه من جديد، واسترسل في الأحلام، والذكريات... وعادت الأحلام تنبعث في نفسه. "آه... ما أشد ما أشعر به من تعب!" تذكر شاتوف هذه الصيحة، وتذكر الصوت الضعيف المحطم. "رباه! كيف يمكنني أن أتركها في مثل هذه اللحظة! إنها لا تملك إلا أربعة وعشرين كوبكاً. وقد مدت إليّ محفظة نقودها، الصغيرة، العتيقة الرثة! إنها تبحث عن عمل... ماذا تعرف عما يجري هنا، بل ماذا يعرفون جميعاً عن روسيا؟ أطفال سدّج أغرار يستطيعون الاسترسال في الأخيلة والأوهام! يا للمسكينة! إنها تغضب لأن روسيا لا تشبه الفكرة التي قامت في ذهنها عنها وهي في الخارج! مساكين! سدّج أبرياء! ولكن... حقاً إن البرد هنا شديد!..."

تذكر أنها اشتكت من البرد، وأنه وعد بإيقاد المدفأة. "عندي حطب. في وسعي أن أصعده. يشترط أن لا أوقظها! سأحاول. وما العمل بلحم العجل؟ قد تأكل منه حين تستيقظ... سوف نرى! إن كيريلوف يظل ساهراً طول الليل! بأي شيء يمكنني أن أغطيها؟ إنها نائمة نوماً عميقاً، ولكن لا شك في أنها تحس ببرد، ببردٍ شديد..."

دنا من السرير مرةً أخرى. كان ثوب المرأة الشابة مشموراً بعض الشيء فكانت ساقها اليمنى مكشوفة حتى الركبة. فتقهقر شاتوف بحركة مفاجئة، كأنه أحس برعب، ونضا عن جسمه معطفه (محتفظاً بردنجوته وحده)، فغطى به ساقها مشيحاً بعينه عن النائمة.

هذه الأمور كلها - الاسترسال في الأحلام، التأمل، إيقاد المدفأة، السير في الغرفة ذهاباً وإياباً على رؤوس الأصابع - قد استغرقت ساعتين أو ثلاث ساعات جاء فرخوفنسكي وليبوتين في أثنائها إلى عند كيريلوف. ونام شاتوف أخيراً في ركنه. وانطلقت من صدر ماري أنه على حين فجأة، لقد استيقظت من نومها ونادته. فانتفض كما ينتفض مجرم.

- ماري... لقد نمت... ما أشقاني يا ماري!

نهضت ماري، ونظرت حولها مدهوشة، فلعلها كانت لا تدرك أين هي! وها هي ذي تضطرب على حين فجأة، مستاءة غاضبة، وصاحت تقول له:

- لقد استوليت على سريرك. وغلبني النوم فنمت، ولكن لماذا لم توقظني؟ كيف أبحت لنفسك أن تظن أنني أريد أن أكون عالمةً عليك؟
- هل كان يمكنني أن أوقظك يا ماري؟

- نعم، كان يمكنك أن توقظني، بل كان يجب عليك أن توقظني. ليس عندك إلا سرير واحد استوليت أنا عليه، فما ينبغي لك أن تضعني في موقف خطأ! أترأى تظن أنني أنتوي استغلال حسناتك؟ استرد سريرك فوراً، وسأرقد أنا على كراسي...

- ماري، ليس عندي كراسي كافية. ثم ليس عندي ما أضعه عليها.
- إذا سأرقد على أرض الغرفة. وإلا سيكون عليك أنت أن ترقد على أرض الغرفة. سأنام على أرض الغرفة حالاً.

ونهضت، وتقدمت خطوة، إلا أن آلام مغصٍ شديد قد جرّدتها فوراً من كل قوة، ومن كل عزيمة، فعادت تنهالك على الكرسي في أنين. فهرع شاتوف إليها، ولكن ماري أمسكت يده، وشدت على هذه اليد شداً قوياً يكاد يهشمها، وهي تدفن رأسها في الوسادة.

- ماري، عزيزتي، إن الدكتور فرنتزل قريب جداً من هنا. وأنا أعرفه جيداً... ففي وسعي أن أستدعيه.

- دعني وشأني!

- أين أملك يا ماري، قل لي! في إمكاننا أن نضع لك كمادات ساخنة... على البطن. لا حاجة إلى طبيب من أجل هذا... أم تؤثرين قليلاً من دواء الخردل.

- سألته بصوتٍ غريب:

- ما هذا الكلام؟

ورفعت رأسها ونظرت إليه مرتاعةً.

قال شاتوف مدهوشاً:

- ماذا تعنين يا ماري؟ رباه! لقد فقدت عقلي تماماً. ماري، سامحيني. ولكنني لا أفهم شيئاً البتة.

- دعني. ليس هذا شأنك. بل إنه ليكون أمراً سخيلاً مضحكاً من جهتك أن...

وابتسمت بمرارة.

وأردفت تقول:

- اقصص عليّ شيئاً. امش وتكلم. إنني أطلب منك هذا للمرة المائة.

أخذ شاتوف يسير في الغرفة طويلاً وعرضاً، محاولاً أن لا يرفع عينيه نحو المرأة الشابة.

- يوجد هنا - لا ترعلي يا ماري، أرجوك - يوجد هنا شيء من لحم العجل وقليل من الشاي. إنك لم تأكلي إلا قليلاً جداً...

فحركت ماري يدها بإشارة اشمئزاز وتقزز. فعصّ شاتوف على شفتيه.

قالت ماري:

- اسمع. إنني أنتوي أن أفتح هنا ورشة تجليد أقيمها على أسس الاشتراك المبني على العقل. فقل لي: ما رأيك؟ أأنجح أم أخفق؟

- لكن الناس عندنا لا تقرأ يا ماري. ولا توجد كتب. أنى له "هو" أن يفكر في تجليد الكتب؟
- من "هو"؟

- القارئ. ساكن هذا المدينة يا ماري.
- هلا تكلمت بوضوح. ما معنى قولك "هو"؟ من هو؟ ألا تعرف قواعد النحو؟

دمدم شاتوف يقول متلعثماً:
- هذا في روح اللغة يا ماري.
- دعني من الروح هذه. أرحني من كلامك. لقد سئمت. ولماذا لا يجلد القارئ هنا كتبه؟ لماذا لا يجلد ساكن هذه المدينة كتبه؟

- لأن قراءة كتاب وتجليده مرحلتان من مراحل الحضارة تضم كل منهما فترة طويلة. ففي البداية يتعلم الإنسان القراءة، شيئاً فشيئاً، خلال عدة قرون، ولكنه لا يعتني بكتبه أي اعتناء، بل يعاملها معاملة شيء ليس له أي قيمة، أما تجليد الكتاب فهو علامة على أن الكتاب أصبح يحظى باحترام، وهو يدل على أن الإنسان أصبح لا يحب أن يقرأ فحسب، بل على أنه أصبح يعرف ما للقراءة من عظيم الشأن. إن روسيا لم تبلغ هذه المرحلة حتى الآن. أما أوروبا فإنها تجلد الكتب منذ مدة طويلة.
قالت ماري:

- رغم لهجتك المتعالية المتفihقة، فإن ما تقوله ليس غيباً، وهو يذكرني بالأحاديث التي كانت تقوم بيننا منذ ثلاث سنين. لقد كنت لَمّاح الفكر أحياناً قبل ثلاث سنين.

نظقت ماري هذه الكلمات بتلك اللهجة نفسها التي تكلمت بها حتى تلك اللحظة، وهي لهجة فيها اشمئزاز، وفيها جموحٌ ونزوة.
عاد شاتوف يتكلم فقال في حنان:

- ماري، ماري! أوه! ماري! ليتك تعرفين جميع التغيرات التي حدثت منذ ثلاث سنين حتى الآن! لقد سمعت عنك أنك تحتقريني لأنني تخليت

عن اعتقاداتي السابقة! وهل تعلمين ما الذي أصبحت أنبذه وأرفضه؟ لقد أصبحت أنبذ أعداء الحياة الحية، صرت أرفض اللبراليين الصغار المتخلفين الذين يخشون استقلال أنفسهم، صرت أنبذ العبيد من أدعياء الفكر، وصرت أنبذ أعداء الحرية والشخصية، وصرت أنبذ أولئك المنحطين من دعاة التحلل والفساد والتفسخ. ماذا نجد عند هؤلاء؟ إننا نجد عندهم التردّي، والتفاهة، والسخف في أحقر أشكاله وأكثرها بورجوازية، ونجد مساواة الحسد، المساواة الخالية من الكرامة الشخصية، المساواة كما يتصورها خادمٌ أو كما كان يتصورها فرنسيٌّ عام 93... والأنكى من ذلك أنهم جميعاً ليسوا إلا أوغاداً، أوغاداً، أوغاداً!...

دمدمت ماري تقول بصوتٍ فيه ألم:

- نعم، هناك أوغادٌ كثير...

كانت مستلقية استلقاءً تاماً، على الجنب قليلاً، كأنها تخاف أن تتحرك، محدقةً إلى السقف بنظرة ثابتة محمومة. وكان وجهها شاحباً وكانت شفتاها يابستين محترقتين.

قال شاتوف:

- أتسلمين إذاً بهذا يا ماري؟ أتسلمين به؟

فهمّت أن تحرك يدها بإشارة إنكار، غير أن مغصاً جديداً عقف جسمها فجأةً، فهرع إليها شاتوف كالمجنون من الذعر، فشدت على يده بكل ما تملك من قوة، دافئةً وجهها في الوسادة، كما فعلت في المرة الأولى.

- ماري، ماري! قد يكون مرضك خطيراً! ماري!

فصرخت تقول بما يشبه الغضب الحائق وهي تدير ظهرها:

- اسكت... لا أريد! لا أريد! إنني أمتنع من أن تنظر إليّ هكذا. إنني لا

أريد شفقتك. إنني أرفض هذه الشفقة. امش، تكلم، قل أي شيء!...

كان شاتوف كمن ضاع عقله تماماً، فدمدم بوضع كلمات غير متميزة.

فقاطعته سائلةً بصوتٍ منزعج:

- ما الذي تعمله هنا؟

- أعمل في مكاتب تاجرٍ من التجار. ولو شئت يا ماري لكسبت هنا مالاً كثيراً.

- هنيئاً لك به...

- لا تتخيلي يا ماري أنني... أنا لم أقصد شيئاً البتة...

- وماذا تعمل أيضاً؟ إلى ماذا تدعو؟ إنك لا تستطيع الامتناع عن الدعوة إلى شيء ما؛ ذلك في طبعك.

- أدعو إلى الله يا ماري.

- الذي لا تؤمن به أنت نفسك. إنني لم أستطع أن أفهم هذه الفكرة في يومٍ من الأيام.

- دعينا من هذا يا ماري. سوف نتحدث عنه في ما بعد.

- ماذا كانت ماريّا تيموّفّنا تلك؟

- هذا أيضاً ندعه الآن ونتحدث عنه في ما بعد.

- أمنعك من أن تكلمني بهذه الطريقة! هل صحيح أن جريمة القتل هذه إنما هي من صنع أولئك... الأوغاد.

- بدون أي شك يا ماري.

قال شاتوف ذلك كازاً أسنانه. فأنهضت ماري رأسها، وهتفت تقول له:

- أمنعك من أن تحدثني عن هذه الأمور أبداً... أبداً...

وتهالكت على السرير وقد افتهأ آلام أخرى عنيفة. هذه ثالث نوبة. غير أن الآثات في هذه المرة قد أصبحت صرخات.

قالت:

- آه... إنك لا تُطاق! لا تُطاق!

وكانت تتخبط وتدفع عنها شاتوف الذي مال عليها.

قال لها شاتوف:

- ماري، سأفعل ما تريد، سأمشي وأتكلم...

- ولكن ألا ترى إذاً أن الأمر بدأ؟

- الأمر بدأ؟ أي أمر بدأ؟

- لا أعرف! لا أفهم شيئاً! آه... لعنة الله عليّ... لعنة الله على كل شيء!

- ماري، ليتك تقولين لي ما هو الأمر الذي بدأ... إذ ماذا أستطع أن أفعل؟... إنني لا أفهم...

- أنت رجل ثرثار لا فائدة منه، أنت مغرور متفيهق... آه... ألا لعنة الله عليكم جميعاً!...

- ماري! ماري!

وأخذ يعتقد أنها جُنّت.

فنهضت ماري نصف نهوض ونظرت إليه، وقالت له:

- أأست ترى إذا أنني في مخاض؟

وكان الكره والألم قد قلبا وجهها. وأردفت تقول:

- ألا فلتحل اللعنة على هذا الولد!

هتف شاتوف يقول وقد أدرك أخيراً ما يحدث:

- ماري! ماري! لماذا لم تقولي لي قبل الآن؟

وتناول قبعته بحركة حازمة. قالت ماري تجيبه:

- وهل كنت أعرف ذلك حين دخلت إلى هنا؟ أكنت أجيء إليك لو كنت أعلمه؟ لقد قيل لي إنني لن ألد إلا بعد عشرة أيام. إلى أين تذهب؟ إلى أين تذهب؟ إنني أمنعك...

- سأجيء بمولدة. سوف أبيع مسدسي. نحن الآن في حاجة إلى المال قبل كل شيء.

- أأمنعك من أن تفعل أي شيء. لا أريد مولدة... تكفيني أية امرأة عجوز. لا يزال معي أربعة وعشرون كوبكاً في محفظة نقودي... الفلاحات يستغنين عن المولدة. وإذا فطست، كان ذلك أفضل...

- سأجيء بامرأة عجوز، وبمولدة أيضاً. ولكن كيف أتركك وحيدة يا ماري؟

لكنه وقد قدر أن تركها الآن وحيدة خيراً من تركها وحيدة بعد حين، هُرع يهبط السلم مسرعاً، لا يلتفت إلى أناتها وصرخاتها.

دخل شاتوف أولاً على كيريلوف. كانت الساعة قريبةً من الواحدة. إن كيريلوف واقفٌ في وسط غرفته.

- كيريلوف، امرأتي تلد.

- كيف؟

- تلد. سوف تلد ولداً.

- أنت متأكد؟

- نعم، الآلام بدأت. هي في حاجةٍ إلى امرأةٍ عجوز ما... فوراً... هل يمكننا العثور على واحدة؟ كان هنا عجائزٌ كثيرات...

قال كيريلوف:

- يؤسفني أنني لا أحسن التوليد... أقصد لا أعرف كيف يكون التوليد... أوه!... إنني لا أهتمدي إلى الكلمات التي تعبر عن قصدي.

- تريد أن تقول أنك لا تستطيع أن تساعد امرأةً تلد. ولكن ليس هذا هو الأمر. ما نحن في حاجةٍ إليه إنما هو امرأةٌ عجوز، خادمة، ممرضة...

- سنأتي بواحدة. ولكن قد لا نستطيع إحضارها فوراً. أستطيع أن أحلّ محلّها إذا شئت.

- أوه! مستحيل. أنا ذاهبٌ فوراً إلى عند المولدة فرجنسكي.

- حقيرة!

- نعم يا كيريلوف، لكنها خير مولدة. صحيح أن كل شيء سيجري معها بغير رافة، وبغير فرح، وبغير حب، صحيح أنها فظة غليظة القلب. آه... ما أكبره من سرٍ مع ذلك أن يولد كائنٌ جديد! وما أعجب ماري إذ تلعه منذ الآن!...

- إذا شئت فإنني...

- لا، لا، ولكن أثناء غيابي (نعم، سأجيء بها هذه الفرجنسكي)

اصعد أنت إلى غرفتي من حينٍ إلى حين، وتنصّت من خلال الباب على

ما يجري. ولكن لا تدخل، لأنك سترعبها إذا دخلت. لا تدخل أبداً. تنصت فقط. لا يعرف المرء ماذا يمكن أن يحدث. فإذا سمعت شيئاً رهيباً يحدث، فادخل عند ذاك.

- فهمت. إليك هذا الروبل أيضاً. كنت أريد أن آكل في الغد دجاجةً. أما الآن فقد صرفت النظر عن ذلك. اركض بسرعة، اركض بكل ما تملك من قوة. سيظل السماور يغلي طول الليل.

كان كيريلوف يجهل كل شيء عن المؤامرة المبيتة لشاتوف. بل إنه كان لا يخطر بباله الخطر الذي يتعرض له شاتوف. كل ما كان يعرفه هو أن بين "هؤلاء الناس" وبين شاتوف حسابات قديمة. ومع ذلك كان قد أقحم بعض الإقحام في هذه القضية، على أثر تعليمات تلقاها في الخارج (وهي على كل حال تعليمات مبهمة وسطحية، لأن كيريلوف قد ظل دائماً في خارج الجمعية)، ولكنه في الآونة الأخيرة كان قد ترك كل شيء، وتحرر من جميع المهمات، ونأى بنفسه عن كل أمر من الأمور، ولا سيما "العمل المشترك"، وانصرف انصرافاً تاماً إلى حياة التأمل وحدها. لذلك فرغم أن فرخوفنسكي قد جاء إلى كيريلوف مع ليوتين بغية أن يقتنع ليوتين بأن كيريلوف سيرضى أن ينسب إلى نفسه مقتل شاتوف، فإن بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي لم يقل لكيريلوف كلمة واحدة عن هذه القضية، مقدراً أن ذلك خطرٌ، لأن كيريلوف ليس بالرجل الذي يوثق به ويُطمأن إليه. وهكذا أثر أن يرجئ الإيضاحات إلى الغد، وأن يضع كيريلوف أمام الأمر الواقع. كان فرخوفنسكي يقول لنفسه: إن كيريلوف ستستوي عنده جميع الأمور في تلك اللحظة. وقد لاحظ ليوتين جيداً أن فرخوفنسكي لم يجرى على ذكر شاتوف عند كيريلوف، رغم الوعد الذي بذله "لأصحابنا". ولكن ليوتين كان عندئذٍ أكبر اضطراباً وأشد انفعالاً من أن يعترض أو يحتج.

ركض شاتوف إلى شارع "النملة" بسرعة الريح، لاعناً طول الطريق شاعراً بأنه لن يصل إلى نهايته.

وكان أفراد أسرة فرجنسكي قد ناموا جميعاً منذ مدة طويلة حين طرق

شاتوف بابهم. فلما لم يتلقَ أي جواب أخذ يضرب مصراع الباب بقبضة يده ضرباتٍ قوية. فأخذ كلب من كلاب الحراسة في فناء المنزل ينبع نباحاً شديداً حانقاً، وهو يجر سلسلته. وطفقت كلاب الشارع كلها تردُّ على نباحه بنباح مثله فوراً. فكانت جلبة رهيبة.

وفتحت كوة النافذة أخيراً.

- ما بالك تطرق الباب هذا الطرق، وماذا تريد؟

إنه فرجنسكي، الذي يتعارض صوته الرقيق تعارضاً واضحاً مع الضوضاء الشديدة.

وعلا صوتٌ صارخ غاضب حانق يسأل منسجماً في هذه المرة مع الظروف، هو صوت أخت زوجة فرجنسكي، العانس:

- من الطارق؟ من هذا الوغد؟

- أنا شاتوف. امرأتي عادت، وقد جاءها المخاض فهي تلد...

- طيب. مع السلامة.

- جئت ساعياً إلى آرينا بروخوروفنا أريد اصطحابها، ولن أنصرف بدون آرينا بروخوروفنا.

- إنها لا تستطيع أن تذهب إلى أي بيت. ولا يحق لجميع الزبائن أن يوقظوها في الليل. اذهب إلى ماكشايفنا، ودعنا وشأننا.

كذلك صرخت العانس ساخطةً. وكان يُسمع مع ذلك أن فرجنسكي كان يحاول أن يسكتها، ولكنها كانت تدفعه عنها ولا تدع له أن يتكلم.

صرخ شاتوف يقول مكرراً:

- لن أنصرف.

فأجابه فرجنسكي الذي استطاع أخيراً أن يبعد أخت زوجته عن كوة النافذة:

- انتظر! انتظر! أرجوك يا شاتوف، انتظر خمس دقائق، وسوف أوقظ آرينا بروخوروفنا... ولكن كفالك طرقاً ونداءً. هذا فظيع!

وبعد دقائق خمس أحسّها شاتوف دهرًا، ظهرت آرينا بروخوروفنا في
النافذة.

قالت له من الكوة تسأله:

- أرجعت زوجتك إليك؟

فما كان أشدّ دهشته من أن صوتها لم يكن غاضبًا، كان صارمًا فحسب!
الحق أن آرينا بروخوروفنا لا تستطيع أن تتكلّم بغير هذه الطريقة.
قال يجيبها:

- نعم رجعت. وهي الآن تلد.

- ماريا أجناتيفنا؟

- نعم، ماريا أجناتيفنا طبعًا.

وساد صمت. كان شاتوف ينتظر. وسمع تهامس وراء الزجاج.

سألت السيدة فرجنسكي:

- هل وصلت منذ مدة طويلة؟

- هذا المساء، الساعة الثامنة. تعالي بسرعة، أرجوك...

واستؤنف التهامس: لعلهم يتشاورون.

- أأست مخطئًا؟ أهى التى أرسلتك؟

- لا، لم ترسلنى إليك. لقد طلبت أية امرأة عجوز، حتى لا تتكلّف نفقات.

ولكن لا تخافى. سأدفع لك.

- طيب. سأجىء، سواء أدفعت أم لم تدفع. لطالما قدرت العواطف

الاستقلالية لدى ماريا أجناتيفنا، رغم أنها لا تذكرنى أغلب الظن. هل عندك

الأشياء الضرورية فى البيت؟

- لا، ليس عندي شيء، ولكن يمكن إحضار أي شيء...

حدّث شاتوف نفسه قائلاً وهو يتجه إلى بيت ليامشين: "هؤلاء الناس

قادرون على الكرم مع ذلك. إن الإنسان وأفكاره شيئان مختلفان اختلافًا

كبيرًا، فيما يخيّل إليّ. لعلنى مخطئ كثيرًا فى حقهم... جميع البشر مذنبون...

جميعهم يخطئون... ولكن ليتهم يدركون ذلك!..."

لم يحتج شاتوف إلى أن يطرق باب ليامشين مدةً طويلة. وما كان أشد دهشته حين رأى ليامشين يفتح الكوة على الفور تقريباً: لقد قفز من سريره حافي القدمين متعرضاً للإصابة بالبرد، رغم أنه رهيف العناية بنفسه شديد الاهتمام بصحته. غير أن تعجله كان له في تلك اللحظة سببٌ خاص: إنه منذ الاجتماع الذي عقده أصحابنا يحس باضطرابٍ شديد وقلقٍ عنيف فلا يستطيع أن ينام. كان يرتعد خوفاً، و ينتظر في كل لحظة ظهور زوار لا يرغب في زيارتهم. وكان الشيء الذي يعذبه خاصةً هو وشاية شاتوف التي كان لا يشك في أن شاتوف مقدم عليها لا محالة. وهذا بابه يُطرق طرْقاً قوياً.

فلما لمح شاتوف بلغ من الرعب أنه أوصد الكوة ورجع إلى سريره.

وعاد شاتوف يطرق الباب ويصرخ.

صاح ليامشين يقول بصوتٍ مهْدَد متوَعِّد ولكنه كان يرتعد خوفاً، صاح يقول بعد دقيقتين حين قرر أن يفتح الكوة واستطاع أن يقتنع بأن شاتوف وحيدٌ ليس معه أحد:

- كيف تجرؤ أن تحدث هذه الجلبة كلها في الليل؟

- هذا مسدسك، خذه وأعطني خمسة عشر روبلاً.

- ما معنى هذا؟ أنت سكران؟ هذا عمل خليق بالخصوص وقطاع الطرق.

سوف يصيبني زكام. انتظر قليلاً، ريثما أتدثر بمعطف.

- أعطني خمسة عشر روبلاً على الفور. وإلا ظللت أصرخ وأطرق الباب

إلى الصباح. لسوف أحطم النافذة.

- وأنا سأصرخ مستنجداً، فُتسجن.

- أظن أنني سأظل أحرص فلا أستدعي الشرطة؟ من منا نحن الاثنين

أحري بأن يخاف الشرطة، أنا أم أنت؟

- كيف يمكن أن تراودك أفكار دنيئة هذه الدناءة كلها!... إنني أعرف إلى

ماذا تلمح. انتظر. انتظر. لا تطرق الباب. رحماك! هل يمكن أن يملك المرء

في بيته ليلاً مبالغ ضخمة كالتي تطلبها؟ وما حاجتك إلى المال إذا لم تكن

سكراناً؟

- إن امرأتي رجعت. لقد خَفَضْتُ لك عشرة روبلات. ولم أطلق من المسدس رصاصةً واحدةً. استردَّ المسدس. استردَّ فوراً. في هذه اللحظة! مدَّ ليامشين يده من الكوة بحركة آلية وأخذ المسدس. ولكنه بعد لحظة تفكير أطلَّ برأسه مرةً أخرى ودمدم يقول زائع الهيئة مرتعشاً كل الارتعاش: - أنت تكذب. لم ترجع امرأتك... كل ما هنالك أنك تريد أن تهرب.

- يا لك من غبي أبله! لماذا عساني أهرب؟ إن صاحبك بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي هو الذي يهرب، لا أنا. لقد ذهبت إلى زوجة فرجنسكي ورضيت أن تأتي. اسأل. إن زوجتي تلد. أنا في حاجةٍ إلى مال. أعطني خمسة عشر روبلاً.

ها هي ذي نيرانٌ من أفكار متناثرة تنتشر في رأس ليامشين. إن الموقف يبدو له في ضوءٍ جديد كل الجدة على حين فجأة. ولكن الخوف زاد عقله ظلاماً.

- ولكن كيف هذا؟... إنك لم تكن تعيش مع امرأتك!

- سأحطم رأسك إذا أَلْقَيْت أسئلةً كهذه!

- أوه! سامحني. فهمت. ولكن ذلك النبأ قد أدهشني... فهمت... فهمت... ولكن هل رضيت آرينا بروخوروفنا أن تجيء حقاً؟ لقد زعمت في البداية أنها عندك منذ الآن. ألم يكن صحيحاً إذا؟ أرايت كم تكذب في كل لحظة؟

- لا شك أنها الآن عند امرأتي. لا تؤخرني. ليس ذنبي أنا أنك غيبٌ أبله.

- لا، لست غيباً. هذا غير صحيح. معذرة، يستحيل عليّ تماماً أن... قال ليامشين ذلك، وفقد صوابه من جديد، فعاد يغلق الكوة. ولكن شاتوف أطلق صرخات بلغت من القوة أن ليامشين ظهر ثانيةً.

- هذا اعتداءٌ عليّ... لا أكثر ولا أقل! ماذا تريد مني؟ هيّا، قل، ماذا تريد مني؟ أفصح عن مرادك. ولا حظ، لاحظ أن الوقت ليل.

- أريد خمسة عشر روبلاً يا حمار!

- ولكن ربما كنت لا أريد استرداد المسدس. ليس هذا من حَقِّ إنك قد

اشتريت وانتهى الأمر، فليس من حَقِّك أن ترد ما اشتريت. لست أملك مبلغاً كهذا المبلغ ليلاً. أين لي بمثل هذا المبلغ الآن؟ من أين عساني أجيئك به؟
- لا يخلو بيتك من مالٍ أبداً. لقد تنازلت لك عن عشرة روبلات، ولكن جشعك أمرٌ معروفٌ جداً.

- تعال بعد غد. هل فهمت؟ بعد غد صباحاً، عند الظهر تماماً، فأرد إليك كل شيء، كل شيء، هه؟

عاد شاتوف يضرب بقبضة يده إطار النافذة ضرباتٍ قوية. ثم قال:
- أعطني عشرة روبلات حالاً، ثم تعطيني الباقي غداً في الصباح.
- لا بل خمسة روبلات بعد غد في الصباح. أما غداً، فمستحيل مستحيل كل الاستحالة. لا فائدة من مجيئك غداً، لا فائدة البتة!
- هات عشرة روبلات يا حقير!

- لماذا تشتمني وتهينني؟ انتظر حتى أشعل شمعة. لقد كسرت مربع الزجاج. يا لها من فكرة أن يجيء المرء إلى الناس ليلاً لإهانتهم! خذ!
قال ليامشين ذلك ومدَّ إلى شاتوف ورقة نقدية.
تناول شاتوف الورقة، إنها خمسة روبلات.
قال له ليامشين:

- أحلف لك أنني لا أستطيع أن أعطيك أكثر من هذا. اقتلني إذا شئت. ولكن هذا كل ما أملك أن أعطيك. بعد غدٍ، ممكن. أما الآن، فلا...
أعول شاتوف قائلاً:

- لن أنصرف!
- طيب. خذ أيضاً. هاتان ورقتان. ولكن ذلك كل شيء. اصرخ ما شئت أن تصرخ، فلن أعطيك شيئاً آخر... لا... لا... لا...!
كان يشعر بكرٍ رهيب، وكان العرق يتصبَّب منه.
نظر شاتوف في الورقتين النقديتين. إن كلا منهما روبلٌ واحد. فمجموع ما قبضه إذاً سبعة روبلات.
قال شاتوف:

- شيطانُ يأخذك! سأعود غداً يا ليامشين، ولأقتلنك إذا لم تكن قد أعددت لي الثمانية روبلات الباقية.

فحدث ليامشين نفسه قائلاً: "وأنا لن اكون غداً في البيت أيها الغبي!".

وصاح يقول لشاتوف الذي كان قد أخذ يركض مسرعاً:

- انتظر لحظة، انتظر. ارجع. قل لي: هل رجعت إليك زوجتك حقاً؟

فأجابه شاتوف قائلاً:

- غبي!

4

كانت آرينا بروخوروفنا لا تعلم شيئاً عن القرارات التي اتخذت أمس في الاجتماع. ذلك أن فرجنسكي، حين عاد إلى البيت، وكان مصعوقاً، لم يجبرؤ أن يحدث امرأته في الأمر. لكنه في صباح الغد لم يطق صبراً فروى لها جزءاً مما يعرف، أي قال لها إن المعلومات المتوفرة لدى فرخوفنسكي تشير إلى أن شاتوف يستعد لأن يشي بالجميع. ولكن فرجنسكي حرص على أن يضيف إلى ذلك قوله إنه من جهته لا يصدّق هذه الدعوى كثيراً. ومع هذا شعرت آرينا بروخوروفنا برعب شديد. وذلك هو السبب في أنها، رغم تعبها الشديد كل الشدة بسبب إشرافها في الليلة البارحة على ولادة عسرة، قد قررت أن تذهب إلى شاتوف بلا إبطاء حين سعى إليها شاتوف طالباً معونتها.

لقد كانت دائماً مقتنعة بأن رجلاً إمّعة مثل شاتوف لا يتورّع أي تورّع عن ارتكاب ذنابة من هذا النوع، ولكن وصول ماريّا أجناتيفنا يبدل الوضع تبديلاً كاملاً. إن ذعر شاتوف، وكربه، ويأسه، وتوسله، وضراعته، إن ذلك كله يدل على أن عواطف الخائن قد تغيرت: إن رجلاً يقرر تسليم نفسه لا لشيء غير تضيق الآخرين، لا يمكن أن يكون وجهه هذا الوجه، ولا يمكن أن تكون لهجته هذه اللهجة. كذلك كانت تقول لنفسها آرينا بروخوروفنا. الخلاصة: لقد قررت أن ترى كل شيء بعيني رأسها، وأن تعرف كل شيء بنفسها. وقد سرّ فرجنسكي كثيراً من قرارها هذا. حتى لقد شعر بأنه يتخفف من حملٍ

ثقيل، بل إنه أخذ الآن يأمل خيراً: إن وضع شاتوف يتعارض تعارضاً تاماً مطلقاً مع شكوك فرخوفنسكي.

لم يخطئ شاتوف: فحين وصل إلى البيت كانت آرينا بروخوروفنا قد سبقته إليه. وقد بادرت آرينا بروخوروفنا منذ وصولها إلى طرد كيريلوف الذي كان يترقب عند أسفل السلم. ولم تشأ المريضة أن تتعرف المولدة على أنها من قدامى الأصحاب. كانت في حالة نفسية سيئة جداً، فهي شريرة شرسة ساخطة قد استبد بها وسيطر عليها "يأسٌ فيه جبن لا مثيل له"، على حد تعبير آرينا بروخوروفنا. ولكن آرينا لم تلبث أن طوّعتها بعد خمس دقائق في أكثر تقدير.

وحين دخل شاتوف كانت تقول لها:

- ما بالك تكررين أنك لا تريدين مولدة باهظة الأجور؟ هذه سخافة، هذه آراء فاسدة ناشئة عن حالتك التي ليست حالة طبيعية سليمة. إذا جاءتك امرأة عجوز ما، فمن الجائز أن تجري الأمور مجرى سيئاً. هذا أحد احتمالين متساويين قوةً. ثم إنك قد تقعين في مشاكل وتدفعين نفقات ضخمة إذا لم تتعهدك مولدة ماهرة ترعمين أنها باهظة التكاليف. ثم من قال لك إن أجوري غالية؟ سوف تدفعين لي في المستقبل، ولن أطلب منك كثيراً. وأنا من جهة أخرى أضمن لك النجاح والسلامة. لن تموتي بين يدي. ما أكثر ما رأيت من حالاتٍ كحالتك! أما الولد فسأحمله منذ الغد إلى ملجأ، ثم نعهد به إلى مرضع في الريف، فينتهي كل شيء. حتى إذا شُفيت وجدت عملاً، فما هو إلّا وقتٌ قصير حتى تكونين قد عوّضت شاتوف أجور الإقامة والنفقات التي لن تكون ضخمة إلى الحد الذي تتصورين...

- لا يحق لي أن أكون عالةً عليه...

- هذه عواطف معقولة ومشاعر نبيلة. ولكن ثقي أن شاتوف لن يتكبد أية نفقة إذا هورضي أن يترك أوهامه وأخيلته وأن يعتنق آراء أسلم وأصح. يكفي أن لا يرتكب حماقات، أن لا يجري في المدينة مدلياً لسانه نافخاً في بوق. إن شاتوف، إذا لم يحتجز بالقوة، لن يتورع عن الذهاب منذ الغد إلى جميع أطباء

المدينة بغية اصطحابهم إليك. عندي أنا، أهاج جميع كلاب الحي. لست في حاجة إلى طبيب. قلت لك إنني أضمن كل شيء. على أنك تستطيعين أن تستعيني بامرأة عجوز لخدمة البيت. هذا لا يكلف نفقة ذات بال. ثم إن شاتوف يمكن أن يفيد في شيء ما أيضاً. إن له ذراعين وساقين. فسيذهب إذا إلى الصيدلية من دون أن يجرح هذا كرامتك. ما هذا منة منه وكرم. أليس هو الذي جعلك في هذا الوضع؟ ألم يوقع شقاً بينك وبين تلك الأسرة التي كنت تعملين عندها مربية، ولم يكن له من ذلك إلا هدف أناني هو أن يتزوجك؟ لقد سمعنا عن هذا... ثم إنه قد هرع إلينا كالمجنون وأحدث جلبة كبيرة. إنني لا أريد أن أفرض حضوري على أحد. وإنني لم أجيء إلا من أجلك أنت تقيداً بالمبدأ، لأن جماعتنا يجب أن ينصر بعضها بعضاً. قلت له هذا حتى قبل أن أخرج من بيتي. فإذا كان وجودي في نظرك نافلاً فوداعاً إذا! بشرط أن لا يقع لك سوء، وهو سوء ليس تحاشيه بالأمر السهل.

كذلك قالت آرينا بروخوروفنا، حتى لقد قامت لتنصرف.

وكانت ماري قد بلغت من الضعف والألم، وبلغت من الخوف مما ينتظرها في الواقع أنها لم تجسر أن تدع آرينا بروخوروفنا تنصرف. ولكن آرينا بروخوروفنا أصبحت كريهة في نظرها فجأة: إن كل ما قالته آرينا كان متعارضاً أشد التعارض مع ما كان يحدث في نفس ماري. غير أن خوفها من أن تموت بين يدي مولدة ليست بذات خبرة قد جعلها تغلب على نفورها من آرينا وكرهها لها، وكذلك أصبحت تجاه شاتوف منذ تلك اللحظة أكثر شدة وأقل رحمة، حتى لقد حظرت عليه في النهاية لا أن ينظر إليها فحسب، بل أن يلتفت بوجهه نحوها.

وتفاقت الآلام مزيداً من التفاقم، واشتدت اللعنات والشتائم التي تطلقها ماري مزيداً من الاشتداد.

قالت آرينا بروخوروفنا:

- سنطرده إلى الخارج. إنه بوجهه المنقلب ييئ في نفسك الخوف والرعب. إنه شاحبٌ كميئ.

والتفتت تقول لشاتوف:

- ولكن فيم يعنيك أنت هذا؟ ألا إنك لرجلٌ غريبٌ شاذٌ حقاً! ما هذه المهزلة!

لم يجب شاتوف. لقد قرر أن يلتزم الصمت.

- رأيت في مثل هذه الأحوال آباءً بلهاء يفقدون عقولهم تماماً. ولكن أولئك على الأقل...

- اسكتي، أو دعيني أفطس! لا يقل أحدٌ كلمةً بعد الآن لا أريد. لا أريد. كذلك صرخت ماري.

- يستحيل على المرء أن لا يفتح فمه. لا بد أن يكون المرء قد فقد عقله حتى يفرض مثل هذه المطالب. ولكنك في حالةٍ غير طبيعية. لتكلم في أمورٍ جدية على الأقل. قل لي: هل أعددت كل شيء؟ أجب يا شاتوف. هي في حالة لا تمكنها من الإجابة.

- قل لي ما هي الأشياء اللازمة تماماً.

- ألم تُهيئ إذا شيئاً؟

كذلك أجابته آرينا بروخوروفنا، ثم أخذت تحصي له ما هي في حاجةٍ إليه. يجب أن نذكر لها هذا الفضل، وهو أنها لم تطلب إلا ما هو لازمٌ كل اللزوم. وقد اتضح أن بعض الأشياء المطلوبة متوفرةٌ عند شاتوف. وأخرجت ماري مفتاحها ومدته إليه ليفتح الكيس الذي حملته في سفرها. وإذا كانت يدها ترتعشان فقد استغرق إدخال المفتاح في القفل وقتاً أطول من الوقت اللازم، فأثار هذا حنق ماري وأغاظها غيظاً شديداً. ولكن حين هرعت آرينا بروخوروفنا لتأخذ المفتاح من يدي شاتوف لم تشأ المريضة أن تنظر آرينا في كيسها وأصرّت باكيةً صارخةً على أن يكون شاتوف هو الذي يتولى فتح الكيس.

وكان لا بد من الذهاب إلى كيريلوف لإحضار بعض الأشياء. ولكن ما إن غادر شاتوف الغرفة حتى أخذت ماري تناديه بصرخاتٍ كبيرة، ثم لم تهدأ نائرتها إلا حين رجع شاتوف مسرعاً ليشرح لها أنه لا يخرج إلا لحظةً

واحدة، وأن خروجه لا غنى عنه، وأنه عائد على الفور.

قالت آرينا بروخوروفنا ضاحكة:

- ما أصعب إرضاءك يا سيدتي الصغيرة! فتارةً تطليبن أن يُلصق أنفه بالحائط فلا ينظر إليك، وتارةً تنفجرين باكيةً إذا هو اضطر أن يغيب لحظة. لا بد أن يتخيل شيئاً في النهاية. هيّا، هيّا! لا تضطربي. أنا أمزح طبعاً.
- ليس من حقه أن يتخيل شيئاً.

- لولا أنه هائمٌ بك حباً لما ركض في الشوارع كالمجنون، ولما هاج جميع كلاب المدينة. لقد حطم اطار نافذة بيتي.

5

كان كيريلوف مستمراً في ذرع غرفته جيئةً وذهاباً، وقد بلغ من فرط الاستغراق في تأمله أنه نسي حتى وصول امرأة شاتوف، فكان يصغي إلى شاتوف من دون أن يفهم عنه.

قال أخيراً وكأنه ينتزع نفسه انتزاعاً شاقاً من فكرة جذابة فاتنة:

- آ... نعم... امرأة عجوز... أكنت تتكلم عن زوجتك أم عن حاجتك إلى امرأة عجوز. آ... نعم، عن زوجتك وعن امرأة عجوز، أليس كذلك؟ تذكرت الآن. لقد بحثت وسألت: فالعجوز ستأتي، ولكنها لن تأتي فوراً. خذ الوسادة. ماذا أيضاً؟ نعم... انتظر... هل اتفق لك يا شاتوف في يوم من الأيام أن شعرت بلحظات انسجام كلي شامل؟

- اسمع يا كيريلوف، يجب عليك بعد الآن أن لا تسهر كل ليلة...

بدا على كيريلوف أنه ثاب إلى نفسه. والشيء الغريب أنه أخذ يتحدث حديثاً فيه من اليسر والسهولة والراحة والمنطق أكثر مما عُهد فيه. واضح أنه كان قد صاغ هذه الأفكار لنفسه منذ مدة طويلة، بل لعله أيضاً قد سطرها على الورق. قال:

- هناك لحظات تدوم خمس ثوانٍ أو ستاً تحس أثناءها فجأةً بحضور الانسجام الأبدي، وبأنك بلغت هذا الانسجام الأبدي. ليس ذلك شيئاً

أرضياً: لا أقول إنه سماوي، ولكنني أقول إن الإنسان من جانبه الأرضي عاجزٌ عن احتمالِه. فيجب أن يتغير جسم الإنسان أو يموت. إنه شعورٌ واضح، لا جدال فيه، مطلق. تدرك الطبيعة كاملةً على حين فجأة، وتقول لنفسك: نعم، هذا هو، هذا حق. حين خلق الله العالم كان يقول في آخر كل يوم: "نعم، هذا خيرٌ، هذا عدلٌ، هذا حق". ليس ذلك نوعاً من ترقق العاطفة والحنان. إنه شيءٌ آخر. إنه فرحٌ. وأنت عندئذ لا تغفر شيئاً، إذ لا يبقى ثمة ما تغفره. وليس ذلك حتى حباً. آه... إنه فوق الحب. الأمر الرهيب هو أنه واضح وضوحاً مخيفاً مروّعاً، غير أن فرحاً واسعاً يغمر كل شيء! لو دام أكثر من خمس ثوانٍ، لما استطاعت النفس أن تتحمّله ولكان عليها أن تزول. في هذه الثواني الخمس أحيا حياة بكاملها، وإني لمستعد في سبيلها أن أهب حياتي كلها... لأن هذه الثواني الخمس تساويها. من أجل أن يستطيع المرء احتمال ذلك عشر ثوانٍ يجب أن يتغير جسمه. وأظن أنه يجب على الإنسان أن يكفّ عن التناسل. لماذا الأطفال، لماذا نمو الإنسانية، إذا كانت لغاية قد بُلغت؟ لقد جاء في الإنجيل أن البشر لن يولدوا بعد البعث في الحياة الآخرة، وإنهم سيكونون جميعاً كملائكة الله. هذه إشارة. هل امرأتك تلد؟

- هل يحدث لك هذا كثيراً يا كيريلوف؟

- كل ثلاثة أيام، كل أسبوع...

- أأنت مصاباً بمرض الصرع؟

- لا.

- ستصاب بهذا المرض. انتبه يا كيريلوف: لقد سمعت أن مرض الصرع إنما بهذا يبدأ. وقد حدثني أحد المصابين به فوصف لي المشاعر التي تسبق نوبات الصرع تفصيلاً. لقد تكلم هو أيضاً عن ثوان خمس، فكان يقول إن المرء يستحيل عليه أن يتحمّل هذا مدة أطول. تذكّر جرة النبي محمد، التي لم تكن قد فرغت من مائها حين عاد من معراجه إلى السماء. إن الجرة هي هذه الثواني الخمس التي تتحدث عنها، وإن المعراج هو هذا الانسجام الكلي الذي تحسّ به. ولقد كان محمد يصاب بغيبوبة.

انتبه إلى الصرع يا كيريلوف.
قال كيريلوف وهو يتسم ابتسامة وادعة:
- لن يتسع الوقت لإصابتي بهذا الداء.

6

كان الليل ينقضني ببطيئاً. وكان شاتوف يُطرد ويُشتم ثم يُستدعى. لقد بلغت ماري ذروة الهلع. كانت تصرخ قائلة إنها تريد أن تعيش "حتماً، حتماً"، وإنها خائفة من الموت، فهي ما تنفك تكرر "يجب أن لا أموت، يجب أن لا أموت!". ولولا أن آرينا بروخوروفنا كانت هناك لكان يمكن أن تجري الأمور مجرى شيئاً جديداً. ولكن آرينا بروخوروفنا قد استطاعت أن تسيطر على المريضة شيئاً فشيئاً، فأصبحت المريضة في النهاية تخضع لأي أمر تصدره إليها، كما يخضع طفل. لقد عمدت آرينا بروخوروفنا إلى الشدة والقسوة لا إلى الرفق واللين، ولكنها كانت خبيرة في فنّها. وأخذ الصبح يطلع. وتخيلت آرينا بروخوروفنا فجأة أن شاتوف، وقد خرج إلى فسحة السلم، هو الآن يصلي ويدعو الله، فانفجرت تضحك. فأخذت ماري تضحك هي أيضاً، ضحكاً خبيثاً، ضحكاً ساخراً، فكان هذا الضحك كان يخفف عنها بعض التخفيف، وأخيراً أخرج شاتوف من الغرفة. فبقي على فسحة السلم، مستنداً إلى الجدار، في الوضع الذي فاجأه فيه إركل بالأمس. كان يرتعش كورقة في مهب الريح، وكان يخشى أن يفكر. ولكن، كما يحدث للمرء في الحلم، كان فكره يتابع الصور التي تتشكل في خياله وتنقطع في كل لحظة. لم يعد يسمع أنات، بل أصبح يسمع إعوالات رهيبة، وصرخات كصرخات وحش، صرخات لا تُطاق تصل إليه من الغرفة. أراد أن يسدّ أذنيه، ولكنه لم يستطع أن يعزم أمره على ذلك، وجثا على ركبتيه مكرراً بغير شعور: "ماري! ماري!" وفجأة سمع صرخة جديدة أرعشته وأنهضته بوثبة واحدة، هي صرخة طفل صغير، صرخة ضعيفة، كأنها مصدوعة. فرسم على صدره إشارة الصليب وهرع إلى الغرفة. كانت آرينا بروخوروفنا تمسك كائناً صغيراً

أحمر مجعّداً، لا حول له ولا قوة، يستدر الشفقة، يمكن أن تعصف به ذرة خفيفة كأنه ذرة من غبار، ولكنه يصرخ ويحرك ذراعيه وساقيه الصغيرة كمن يريد أن يطالب بحقه في الحياة. وكانت ماري كالمغمى عليها، لكنها فتحت عينها بعد دقيقة، وألقت على شاتوف نظرة غريبة، نظرة جديدة كل الجدة، نظرة كان لا يستطيع أن يفهمها بعد، ولا رآها أبداً قبل الآن.

سألت بصوت فيه ألم:

- صبي؟ صبي؟

فأجابتها آرينا بروخوروفنا وهي تقمط الطفل:

- نعم، صبي بلدين.

وقبل أن تضعه بين وسادتين على السرير، ناولته شاتوف لحظة، فإذا بماري، وكأنها تخشى أن تراها آرينا بروخوروفنا، تومئ إلى زوجها، فيسرع يقرب منها الطفل.

دمدمت تقول بصوت ضعيف وهي تبسم:

- ما أجمله!

فهمت آرينا بروخوروفنا تقول وقد أدهشها ما رآته في وجه شاتوف من تهلل الأسارير:

- انظروا إليه قليلاً! انظروا إلى وجهه العجيب!

فجمجم شاتوف قائلاً وقد أسكره الكلام الذي قالته ماري عن الطفل:

- ابتهجي يا آرينا بروخوروفنا... إنها فرحة كبرى!

فصاحت آرينا بروخوروفنا تقول مرحةً وهي تذهب وتجيء في الغرفة لترتبها:

- فرحة كبرى؟ ما هذا الذي تقول؟

فدمدم شاتوف يقول كالسكران:

- إن انبثاق كائن جديد سر كبير، سر لا يفهم يا آرينا بروخوروفنا. خسارة أنك لا تفهمين هذا.

كان شاتوف كمن فقد عقله، وكانت الكلمات كأنها تخرج من فمه رغم إرادته. وتابع كلامه يقول:

- كانا اثنين، فإذا بكائن إنساني جديد يظهر: روح جديدة، تامة مكتملة، لم تخلق مثلها يد إنسانية قط، فكر جديد، حب جديد. هذا أمر يكاد يكون رهيباً. لا شيء أعظم من هذا في العالم.

- أمواج من الكلام! ليس الأمر كله إلا نموّ الجسم، ولا شيء غير هذا. لا سرّاً!

كانت آرينا بروخوروفنا تضحك ضحكاً مرحاً صريحاً. وتابعت كلامها تقول:

- على هذا الأساس يكون نشوء أحقر بعوضة سرّاً من الأسرار. ولكن اسمعي ما سأقوله لك: الأجدر أن لا يولد في العالم بشر بلا فائدة منهم. قبل أن تلدوا أطفالاً أبدأوا بتغيير كل شيء، بحيث لا يكونون بغير فائدة منهم. أما الآن فيجب عليك أن تحملي الوليد بعد غد إلى ملجأ اللقطاء. قال شاتوف مطرقاً إلى الأرض:

- لن أحمله إلى ملجأ اللقطاء بحال من الأحوال!
- أتنبأه؟

- هو ابني منذ الآن!

- طبعاً. إنه يحمل اسم شاتوف، إن القانون نفسه يوجب أن يكون اسمه شاتوف. فلا تمثّل دور محسن إلى الإنسانية. إنك لا تستطيع الاستغناء عن الألفاظ الكبيرة! هذا كله حسن جداً. ولكن آن لي أن أنصرف. كذلك قالت آرينا بروخوروفنا وقد فرغت من ترتيب الغرفة. وأردفت تقول:

- سأرجع في هذا الصباح مرة أخرى، وسأعود أيضاً في المساء إذا وجب الأمر. أما الآن وقد تمّ كل شيء على ما يُرام، فيجب أن أزور نساء أخريات ينتظرنني. لقد عثرت على امرأة عجوز يا شاتوف، لكن لا تتكل عليها وابق هنا. قد يُحتاج إليك. أعتقد أن ماريا اجناتيفنا لن تطردك... هيا، هيا، أنا أمزح. وبقرّب البوابة التي رافق إليها شاتوف المولدة مشيعاً، أضافت تقول:

- لقد أضحكنتي إلى آخر أيام حياتي. لن أتقاضى منك أجراً... لسوف أضحك من هذا حتى في المنام. حسبي ذلك. لم أر في حياتي رجلاً أبعث

على الضحك منك هذه الليلة.

وانصرفت مرتاحة أشد الارتياح، راضية كل الرضى. كانت تحدّث نفسها قائلة: "إنه لواضح من منظر شاتوف ومن أقواله أن هذا الرجل قد صير نفسه أباً منذ الآن، وأنه ليس إلّا إمعة ضعيف الشخصية". ورغم أنها كان عليها أن تزور امرأة أخرى على الفور فقد ذهبت أولاً إلى بيتها لتبلغ فرجنسكي انطباعاتها.

بدأ شاتوف يكلم ماري خجلاً وجلاً فقال لها:
- ماري، إنها تقول إن عليك أن لا تنامي حالاً. لكنني أرى مع ذلك أن هذا سيكون شاقاً جداً عليك. سأجلس هنا، قرب النافذة، أسهر عليك، هل تريدان؟

قال ذلك وجلس قرب النافذة وراء الديوان، بحيث لا تستطيع أن تراه. ولكنها نادته بعد دقيقة، وسألته بلهجة احتقار أن يرتب وسائدها. وبينما كان شاتوف ينفذ أمرها، كانت هي تحديق إلى الجدار بإصرار.

- ما هكذا! ما هكذا! يا لخرافة يدك!

كان شاتوف يبذل كل ما في طاقته.

وأمرته على حين فجأة قائلة له بصوت أجش، جاهدة أن لا تنظر إليه:
- ملّ عليّ.

فارتعد ولكنه مال عليها.

- مزيداً من الميل... ما هكذا... اقترب أكثر!...

وفجأة أمرت يدها اليسرى حول عنق شاتوف. وأحسّ شاتوف على جبينه بقبلة حارة مخضلة.

- ماري!

كانت شفتا المرأة الشابة تختلجان. وكان واضحاً أنها تحاول أن تسيطر على نفسها، ولكنها أنهضت جسمها فجأة، وقالت متقدة العينين:

- إن نيقولا ي ستافروجين رجل شقي!

وبارحتها قواها بغتة فعادت تتهالك على السرير، دافئة رأسها في الوسائد، وانفجرت باكية وهي تضغط بيديها يد شاتوف.

ومنذ تلك اللحظة لم تفلت زوجها. وطلبت إليه أن يجلس إلى جانب سريرها. وكانت لا تستطيع أن تتكلم، فهي تتأمله ملياً، وقد ألّمت بوجهها ابتسامة افتتاح، ابتسامة طفلة صغيرة بلهاء. كل شيء كان يبدو لها متغيراً. أخذ شاتوف يبكي بكاء طفل، ثم طفق يتكلم في

ما هبّ ودبّ بلهجة الملهم كأنه سكران، ويقبل يديها من حين إلى حين مرة تلو مرة. وكانت هي تصغي إليه نشوى، ربما من دون أن تفهم ما كان يقول، ولكنها تمسّد شعره بيد ضعيفة واهنة، وترتبه وتصففه وهي تتأمله بحب ووجد. كلمها عن كيريلوف، وعن الحياة الجديدة التي ستبدأ بالنسبة إليهما، وعن وجود الله، وعن طيبة البشر. ومن فرط حماستهما، أخرجها الطفل من أقماطه ليُعجبا به مزيداً من الإعجاب.

هتف شاتوف قائلاً وهو يمسك الطفل في ذراعيه:

- ماري! لقد انتهينا من الهذيان القديم، من الخزي، من الموات القذر. ألا فلنبداً العمل نحن الثلاثة! إن حياة جديدة تفتح ذراعيها لنا! نعم، نعم! ولكن ماذا نسميه يا ماري؟

فأجابت تكرر سؤاله بدهشة:

- ماذا نسميه؟

وارتسم على وجهها فجأة ألمٌ شديد.

وضمت يديها إحداهما إلى الأخرى، ونظرت إلى شاتوف عاتبة الهيئة، ودفنت وجهها في الوسائد.

هتف شاتوف يسألها مرتاعاً:

- ماذا؟

- كيف أمكنك أن... كيف أمكنك أن... آه... عقوق!

- عقوك يا ماري، عقوك يا ماري!... أنا إنما سألت ماذا نسميه... لست

أفهم...

قالت وهي تُنهض رأسها المحترق المبلل بالدموع:

- سنسميه إيفان، إيفان. كيف أمكنك أن تتصور أن في وسعنا أن نسميه

باسم آخر، باسم "فطيع"؟

- ماري، هدئي نفسك. إن أعصابك محتاجة!

- وهذه فظاظَةٌ أخرى منك. لماذا تنسب دموعي إلى احتياج أعصابي؟ ...
يميناً لو اقترحتُ أن نسميه بذلك الاسم ... ذلك الاسم الفظيع ... لو افقت
أنت فوراً، حتى لقد لا تنتبه إلى الأمر أي انتباه. آه ... ما أشد عقوقكم ...
ودناءتكم ... جميعاً، جميعاً! ...

وبعد دقيقة، ساد بينهما السلام طبعاً، وألح عليها شاتوف أن تنام قليلاً.
فنامت، ولكن من دون أن تدع يده التي كانت تقبض عليها بيديها. وكانت
تستيقظ من حينٍ إلى حين، فتتظر إليه كأنها خائفةٌ أن ينصرف، ثم تغفو ثانيةً
على الفور.

وصلت العجوز التي أرسلها كيريلوف حاملّة "تهنئاته"، وحاملّة كذلك
شايّاً ساخناً وشرائح لحم ومرقاً وخبزاً أبيض "لماريا أجناتيفنا". فشربت
المريضة المرق بشراهة، وقمطت العجوز الطفل. وأجبرت ماري زوجها
شاتوف على أن يأكل شريحة لحم أيضاً.

وكان الوقت يمضي. وأخذ التعب من شاتوف كل مأخذ فغفا على كرسي
مستنداً برأسه إلى وسادة زوجته. وعلى هذه الحال إنما وجدتهما آرينا
بروخوروفنا حين جاءت برأبوعدها. فأيقظتهما مرحةً، وألقت إلى ماري
بتعليماتها، وفحصت الطفل، وحظرت على شاتوف مرةً أخرى أن يترك
زوجته. ثم بعد أن مازحت الزوجين بشيء من الازدراء والتعالي، انصرفت
راضيةً مسرورة، كما فعلت في الصباح.

حين استيقظ شاتوف، كان الظلام قد خيم، فأشعل الشمعة، وأسرع
ببحث عن العجوز، فما كان أشد دهشته حين هبط السلم فإذا هو يسمع وقع
خطواتٍ خفيفة محاذرة. كان هناك رجل يتقدم نحوه: إنه إركل.

همس شاتوف يقول له:

- لا تدخل.

ثم أمسك يد الزائر وقاده نحو البوابة. وقال له:

- انتظرني هنا. سأرجع فوراً. نسيك تماماً. لقد عرفت كيف تذكّرني بك!
بلغ شاتوف من الاستعجال أنه لم يدخل على كيريلوف واكتفى بمناداة

المرأة العجوز. وقد غضبت ماري أشد الغضب واستاءت أشد الاستياء من أنه "أمكن أن يخطر بباله أن يتركها وحيدة".

فهتف يقول متحمساً:

هذه آخر مرة. إن طريقاً جديدة تنشق أمامنا، ولن نفكر أبداً، أبداً، في هول الأيام الماضية.

واستطاع أن يهدئها بعض التهذئة، ووعدّها أن يرجع في الساعة التاسعة تماماً، وقبلها وقبل الطفل، وأسرع يدرك إركل.

اتجه الرجلان نحو حديقة آل ستافروجين، في سكفورشنيكي، حيث كان شاتوف، قبل سنة ونصف سنة، قد دفن في موضع ناء، على حدود الحديقة، عند غابة صنوبر، المطبوعة التي عهد بها إليه. إن المكان موحش، مقفر، بعيد عن مسكن آل ستافروجين. والمسافة بينه وبين منزل فيلييوف تُقدَّر بثلاثة فراسخ ونصف، وربما بأربعة فراسخ.

قال شاتوف سائلاً:

- هل نقطع الطريق كله سيراً على الأقدام؟ إنني أفضل كراء عربة.

فقال إركل:

- بل يجب أن نقطع الطريق سيراً على الأقدام. لقد أصروا على هذا كثيراً. إن الحوذي يمكن أن يتخذ شاهداً.

- طيب. لا بأس. المهم أن أنتهي، أن أنتهي!

وكانا يسيران بخطى سريعة.

هتف شاتوف يسأل صاحبه:

- إركل، بني، هل سعدت في حياتك يوماً من الأيام؟

فقال إركل متعجباً:

- يبدو لي على كل حال أنك الآن سعيد.

الفصل السادس

ليلة مشقات ومخاوف

أثناء النهار طاف فرجنسكي على بيوت جميع "أصحابنا" لينبئهم بأن شاتوف لن يشي بهم حتماً، وذلك بسبب عودة امرأته التي ولدت عنده منذ قليل: كان يستحيل على فرجنسكي أن يسلم بأن شاتوف يمكن أن يكون خطراً في هذا الأوان، "لمعرفته بالقلب الإنساني". ولكن ما كان أشد حسرة فرجنسكي حين لم يجد أحداً منهم في بيته، إلا إركل وليامشين. ولقد أصغى إركل إلى كلامه صامتاً رقيق الهيئة. ولكن حين ألقى عليه هذا السؤال المباشر: "أأنت ذاهب اليوم إلى الموعد في الساعة السادسة؟" أجابه إركل وهو يبتسم: "طبعاً!".

أما ليامشين فقد كان في سريره، دافئاً رأسه تحت الغطاء، وكان يبدو عليه أنه مريض فعلاً. وحين رأى فرجنسكي خاف خوفاً شديداً، ومنذ أن أخذ فرجنسكي يتكلم تضرع إليه، محركاً يديه، بأن يُترك هادئاً مرتاحاً. غير أن المعلومات التي ذكرها فرجنسكي عن شاتوف بدت له هامة فأصغى إليها بانتباه. حتى إذا علم أن زائره لم يجد أحداً من "أصحابنا" في بيته، أزعجه ذلك كثيراً. وقد اهتز فرجنسكي هو أيضاً حين قصَّ عليه ليامشين، بكلام مفكك، ما وقع لعدكا (وكان قد علم ذلك من ليوتين). فلما ألقى عليه فرجنسكي هذا السؤال المباشر: "هل يجب الذهاب إلى الموعد؟"، عاد ليامشين يضطرب وأعلن "أن ذلك كله لا شأن له هو به، وأنه لا يعرف شيئاً، وأن عليهم أن يتركوه هادئاً".

رجع فرجنسكي إلى بيته قلقاً مرهقاً. ولقد كان يصعب كثيراً أن يخفي عن أسرته ما يعتمل في نفسه، لأنه اعتاد أن لا يكتُم عن امرأته شيئاً. ولقد كان يمكن أن يرقد أخيراً في سريره مثل ليامشين لولا أن فكرةً جديدة قد نبتت فجأةً في ذهنه المحموم، فكرةً بدله أنها يمكن أن تدبر الأمور بما يرضي الجميع. وقد بثت هذه الفكرة في نفسه شجاعةً، حتى إنه أصبح ينتظر الساعة المحددة نافذ الصبر، وانطلق يسير إلى مكان الموعد المضروب في وقت أبكر من اللازم.

كان المكان حزيناً كثيباً على حدود حديقة آل ستافروجين الواسعة. لقد ذهبَتْ إليه خصيصاً في ما بعد، وإنّي لأتخيل مدى ما كان يبدو عليه ذلك المكان من جهامة وشؤم في ذلك المساء الحزين من أماسي الخريف. كانت أشجار الصنوبر الضخمة الطاعنة في السن تشكّل في ظلمات الغابة بقعاً سوداً مبهمه. وقد بلغت الظلمة من الحلك أن المرء لا يكاد يرى قدّامه أكثر من خطوتين. ولكن بطرس ستيفانوفتش وليبوتين قد تزودا بمصابيح. إن مغارة من حجارة غير مقدودة، مغارة مضحكة، كانت قد بُنيت في ذلك المكان لا يدري أحد متى، ولا يدري أحد لاي غرض بنيت. والمائدة والكراسي الموجودة في داخل المغارة كانت منخورة مسوّسة متأكّلة تتساقط غباراً. إن بين منزل السادة أصحاب الأرض وبين الغابة غدراناً ثلاثة تتعاقب على مسافة فرسخ. والغدير الثالث يقع يمينه على بعد نحو مائتي متر من المغارة. يصعب على المرء أن يفترض أن ضجةً ما، كصرخة أو حتى طلقة رصاص، يمكن أن يسمعها سكان المنزل الذي هجره أصحابه ولم يبق فيه، منذ سفر نيقولا في سيفولودوفتش بالأمس وسفر ألكسي إيجورتش، إلّا خمسة خدم عجائز أو ستة. ومن الجائز جداً على كل حال، حتى لو سمعوا صرخات ألم أو نداءات استغاثة، أن لا يزعموا أنفسهم بالانطلاق إلى مكان الصوت إغاثةً للضحية.

في الساعة السادسة وعشرين دقيقة كان الجميع قد اجتمعوا، إلّا إركل الذي كان عليه أن يقود شاتوف. في هذه المرة لم يتأخر بطرس ستيفانوفتش.

لقد وصل مع تولكاتشنكو. وكان تولكاتشنكو قاتم الوجه مهموم النفس. لقد بارحته وقاحته المعهودة فيه، وبارحته رباطة جأشه وثقته بنفسه. إنه لا يترك بطرس ستيفانوفتش، ويبدو مخلصاً له بغير تحفظ. وهو الآن كثير الحركة والسعي، لا يكف عن الهمس في أذن صاحبه، ولكن صاحبه لا يكاد يجيبه أو هو يجمع منزعج الهيئة بيضع كلمات تخلصاً منه.

ولقد وصل شيجالوف وفرجنسكي قبل بطرس ستيفانوفتش بقليل. فلما أبصره انسحب متحجج، ملتزم الصمت. فرفع بطرس ستيفانوفتش مصباحه وتفرس فيهما بانتباه فيه استهانة واحتقار، قائلاً لنفسه: "إنهما يستعدان للكلام".

سأل مخاطباً فرجنسكي:

- ألم يجيء ليامشين؟ من قال إنه مريض؟

أجاب ليامشين قائلاً وهو يخرج من وراء شجرة:

- أنا هنا.

كان يرتدي معطفاً ضخماً، وقد أحاط عنقه وكتفيه بغطاء، فلا يكاد يميّز المرء وجهه إلا بكثير من العناء، ولو سلط عليه ضوء المصباح. - لا ينقص إذاً إلا ليويتين.

وخرج ليويتين من المغارة من دون أن يقول كلمة واحدة.

دفع بطرس ستيفانوفتش مصباحه من جديد. وقال له:

- لماذا تختبئ؟ لماذا لم تخرج في الحال؟

فدمدم ليويتين يقول، ربما من دون أن يعرف ماذا كان يريد أن يقول على

كل حال:

- أفترض أننا محتفظون بحرية... حركاتنا..

قال بطرس ستيفانوفتش رافعاً صوته، محدثاً بذلك جواً يناقض جو

الهمس الذي يسود منذ قليل:

- أيها السادة... أظن... أنكم تدركون أنه لا فائدة الآن من الإفاضة في

الكلام، لقد قيل أمس كل شيء، وكُرِّر كل شيء، بوضوح، وبجلاء. ولكنني

أرى في الوجوه أن بعضكم يود أن يتكلم. فليتكلم، بأقصى سرعة. ليس لدينا متسع من الوقت: من الممكن أن يجيء به إركل بين لحظةٍ وأخرى... تدخل تولكاتشنكو قائلاً لا يدري أحد لماذا: - لسوف يجيء به حتماً.

وقال ليوتين يسأل من دون أن يعرف أيضاً لماذا يلقي هذا السؤال: - إذا لم يخطئ تقديري، فإن أول شيء نفعله هو استلام المطبعة، أليس كذلك؟

- حتماً. علام نضيّع مطبعة؟

بهذا أجاب بطرس ستيفانوفتش وهو يقرب المصباح من وجه ليوتين. واستطرد يقول:

- لكننا اتفقنا بالأمس على أن استلام المطبعة ليس إلّا خدعة. سوف يدلنا على المكان الذي دفن فيه المطبعة، فتتولى نحن إخراجها من الأرض فيما بعد. إنني أعلم أنها على مسافة عشر خطوات من إحدى زوايا هذه المغارة. كيف أمكن أن تنسى هذا يا ليوتين؟ شيطان يأخذك! لقد تم الاتفاق على أن تمضي إلى لقائه وحدك، ثم لا تظهر نحن إلّا بعد ذلك... إن أسئلتك غريبة. اللهم إلّا أن يكون لكلامك دافعٌ واحدٌ هو الرغبة في الكلام لا أكثر...

كان وجه ليوتين مريداً، ولم يجب بكلمة. ولبت الجميع صامتين بضع لحظات. وقامت الريح تهب على ذرى أشجار الصنوبر فتهزّها.

أضاف بطرس ستيفانوفتش يقول نافذ الصبر:

- آمل أيها السادة أن يقوم كل منكم بواجبه.

دمدم فرجنسكي يقول منفعلًا أنفعلاً شديداً، وهو يجري بيديه حركاتٍ عريضة:

- أعرف أن زوجة شاتوف قد رجعت إليه هذه الليلة، وأنها ولدت. ومن يعرف القلب الإنساني. يدركُ بدهاءة... أنه لن يشي بنا... لأنه سعيد!... لقد سعيت إلى الجميع ركضاً في هذا اليوم... لكنني لم أجد أحداً... فلعلنا نستطيع أن نعدل الآن عن...

وتوقف عن الكلام منقبض الحلق.

فسأله بطرس ستيفانوفتش وهو يتقدم منه:

- إذا أصبحت سعيداً على حين فجأة، فهل تراجع لا عن وشاية (لأن الأمر ليس أمر وشاية)، بل عن القيام بواجبٍ مخوفٍ ببعض الأخطار، واجبٍ تصورته قبل أن تعرف سعادتك، واجبٍ تعدّه واجبك، رغم مخاطره ورغم ضياع سعادتك؟

- لا، لا أراجع، لا أراجع بحالٍ من الأحوال!

كذلك صرخ فرجنسكي مرتعشاً أشد الارتعاش، بحماسةٍ تكاد تكون مضحكة.

- أنت تؤثر إذاً أن تعود شقيّاً تعيساً على أن تكون جباناً رعيدياً!

- نعم، نعم، بالعكس... أؤثر أن أكون جباناً... لا، ليس هذا ما أريد أن أقوله... أريد أن أقول إنني أؤثر أن أكون شقيّاً على أن أكون جباناً.

- فاعلم إذاً أن شاتوف يعدّ هذه الوشاية واجباً مقدساً، ويعدها عملاً متفقاً ومبادئه كل الاتفاق. والبرهان على ذلك أنه يخاطر كثيراً حين يسلمنا للسلطات. صحيح أن السلطات ستغفر له أشياء كثيرة، مراعاةً لوشايته، وإكراماً لها. ولكن رجلاً مثله لا يتقهقر في يومٍ من الأيام عن القيام بما يعده واجباً. ما من سعادة تبقى وتدوم. لسوف يثوب إلى نفسه منذ الغد، فيلوم نفسه لو مآماً مراً، ثم ينفذ ما عقد العزم عليه. ثم أين السعادة في رجعة امرأته إليه بعد غياب ثلاث سنين لتلد في بيته ولداً حملت به من ستافروجين؟

قال شيجالوف:

- ولكن ما من أحدٍ رأى تلك الوشاية على كل حال!

فصرخ بطرس ستيفانوفتش يقول:

- أنا رأيته. إنها موجودة. وهذا الكلام كله غباءٌ مطلق أيها السادة.

فانفجر فرجنسكي فجأةً يقول:

- وأنا أحتج، أحتج بكل قواي... إنني أريد... إليكم ما أريد: حين يصل

نهب إلى لقائه جميعاً، ونسأله عن حقيقة الأمر. فإذا صحَّ أن هناك وشاية

طلبنا إليه أن يعدل عنها وأن يحلف على ذلك... وعندئذ ندعه يتصرف. على كل حال يجب أن نحكم عليه، لا أن نختبئ ثم ننقض عليه.

- منتهى الغباء أن نفسد عملنا كله بالركون إلى يميني يحلفه. أيها السادة، إن ما تفعلونه الآن لهو البلاءة بعينها! أهذا هو إذاً موقفكم في ساعة الخطر؟

كان فرجنسكي لا يزال يردد قوله:

- أحتج... أحتج...

- على كل حال، سُدَّ بوزك! وإلا لم نتمكن من سماع الإشارة. إن شاتوف (أوه! ما هذا الغباء كله!)... سبق أن قلت لكم إن شاتوف من دعاة السلافية، أي أنه من أغبى الناس طراً... على كل حال، لا يهمني هذا... لا يعنيني هذا في شيء!... إنكم بمقاطعاتكم لي لا تزيدون على إرباك فكري، وتشويش ذهني... إن شاتوف، أيها السادة، كان رجلاً ساخطاً، ولما كان عضواً في الجمعية رغم كل شيء، سواء أأراد ذلك أم لم يردده، فلقد كنت آمل حتى آخر لحظة أن نستطيع الاستفادة منه بصفته ساخطاً. وكنت أهتم به وأدريه وأراعيه رغم التعليمات القطعية التي صدرت إليّ بشأنه. ومع ذلك قرر أخيراً أن يشي بنا! إلى جهنم على كل حال!... ولكن فليجرؤ واحدٌ منكم أن ينسحب الآن! ما من أحد يحق له أن يترك "القضية". تستطيعون أن تقبلوا شاتوف إذا شاء قلبكم ذلك، ولكن ليس من حقكم أن تعرّضوا كل شيءٍ للخطر ركوناً إلى عهدٍ يقطعه على نفسه، أو يمينٍ يحلفه. وليس يتصرف هذا التصرف إلا خنازير أو أناس باعوا أنفسهم للحكومة...

أسرع لبيوتين يسأل قائلاً:

- من الذي باع نفسه للحكومة هنا؟

- ربما أنت. خير لك أن تسكت يا لبيوتين. إنك لا تتكلم إلا بحكم العادة. الذين باعوا أنفسهم للحكومة هم جميع الذين يخافون في لحظة الخطر. لن تخلو صفوف الجبناء يوماً من غبي يهرب في آخر دقيقة صارخاً: "المغفرة المغفرة! إنني أسلمكم إياهم جميعاً". ولكن اعلّموا أيها السادة أنه ما من وشاية يمكن أن تجعلكم تحصلون على العفو. قد يُخَفَّف العقاب درجتين،

ولكنه سيظل نفيًا إلى سيبيريا. هذا عدا أنكم لن تفلتوا عندئذٍ من سيفٍ آخر
أقطع من سيف الحكومة.

كان بطرس ستفانوفتش غاضباً في حديثه أشد الغضب. وهنا تقدم
شيجالوف نحوه بخطى ثابتة حازمة، وقال بثقة هادئة ومنطق منظم على
عادته (واني لأعتقد أنه لو تزلزلت الأرض من تحته، لما رفع صوته ولما غيّر
ترتيب كلامه أي تغيير):

- إنني أقلب المسألة على وجوهها المختلفة منذ مساء أمس، ولقد
وصلت بعد طول التفكير إلى نتيجة واضحة هي أن قتل شاتوف ليس فقط
تضييعاً لوقتٍ ثمين يمكن أن يُستعمل استعمالاً أجدي وأجل شأنًا، بل
هو كذلك انحرافات من تلك الانحرافات المشؤومة التي طالما أضرت
بالقضية وأخرت نجاحها عشرات السنين، بإخضاعها لتأثير أناسٍ سياسيين
ليسوا اشتراكيين صرفاً. لقد جئت إلى هنا لغرضٍ واحد أن أحتج على هذا
المشروع، آملاً أن يؤثر عملي هذا في العقول، وها أنا ذا أنسحب لا خوفاً
من الخطر ولا حباً بشاتوف الذي لا أشتي أن أقبّله البتة، بل لأن هذا الأمر،
من بدايته إلى نهايته، يناقض برنامجي. أما عن الوشاية بكم، ففي وسعكم أن
تكونوا مطمئنين كل الاطمئنان: فلن أشي بكم!

قال شيجالوف ذلك ثم استدار وانصرف.

هتف بطرس ستفانوفتش قائلاً وهو يخرج مسدسه من جيبه:

- شيطان يأخذه! لسوف يلقيهما فيحذر شاتوف.

وسمع صوت ديك المسدس وهو يُرفع:

قال شيجالوف وهو يلتفت:

- ثق أنني إذا لقيت شاتوف فقد أحياه ولكنني لن أحذره.

- هل تعلم أن هذا يمكن أن يكلفك غالياً يا سيد فورييه؟

- أرجوك أن تلاحظ أنني لست فورييه. إنك إذ تخلط بيني وبين ذلك الثرثار

العاطفي المجرد، تبرهن على أنك تجهل مخطوطتي جهلاً تاماً، رغم أنها
كانت بين يديك، أما عن تهديدك، فإنني أقول لك إنك قد أخطأت إذ رفعت

ديك مسدسك: فإن هذا لا يمكن إلا أن يضرك في اللحظة التي نحن فيها. وإذا نويت أن تتقم مني غداً أو بعد غد، فإنك ستجلب لنفسك بقتلي هموماً جديدة: سوف تقتلني، ولكنك ستعود إلى مذهبي عاجلاً أو آجلاً. الوداع.

- في تلك الدقيقة دَوَّتْ صفرة صفارة على مسافة مائتي متر، في الحديقة، من جهة الغدير. وكما اتَّفَق بالأمس ردَّ لیبوتین على الصفرة فوراً بصفرة مثلها. (كان قد اشترى في ذاك الصباح نفسه من السوق صفارة من تلك الصفارات الصغيرة التي يستعملها الأطفال، لأنه لا يستطيع الاعتماد في الصفير على فمه الأثرم). وكان إرکل قد أبلغ شاتوف في أثناء الطريق أنه سيتبادل إشارات مع لیبوتین، حتى لا يراود شاتوف أي اشتباه.

قال شيجالوف وهو يخفض صوته:

- لا تخش شيئاً. سوف أتجنبهما، فلا يبصراني.

وبدون أن يسرع، قفل راجعاً إلى بيته عبر الحديقة المظلمة.

إن الناس يعرفون الآن أدق التفاصيل من حادثة مقتل شاتوف. وإليكم ما جرى:

في البداية تقدم لیبوتین يستقبل شاتوف وإرکل عند باب المغارة. فبادر شاتوف يقول له، من دون أن يجيبه، ومن دون أن يمد له يده، رغبة منه في الانتهاء من الأمر بأقصى ما يمكن من سرعة، قال له بصوت قوي:

- هيه، أين معولك؟ أليس معك مصباح آخر؟ لا تخف! ليس في المكان مخلوق. ولو أطلقت قبلة من مدفع لما سمع أحدٌ في سكفورشنكي شيئاً! المطبعة هنا، في هذا المكان تماماً...

قال شاتوف ذلك وهو يضرب بقدمه موضعاً من الأرض يقع على مسافة عشر خطواتٍ من زاوية المغارة فعلاً، من جهة الغابة.

في تلك اللحظة نفسها وثب تولكاتشنكو على شاتوف من خلف، وانقض إرکل على كوعيه يمسكهما، وهرع لیبوتین ينقض عليه من أمام. واستطاع الثلاثة أن يقلبوه فوراً، وأن يهشموه على الأرض. وعندئذٍ تدخل بطرس ستيفانوفتش مسلحاً بمسدسه.

يقال إن شاتوف قد التفت إلى جهته حينذاك، فاستطاع أن يتعرفه. إن مصابيح ثلاثة كانت تنير المشهد. أطلق شاتوف صرخة قصيرة، يائسة، غير أن بطرس ستيفانوفتش أطبق مسدسه على جبهة شاتوف بيد ثابتة واثقة، وضغط الزناد، فانطلقت الرصاصة في رأس شاتوف، ولم يكن صوت انطلاقها قوياً في ما يقال. مهما يكن من أمر، فإن أحداً لم يسمع صوت انطلاق الرصاصة في سكفورشنيكي. لكن شيجالوف الذي لم يكن بعيداً بعداً كبيراً قد سمع الصرخة وصوت انطلاق الرصاصة حتماً، ومع ذلك لم يتوقف، وقد اعترف هو نفسه بهذا في ما بعد.

مات شاتوف تَوّاً، على وجه التقريب. وأظن أن بطرس ستيفانوفتش كان الشخص الوحيد الذي احتفظ لا بهدوئه في ما اعتقد، بل بحضور ذهنه. فها هو ذا يجلس القرفصاء، ويأخذ ينبش جيوب القليل بيد متعجلة لكنها ثابتة. فلم يجد مالا (كانت محفظة نقود شاتوف قد بقيت تحت وسادة ماريّا أجناتيفنا)، ولم يعثر إلا على ثلاث وريقات لا قيمة لها: رسالة تتعلق بأعمال، وعنوان كتاب، وفاتورة مطعم في الخارج كان شاتوف يحتفظ بها منذ سنتين لا يدري إلا الله لماذا! دسّ بطرس ستيفانوفتش هذه الوريقات في جيبه. وإذا لاحظ حينئذ أن رفاقه المتجمعين حول الجثة كانوا يتأملونها من دون أن يفعلوا شيئاً، أخذ يشتمهم شتماً فظاً غليظاً. فسرعان ما تاب إركل وتولكاتشنكو إلى رشدهما، فأسرعا ينفذان أوامره، فهرعا إلى المغارة، وعادا منها بصخرتين كبيرتين تزن كل واحدة منهما نحو عشرين رطلاً. ولما كانت النية منصرفة إلى إلقاء الجثة في الغدير الأقرب (الثالث)، فقد ربطت الصخرتان بقدميه وعنقه. إن بطرس ستيفانوفتش هو الذي تولى القيام بهذا العمل، أما تولكاتشنكو وإركل فلم يزيدا على أن أمسكا الصخرتين، ونقلها إليه. مدّ إركل صخرته أولاً. وبينما كان بطرس ستيفانوفتش يوثق قدمي الجثة متدماً ويربطهما بالصخرة مدمماً، وقد دام هذا وقتاً طويلاً، كان تولكاتشنكو مائلاً إلى أمام، على وضع يشبه أن يكون وضع الاحترام، ممسكاً الصخرة الثانية بيديه الممدودتين لينقلها إلى بطرس ستيفانوفتش بلا

إبطاء متى أمره بذلك، حتى إنه لم يخطر بباله أن يضع حمله على الأرض بانتظار صدور الأمر. فلما فرغ بطرس ستيفانوفتش من عمله نهض وتأمل الوجوه التي تحيط به، تأملها بانتباه. وعندئذٍ إنما حدث حدثٌ غريب، لم يكن يتوقعه أحدٌ قط، حادث أدهش الجميع.

سبق أن قلنا إن إركل وتولكاتشكو هما اللذان عملا، وأن الآخرين لبثوا في أماكنهم لا يفعلون شيئاً. وحين هجم الجميع على شاتوف فإن فرجنسكي هرع هو أيضاً، ولكنه لم يمسس شاتوف ولا ساعد في طرحه على الأرض. أما ليامشين فإنه لم ينضم إلى الآخرين إلا بعد أن أطلق فرخوفنسكي الرصاصة. وبينما كان فرخوفنسكي يربط الصخرتين بالجثة، أي خلال عشر دقائق تقريباً، كان من ينظر إلى وجوههم هؤلاء الناس يخيّل إليه أنهم أشبه بمن لا يشعر بما يحدث، ويحس أنهم إلى الدهشة والاستغراب أقرب منهم إلى القلق والاضطراب. إن ليويتين مائل إلى أمام، قرب الجثة. ووراء ينظر فرجنسكي من فوق كتفه مستطلعاً، حتى إنه منتصب على رؤوس الأصابع ليرى رؤيةً أحسن. أما ليامشين فقد اختبأ وراء فرجنسكي، يختلس نظرةً سريعةً إلى المشهد من حين إلى حين، ثم ما يلبث أن يعود إلى الاختباء فوراً. ولكن حين فرغ بطرس ستيفانوفتش من عمله ونهض واقفاً، أخذ فرجنسكي يرتعش ارتعاشاً شديداً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه على حين فجأة، ثم ها هو ذا يضم يديه إحداهما إلى الأخرى، ويصرخ خائفاً:

- ليس هذا أبداً! لا، لا، ليس هذا أبداً!

ولعله كان سيضيف إلى هذا الكلام شيئاً جديداً لو أن ليامشين أمهله. غير أن ليامشين لم يلبث أن قبض عليه من الخلف فجأة، وشده متشبثاً به تشبثاً قوياً، وطفق يطلق صرخاتٍ حادة رهيبة. إنه يتفق لرجل أصابه جزعٌ مبالغت وهلعٌ عنيف، أن يأخذ يصرخ بصوتٍ ليس صوته المألوف ولا يمكن أن يفترضه له أحد أبداً في الأحوال العادية. إن الأثر الذي يحدثه هذا الصوت في النفس إحساسٌ لا يحتمل ولا يُطاق في بعض الأحيان. فكَذلك كان ليامشين يصرخ بصوتٍ ليس صوتاً إنسانياً بل هو صوت حيواني. وظل

ليامشين قابضاً على عنق فرجنسكي من خلف وظل يصرخ صراخاً ما ينفك يشتد بلا توقف، محملاً العينين فاغراً الفم، ضارباً الأرض بقدميه فكأنه يقرع طبلاً. فبلغ فرجنسكي من فرط الخوف أنه أخذ يصرخ هو أيضاً، محاولاً، أن ينتزع نفسه من عناق ليامشين، وأخذ يتخبط ويجهد أن يضربه من خلف ما أمكنه أن يفعل، وقد استبد به واستولى عليه حنقٌ مسعور ما كان لأحد أن يتوقعه منه. وساعده إركل أخيراً في التخلص من ليامشين، ولكن حين استطاع فرجنسكي المرتاع أن يتخلص من ليامشين، نظر ليامشين حوله فأبصر بطرس ستيفانوفتش فهجم عليه وهو يطلق صرخاتٍ جديدة. وتعر بالجمّة فسقط فوقها، فتشبث ببطرس ستيفانوفتش تشبثاً بلغ من القوة أنه في اللحظة الأولى لم يستطع لا بطرس ستيفانوفتش نفسه ولا تولكاتشنكو ولا ليويتين أن يحملوه على تركه. فكان فرخوفنسكي يصرخ ويشتم ويضربه على رأسه بقبضتي يديه. حتى إذا أفلح في الإفلات منه أخيراً، أمسك مسدسه وصوبه على فم ليامشين الفاغر. ولكن ليامشين ظل يصرخ رغم التهديد، بينما كان تولكاتشنكو وإركل وليويتين ممسكين بذراعيه إمساكاً قوياً.

وأخيراً لفَّ إركل منديله حتى جعله كالكرة، فأدخله في فم ليامشين بحذق، فأوقف بذلك صراخه، بينما كان ليويتين وتولكاتشنكو يوثقان يديه وراء ظهره بحبل.

دمدم بطرس ستيفانوفتش وهو ينظر إلى المجنون قلقاً:

- غريب!

لقد كان مدهوشاً أشد الدهشة.

وأردف يقول حالم الهيئة شارد الذهن:

- كنت أتصوره غير ذلك!

وترك ليامشين في حراسة إركل مؤقتاً. لقد كان ينبغي الإسراع. إنهم قد صرخوا وأسرفوا في الصراخ حتى ليتمكن أن يكونوا قد نبهوا أهل سكفورشنيكي. أخذ بطرس ستيفانوفتش وتولكاتشنكو مصباحيهما، وأمسكا جثمان القتيل من تحت الرأس، كما رفعه ليويتين وفرجنسكي من القدمين.

كان الجثمان ثقيلاً بالصخرتين المربوطتين به. وكان ينبغي قطع مسافة مائتي خطوة بل أكثر. إن أقوى هؤلاء الرجال هو تولكاتشنكو. وقد نصح بأن يكون المشي منتظماً، ولكن أحداً لم يصغ إليه، وساروا كيفما اتفق. كان بطرس ستيفانوفتش يسير على اليمين. إنه مقوس الظهر تقوساً شديداً، يسند بكتفه رأس الميت، ويمسك الصخرة من تحتها باليد اليسرى. وإذا لم يخطر ببال تولكاتشنكو أن يساعده طوال نصف المسافة، فقد ناداه بطرس ستيفانوفتش شاتماً. فدوّت صرخته القصيرة في الصمت. ظل الرجال يتقدمون من دون أن يقولوا كلمة. حتى إذا صاروا على حافة الغدير صرخ فرجنسكي يقول من جديد، وقد ثناه حملة وأرهقه ثقله، صرخ يقول بصوت قلق خائف:

- ليس هذا أبداً، لا، لا، ليس هذا أبداً!

إن المكان الذي ينتهي عنده هذا الغدير الثالث، وهو غدير كبير، مكان خال لا يرتاده أحد، ولا سيما في هذا الأوان المتقدم من السنة. والماء قرب الحافة قد اجتاحتته الحشائش.

وُضعت المصابيح على الأرض. ورُجّحت الجثة، بضع لحظات ثم رميت في الغدير، فكان لسقوطها في الماء دوي أصم طويل.

رفع بطرس ستيفانوفتش مصباحه يحاول متابعة سقوط الجثة، وكذلك فعل الآخرون مستطلعين. ولكنهم لم يروا شيئاً: فإن الجثة المثقلة بالصخرتين قد هوت إلى القاع رأساً، وسرعان ما امّحت الدوائر التي ظهرت على سطح الماء حين سقوطها فيه. انتهى كل شيء.

قال بطرس ستيفانوفتش مخاطباً الجميع:

- أيها السادة، ليس يخامرني أي شك في أنكم تشعرون الآن بذلك الزهو المرتبط دائماً بتحقيق واجب ارتضى المرء أن يقوم به حراً من تلقاء نفسه. وإذا كنتم الآن، وأأسفاه، أشد اضطراباً من أن تحسوا ذلك الشعور، فلسوف تحسونه في غد حتماً، وإلا كان عاراً وخزياً أن لا تحسوه. أما السلوك المشين الذي سلكه ليامشين، فإنني أريد أن لا أرى فيه إلا نوبة مرض، ولا سيما أنه كان مريضاً بالفعل هذا الصباح في ما قيل لي. وأما أنت يا فرجنسكي، فتكفيك

لحظة تفكير حتى تدرك أن مصلحة القضية تجعل من المستحيل علينا أن نركن إلى عهد يقطعه شاتوف على نفسه، وأن ما فعلناه هو ما كان ينبغي فعله. سوف ترى في ما بعد أن الوشاية كانت مهياة كل التهيئة. إنني أوافق على نسيان صيحاتك! واعلموا أن لا شيء يهددنا الآن. فما من أحد يخطر بباله أن يشتبه في أحد منكم، وخاصة إذا أحستتم التصرف. أي أن كل شيء على وجه الإجمال رهن بكم ومتوقف على اقتناعكم بأنكم أحستتم عملاً، وهو اقتناع أمل أن يكون راسخاً في أنفسكم منذ الغد. من أجل هذا الغرض وأغراض أخرى إنما اجتمعتم، ولأنكم تؤمنون بأفكار واحدة إنما أنشأتم بحريتكم هذا التنظيم ليساعد بعضكم بعضاً، وليكون كل منكم قريباً على الآخر إذا اقتضى الأمر ذلك. إن كلاً منكم يقع على عاتقه عبء كبير يجب أن يحمله، وتقع على عاتقه مهمة ضخمة يجب أن يحققها. إنكم مدعوون إلى تجديد مجتمع منهوك فاسد عفن: فلتكن هذه الفكرة حافزاً يث فيكم الشجاعة ويحضكم على العمل باستمرار! إن جميع جهودكم يجب أن ترمى إلى انهيار كل شيء: الدولة وأخلاقها. سنظل وحدنا واقفين، نحن المهيئين منذ مدة طويلة لأن نستلم السلطة. فأما الأذكاء فسوف نجعلهم ملحقين بنا، وأما الأغبياء فسوف نركب على ظهورهم. ما ينبغي أن يقلقكم هذا. يجب علينا أن نعيد تربية الجيل الحالي، لنجعله جديراً بالحرية. لا يزال هناك ألاف من أمثال شاتوف. سوف ننظم صفوفنا من أجل أن نقود الحركة: إنه لعار علينا أن لا نستولي على ما يقدم نفسه إلينا إن صح التعبير. أنا ذاهب توالاً إلى كيريلوف. وفي صباح غد ستكون معي الرسالة التي يصريح فيها قبل موته بأنه مسؤول عن كل شيء. وسيبدو الأمر معقولاً جداً. أولاً لأنه كان على خصام شديد مع شاتوف: لقد عاشا في أمريكا جنباً إلى جنب، فأتسع وقتهما لأن يكونا عدوين. وثانياً لأن شاتوف قد هجر عقائده القديمة وهذا أمر معروف، فلا بد أن يكرهه كيريلوف لخيانته ولإمكان وشاية شاتوف به، فهذه إذا عداوة من العداوات التي لا تسبيل فيها إلى صلح. ذلك كله سيذكر في الرسالة. وسيعترف كيريلوف أيضاً بأنه آوى فذكا. وهكذا لن يستطيع أولئك الحمير

أن يفهموا من الأمر شيئاً، بل لن يخطر في بالهم أن يشتبها فيكم. غداً لن نلتقي أيها السادة. إن عليّ أن أقوم بجولة في المقاطعة. ولكنكم ستعرفون أخباري بعد غد. أنصحكم بأن تقضوا نهار غد في منازلكم. والآن يجب أن نسلك في العودة طرقاً مختلفة. إليك أعهد بليامشين يا تولكاتشنكو. ارجع به إلى بيته. وتستطيع أن تؤثر في فكره، وأن تشرح له خاصة أن خوفه يمكن أن يكون خطراً أشد الخطر عليه. ولا أريد أن أشك في قريبك شيجالوف، ولا فيك أنت يا سيد فرجنسكي: إنه لن يشي بنا. ولا يبقى علينا إلا أن نأسف لوضعه. على أنه لم يعلن أنه ترك الجمعية. لذلك لم يحن حين دفنه. ولكن فلنسرع يا سادة: الحذر واجب، ولو كان الآخرون حميراً...

انصرف فرجنسكي مع إركل. وقبل أن يعهد إركل بليامشين إلى تولكاتشنكو، اقتاده إلى قرب بطرس ستيفانوفتش وأعلن أن ليامشين قد ثاب إلى رشده، وأنه نادم، وأنه مستغفر، حتى إنه لا يتذكر ما حدث له تذكرًا واضحاً.

انصرف بطرس ستيفانوفتش وحيداً، وسلك الطريق الأطول، وهو الطريق الذي يدور حول الغدران، فما كان أشد دهشته حين بلغ منتصف الطريق فإذا هو يرى ليويتين ساعياً وراءه لاحقاً به، سائلاً إياه:

- بطرس ستيفانوفتش، هل تعلم أن ليامشين سوف يشي بنا؟

- لا بل سيثوب إلى صوابه فيدرك أنه إذا وشى بنا كان هو نفسه أول من يذهب إلى سبيريا. ما من أحد سيشي بنا الآن. وأنت أيضاً لن تشي. - وأنت؟

- سأسلمكم جميعاً بطبيعة الحال متى اشتبهت أيسر اشتباه فقدّرت أنكم مقبلون على خيانة. إنك لتعلم ذلك. ولكنك لن تخون. أمن أجل أن تقول لي هذا إنما ركضت ورائي مسافة فرسخين؟

- بطرس ستيفانوفتش، بطرس ستيفانوفتش! قد لا نلتقي بعد اليوم أبداً!

- من أين تأتي بهذا الكلام؟

- قل لي شيئاً واحداً لا أكثر...

- ما هو؟ أنا شخصياً أؤثر أن تنصرف...

- كلمة واحدة، ولكن بشرط أن تكون صادقة: هل حلقتنا التي تتألف من خمسة أعضاء هي الحلقة الوحيدة في العالم، أم هل هناك حلقات أخرى تبلغ عدة مئات؟ إنني ألقى هذا السؤال من ناحية رقيقة بمعنى عالٍ يا بطرس ستيفانوفتش.

- أرى ذلك من فرط احتياجك. ولكن هل تعلم أنك أشد خطراً من ليامشين؟

- أعلم، أعلم! ولكن أجبني.

- ما أكبر حماقتك! إنني لأتساءل: فيم يهتمك الآن أن تعرف أننا حلقة واحدة أم مائة؟

صاح لبيوتين يقول:

- معنى هذا أنه ليس هناك إلا حلقة واحدة. كنت أقدر ذلك. بل كنت واثقاً منه منذ مدة طويلة...

ويدون أن ينتظر جواباً آخر استدار وغاب في الظلام.

لبث بطرس ستيفانوفتش حالماً شارد الذهن لحظة. ثم قال يحدث نفسه فجأة: "لا، لن يخون أحد منهم. ولكن يجب أن يبقوا معاً وأن يطيعوا، وإلا، فلسوف... على كل حال ما أحقرهم من ناس!".

2

ذهب بطرس ستيفانوفتش أولاً إلى بيته وهياً حقيقته باعتناء من دون تعجل. إن القطار السريع يسافر في الساعة السادسة من الصباح. وهذا القطار الذي لا يسير إلا مرة كل أسبوع يعمل منذ مدة قصيرة على سبيل التجربة. وكان بطرس ستيفانوفتش قد أبلغ "أصحابنا" أنه سيجول قليلاً في المنطقة، ولكن نيته كانت غير ذلك في الواقع، كما ظهر هذا في ما بعد.

فلما فرغ من إعداد حقيقته، دفع أجرة مسكنه لصاحبة المنزل التي كان قد أبلغها أمر رحيله، وذهب بعربة إلى إركل الذي يسكن غير بعيد عن المحطة.

ثم لم يتجه إلى بيت كيريلوف إلا إلى الساعة الواحدة، وقد دخل إليه من الممر الذي كان يسلكه فدكا.

كان بطرس ستيفانوفتش معتكر المزاج جداً. وعدا المزعجات الكبيرة التي كانت آخذة بخناقه (من ذلك مثلاً أنه لا يزال لا يعرف شيئاً عن ستافروجين)، كان قد بلغه فيما أظن (لكنني لست واثقاً من هذا) نبأ جاءه سراً من بطرسبرج في أغلب الظن ينبهه إلى خطر كبير يهيم أن يحدث به بعد مدة قصيرة. إن أساطير كثيرة تروج الآن في مدينتنا عن هذا الموضوع طبعاً. ولكن لا يستطيع أن يعرف الحقيقة إلا أولئك الذين مهمتهم أن يعرفوا كل شيء. أما أنا فأعتقد أن بطرس ستيفانوفتش لا بد أنه كان له عملاء في خارج مدينتنا. فمن الجائز جداً أن يكون قد تلقى تنبيهاً ما، بل إنني لمقتنع، رغم الشك الشديد المستخف الذي عبر عنه ليبتوتين في ذروة كربه، أن بطرس ستيفانوفتش يمكن أن يكون له حلقتان أو ثلاث حلقات، في بطرسبرج أو في موسكو مثلاً، ولا بد أن يكون له على كل حال عدد من المنضوين، وأن تكون له علاقات لعلها غريبة كل الغرابة. إنه بعد رحيله بثلاثة أيام وصل إلى مدينتنا أمر بالقبض عليه فوراً، لا أدري هل للجرائم التي ارتكبتها عندنا أو لجرائم أخرى أيضاً. وقد جاء هذا الأمر في حينه، ليقوي الرعب الرهيب الذي يكاد يكون رعباً غيبياً، أعني الرعب الذي استولى على السلطات في المدينة وعلى المجتمع كله، بعد أن كان هذا المجتمع مصراً على عدم الاكتراث، وذلك حين اكتُشفت جريمة قتل شاتوف العجيبة التي أوصلت اضطرابنا إلى آخر مداه بملابساتها السرية الغريبة. ولكن الأمر بالقبض على بطرس ستيفانوفتش قد وصل بعد فوات الأوان، فحين وصل هذا الأمر إلى مدينتنا، كان بطرس ستيفانوفتش قد وصل إلى بطرسبرج واستقر فيها باسم مستعار. حتى إذا أحس أن الأمور تجري مجرى سيئاً، تسلل هارباً إلى خارج البلاد على الفور. ولكنني أستبق الأحداث.

حين دخل بطرس ستيفانوفتش على كيريلوف كان خبيث الوجه شرس الهيئة، حتى لكأنه حاقد على كيريلوف حقداً شخصياً فهو يريد أن ينتقم منه.

وبدا على كيريلوف أنه سرّ برؤيته. واضح أنه كان ينتظره منذ مدة طويلة، وأنه كان ينتظره على حالة من نفاذ الصبر تكاد تكون مرضية. كان وجهه شاحباً أكثر مما عهد فيه من شحوب. وكانت نظرة عينيه السوداوين ثقيلة ساكنة. قال وهو ينطق بألفاظه في مشقة:

- كنت أظن أنك لن تجيء.

ولكنه لم ينهض لاستقبال الزائر، وظل جالساً في ركن الديوان. ففترّس بطرس ستيفانوفتش في وجهه صامتاً لا ينبس بكلمة. ثم قال له أخيراً:

- هيا! كل شيء على ما يرام! لم نعدل عن خطتنا! مرحى!

وابتسم ابتسامة حماية وقحة ورعاية مؤذية. ثم أسرع يقول بمرح خبيث: - اسمع. لقد تأخرت عن الموعد. وليس عليك أن تلومني. لقد أهديت إليك ثلاث ساعات. - لا أريد أن تهدي إليّ ساعات إضافية. وليس في إمكانك أن تهدي إليّ هدية... يا غبي!

فارتعش بطرس ستيفانوفتش وسأله:

- كيف؟

ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه. فقال له وهو على تلك الهيئة نفسها التي تعبر عن رعاية وقحة:

- ما أسرع تأذك! أوه! أوه! أراك غضبت! إن الهدوء أفضل في مثل هذه اللحظة. وخير شيء هو أن تعد نفسك مثل كريستوف كولومب وأن لا تعدّني إلا فأرة لا يمكنها أن تهينك. سبق أن نصحتك بهذا أمس.

- لا أريد أن اعدّك فأرة!

- أياكون هذا مديحاً! أوه! الشاي بارد! كل شيء مقلوب رأساً على عقب. ما هذا الذي أراه هناك في صحن؟

واقترب من النافذة. وأضاف يقول:

- دجاجة بالرز!... ولكن لماذا لم يؤكل منها شيء؟ أنت إذاً في حالة تبلغ من الغرابة أن دجاجة لا...

- أكلت. ليس هذا شأنك. اسكت!

- طبعاً ليس هذا شأني. ولكن الأمرين في نظري لا يستويان. هل تتصور أنني لم أكد أتغدى؟ فإذا صحّ تخميني، وهو أنك لست في حاجة إلى هذه الدجاجة، كان في وسعي أن... هه؟
- كُل إن استطعت.

- شكراً، وسأشرب شاياً.

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وجلس إلى المائدة فوراً، على الركن الآخر من الديوان، وجعل يأكل بشراسة، مع استمراره على مراقبة ضحيته بطرف عينه. وكان كيريلوف يحدّق إليه بحنق يمازجه اشمئزاز، وكأنه لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره.

هتف بطرس ستيفانوفتش يقول من دون أن يكف عن الأكل:

- يجب علينا مع ذلك أن نتكلم في موضوعنا. لم تتراجع، هه؟ والرسالة؟
- قررت الليلة أن الأمرين عندي سواء. سوف أوقع الرسالة. وعن المنشورات التحريضية أيضاً؟

- نعم، أيضاً. سأملّي عليك النص على كل حال. ما اهتمامك بهذا؟ هل يعقل أن يهملك مضمون هذه الرسالة في مثل هذه اللحظة؟
- ليس هذا شأنك.

- طبعاً. لا يعدو الأمر بضعة أسطر تقول فيها إنك أنت وشاتوف قد وزعتما منشورات بمساعدة فدكا الذي كنت تؤويه. إن هذه النقطة الأخيرة، أعني فدكا وإقامته عندك، أمر هام. هي أهم شيء. ها أنت ذا ترى أنني صريح معك.

- تقول شاتوف؟ لماذا شاتوف؟ لن أتكلم عن شاتوف.

- يا للفكرة العجيبة! فيم يهملك هذا؟ إنك لا تستطيع أن تلحق به ضرراً بعد الآن!

- رجعت زوجته. ولقد استيقظت وأرسلت تسألني أين هو.

- أرسلت تسألك أين هو؟ هم... هذا شيء! قد تسأل مرة أخرى... يجب

أن لا يعرف أحد أنني هنا...

بدا القلق على بطرس ستيفانوفتش.

- لن تعرف شيئاً. لقد نامت ثانية. وإن آرينا فرجنسكي، مولّدها، هي الآن بقربها.

- أظن... أنها لن تسمع. ولكن من الأفضل، كما ترى، أن يُقفل الباب بالمفتاح.

- لا، لن تسمع. أمّا شاتوف، فسوف أخبئك في الغرفة الأخرى إذا جاء.

- شاتوف لن يجيء. وسوف تكتب أنكما تشاجرتما لأنه كان يستعد للوشاية بك هذا المساء... وأنك قتله.

هتف كيريلوف وهو يثب عن الديوان:

- مات؟

- اليوم، في الساعة الثامنة من المساء، بل قل أمس، لأن الساعة الآن هي الواحدة من الصباح.

- أنت الذي قتله... لقد تنبأت بذلك منذ أمس.

- لم يكن التنبؤ بذلك أمراً صعباً. قتله بهذا المسدس نفسه...

قال ذلك وأخرج مسدسه كمن يريد أن يريه كيريلوف، ولكنه لم يعده إلى جيبه، بل ظل قابضاً عليه باليد اليسرى، استعداداً لكل احتمال... وأردف يقول:

- انك لإنسان غريب يا كيريلوف: ألم تعرف أنت نفسك أن الأمور لا يمكن أن تنتهي إلى غير هذه النهاية مع هذا الغبي؟ لقد كان التنبؤ بذلك أمراً سهلاً. كم مرة شرحت لك! لقد كان شاتوف يستعد لوشاية، وكنت أراقبه. ولم يكن يمكننا أن ندعه يفعل. أنت نفسك تلقيت تعليمات بهذا الشأن. وقلت لي منذ ثلاثة أسابيع...

- اسكت. أنت قتله لأنه بصق في وجهك بمدينة جنيف.

- لهذا الأمر ولأمر آخر أيضاً، بل لأمر أخرى كثيرة، ولكن بدون كره على كل حال. ما لك؟ لماذا هذه الهيئة؟ أوه! أوه! علام هذه النظرة إلى الأمور!...

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك، وهبَّ يقف بوثة، ممسكاً مسدسه بيده لأن كيريلوف كان قد أمسك مسدسه الذي هبَّاه وألقمه منذ الصباح. وصوب بطرس ستيفانوفتش سلاحه نحو كيريلوف. فضحك كيريلوف ضحكة صفراء وقال له:

- اعترف أيها الوغد أنك تناولت مسدسك عالماً بأنني كنت سأقتلك... ولكنني لن أقتلك... رغم أن... رغم أن...

وصوب إلى بطرس ستيفانوفتش مرة أخرى كأنه يجرب نفسه، ولا يستطيع العدول عن اللذة التي يمكن أن يتمتع بها إذا هو قتله.

وكان بطرس ستيفانوفتش لا يزال ينتظر متأهباً، مصمماً على الانتظار إلى آخر دقيقة من دون أن يضغط الزناد، متعرضاً بذلك لخطر تلقي الرصاصة الأولى: إن كل شيء يمكن توقعه من هذا "المهووس". ولكن المهووس خفض ذراعه أخيراً، وهو يرتعش ارتعاشاً شديداً، ويعجز عن النطق بكلمة واحدة.

وقال بطرس ستيفانوفتش خافضاً سلاحه هو أيضاً:

- كفى عبثاً! كنت أعلم أنك إنما تسلي. ولكن هل تعلم أنك كنت تخاطر بمخاطرة كبيرة؟ لقد كان يمكن أن أضغط على الزناد.

وعاد يجلس على الديوان هادئاً، صبَّ لنفسه الشاي بيدٍ ترتجف بعض الارتجاف.

وضع كيريلوف مسدسه على المائدة، وجعل يسير في الغرفة طويلاً وعرضاً.

- لن أكتب أنني قتلت شاتوف... لن أكتب شيئاً... لن أوقع الرسالة.

- لن تكتب؟

- لا؟

- يا له من جبن! ويا له من غباء!

كذلك هتف يقول بطرس ستيفانوفتش وقد اخضر لونه غضباً.

وأردف يقول:

- على كل حال، كنت أتنبأ بذلك. ولكنك لا تغدري بي وأنا عاجز عن كل حيلة. افعل ما يحلو لك. إذا استطعت أن أجبرك إجباراً فسوف أفعل. مهما يكن من أمر، فأنت جبان!

لقد فقد بطرس ستيفانوفتش صوابه.

واستطرد يقول:

- طلبت منا مالاً، وبذلت لنا وعوداً كثيرة... لكنني لن أدعك هكذا: سوف أرى بعيني على الأقل كيف ستطلق الرصاص في رأسك. قال كيريلوف بلهجة حازمة وهو يقف أمامه:
- أريد أن تنصرف فوراً.

فأجابه بطرس ستيفانوفتش وهو يتناول مسدسه مرة أخرى:

- أمّا هذه فلا! أبداً!... من يدري؟ قد تُقرر أن تؤجل كل شيء إلى غد، خبثاً أو جبناً، ثم تمضي تشي بنا في الغد لتقبض بضعة قروش أخرى. ذلك أنهم سيدفعون لك مبلغاً طيباً إذا أنت وشيت بنا، شيطان يأخذك. إن أمثالك لا يتورعون عن شيء. ولكن اطمئن. لقد تنبأت بالأمر: لن أنصرف قبل أن أهشم رأسك بهذا المسدس، كما فعلت بذلك الحقير شاتوف، إذا أنت خفت وأرجأت تنفيذ مشروعك. فلتذهب إلى جهنم!
- أتصرّ حتماً على معرفة لون دمي؟

- اعلم أنني لا أفعل هذا كرهاً بك أو بغضاً لك. أنت لا تعينني. وإنما أنا أعمل في سبيل "القضية". إنك لترى أنه لا يمكن الاعتماد على أحد. لست أفهم من فكرتك شيئاً. لست أنا الذي أوحيت إليك بهذه الفكرة. حتى قبل أن تعرفني، كنت قد أطلعت أعضاء جمعيتنا على خطتك. لاحظ أن أحداً منهم لم يدفعك إلى ذلك، بل إن أحداً منهم لم يكن يعرفك. ولقد أسررت إليهم بكل شيء من تلقاء نفسك، في نوع من سورة عاطفية. فما ذنبنا إذا نحن وضعنا، بالاتفاق معك، وتلبيةً لاقتراح منك، (نعم، تلبيةً لاقتراح منك، لاحظ هذا)، أقول ما ذنبنا إذا نحن وضعنا خطة عمل يستحيل علينا أن نغيّر منها الآن شيئاً؟ لا، لا، إنك قد ارتبطت والتزمت. لقد قطعت على نفسك

عهداً، وقبضت مالا. هذا لا تستطيع أن تنكره...

لقد تحمس بطرس ستيفانوفتش وهو يتكلم، ولكن كيريلوف كان قد انقطع عن الإصغاء إليه منذ مدة طويلة، كان يذرع الغرفة حالم الهيئة، شارد الذهن!

قال وهو يقف أمام بطرس ستيفانوفتش مرة أخرى:

- إنني آسف على شاتوف.

- وأنا أيضاً آسف عليه، ولربما..

- اسكت أيها الشقي... سوف أقتلك.

كذلك أعول يقول كيريلوف وهو يحرك يده بإشارة تهديد لا لبس فيها.

فنهض بطرس ستيفانوفتش بوثة واحدة، ورفع يده كمن يريد أن يحمي

نفسه، وقال:

- طيب، طيب، أنا كاذب... إنني غير آسف عليه البتة! ولكن كفى، كفى!

فصمت كيريلوف واستأنف سيره في الغرفة. ثم قال:

- لن أراجع. أريد أن أنتحر الآن، الجميع أوغاد.

— فكرة عظيمة: ليس هناك إلا أوغاد في كل مكان، ولما كان الإنسان

الشريف لا يستطيع إلا أن يشعر من ذلك باشمئزاز، فإن الأفضل أن...

- غبي! أنا أيضاً وغد، مثلك، ومثل جميع الناس! لم يوجد رجل شريف

في يوم من الأيام.

- أخيراً وضع إصبعه على الحقيقة. كيف لم تدرك حتى الآن، وأنت رجل

ذكي، أن جميع البشر سواء، وأنه لا أحد خير أو شر من أحد. وإنما هناك

أذكياء وأغبياء، وأنه إذا كان الجميع أوغاداً (وذلك خطأ على كل حال) فليس

هناك إذاً أناس شرفاء؟

سأل كيريلوف وهو ينظر إلى بطرس ستيفانوفتش مدهوشاً بعض الدهشة:

- ألسنت تمزح؟ إنك تتكلم بحرارة وبساطة، هل يُعقل أن يكون لأمثالك

اقتناعات؟

- كيريلوف، أنا لم أستطع في يوم من الأيام أن أفهم لماذا تريد أن تنتحر.

كل ما أعرفه أن انتحارك نابع من اقتناع واعتقاد... ولكن إذا كنت تشعر بحاجة إلى أن تفضي بما في نفسك، إن صح التعبير... فأنا مستعد للاستماع... ولكن يجب أن لا يغيب عن بالنا أن الوقت يجري...

- كم الساعة الآن؟

أجاب بطرس ستيفانوفتش وهو ينظر في ساعته:

- هي الثانية تماماً منذ الآن.

وأشعل سيجارة. وحدث نفسه قائلاً لها: "أظن أن التفاهم بيننا لا يزال ممكناً".

ودمد كيريلوف يقول:

- ليس لديّ ما أفضي به إليك.

قال بطرس ستيفانوفتش:

- إنني أتذكر تذكر أغامضاً أن مدار المناقشة على الله... لقد سبق أن

شرحت لي هذا مرة، بل مرتين. فقلت لي: إذا أنت انتحرت أصبحت إلهاً،

أليس هذا ما قلته؟

- نعم، أصبح إلهاً.

حاذر بطرس ستيفانوفتش أن يتسم. وانتظر. فرشقه كيريلوف بنظرة

ماكرة. وقال له:

- ما أنت إلا ماكر محتال وسياسي كاذب. إنك تريد أن تستدرجني إلى

مجال النقاش الفلسفي وأن توري حماسي من أجل أن تُحلّ السلام والوئام،

من أجل أن تبثّ غضبي، حتى إذا تصالحنا انتزعت مني الورقة التي تريدها

بشأن شاتوف.

فقال بطرس ستيفانوفتش يجيبه بصراحة وبراءة توشكان أن تكونا

طبيعتين:

- لنسلّم جدلاً بأنني وغد، ولكن فيم يهكم هذا الآن يا كيريلوف! لماذا

نتشاجر؟ هلا قلت لي لماذا نتشاجر؟ أنت لك طبيعتك، وأنا لي طبيعتي، ثم

ماذا؟ ثم إننا كلينا...

- من الأوغاد...

جائز... ولكنك تعلم أنت نفسك أن هذه كلها كلمات لا أكثر.
 - لقد ظللت طول حياتي أرغب في أن لا تكون كلمات، بل شيئاً آخر.
 إنني ما عشت إلا من أجل هذا... من أجل أن تكون شيئاً آخر غير الكلمات.
 وما زلت إلى الآن أريد في كل يوم أن لا تكون كلمات فحسب...
 - كل امرئ يبحث عما يناسبه، ويسعى إلى ما يوافقه!... إن السمكة...
 أقصد إن كل إنسان ينشد رخاءه بمعنى من المعاني. هذا كل شيء. وهو
 معروف منذ زمن طويل.

- هل تقول ينشد رخاءه؟
 - لا داعي إلى الجدل في الألفاظ.
 - لا بل لقد أحسنت التعبير. الرخاء. صحيح. الله ضروري، إذاً لا بد أن
 يوجد.

- تماماً.
 - لكنني أعلم أنه غير موجود، ولا يمكن أن يوجد.
 - ذلك أرجح.
 - هل يُعقل أن لا تفهم أن إنساناً من الناس لا يمكن أن يستمر في الحياة
 حاملاً فكرتين كهاتين؟

- فليس عليه إذاً ألا أن يطلق في رأسه الرصاص.
 - هل يُعقل أن لا تدرك أن المرء يمكن أن يتحجر لهذا السبب وحده؟ إنك
 لا تفهم أن من الممكن أن يوجد رجل، رجل واحد بين ملايين الرجال، قد
 لا يحتمل هذا التناقض فيعزف عن الحياة!

- لا أفهم إلا شيئاً واحداً، هو أنك تبدو متردداً... وذلك سيء جداً.
 قال كيريلوف وهو لا يزال يمشي طويلاً وعرضاً، مظلم الهيئة، حتى إنه لم
 يسمع الجملة الأخيرة التي قالها بطرس ستيفانوفتش:
 - إن ستافروجين، هو أيضاً، قد التهمته الفكرة...

- كيف؟
 كذلك هتف بطرس ستيفانوفتش قائلاً وهو يصيح بسمعه. وتابع كلامه:

- أية فكرة؟ هل حدثك عن نفسه؟

- لا بل حزت: حين يؤمن ستافروجين، فإنه لا يؤمن بأنه يؤمن. وحين لا يؤمن، فإنه لا يؤمن بأنه لا يؤمن.

دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول:

- هم... إن لستافروجين أمراً آخر، أذكى من هذا.

وكان يقلق للمجرى الجديد الذي يجري فيه الحديث، ويلاحظ وجه كيريلوف الشاحب. قال يحدث نفسه: "شيطان يأخذه. إنه لن ينتحر. لقد أوجست دائماً هذا. إنه يتلذذ بتخيلاتة. يا لهذه الزمرة من الناس ما أحطها!".
- إنك آخر من يبقى معي. فلا أحب أن نفرق افتراقاً سيئاً.

فتردد بطرس ستيفانوفتش لحظة قبل أن يجيب، قائلاً لنفسه: "ما هذا أيضاً؟". ثم قال يجيبه:

- ثق كل الثقة يا كيريلوف أنني لا أحمل لك أية عداوة من حيث أنا إنسان، ولا أضمر لك أي حقد شخصي، ولكنني كنت دائماً...

- أنت رجل شقي وفكر زائف، ولكنني مثلك. وسوف أموت أنا، وتحيا أنت.

- هل تريد أن تقول إنني أبلغ من السوء والرداءة والخبث ما يضمن لي البقاء على قيد الحياة؟

كان لا يعلم بعد هل يفيد أن يستمر في الحديث أو لا يفيد. وقرر أن "يدع الأمر للظروف". غير أن لهجة الاستعلاء والاحتقار التي يستعملها كيريلوف في مخاطبته، والتي طالما أزعجته وأغاظته في الماضي، تحقنه الآن أكثر من أي وقت مضى. لعل ذلك يرجع إلى أن كيريلوف سوف يموت بعد ساعة (ولقد كان بطرس ستيفانوفتش لا يحول بصره عنه رغم كل شيء)، فكان ذلك يهون شأنه ويطفف قيمته في نظره، فهو إنسان نصف حي نصف ميت إن صح التعبير، إنسان لا يطبق بطرس ستيفانوفتش أن يحتمل كبرياءه وزهوه بنفسه.

- يخيّل إليّ أنك تسحقني بتفوقك لأنك ستنتحر، هه؟

قال كيريلوف الذي لم يسمع في هذه المرة أيضاً ما قاله بطرس ستيفانوفتش:

- يدعشني أكبر الدهشة أن الناس يستمرون في الحياة.

- هم!... طيب... لنسلم جدلاً... هذه فكرة... ولكن...

- فرد! إنك تسارع إلى قول "نعم" لتستولي عليّ. اسكت. أنت لا تفهم شيئاً. إذا كان الله غير موجود فأنا الله.

- هذه بعينها هي النقطة التي لم أستطع أن أفهمها منك في يوم من الأيام: لماذا أنت الله؟

- إذا كان الله موجوداً، كانت الإرادة كلها له، وكنت أنا عاجزاً عن كل شيء في خارج إرادته. أمّا إذا لم يكن موجوداً فالإرادة كلها إرادتي، وعليّ أن أنادي بإرادتي الخاصة.

- إرادتك الخاصة؟ ولماذا عليك أن تنادي بها؟

- لأن الإرادة كلها الآن إنما هي إرادتي. هل يُعقل أن لا يوجد على وجه الأرض كلها شخص يجرو أن ينادي بإرادته الخاصة في صورتها القصوى بعد أن قتل الله وآمن بتلك الإرادة الخاصة التي له. إن مثل من يعجز عن ذلك كمثّل فقير ورث مالا ولكنه لا يجرو أن يقترب من الكيس لأنه يعد نفسه أضعف من أن يحق له الاستيلاء عليه. أريد أن أنادي بإرادتي أنا. سأفعل ذلك ولو فعلته وحدي.

- أحسنت! افعله!

- يجب عليّ أن أطلق الرصاص في رأسي لأن الصورة القصوى التي تتجلى فيها إرادتي هي الانتحار.

- ولكنك لا تنتحر وحدك. كثيرون انتحروا قبلك.

- لأسباب أخرى. أمّا للمناداة بالإرادة الشخصية وحدها، لا لأي سبب آخر، فأنا الوحيد الذي ينتحر.

حدّث بطرس ستيفانوفتش نفسه قائلاً: "لا، لن ينتحر".

وقال منزعجاً مغتاظاً:

- هل تعلم؟ لو كنت في مكانك لجعلت إرادتي تتجلى في أن أقتل شخصاً آخر، أمّا أن أقتل نفسي فلا. فبذلك يمكنك أن تكون نافعاً. سأدلك على من تقتله، إذا كنت لا تخاف. في هذه الحالة تستطيع أن لا تطلق الرصاص على نفسك اليوم. يمكننا أن نتفاهم.

- أن أقتل شخصاً آخر فذلك أدنى شكل من أشكال تجلي إرادتي. هذا تفعله أنت. هذا أنت. أمّا أنا فلست أنت: أنا أريد الشكل الأعلى، أريد الصورة القصوى. فسأنتحر.

جمجم بطرس ستيبانوفتش يقول لنفسه ساخطاً: "اكتشف هذا وحده!". واستأنف كيريلوف كلامه وهو لا يزال يذهب ويجيء في الغرفة: - يجب أن أنادي بأنني غير مؤمن. إن أعلى فكرة في نظري هي أن الله غير موجود. تاريخ الإنسانية بأسره يشهد لي. حتى الآن كان الإنسان يخلق إلهاً ليعيش من دون أن ينتحر، أنا وحدي، لأول مرة في تاريخ العالم، أرفض أن أخترع إلهاً. ألا فليعلم جميع الناس هذا مرة إلى الأبد. قال بطرس ستيبانوفتش يحدث نفسه وقد ازداد قلقه: "لن ينتحر". وقال يحرّضه:

- من الذي سيعلم هذا؟ لسنا هنا إلا اثنين. ربما ليوتين؟ - سيعلمونه جميعاً، جميعاً! لا شيء يخفى! "هو" الذي قال ذلك. وأشار بنوع من الحماسة إلى صورة المسيح التي كان يشتعل أمامها سراج. ثارت نائرة بطرس ستيبانوفتش. قال: - إذا ما زلت تؤمن "به" وتشتعل سراجاً. ربما من باب الاحتياط لكل شيء، هه؟

لزم كيريلوف الصمت. وأضاف بطرس ستيبانوفتش قوله: - في رأيي أنك ما تزال تؤمن به أكثر مما يؤمن به كاهن! - بمن؟ به "هو"؟ اسمع... قال كيريلوف ذلك وتوقف محققاً إلى أمام كأنه في حالة نشوة ووجد، وتابع كلامه:

- اسمع. فكرة عظيمة: في ذات يوم نُصبت ثلاثة صلبان. كان أحد المصلوبين يبلغ من قوة الإيمان أنه قال للذي كان إلى يمينه: "في هذا اليوم نفسه ستكون معي في الجنة". وانتهى اليوم ومات الاثنان، ولم يجدا لا جنة ولا بعثاً. لم يتحقق قول المصلوب. اسمع. إن ذلك الرجل كان أعظم رجل في الأرض. بسببه إنما وُجدت الأرض. فالأرض كلها وجميع ما عليها لا تكون بغيره إلا جنوناً. لم يوجد قبله ولن يوجد بعده إنسان يشبهه ولو تحققت معجزة. والمعجزة إنما هي أن هذا الإنسان لم يوجد أحد مثله ولن يوجد أحد مثله في يوم من الأيام. فإذا كان الأمر كذلك، إذا كانت قوانين الطبيعة لم تدار حتى "ذلك الإنسان"، إذا لم تراع حتى معجزتها، واضطرت أن يحيا في وسط الكذب، وأن يموت بسبب كذبة، بينما الأرض كلها ليست نفسها إلا أكذوبة، ولا تقوم إلا على الكذب والضلال، فإن قوانين هذه الأرض نفسها ليست إلا كذباً، وليست إلا مهزلة شيطانية! فعلام يحيا المرء؟ أجب إذا كنت رجلاً!

- هذه مسألة أخرى تماماً. أخال أنك تخلط بين شيئين مختلفين، وهذا لا ينبئني بأي خير. ولكن اسمح لي: ماذا إذا كنت الله؟ ماذا إذا انتهى الكذب فأدركت أن الكذب كان يصدر عن ذلك الإله القديم؟

صاح كيريلوف يقول خارجاً عن طوره:

- ها أنت ذا أخيراً فهمت! الفهم إذاً ممكن، ما دام واحد مثلك قد فهم. تدرك الآن أن سلامة الجميع إنما تكون بالبرهان على هذه الفكرة للجميع؟ ومن الذي سيرهن عليها؟ أنا! إنني لا أتصور كيف يستطيع ملحدٌ يعلم أن الله غير موجود، كيف يستطيع أن لا ينتحر فوراً. لئن يدرك المرء عدم وجود الله، ثم لا يدرك في الوقت نفسه أنه هو الله، فتلك استحالة، وإلا وجب على المرء أن ينتحر. إذا كنت تشعر بذلك فأنت ملك، ولن تنتحر، بل ستعيش في المجد. واحد لا بد حتماً أن ينتحر أول من ينتحر. وإلا فمن عسى يبدأ ويرهن؟ إنني أنا الذي سأنتحر لأبدأ وأبرهن. لست بعدُ إلهاً إلا بالرغم مني، وأنا شقي لأنني "مضطرب" أن أنادي بإرادتي الخاصة. جميع الناس أشقياء لأنهم يخافون أن يبادوا بإرادتهم. كان الإنسان دائماً حتى الآن فقيراً وشقياً،

لأنه كان يخشى أن يحقق الصورة القصوى لإرادته. كان لا يستعمل إرادته إلا خفيةً وسراً، كتلميذ في مدرسة، إنني بائس بؤساً رهيباً لأنني خائف خوفاً فظيعاً. الخوف لعنة الإنسان... لكنني سأنادي بإرادتي! أنا مضطر أن أوّمن بأنني لا أوّمن. سأبدأ، وسأنهي. سأفتح الباب. وسأنقذ. ذلك وحده سينقذ جميع البشر، وسيبدلهم تبديلاً جسيماً من الجيل المقبل. إذا ما ظل الإنسان في حالته الجسمية الراهنة - ولقد فكرت في هذا ملياً - فيستحيل عليه استحالةً مطلقة أن يستغني عن الإله القديم. لقد ظللت أسعى ثلاث سنين إلى صفة ألوهيتي، حتى وجدتها: إن صفة ألوهيتي هي حرية إرادتي! ذلك كل شيء! فبفضل إرادتي إنما يمكن أن تتجلى الصورة القصوى لعدم خضوعي، ولحريتي الجديدة، حريتي الراهية. ذلك أنها رهيبة، إنني أنتحر لأبرهن على عدم خضوعي وعلى حريتي الجديدة.

كان وجهه شاحباً شحوباً شديداً، وكانت نظراته ثقيلة. كان يبدو أنه يعاني حمى. خُيِّلَ إلى بطرس ستيفانوفتش أنه سيقع على الأرض.

هتف كيريلوف يقول فجأةً بوحى مباغت:

- أعطني الريشة! أمِّلِ عليّ ما شئت، وسأوقع على أنني قتلت شاتوف، أمِّلِ عليّ ما دام هذا يسليني حتى الآن. لا أخشى ما قد يقوله العبيد المتغطرسون. لسوف ترى بنفسك أن كل ما كان خافياً سيُعلم. وستُسحق أنت... أظن! أظن!

انتهز بطرس ستيفانوفتش اللحظة المواتية مرتعشاً من فرحه بالنجاح، فنهض بوثبة واحدة، وأسرع يضع الحبر والورق أمام كيريلوف فوراً، وأخذ يملئ عليه:

"أصرِّح أنا ألكسي كيريلوف...".

- قف! لا أريد! لمن أصرِّح؟

كان كيريلوف يرتعش كأن به حمى. إن هذا التصريح والفكرة التي أوحاها إليه فجأةً، يستغرقان كل انتباهه ويفتحان مخرجاً موقناً لنفسه المرهقة التي أسرع تندفع فيه فوراً.

- لمن أَصْرَحْ؟ أريد أن أعرف لمن أَصرَح!
- لا تصرِّح لأحد، بل للجميع، لأول من سيقراً. لماذا التحديد؟ هل تريد
أن تصرِّح للعالم كله؟
- للعالم كله؟ مرحى! وبدون أي ندم! لا أريد ندماً! لا أريد أن أخطب
السلطات.

- لا! فلتذهب السلطات إلى جهنم! هيّا اكتب إذا كنت جاداً!
كذلك هتف بطرس ستيفانوفتش، ناثراً الأعصاب.
- انتظر. أريد أن أرسم في أعلى الصفحة فماً ماداً لسانه.
- سخافة! لا داعي إلى الرسم. يمكن التعبير عن كل شيء باللهجة
وحدها.

أصبح بطرس ستيفانوفتش لا يكاد يستطيع كظم غيظه.
قال كيريلوف:

- باللهجة؟ حسن جداً. نعم، باللهجة، باللهجة. أمْلِ عليَّ اللهجة!
أخذ بطرس ستيفانوفتش يملئ عليه بصوت ثابت صارم، مائلاً على
كتف صاحبه، متابعاً بانتباه شديد كل حرف من الأحرف التي كان كيريلوف
يرسمها بيد مرتعشة من الانفعال:

"أصرِّح أنا ألكسي كيريلوف، بأنني في هذا... من شهر تشرين الأول
(أكتوبر)، عند الساعة الثامنة مساءً، قد قتلت الطالب شاتوف في الحديقة،
بسبب خيائته ووشايته عن المنشورات التحريضية وعن فدكا الذي أقام عندنا
بعمارة فيليوف عشرة أيام. وإنني أنتحر الآن بطلقة مسدس لا لأن ضميري
يعذبني، أو لأنني خائف منك، بل لأنني قد وضعت مشروع الانتحار هذا
منذ كنت في خارج البلاد."

سأله كيريلوف مدهوشاً مستاءً:

- أفهذا كل شيء؟

فقال بطرس ستيفانوفتش وهو يحاول أن ينتزع منه الرسالة:

- لا ترد كلمة واحدة!

هتف كيريلوف يقول:

- قف!

ووضع يده على الورقة. واستطرد:

- ما هذا السخف! أحب أن أقول مع من قتلت. لماذا فدكا؟ والحريق؟

أريد أن أقول كل شيء، وأن أشتهم فوق ذلك! اللهجة! اللهجة!

قال بطرس ستيفانوفتش متوسلاً إلى صاحبه، خائفاً أن يمزق كيريلوف

الورقة:

- هذا كافٍ يا كيريلوف. أؤكد لك أن هذا يكفي! من أجل أن يصدّقوك

يجب أن يكون كلامك أغمض ما يمكن، يجب أن لا يشتمل إلا على

إشارات. يجب أن لا تبدي إلا طرفاً من الحقيقة، طرفاً صغيراً هو القدر

اللازم لجذبهم وإغرائهم. مهما نقل نحن، فلسوف يكذبون هم أكثر منا،

ولسوف يصدّقون طبعاً ما يكونون قد لفّقوه أكثر مما يصدّقون ما نلفّقه

نحن، وهذا أفضل. أعطني الورقة. هي هكذا كاملة. هيّا! أعطيها!

كان بطرس ستيفانوفتش يحاول أن يستولي على الرسالة. وكان

كيريلوف يصغي إليه محمّل العينية، وكأنه يبذل جهداً من أجل أن يفهم،

ولكن كان واضحاً أنه أصبح لا يفهم شيئاً.

صرخ بطرس ستيفانوفتش يقول غاضباً على حين فجأة:

- ما هذا يا رب! لم يوقّع حتى الآن. ما بالك تحمّل هكذا؟ هلاًّ

وقعت!

فدمدم كيريلوف يقول:

- أريد أن أشتهم...

- اكتب: عاشت الجمهورية! هذا كافٍ.

فافتن كيريلوف بهذا الاقتراح أعظم الافتتان، وزأر يقول:

- أحسنت! "عاشت الجمهورية الديمقراطية الاجتماعية الشاملة أو

الموت!". لا، لا، لا. هكذا! بل: "حرية، مساواة، أخوة، أو الموت!". هذا

أفضل! هذا أفضل كثيراً.

وبلذة واضحة كتب تلك الجملة تحت توقيعه.

كرر بطرس ستيفانوفتش يقول:

- كفى! كفى!

- انتظر قليلاً أيضاً! اسمع، أريد أن أوقع مرة أخرى باللغة الفرنسية "من كيريلوف، السيد الروسي، المواطن في العالم". هاهاها! بل انتظر، وجدت ما هو أفضل من ذلك أيضاً! أوريكا! "طالب روسي، مواطن في العالم المتمدن". عظيم!

ووثب عن الديوان، وتناول مسدسه الموضوع على النافذة بحركة سريعة، وهرع إلى الغرفة المجاورة وأغلقها وراءه بالمفتاح.

لبث بطرس ستيفانوفتش لحظةً حالماً، متجهاً ببصره إلى الباب. وخاطب نفسه قائلاً: "إذا عزم أمره فوراً فقد ينتحر، أما إذا أخذ يفكر فلن يحدث شيء!".

وبانتظار ما سيقع، تناول الرسالة وجلس وأعاد قراءتها، فأعجبته كثيراً. وجعل يحدث نفسه قائلاً:

"ما الذي نحن في حاجة إليه جملة؟ نحن في حاجة إلى أن نشوشهم فترةً من الوقت، وأن ندفعهم في طريق خطأ. الحديقة؟ لا حديقة هنا، وسينتهون إذن إلى إدراك أن الحديقة المقصودة في هذه الرسالة إنما هي حديقة سكفور شنيكي. ولكن يكون قد انقضى بعض الوقت قبل أن توافيهم هذه الفكرة. وبعد ذلك يستغرق البحث في الحديقة وقتاً آخر. فإذا اكتشفوا الجثة أخيراً، أدركوا أن الرسالة كانت صادقة في ما قالتها، ولا بد أن يكون سائر ما قالتها صادقاً، ومنه قصة فدكا. ولكن ما فدكا؟ إن فدكا هو الحريق الذي أشعل، وليبادكين الذي قتل. كل شيء إذاً قد صدر عن هنا، عن عمارة فيليبوف. بينما هم لم يروا شيئاً ولا خطر ببالهم شيء! لسوف يفقدون صوابهم حقاً. ولن يدور في خلدكم أن يكون "الأصحابنا" شأن في هذه الأمور كلها. سوف يدورون حول شاتوف وكيريلوف وفدكا وليبادكين. ولكن علام هؤلاء القتلى جميعاً؟ ذلك سر سيظل يصعب عليهم أن يجدوا

حلاً له!... غريب... ما باله لم يطلق على نفسه النار حتى الآن!..."

كان بطرس ستيفانوفتش يقرأ النص الذي أملاه ويعجب به، ومع ذلك كان يصيح بسمعه شاعراً بقلق يعذبه تعذيباً شديداً. واعترفته نوبة حنق مسعور على حين فجأة. ونظر في ساعته: كان الوقت قد تقدم كثيراً. إن كيريلوف قد حبس نفسه في الغرفة المجاورة منذ أكثر من عشر دقائق. تناول بطرس ستيفانوفتش الشمعدان واقترب من الباب. وخطر بباله في تلك اللحظة نفسها أن الشمعة ستكون قد ذابت كلها بعد عشرين دقيقة، وأنه لا يملك شمعة أخرى غيرها. وضع يده على قبضة الباب، ومدّ أذنه: لم يسمع شيئاً. وفجأة فتح الباب ورفع الشمعة، غير أن شيئاً ما قد وثب عليه معولاً. فأسرع يعيد إغلاق الباب، واستند إليه بكل ثقله. لم يعد يُسمع شيء. صمت كصمت الموت.

لبث بطرس ستيفانوفتش مدة طويلة واقفاً، متحيراً، والشمعة بيده. إنه حين فتح الباب لم يستطع أن يميز شيئاً كثيراً. ولكنه لمح كيريلوف في آخر القاعة بسرعة كومض البرق، لمحّه واقفاً قرب النافذة، وأدهشه كثيراً وثوب المهندس عليه ذلك الوثوب الذي يعبر عن حنق حيواني وحشي. ارتعش بطرس ستيفانوفتش، ووضع الشمعة على المائدة، ورفع ديك المسدس، ومضى بخطى كخطى الذئب يتربص في آخر الغرفة: هكذا يكون لديه متسع من الوقت لأن يصوب ويشد الزناد قبل كيريلوف، إذا فتح كيريلوف الباب وهجم عليه.

أصبح بطرس ستيفانوفتش لا يصدّق أن كيريلوف سوف ينتحر. كان يحدث نفسه قائلاً: "إنه واقف في وسط الغرفة يفكر. في وسط غرفته المظلمة المشؤومة... ولقد وثب إلى أمام وهو يزأر... هناك احتمالان: فإما أنني أزعجته في اللحظة التي همّ أن يضغط فيها زناد مسدسه لينتحر. وإما أنه يتساءل ما السبيل إلى قتلي. نعم، هذا هو الأمر، إنه يفكر. هو يعلم أنه إذا جبن عن الانتحار، فلن أنصرف أنا قبل أن أقتله. إذاً يجب عليه أن يقتلني حتى لا أقتله. وهذا الصمت المستمر!... أنكى ما في الأمر أنه يؤمن بالله، بل إنه يؤمن بالله أكثر مما يؤمن بالله كاهن من الكهان... لا لن ينتحر! ما أكثرهم

الآن، هؤلاء "الشاذين" ! وغدا! سافل ! ولكن الشمعة! الشمعة! بعد ربع ساعة ستكون قد ذابت حتماً... يجب إنهاء الموضوع. يجب إنهاء الموضوع مهما كلف الأمر... ثم إنني أستطيع أن أقتله الآن. الآن وقد وقَّع الرسالة لن يظن أحد أنني أنا القاتل : يمكنني أن أضع الجثة وضعاً يوهم بأنه انتحر انتحاراً. سأضع المسدس فارغاً في يده... ولكن كيف أقتله؟ إذا فتحت الباب هجم عليّ مرة أخرى وأطلق قبل أن أطلق... نعم، ولكنه لن يصيبي. هذا مؤكد".

هكذا كان بطرس ستيفانوفتش يترجح متخبطاً بين ضرورة المبادرة وبين التردد عن العمل، وهو يرتعش من نفاد الصبر. وأخيراً تناول الشمعة واقترب من الباب جاعلاً مسدسه أمامه. وحاول باليد اليسرى التي تحمل الشمعدان أن يمسك قبضة الباب وأن يديرها بغير صوت ولكن قبضة الباب صرَّت صريراً مسموعاً. فسرعان ما قال بطرس ستيفانوفتش لنفسه: "سوف يطلق النار". ودفع الباب بضربة قوية من قدمه ورفع الشمعدان وصوب المسدس. لا صرخة، ولا انفجار. الغرفة خالية.

ارتعش بطرس ستيفانوفتش. لم يكن للغرفة إلا باب واحد هو الباب الذي دخل منه. لم يهرب إذاً كيريلوف. رفع بطرس ستيفانوفتش الشمعة إلى أعلى، وجال ببصره على الغرفة: لم ير أحداً. نادى كيريلوف، بصوت خافت أولاً، ثم بصوت قوي. لا جواب.

"أ يكون قد هرب من النافذة؟".

وكانت الكوة مفتوحة. "سخف. لا يمكنه أن يهرب من الكوة...". مضى بطرس ستيفانوفتش إلى النافذة رأساً. "لا، مستحيل". وفجأة التفت بحركة قوية، وجمد في مكانه.

عند الجدار المقابل، توجد خزانة على يمين الباب. وعلى يمين هذه الخزانة، في الزاوية التي تتشكّل من التقائها بالجدار، كان كيريلوف واقفاً على وضع غريب كل الغرابة: فهو جامد، ساكن، مسبلٌ يديه على طول جذعه، قائم الرأس، ملتصق الظهر بالجدار، يبدو كأنه يريد أن يمّحي، وأن يختفي أكبر اختفاء ممكن. كان يريد قطعاً أن يتقي نظرة بطرس ستيفانوفتش.

أمر يصعب تصديقه. وكان بطرس ستيفانوفتش، من المكان الذي هو فيه، لا يرى إلا الأجزاء البارزة من هذه القامة، ولا يجرؤ أن يقترب ليرى كيريلوف رؤية أوضح، وليحل اللغز ويكشف السر. إن قلبه يخفق خفقاناً ثقيلاً. وفجأة، استولى عليه حق مجنون: فهيها هو ذا يصرخ صراخاً شديداً، ويضرب بقدميه الأرض، ويهجم على كيريلوف.

ولكن حين صار على مقربة منه، حتى كاد يلمسه، توقف بغتةً وقد استبد به ارتياح. إن الشيء الذي شده خاصةً هو أنه رغم صرخاته ووثوبه المسعور، ظل الرجل ساكناً سكوناً مطلقاً، لا يختلج اختلاجة واحدة، فكأنه تمثال من صخر أو لعبة من شمع. وكان وجهه مصطبغاً بصفرة غريبة، وكانت عيناه السوداوان تحدقان ثابتتين إلى نقطة في الفضاء أمامه. خفض بطرس ستيفانوفتش الشمعدان ورفع، فأثار بذلك جميع أجزاء ذلك الوجه المتجمد. ولاحظ على حين فجأة أن كيريلوف، رغم تحديقه الثابت إلى أمام، كان ينظر إليه بطرف عينه، ولعله كان يرصده. فخطر بباله عندئذ أن يقرب الشمعة من وجه "ذلك السافل"، فيحرقه ليرى ما عساه يفعل. لاح له في تلك اللحظة نفسها أن ذقن كيريلوف تتحرك، وأن ابتسامة ساخرة تلم بشفتيه، كأنه قد اكتشف غرضه. فجئن جنون بطرس ستيفانوفتش خوفاً وغضباً وأمسك كيريلوف من كتفه.

إن ما حدث بعد ذلك قد بلغ من الهول والسرعة أن بطرس ستيفانوفتش لم يستطع بعد ذلك في يوم من الأيام أن يتذكر تسلسل الحوادث على وجه الدقة. إنه ما إن أمسك كيريلوف حتى خفض كيريلوف جسمه بغتةً، ثم إذا هو بضربة من رأسه يسقط الشمعة على الأرض. لقد تدرج الشمعدان بضجة قوية، وانطفأت الشمعة. وفي تلك اللحظة نفسها أحس بطرس ستيفانوفتش بألم شديد في خنصر يده اليسرى. فصرخ صرخة طويلة. لقد تذكر في ما بعد أنه وقد فقد صوابه تماماً، قد ضرب جمجمة كيريلوف بأخمص المسدس ثلاث ضربات، فكان كيريلوف لا يزال يعض إصبعه. واستطاع بطرس ستيفانوفتش أخيراً أن يحمله على إرخاء إصبعه، وهرع يخرج من الغرفة

متلمساً طريقه في الظلمات، بينما كانت تلاحقه صرخات رهيبة تكررت عشر مرات:
- فوراً! فوراً! فوراً!...

ولكن بطرس ستيفانوفتش ظل يركض، وحين دَوَّت طلقة المسدس كان قد وصل هو إلى الدهليز. فلما سمع دوي الرصاص توقف، ولبث ساكناً بضع دقائق، يفكر في ما يجب عليه أن يفعله. وأخيراً قرر أن يعود إلى الغرفة التي كان فيها كيريلوف. كان عليه قبل كل شيء أن يعثر على الشمعة التي أسقطها كيريلوف من يديه، والتي لا بد أنها ملقاة على يمين الخزانة. ولكن كيف يشعلها؟ وهذه صورة غامضة تعود إلى ذهنه: بالأمس، حين ركض إلى المطبخ حيث كان فدكا يأكل، قد لمح في أغلب الظن علبة كبريت فوق لوح كبير من خشب أحمر. فها هو ذا يتجه الآن إلى باب المطبخ تلمساً، فيفتحه، ويتبع الممر الصغير، ويهبط الدرجات الثلاث، ويمد يده إلى ذلك الموضع نفسه من لوح الخشب، فإذا هو يقع على علبة كبريت ملأى فعلاً، فيأخذها، ويعود صاعداً إلى فوق، في الظلام أيضاً. حتى إذا صار قريباً من الخزانة، حيث ضرب كيريلوف بأخمص مسدسه، تذكر إصبعه المعضوضه فجأة، تذكرها حينئذ فقط. وفي تلك اللحظة نفسها أحس بألم يكاد لا يُطاق. ففكر أسنانه، وأشعل الشمعة، وأعادها إلى الشمعدان، وألقى على ما حوله نظرة دائرة: كان جثمان كيريلوف راقداً على الأرض، قرب النافذة المفتوحة كَوَّتها، متجه القدمين نحو الزاوية القائمة من الغرفة. إن الرصاصة التي انطلقت من المسدس في الصدغ الأيمن قد خرجت من الجهة اليسرى نحو أعلى الجمجمة، فبذلك اخترقت الرأس من طرف إلى طرف. وهذه لطخات من الدم والدماغ قد انتشرت هنا وهناك. وكان المتحذر لا يزال ممسكاً سلاحه بيده. لا بد أنه قد مات على الفور.

فحص بطرس ستيفانوفتش كل شيء بعناية، ثم نهض وخرج ماشياً على رؤوس الأصابع. وأغلق الباب وراءه. ووضع الشمعدان على المائدة في الغرفة الأولى، وفكر لحظةً، فقرر أن لا يطفى الشمعة، إذ قال لنفسه إنها لا

يمكن أن تسبب حريقاً. وبعد أن ألقى نظرة أخيرة على الرسالة التي كانت موضوعة في مكان بارز، ابتسم على غير إرادة منه، وترك الجناح سائراً على رؤوس الأصابع أيضاً، لا ندري لماذا!

حتى إذا تسلل إلى الخارج من الممر الذي كان يسلكه فدكا، حرص على أن يسده وراءه بعناية واهتمام.

3

في الساعة السادسة إلّا عشر دقائق تماماً، كان بطرس ستيفانوفتش وإركل يذهبان ويجيئان على رصيف المحطة أمام صفٍ طويل من حافلات القطار السريع. إن بطرس ستيفانوفتش مسافر، وقد رافقه إركل مودعاً. كانت الأمتعة قد سُجِّلَتْ، وكانت حقيبة السفر قد وُضعت على مقعد في إحدى حجرات الدرجة الثانية إيذاناً بأن المكان محجوز. وقد انطلقت الإشارة الأولى التي تؤذن برحيل القطار، فالمسافرون ينتظرون الآن قرع الجرس بالإشارة الثانية وكان بطرس ستيفانوفتش ينظر يمنة ويسرة لا يحاول أن يخبئ عن الأبصار، وكان يلاحظ الناس الذين يدخلون حافلات القطار، بانتباه شديد. ولكنه لم ير أي صديق، ولم يُنح له أن يحيي بحركة من الرأس إلّا تاجراً كان يعرفه معرفة غامضة، وكاهناً شاباً كان ذاهباً إلى أبرشيته التي تبعد عن المدينة محطتين.

واضح أن إركل كان يود في هذه اللحظات الأخيرة لو يتكلم في أمور هامة، رغم أنه ربما كان لا يعلم على وجه الدقة ما الذي يود لو يتكلم فيه، ولكنه لا يجرؤ أن يكون هو البادئ بالكلام. وكان يبدو أن بطرس ستيفانوفتش قد ضاق ذرعاً بوجوده، وأنه ينتظر انطلاق الإشارة الثانية من الجرس مؤذنة بتحريك القطار.

قال إركل على خجل ووجل، وكأنه يريد أن ينبّه بطرس ستيفانوفتش إلى خطر ما:

- إنك تنظر إلى الناس بطلاقة وحرية...

- لم لا؟ ما المانع؟ لا ينبغي لي بعد أن أختبئ. لم يحن الآوان بعد.
اطمئن. كل ما أخشاه هو أن يرسل الشيطان إلينا ليبوتين: إنه إذا سمع شيئاً
فسيهرع إلينا فوراً.

قال إركل وقد عزم أمره آخر الأمر على أن يتكلم جاداً:

- بطرس ستيفانوفتش، إنهم ليسوا بمضمونين.

- من؟ ليبوتين؟

- هو والآخرون.

- سخف! بعد الذي جرى أمس، أصبحت قابضاً على زمامهم جميعاً، لا
أحد منهم سيخون. لا بد أن يفقد واحد منهم عقله حتى يخاطر هذه المخاطرة.
- بطرس ستيفانوفتش، سيفقدون عقولهم.

لعل هذه الفكرة قد سبق أن خامرت بطرس ستيفانوفتش، لذلك أزعجته
ملاحظة إركل مزيداً من الإزعاج.

- أتراك خائفاً أنت أيضاً يا إركل؟ إنني أعتمد عليك أكثر من اعتمادي على
جميع الآخرين. أنا أعرف الآن ما قيمة كل واحد منهم، إنني أعهد بهم إليك،
فأطلعهم على ما حدث، بل اذهب إليهم في هذا الصباح نفسه. أمّا تعليماتي
المكتوبة فاقراها عليهم غداً أو بعد غد حين يكونون قد ثابوا إلى أنفسهم
وعاد إليهم رشدهم... ولكن ثق أنهم سيكونون، حتى منذ الغد، قادرين على
أن يسمعوها وأن يفهموها. ذلك أنهم خائفون خوفاً رهيباً، وسيصبحون
كالشمع ليونة!... أنت خاصة لا تفقدن شجاعتك.

- آه يا بطرس ستيفانوفتش، الأفضل أن لا تسافر!

- ولكنني لن أغيب إلا عدة أيام. سأعود قريباً.

قال إركل بحذر ولكن بلهجة ثابتة:

- بطرس ستيفانوفتش. هبك ذهبت حتى إلى بطرسبرج... أظن أنني لا

أدرك أنك إنما تعمل في سبيل "القضية" وحدها؟

- لم أكن أنتظر منك أقل من هذا يا إركل. إذا كنت قد حزرت أنني مسافر

إلى بطرسبرج، فلا بد أنك أدركت أيضاً أمس أنني لم أكن أستطيع، في مثل تلك اللحظة، أن أقول لهم أنني مسافر إلى بعيد، وذلك حتى لا أزعجهم. لقد رأيت بنفسك صنف هؤلاء الناس. ولكنك تدرك أنني مسافر لأمر خطير، خطير أقصى الخطورة، أمر يعنيننا جميعاً ويتعلق بنا جميعاً، ولا أسافر هرباً كما يفترض شخص مثل ليونتين.

- بطرس ستيفانوفتش، هبّك سافرت حتى إلى الخارج، فلسوف أفهم ذلك. أنا أدرك أن المفروض فيك والمطلوب منك أن تكون حذراً، حريصاً على شخصك، لأنك أنت كل شيء، أمّا نحن فلسنا شيئاً. إنني أفهم يا بطرس ستيفانوفتش.

وكان صوت الشاب المسكين يتهدج ويختلج.

- شكراً يا إركل! أي... لقد لمست خنصري المريضة...

كان إركل قد صافح بطرس ستيفانوفتش بخراقة، فلمس إصبعه الجريحة المضمدة، ضماد من قماش التافاه الأسود.

وأردف بطرس ستيفانوفتش يقول:

- أكرر لك مرة أخرى إنني لا أسافر إلى بطرسبرج إلا التماساً للأخبار. وقد لا أمكث فيها إلا أربعاً وعشرين ساعة أعود بعدها إلى هنا. ومن أجل أن أحول عني الشبهات سوف أقيم في الريف، عند جاجانوف. إذا تخيلوا أنهم معرّضون لخطر فسأضع نفسي في مقدمتهم، فأكون أول من يصاب. على كل حال، إذا أطلت إقامتي ببطرسبرج، فسأعلمك فوراً... بالطريقة التي تعرفها... فتتولى أنت إبلاغهم.

وانطلقت الإشارة التالية التي تؤذن بتحرك القطار بعد قليل.

- لم يبق لنا إلا خمس دقائق. اسمع إنني لا أريد أن تتفرق الحلقة التي هنا وأن تبعثر. لا لأنني خائف... فلا تخش عليّ شيئاً. إن حلقات شبكتنا كثيرة، ولست أحرص على هذه حرصاً خاصاً. ولكنها تزيد حلقات الشبكة حلقة على كل حال. ثم إنني أعلم أن في وسعي أن أعتمد عليك، رغم أنني أتركك هنا وحيداً في وسط هؤلاء الحمقى الأغبياء. لا تخش شيئاً. لن يخونوا، لن يجسروا أن يخونوا...

هنا رأى بطرس ستيفانوفتش فتى كان مقبلاً عليه بفرح، فصاح بطرس يسأله بصوت مرح، صوت يختلف كل الاختلاف عن صوته في حديثه مع إركل:

- ...أأنت مسافر اليوم؟ أتركب القطار السريع؟ لم أكن أعرف ذلك. إلى أين أنت ذاهب؟ إلى عند أمك؟

- لا بل إنني ذاهب إلى أبعد من ذلك، إلى "ر..." ثماني ساعات في القطار! وأنت؟ إلى بطرسبرج؟

كذلك سأله الفتى ضاحكاً. فأجابه بطرس ستيفانوفتش وهو يضحك ضحكاً صريحاً طلقاً:

- لماذا تفترض أنني مسافر إلى بطرسبرج؟
فرغ الفتى له إصبعه مهدداً. وكان الفتى يلبس قفازين.
وتابع بطرس ستيفانوفتش كلامه فقال خافضاً صوته خفضاً يحمل معنى السر:

- نعم. حذرت. أنا مسافر إلى بطرسبرج ومعني رسائل من جوليا ميخائيلوفنا. يجب عليّ أن أرى ثلاث شخصيات أو أربعاً... بصراحة: شيطان يأخذهم! يا لها من مهنة لعينة كريهة!
فسأله الفتى هامساً:

- ولكن قل لي: لماذا دب الذعر في نفسها فجأة؟ لقد رفضت حتى استقبالي أمس. وفي رأيي أنها يجب أن لا تقلق على زوجها. ليس هناك ما يوجب القلق. بالعكس: لقد وثب وثبة رائعة أثناء الحريق. جازف بحياته تقريباً.

عاد بطرس ستيفانوفتش يضحك وقال:

- ومع ذلك... المسألة هي أنها تخشى أن يكون أحد قد كتب من هنا... هناك أشخاص تشبته فيهم. ثم هنالك ستافروجين خاصة، أو قل الكونت "ك..." هذه قصة طويلة... قد أروي لك طرفاً منها أثناء الطريق... إذا سمحت لي بذلك مشاعر الفروسية طبعاً! أعرفك بالضابط إركل. هو قريب لي.

لم يكن الفتى قد انقطع عن التفرس في إركل بطرف عينيه. فلما عرّفه به بطرس ستيفانوفتش وضع يده على قبعته محيياً، فردّ إركل التحية.

- هل تعلم يا فرخوفنسكي أن قضاء ثماني ساعات في القطار أمر فظيع؟ عندنا هنا، في الدرجة الأولى من القطار، الكولونيل بيرستوف، رجل مسل جداً، هو جاري في الريف. لقد تزوج فتاة اسم أسرتها جارين. فتاة لائقة جداً. حتى إن عنده أفكاراً... لقد قضى هنا يومين، إنه يعشق لعب الورق عشقاً جنونياً (الويست) فما رأيك في أن ننظم لعبة "ويست"؟ هه؟ هناك شخص رابع يمكن أن يشاركنا اللعب، إنه بريوخلوف، تاجر من "ت... له لحية طويلة، مليونير، مليونير فعلاً... أنا أقول لك ذلك... سأعرّفك به. كيس دنانير، مسل جداً! سنضحك كثيراً!.

- يحلوا لي كثيراً أن ألعب "الويست"، ولا سيما في القطار، لكنني راكب في الدرجة الثانية!

- لا قيمة لهذا! تعال إلى حجرتنا. سأنبئ رئيس القطار. إنه يطيعني بدون أن يقول كلمة واحدة. ماذا معك؟ حقيقة سفر؟ غطاء؟ - هيّا بنا! نذهب إلى هناك.

تناول بطرس ستيفانوفتش حقيبته وغطاءه وكتابه بمساعدة إركل ومضى يستقر في الدرجة الأولى، راضياً عن هذا التغيير كل الرضى، سعيداً به كل السعادة.

ورن جرس المحطة مرة ثالثة. فقال بطرس ستيفانوفتش يخاطب إركل منشغلاً أشد الانشغال، ماداً يده إلى الضابط من خلال الباب:

- طيب يا إركل. ها أنت ذا ترى أن عليّ أن ألعب بالورق معهم.
- لا داعي إلى أن تشرح لي يا بطرس ستيفانوفتش. إنني أفهم حق الفهم يا بطرس ستيفانوفتش، أفهم كل شيء.
- طابت أيامك!...

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك مودعاً إركل، والتفت على حين فجأة يستجيب لنداء الفتى الذي كان يريد أن يعرّفه بصاحبيه. ولم ير إركل صاحبه بطرس ستيفانوفتش بعد ذلك قط.

رجع إلى بيته حزيناً كل الحزن. ليس رحيل بطرس ستيفانوفتش بغتةً هو الذي ييث الاضطراب في نفسه، لا... ولكن... ولكن بطرس ستيفانوفتش قد تحول عنه بسرعة كبيرة استجابة لنداء هذا الفتى الأنيق... ثم... ثم لقد كان في وسعه أن يقول له في وداعه شيئاً آخر غير هذا التعبير "طابت أيامك"، أو أن يصفحه مصافحة أقوى على الأقل.

إن تلك المصافحة التي تشتمل على قلة الاكتراث هي التي تحدث أكبر ألم. غير أن هناك شيئاً آخر أيضاً قد بدأ يعذب قلبه الصغير، شيئاً كان هو نفسه لا يفهمه، شيئاً له علاقة بالليلة البارحة.

الفصل السابع

آخر رحلة لستيفان تروفيموفتش

1

أنا واثق بأن ستيفان تروفيموفتش كان يزداد خوفاً كلما اقتربت ساعة تنفيذ مشروعه الجنوني. أنا واثق بأنه تألم كثيراً، ولا سيما عشية رحيله، أثناء الليلة الرهيبة التي شب فيها الحريق. لقد روت ناستاسيا في ما بعد أنه اضطجع في سريره متأخراً ونام. ولكن هذا لا يدل على شيء: ألا يُروى عن المحكوم عليهم بالإعدام أنهم ينامون نوماً عميقاً عشية تنفيذ الحكم فيهم؟ ورغم أن ستيفان تروفيموفتش قد غادر مسكنه في الفجر، أي حين يكون الناس العصبيون في حالة من فرط الاهتياج عادةً (تذكرون أن الميجر، قريب فرجنسكي، كان يكف عن الإيمان بالله متى طلع النهار)، فأنا واثق بأنه ما كان له في يوم من الأيام قبل الآن أن يتصور بغير جزع أنه سيمضي وحيداً في الطرق، وسيجد نفسه في مثل هذه الحال. ولكن يجب أن نفترض أن الكرب الشديد قد بثَّ في نفسه شجاعة، وأضعف في البداية - فظاعة ذلك الإحساس بالوحدة الكاملة الذي غزاه فجأة منذ ترك "ستازي" وبارح العش الدافئ الذي عاش فيه عشرين عاماً. ومهما يكن من أمر، فإن ستيفان تروفيموفتش ما كان له إلا أن يرحل، ولو أحس إحساساً واضحاً بكل ما كان ينتظره. لقد كان في هذه الرحلة نوع من بطولة يثير حماسه رغم كل شيء. كان يمكنه طبعاً أن يقبل الشروط الرائعة التي وضعتها له فرفاراً بتروفتنا، وأن يرتضي آلاءها "كرجل عامي" طفيلي، ولكنه رفض تلك الصدقة ورحل.

فها هو ذا الآن يترك كل شيء، ويرفع "راية الفكرة العظيمة" عالية كل العلو، الفكرة العظيمة التي سيموت من أجلها في الطريق العام!... لا بد أن حالته النفسية كانت هي هذه. ولا بد أن مشروعه قد بدا له في هذه الصورة.

ولقد أقيت على نفسي مراراً كثيرة هذا السؤال الآخر أيضاً: لماذا رحل ماشياً؟ لماذا لم يركب عربة؟ وأجبت نفسي عن ذلك السؤال في أول الأمر بأن هذا يرجع إلى ما عُرف في الرجل من ضعف الحس العملي، وإلى ما كان عليه من اضطراب فكري بتأثير العاطفة العنيفة التي تسيطر عليه آنذاك. لقد تراءى لي أن الحصول على جواز طريق واكتراء عربة (ولو كانت ذات جرس) كانا يبدوان له أمرين مبتذلين عاميين. فالأجمل والأوقع في النفس أن يسافر ماشياً مشي الحجاج (ولو كان هذا الحاجُّ مزوداً بمظلة)، ولا بد أن يكون لهذه البادرة شأن أكبر في نفس فرفارا بتروفنا. أمّا اليوم، بعد أن انتهى كل شيء، فإنني أتصور أن الأمور جرت مجرى أبسط من هذا: لقد كان يخشى أن يكتري عربة لأن فرفارا بتروفنا قد تعلم الأمر فتمنعه من السفر بالقوة (لا شك أنها كانت ستفعل ذلك)، ويخضع هو، فأين تصير "الفكرة العظيمة" حينذاك؟ هذا عن اكتراء العربة، وأمّا عن جواز الطريق، فمن الواضح أنه لكي يحصل المسافر على جواز طريق يجب أن يعرف إلى أين هو مسافر. ولم تكن تلك حال ستيفان تروفيموفتش. حتى إن هذا بعينه هو ما يعذبه في هذه الساعة أكثر من أي شيء آخر: لقد استحال عليه استحالة مطلقة أن يعزم أمره على تحديد مكان من الأمكنة. ذلك أنه لو اختار هذه المدينة أو تلك من المدن لبدا له مشروعه على الفور سخيلاً ومستحيلاً. إنه يحس ذلك سلفاً، ما عساه فاعلاً في تلك المدينة التي يختارها؟ لماذا يختار هذه المدينة من دون سواها؟ أبحثاً عن ذلك "التاجر"؟ ولكن أي "تاجر"؟ عندئذ إنما كان ينبجس في ذهنه ذلك السؤال الرهيب. الواقع أنه لا شيء في نظره كان مريعاً مثل "ذلك التاجر" الذي يسرع هو إلى البحث عنه ويخاف أشد الخوف أن يعثر عليه طبعاً. لا، الأفضل أن يمشي في الطريق العام، الأفضل أن يمضي من دون أن يفكر في شيء ما ظل ممكناً أن لا يفكر في شيء. الطريق العام...

شيء طويل، طويل جداً، لا يرى المرء له نهاية، كالحياة الإنسانية. كالأحلام الإنسانية. الطريق العام يتضمن فكرة. أمّا جواز السفر في الطريق فأية فكرة يمكن أن يتضمن؟ جواز السفر نهاية كل فكرة... "عاش الطريق العام"، وعلى بركة الله...

بعد أن التقى بليزا ذلك اللقاء غير المتوقع، وهو اللقاء الذي سبق أن وصفته، استأنف ستيفان تروفيموفتش مشيه وقد انتابته سورة من حماسة أشد. إن الطريق العام يبعد عن سكفورشنيكي مسافة نصف فرسخ. أمر غريب: إن ستيفان تروفيموفتش لم يلاحظ في البداية أنه سلك الطريق العام. ما كان له في تلك اللحظة أن يحتمل أن يفكر تفكيراً منطقياً، أو على الأقل أن يشعر شعوراً واضحاً بما كان يفعله. وهذا رذاذ من المطر يتساقط من حين إلى حين، ولكن ستيفان تروفيموفتش لا يفتن حتى إلى هطول المطر، وهو لم يفتن أيضاً إلى أنه رمى كيسه وراء كتفه، وأن ذلك قد سهّل مشيه كثيراً. ولعله كان قد مشى فرسخاً أو فرسخاً ونصف فرسخ، حين توقف فجأة ونظر حوله. إن الطريق الأسود، المحفّر، المحفوف بأشجار مائية، يمتد أمامه إلى غير نهاية. وعلى يمينه حقول عارية قد حُصدت منذ مدة طويلة، وعلى شماله حراج مقطوعة نمت على جذوع أشجارها فروع صغيرة، ثم غابة بعد ذلك. وهناك، هناك في بعيد، خط السكة الحديدية الذي لا يُكاد يرى، وإنما يدل عليه دخان قطار لا يُسمع له صوت من شدة البعد. شعر ستيفان تروفيموفتش بخوف، ولكن الخوف لم يدم إلا لحظة واحدة. وتنهّد ستيفان تروفيموفتش على غير إرادة منه، ووضع كيسه على الأرض، وجلس ليستريح قليلاً، وشعر برعدة تسري في جسمه حين جلس فأحكم تلففه بمعطفه. وإذا لاحظ أيضاً أن المطر يهطل فتح مظلته. ولبث جالساً على هذه الحال مدة طويلة، وهو يحرك شفتيه من حين إلى حين، ويمسك قبضة المظلة إمساكاً قوياً، كانت صورة مبعثرة أشد التبعر تدور في ذهنه وتلاحق وتتطارد بعضها وراء بعض. "ليز، ليز، ومنعها مافريكي ذاك... ما أغربهم من ناس!... ولكن ما ذلك الحريق الذي تحدثوا عنه؟... وتلك الجثث؟... أظن أن "ستازي" لم

تعلم شيئاً بعد... لا بد أنها لا تزال تنتظرنني مع القهوة... بالورق؟ هل حدث لي أن خسرت رجالاً أثناء اللعب بالورق؟ هم... في بلادنا، في روسيا، في العهد الذي يقال له عهد العبودية... آه... رباها!... وفدكا؟...".

ارتعش ستيفان تروفيموفتش مرتاعاً، ونظر حوله: "ماذا إذا كان فدكا مختبئاً هنا في مكان ما، وراء بعض الشجيرات مثلاً؟... يقال إنهم عصاة كاملة تهاجم المارة في الطريق العام. آه... يا رب! وأنا الذي... لأقولنَّ له الحقيقة كلها. سوف أقول له إنني مذنب... وإنني تألمت له خلال عشر سنين، أكثر مما تألم هو حين كان جندياً... و... وسوف أعطيه محفظة نقودي. هم!... "معني أربعون روبلاً. سوف يأخذ المال ثم يقتلني مع ذلك" (بالفرنسية).

بهذا حدث ستيفان تروفيموفتش نفسه جزءاً، ثم إذا هو أثناء هذا الجزع يطوي مظلته - لا ندري لماذا - ويضعها على الأرض إلى جانبه.

وفي بعيد، على الطريق، ظهرت عربية. إنها آتية من المدينة. أخذ ستيفان تروفيموفتش يراقبها قلقاً بعض القلق. وجعل يحدث نفسه قائلاً: "الحمد لله... هذه عربية. إنها تسير بطيئة. لا يمكن أن يكون هذا خطراً. هذه أفراس من هنا، أفراس بليدة مسكينة... لطالما قلت إن هذه السلالة من الأفراس... لا بل إن بطرس إيلتش هو الذي تكلم في النادي عن السلالة، بينما كنت أنا أجمع الحصى، ثم... ولكن ماذا وراء العربية؟... أظن أن في العربية امرأة قروية... قروي وقروية. هذا مُطمئن. المرأة في خلف، والرجل في أمام. هذا مطمئن جداً. ووراء العربية بقرة مربوطة من قرنيها. هذا مطمئن إلى أبعد حدود الطمأنينة".

ووصلت العربية إلى حيث كان ستيفان تروفيموفتش. إنها عربية من عربات الفلاحين، متينة وجديدة. كانت المرأة جالسة على كيس كبير، وكان الفلاح راكباً في الأمام على حافة العربية متدلي الساقين. وكانت بقرة حمراء مربوطة من قرنيها تتبع العربية فعلاً. تأمل الرجل وامراته ستيفان تروفيموفتش محمليين، ونظر إليهما ستيفان تروفيموفتش أيضاً. ولكن ما إن تجاوزاه

عشرين خطوة حتى أسرع ينهض ليلحق بهما. إن مجاورة العربدة تبدو له مطمئنة حتماً. ولكنه ما إن وصل إلى العربدة حتى كان قد نسي كل شيء، وعاد يغرق في أحلامه. وأغلب الظن أنه كان يتقدم في سيره من دون أن يخطر بباله أنه في نظر الفلاح وامرأته في هذه اللحظة أعجب وأغرب ما يمكن أن يلتقي به المرء في الطريق العام.

ولم تطق الفلاحة صبراً، فسألته وهو يرفع نحوها نظرة ذاهلة:

- من أنت، إذا جاز لي أن ألقى هذا السؤال؟

إنها امرأة في نحو السابعة والعشرين من عمرها، ممتلئة الجسم، سوداء الشعر، زاهية اللون، كانت ابتسامتها اللطيفة التي ترسم على شفيتها الحمراوين تكشف عن صفين رائعين من الأسنان البيض.

دمدم ستيفان تروفيموفتش يسألها بدهشة أليمة:

- أتكلميني أنا... أنا؟

قال الفلاح بثقة:

- لا شك أنه تاجر.

هو فلاح قوي الجسم، في نحو الأربعين من عمره، له لحية غزيرة تضرب إلى حمرة وتحف بوجهه العريض. وما هو بالرجل الغبي.

قال ستيفان تروفيموفتش مدافعاً عن نفسه كيفما اتفق:

- لا... لست تاجراً... أنا... أنا... "أنا شيء آخر" (بالفرنسية).

وأبطأ خطوه، فصار وراء العربدة يسير محاذياً البقرة.

عاد الفلاح يتكلم فقال بعد أن سمع كلمات أجنبية:

- لا بد أنه سيد من السادة.

وشدَّ الازمة.

وقالت المرأة تكمل كلامه:

- ونحن كنا نقول لأنفسنا: لعله يتنزه.

- هل... هل عني تتكلمين؟

من هنا.

قال الفلاح بلهجة الواصل بنفسه أيضاً:

- هذان حذاء رجل عسكري.

- لا، لست عسكرياً، إنني...

وحدث ستيفان تروفيموفتش نفسه منزعجاً يقول: "ما أغرب هذه المرأة! وما أعجب تفرسها في!..." "على كل حال" (بالفرنسية)... الخلاصة: أشعر بأنني مذنب في حقهم، ومع ذلك لست بمذنب."

فأخذت "المرأة" تكلم زوجها هامسة.

- إذا كان هذا لا يسوؤك، فنحن يسرنا أن نتركك معنا... لا لشيء غير

إرضائك.

فثاب ستيفان تروفيموفتش إلى نفسه فجأة وأسرع يقول:

- نعم نعم يا صديقي. يسرني هذا كثيراً. لأنني متعب جداً. ولكن كيف

أتسلق إليكما.

وأضاف يحدث نفسه: "شيء غريب جداً... مشيت إلى جانب البقرة

هذه المدة الطويلة كلها ولم يخطر ببالي أن أركب عربتهما. حقاً إن "الحياة

الراقية" شيء خاص جداً..."

ومع ذلك لم يوقف الفلاح حصانه. وأخيراً قال يسأله بشيء من عدم

الثقة:

- ولكن إلى أين أنت ذاهب؟

فلم يفهم ستيفان تروفيموفتش فوراً.

- هل إلى خاتوفو مثلاً!

- إلى خاتوفو؟ لا... وأنا لا أعرفه، وإن كنت قد سمعت عنه.

- خاتوفو، خاتوفو، هذه قرية، قرية!

- قرية؟ "رائع" (بالفرنسية). أعرف هذا الاسم فعلاً...

وظل ستيفان تروفيموفتش يمشي، ولا يدعو أحداً أن يركب. وفجأة

خطرت بباله فكرة عبقرية. قال:

- لعلكم تتخيلون أنني... ولكن معي جواز سفر، وأنا أستاذ، أو قولوا إن شئتم معلّم، ولكنني معلّم رئيسي، "نعم، هكذا يمكن أن يُترجم عملي".
أود كثيراً لو أركب معكم، وسوف أشتري لكم... سوف أشتري لكم نصف زجاجة من الخمر.

قال الفلاح:

- خمسون كوبكاً يا سيدي... الطريق شاقة.

وقالت المرأة:

- وإلا كنا مغبونين.

- خمسون كوبكاً؟ موافق على خمسين كوبكاً. و"هذا أفضل، إن مجموع ما معي أربعون روبلاً، ولكن..." (بالفرنسية).

أوقف الفلاح الحصان، ورُفِع ستيفان تروفيموفتش إلى العربية بجهد مشترك، فجلس على الكيس إلى جانب المرأة. وسرعان ما عاد يفرق في أحلامه. كان يدرك هو نفسه، في بعض اللحظات، أنه مسرف في الذهول وأنه لا يفكر في حاله. وكان يعجب لذلك. بل إن هذا الإحساس بالضعف العقلي كان يؤلمه ويجرح كرامته.

قال يسأل المرأة الشابة:

- وما ذاك... في الخلف؟

فقالت الفلاحة ضاحكة:

- كأنك يا سيدي لم تر في حياتك بقرة!

وتدخل الفلاح فقال:

- اشتريناها من المدينة. لقد فطست بهائمنا في الربيع الماضي... بالطاعون. هلكت الماشية في كل مكان، عند جميع الجيران، هلك أكثر من نصفها. كارثة حقاً.

وضرب الحصان بسوطه.

فقال ستيفان تروفيموفتش مدمماً:

- نعم، هذا يحدث عندنا، في روسيا... ونحن على وجه العموم، معشر الروس... نعم... هذا يحدث...

- إذا كنت معلماً فما ذهابك إلى خاتوفو؟ اللهم إلا أن تكون ماضياً إلى أبعد من خاتوفو...

- أنا... لا... لن أمضي إلى أبعد منها. على وجه الإجمال... أقصد... أنا ذاهب إلى أحد التجار.

- ربما إلى سباسوف؟

- نعم، تماماً، إلى سباسوف. لا قيمة لهذا على كل حال.
قالت المرأة ضاحكة:

- إذا كنت ذاهباً إلى سباسوف، مشياً على القدمين، وبهذين الحذاءين، فسوف تصل إليه بعد أسبوع...

- تماماً، ولكن ما قيمة هذا "يا أصدقائي" (بالفرنسية)، ما قيمة هذا؟
كذلك قال ستيفان تروفيموفتش مقاطعاً. وأردف يحدث نفسه:

"ما أعجبهم! المرأة تتحدث خيراً من زوجها على كل حال. وإنني لألاحظ بوجه الإجمال أن أسلوبهم قد تبدل بعض التبدل منذ إلغاء القناة. ولكن فيم يهمهم أن يعرفوا أنني ذاهب إلى سباسوف أو إلى مكان آخر؟ ما دمت أدفع أجر ركوبي فلماذا لا يدعوني وشأني؟".

تابع الفلاح كلامه فقال:

- إذا كنت ذاهباً إلى سباسوف، فيجب ركوب السفينة.
وأسرعت المرأة تتدخل فقالت:

- هذا صحيح. إذ لو تبعت الشاطئ بالعربة لدرت دورة طولها ثلاثون فرسخاً

- بل أربعون.

واستأنفت المرأة كلامها فقالت:

- غداً، في الساعة الثانية، ستجد السفينة في أوستيفو.
ولكن ستيفان تروفيموفتش أصرَّ على التزام الصمت.

وصمت رفيقاه. كان الرجل يحرك الزمام، وكانت المرأة تبادل ملاحظات قصيرة من حين إلى حين. وغفا ستيفان تروفيموفتش، فما كان أشد دهشته حين هزته المرأة ضاحكة، فإذا هو يرى نفسه في قرية من القرى الكبيرة، أمام باب "عزبة" ذات ثلاث نوافذ.

- غفوت يا سيدي؟

- ما هذا؟ أين أنا؟ آ... نعم... لا بأس...

كذلك قال ستيفان تروفيموفتش متنهداً، ونزل من العربة. وألقى حوله نظرة حزينة مكتئبة. وبداله منظر القرية عجيباً، وأحسّ بغربة شديدة. وأسرع يقول للفلاح:

- كدت أنسى أن أنقذك الخمسين كوبكاً!

لقد كان واضحاً أنه منذ الآن يخشى أن يتركهما.

قال له الفلاح:

- ستدفع في العزبة. ادخل، أرجوك.

فصعد ستيفان تروفيموفتش درجات الباب المرتجة. ودمدم يقول لنفسه متحيراً قلقاً: "كيف يمكن هذا؟". ولكنه مع ذلك دخل. "هي التي أرادت ذلك" (بالفرنسية). وطعنت هذه الفكرة قلبه. ولكنه سرعان ما نسي كل شيء، نسي حتى كونه دخل العزبة.

تألف العزبة من غرفتين، وهي منزل مضيء نظيف، لم يكن فندقاً ولكن معارف صاحبه قد ألفوا أن يتلبثوا عنده، وأن يبيتوا فيه.

اتجه ستيفان تروفيموفتش إلى الركن تحت الأيقونات، بدون تخرج أو خشية، ناسياً أن يسلم، فجلس هناك واسترسل في أحلامه. وفي أثناء ذلك انتشر في جسمه، على حين فجأة، إحساسٌ لذيق بالدفء. أعقب برد الطريق ورطوبته، فسرت فيه رعدة، ولكن هذه الرعدة القصيرة التي يعرفها الأشخاص العصبيون حين تتابعهم الحمى وينتقلون فجأة من البرد إلى الدفء، كانت لذيدةً له إلى أقصى الحدود. وها هو ذا يرفع رأسه. إن الرائحة

الشهية التي تفوح من فطائر كانت ربة البيت مشغولة بإعدادها قد دغدغت أنفه.

فنهض نصف نهوض، وتمتم يقول مبتسماً ابتسامة طفل:

- ما هذا؟ فطائر؟ "شيء عظيم" (بالفرنسية).

فسألته ربة البيت بأدب:

- هل تريد أن تصيب شيئاً منها يا سيدي؟

- نعم، أريد. هذا ما أريده. أريد فطائر... وأسألك شيئاً من الشاي كذلك.

- السماور؟ بسرور كبير.

وقدّمت إليه الفطائر في طبق كبير عليه رسوم أزهار ضخمة زرقاء، وهي فطائر من قمح وشلّت، مصنوعة بالطريقة القروية، رقيقة جداً، مرشوشة بالزبدة الطازجة المحمية. إنها فطائر لذيدة، ذاقها ستيفان تروفيموفتش متمتعاً بمذاقها أكبر التمتع.

- ما أذسمها! وما أطيبها! ليت المرء يستطيع أن يشرب معها "إصبعاً من خمرة" (بالفرنسية).

- أليست الفودكا هي ما يرغب فيه سيدي؟

- هي بعينها. قليلاً من الفودكا. قليلاً جداً.

- بخمسة كوبكات؟

- نعم، بخمسة، بخمسة... قليلاً جداً.

كذلك كان يردد ستيفان تروفيموفتش وهو يبتسم ابتسامة سعيدة.

إذا سألت شخصاً من الشعب أن يفعل من أجلك شيئاً، فإنه يخدمك بسرور وعناية إذا أراد واستطاع. ولكن إذا سألته أن يجيئك بفودكا، فإن استعداد الهادئ للخدمة ما يلبث أن يحل محله تعجل فرح، واعتناء يوشك أن يشتمل على عاطفة وحنان. إن الذي يجيئك بالفودكا يعرف حق المعرفة أنك أنت الذي ستشربها لا هو، ولكنه مع ذلك يشاطرك اللذة التي تنتظرك نوعاً من المشاطرة...

ما انقضت ثلاث أو أربع دقائق (وكان الكاباريه على مسافة خطوتين)

حتى وضعت أمام ستيفان تروفيموفتش زجاجة وقح كبير.
سأل مدهوشاً:

- أهذا كله لي أنا؟ لطالما شربت فودكا في البيت، ولكنني لم أكن أعلم أنه
يمكن الحصول على هذا المقدار كله بخمسة كوبكات.

وملاً القدح ونهض واتجه بشيء من الأبهة صوب رفيقة رحلته، القروية
الشابة ذات الحاجبين الأسودين التي شدَّ ما أرهقه فضولها، والتي كانت
جالسة الآن في الركن المقابل من الغرفة. رفضت القروية في أول الأمر
مضطربةً الهيئة كل الاضطراب، لكنها لم تلبث أن سايرت المواضع
الاجتماعية فنهضت وشربت الكأس ثلاث جرعات، كما تفعل النساء عادة،
مصعرةً وجهها كأن الشراب قد حرق فمها، ثم ردت الكأس إلى ستيفان
تروفيموفتش وهي تنحني أمامه. فانحنى ستيفان تروفيموفتش هو أيضاً،
برصانة ووقار، ثم رجع إلى مكانه مرفوع الرأس.

لأنه انقاد لإلهام مفاجئ: هو نفسه كان لا يعرف قبل ثانية واحدة أنه
سيقدم فودكا إلى المرأة الشابة.

قال يحدث نفسه راضياً عن سلوكه أشد الرضى: "إنني أعرف معرفة
كاملة، نعم، معرفةً كاملة، كيف يجب أن يكون سلوك المرء مع الشعب.
لطالما قلت لهم هذا".

وسكب لنفسه باقي الفودكا، ورغم أن هذا الباقي كان لا يملأ كأساً كاملة،
فقد بثت الخمرة دفئاً وحرارة في جسمه، حتى لقد أثرت في رأسه.
قال يخاطب نفسه بالفرنسية: "مريض تماماً. ولكن ليس شراً كبيراً أن
يكون المرء مريضاً".

وهنا سمع صوتاً عذباً، هو صوت امرأة، يسأله:
- ألا تريد أن تشتري كتاباً؟

فما كان أشد دهشته حين رفع عينيه فرأى سيدة - "سيدة حقاً، إن هيئتها
هيئة سيدة" - بسيطة المظهر في نحو الثلاثين من العمر. إنها ترتدي ثياباً
على زي سكان المدن: ثوباً أسود وشالاً أشهب كبيراً على الكتفين. وإن في

وجهها لشيئاً محبباً إلى القلب سرعان ما أعجب به ستيفان تروفيموفتش. لقد عادت في هذه اللحظة إلى العزبة التي تركت فيها أشياءها على دكة، ومنها محفظة نقود كان ستيفان تروفيموفتش قد تأملها مستطعاً حين دخل، ومنها كيس من قماش مشمّع.

استلت المرأة من الكيس كتابين صغيرين مجلّدين تجليداً جميلاً، وعلى غلاف كل منهما صليب، ومدّتهما إلى ستيفان تروفيموفتش.

- "... آظن أنه الإنجيل!" (بالفرنسية)... بسرور عظيم... آ... فهمت الآن... أنت من تسمى بائعة متجولة. سمعت عن هذا.. خمسون كوبكاً؟ أجابت البائعة:

- خمسة وثلاثون كوبكاً.

- بكل سرور. "لا اعتراض لي على الإنجيل" (بالفرنسية). و... إنني أريد منذ مدة طويلة أن أعيد قراءته.

وتذكر في تلك اللحظة أنه منذ ثلاثين عاماً على الأقل لم يفتح هذا الكتاب، وأنه قبل سبع سنين قد تذكر بضع عبارات بمناسبة كتاب رينان "حياة يسوع". وإذ لم يكن معه نقود صغيرة، أخرج ورقاته الأربع، ورقات العشرة روبلات التي كانت كلّ ثروته. فأقبلت ربة البيت تعرض عليه أن تبدّل له إحدى هذه الورقات بنقود صغيرة، وعندئذ فقط إنما لاحظ ستيفان تروفيموفتش أن العزبة كانت ملأى تقريباً بأناس يلاحظونه بانتباه ويبدو عليهم أنهم يتكلمون عنه. وكانوا يتكلمون كذلك عن حريق الضاحية. وكان صاحب البقرة الذي وصل من المدينة متدفقاً في الحديث تدفقاً خاصاً. وكان المتكلمون يتهمون عمال مصنع شيبجولين.

قال ستيفان تروفيموفتش يحدث نفسه: "أمر غريب. إنه لم يفاتحني أنا بكلمة واحدة عن الحريق، وكان مع ذلك يتكلم طول الوقت!"

- ستيفان تروفيموفتش، أنت من أرى يا سيدي؟ حقاً لم أكن أتوقع أن ألقاك هنا!... ألم تعرفني؟

هكذا هتف على حين فجأة رجل متقدم في السن يرتدي دثاراً فضفاضاً له

ياقة عريضة مقلوبة. إنه بوجهه الحليق يبدو خادماً قديماً.
خاف ستيفان تروفيموفتش حين رأى أنه عُرف. وجمجم يقول:
- معذرة... لا أتذكر...

- لا تذكرني؟ أنا آنيسيم، آنيسيم إيفانوفتش. كنت في خدمة المرحوم السيد جاجانوف. كم من مرة رأيتك مع فرفارا بتروفنا عند المرحومة آفدوتيا سرجيفنا! كنت أحمل إليك كتباً على الدوام، بل لقد جئتك أيضاً مرتين بمريبات من بطرسبرج.

قال ستيفان تروفيموفتش مبتسماً:

- آ... نعم... الآن عرفتكَ... آنيسيم... أأنت تسكن هنا؟
- قرب سباسوف، في دير "ف..."، عند مارفا سرجيفنا، أخت آفدوتيا سرجيفنا. لعلك تذكر أن ساقها كانت قد كُسرت: وثبت من العربة حين كانت ذاهبةً إلى حفلة رقص. إنها تسكن الآن قرب الدير، وأنا في خدمتها. واليوم أذهب إلى المدينة كما ترى لألقى أهلي.

- نعم، نعم...

تابع آنيسيم كلامه فقال بابتسامة مفتونة:

- إنني سعيد جداً برؤيتك. لقد كنت تحسن معاملتي دائماً. ولكن إلى أين تذهب هكذا وحيداً يا سيدي؟... ما كنت تسافر وحيداً قبل اليوم قط، في ما يبدو لي.

نظر إليه ستيفان تروفيموفتش بارتياح.

- أأنت ذاهباً إلينا، إلى سباسوف؟

- نعم، إلى سباسوف. يخيل إليّ أن الجميع مسافرون إلى سباسوف...

- ربما إلى عند فيدور ماتفتتش؟ ما أعظم السرور الذي سوف يملأ قلبه حين يراك! لقد كان يحمل لك أعظم التقدير دائماً! وكثيراً ما يتكلم عنك حتى الآن.

- نعم نعم، سأذهب أيضاً إلى عند فيدور ماتفتتش.

- تحسن صنعاً يا سيدي. إن الفلاحين هنا مدهوشون كل الدهشة. يقولون

إنك قد وُجدت في الطريق العام وحيداً ماشياً: إنهم بلهاء!

-إنني... المسألة... اسمع يا أنيسيم: لقد راهنت، على طريقة الإنجليز في الرهان، وسوف أقطع المسافة ماشياً، وسوف...
-نعم، هذه هي المسألة... هذه هي المسألة.

كان أنيسيم يصغي إليه باستطلاع لا يرحم. وأصبح ستيفان تروفيموفتش لا يطيق صبراً، وبلغ من الاضطراب والقلق أنه أراد أن ينهض وأن يخرج من العزبة. ولكن جيء بالسماور، وفي تلك اللحظة نفسها عادت البائعة المتجولة إلى الغرفة. فهبَّ ستيفان تروفيموفتش يقدم إليها شاياً بوثبة إنسان لاح له خلاصه، فغلب أنيسيم على أمره، وتراجع منسحباً.

كان حضور ستيفان تروفيموفتش قد أيقظ دهشة الفلاحين وقلقهم فعلاً. كانوا يتساءلون: "من هذا الرجل؟". لقد وُجد ماشياً في الطريق العام. وهو يقول إنه معلّم. وهو يرتدي ملابس رجل أجنبي. وعقله عقل طفل يخط في أجوبته خبط عشواء. لكأنه هارب. وهو عدا ذلك يملك مالاً! وخطر ببالهم أن يبلغوا السلطات. "لا سيما وأن المدينة يسودها الاضطراب". ولكن أنيسيم رتبّ الأمور بسرعة، خرج إلى الدهليز وشرح للفلاحين أن ستيفان تروفيموفتش ليس معلّماً وإنما هو "عالم كبير يعنى بجميع أنواع العلوم. وأنه كان هو نفسه يملك في البلد أرضاً، ولكنه منذ اثنين وعشرين عاماً يسكن عند الجنرالة ستافروجين التي يحتل لديها المقام الأول. وإن المدينة كلها تحترمه. وأنه كان يتفق له أن يخسر في "نادي البلاد" خمسة وعشرين روبلاً بل مائة روبل في ليلة واحدة. أمّا رتبته فهي رتبة مستشار، وهي تعادل لدى العسكريين رتبة ليوتنان كولونيل. وأمّا المال فلا غرابة في أن يملك منه قدراً كبيراً، لأن الجنرالة تعطيه ما يشاء بغير حساب"، إلخ، إلخ.

قال ستيفان تروفيموفتش يحدث نفسه وقد أسعده أن يتخلص من أنيسيم وأخذ ينظر بدهشة ممتعة إلى جارته البائعة المتجولة: "ألا إنها لسيدة حقاً، سيدة كما يجب تماماً. وكانت البائعة في أثناء ذلك تشرب الشاي من صحن الفنجان عاضّة على قطعة السكر بأسنانها. فتابع ستيفان تروفيموفتش حديثه

مع نفسه معلقاً: "لا ضير، لا ضير في أن تعض على قطعة السكر... ما هذا بذي قيمة (بالفرنسية). إن فيها شيئاً نبيلاً مستقلاً، وادعاً في الوقت نفسه. "سيدة كما يجب تماماً" (بالفرنسية)، ولكنها من نوع خاص".

ولم تلبث أن أعلمته أن اسمها صوفيا ماتفتنا أوليتينا، وأنها تقيم عادةً في "ك..."، عند أختها الأرملة. وقالت له إنها هي أيضاً أرملة. فإن زوجها الذي كان مساعداً ورُفِعَ إلى رتبة ملازم ثانٍ تكريماً لخدماته قد قتل في سباستوبول. - ولكنك لا تزالين في ريعان الشباب، "لم تبلغِ الثلاثين من العمر" (بالفرنسية).

فقال صوفيا وهي تبسم:

- بل عمري أربعة وثلاثون عاماً.

- كيف؟ أفهمين الفرنسية؟

- قليلاً. لقد عشت أربع سنين في أسرة من أسر المالكيين، فتعلمت الفرنسية قليلاً بفضل الأولاد.

وقصّت عليه أنها ترمّلت في الثامنة عشرة من عمرها، فدخلت بعض الوقت في سلك "راهبات المحبة" بسباستبول، ثم عملت عند أشخاص كثيرين، وهي الآن تبيع أناجيل.

- "ولكن يا إلهي!" (بالفرنسية)، ألسنت أنت التي وقعت لها تلك القصة العجيبة، بل تلك القصة التي لا يكفي أن توصف بأنها عجيبة؟

فاحمرّت المرأة. نعم. إنها هي التي وقعت لها تلك القصة.

قال ستيفان تروفيموفتش بصوت يختلج من شدة الاستياء والاستنكار:

- "هؤلاء الحقراء، هؤلاء الأشقياء!" (بالفرنسية).

ولكن حين وافته هذه الذكرى انقبض قلبه، وهوى غارقاً في أفكاره وخواطره من جديد. حتى إذا ثاب إليه وعيه، فلاحظ أنها ليست معه، قال لنفسه: "غريب! لقد انصرفت ثانية! إنها تخرج باستمرار، وإن هناك ما يشغلها دائماً. حتى ليبدو أنها مهمومة... "آه لقد أصبحت أنانياً" (بالفرنسية).

ورفع عينيه فأبصر آيسيم، ولكنه أبصره هذه المرة في جو ينذر بشر

مستطير. كانت العزبة ملأى بفلاحين أتى بهم أنيسيم طبعاً. كان هناك صاحب العزبة، والفلاح الذي اشترى البقرة من المدينة، وفلاحان آخران (هما من سائقي العربات)، ورجل قصير نصف سكران، يرتدي ثياب الفلاحين لكنه حليق فلعله أحد سكان المدينة، وكان صوته يعلو في الكلام على صوت سائر المتكلمين. كان هذا الجمع كله يتناقش في أمر ستيفان تروفيموفتش. أمّا صاحب البقرة فكان يؤكد أن اتباع طريق شاطئ البحيرة بالعربة يرسم دورة لا تقل عن أربعين فرسخاً بل تزيد، فيجب حتماً ركوب السفينة. وكان الرجل القصير الثمل وصاحب العزبة يحتجان على هذا احتجاجاً حاراً:

- إذا قطع سيادته البحر بالسفينة فلا شك أن هذا أسرع. ولكن من الممكن في هذا الطقس أن لا تستطيع السفينة الرسو على الشاطئ.

فيقول أنيسيم راداً بحرارة شديدة:

- بل سترسو، سترسو خلال أسبوع آخر.

- صحيح، ولكنها لا تسير سيراً منتظماً مطرداً لأن الجو قد سبق أوانه. فقد يتفق لك أن تنتظر ثلاثة أيام في أوستيفو. ويزار أنيسيم قائلاً:

- ستكون السفينة هنا غداً، في الساعة الثانية تماماً. وستصلون إلى سباسوف قبل الليل يا سيد. الأمر كما أقول لك.

تساءل ستيفان تروفيموفتش بينه وبين نفسه وهو يرتعش منتظراً أن يقرروا مصيره: "ولكن من هذا الرجل؟" (بالفرنسية).

وتقدم السائقان هما أيضاً يشاركان في الحديث ويعرضان خدماتهما. إنهما يطلبان ثلاثة روبلات للوصول إلى أوستيفو. فصاح الآخرون قائلين هذا أجر معتدل معقول، هو الأجر نفسه الذي كان يُطلب طوال فصل الصيف. دمدّم ستيفان تروفيموفتش يقول محاولاً الدفاع عن نفسه:

- ولكن حالتي هنا جيدة... ولا أريد أن...

- حالتك هنا حسنة... هذا صحيح... ولكنها ستكون عندنا في سباسوف أحسن أيضاً، وسيسعد فيدور ماتفتش برؤيتك أكبر السعادة!

- يا أصدقائي، كل هذا لم أكن أتوقعه...

ودخلت صوفيا ماتفتنا ثانية، فجلست على الدكة حزينة منهارة، وقالت
لربة البيت:

- لن أستطيع الذهاب إلى سباسوف.

فصاح ستيفان تروفيموفتش يقول وكأن هذا النبأ قد ردّه إلى الحياة
وأنعشه:

- ماذا؟ أنت أيضاً ذاهبة إلى سباسوف؟

فذكرت له أن ناديجدا إيجورفنا سفتلتسينا، وهي من مالكات الأطيان
في هذه النواحي، قد طلبت منها أمس أن تنتظرها في خاتوفو لتقلّها إلى
سباسوف، ثم لم تجيء هذه السيدة.

وكررت البائعة المتجولة تقول:

فماذا أعمل الآن، فماذا أعمل الآن؟

- "ولكن يا صديقتي العزيزة والجديدة" (بالفرنسية)، يمكنني أنا أيضاً أن
أقلّك إلى تلك القرية... ما اسمها؟ لقد اشترت عربية، وغداً... نعم غداً،
سنكون في سباسوف.

- أنت ذاهب إلى سباسوف أيضاً؟

- "وما العمل، بل إنني سعيد جداً بهذا!" (بالفرنسية)، سأقلّك إلى هناك
مسروراً كل السرور.

- من منكما اتفقت معه على السفر إلى سباسوف؟

لقد أصبح ستيفان تروفيموفتش يتعجل السفر إلى سباسوف نافد الصبر
فجأة.

وبعد ربع ساعة كانا قد استقرا بمساعدة آنيسيم في عربية مغطاة. أمّا ستيفان
تروفيموفتش فكان مغتبطاً كل الاغتباط نشاطاً كل النشاط، وأمّا المرأة فكانت
وقد جلست إلى جانبه مع كيسها المصنوع من قماش مشمّع، تطوف بشفتيها
ابتسامة تعبر عن الاعتراف بالجميل.

صاح آنيسيم يقول منهمكاً حول العربة:

- سفرًا ميمونًا. ما كان أسعدنا بلقائك!
- أستودعك الله، أستودعك الله يا صديقي، أستودعك الله!
- سترى فيدور ماتفتفتش يا سيدي...
- نعم يا صديقي، نعم، فيدور ماتفتفتش... ولكن أستودعك الله.

2

ما إن سارت العربة حتى بدأ ستيفان تروفيموفتش الكلام فقال:
- اسمعي يا صديقتي.. أسمحين لي بأن أعدك صديقةً لي؟... إذا اسمعي
يا صديقتي... "أنا أحب الشعب. هذا ضروري لا غنى عنه ولكن يبدو أنني
لم أر الشعب يوماً عن كثب. لا شك في أن ستازي من الشعب أيضاً... ولكن
الشعب الحقيقي" (بالفرنسية)، الشعب الحقيقي الذي نلقاه على الطريق
العام، ليس له من هم في ما يبدو لي إلا أن يعرف إلى أين ذاهب... ولكن
فلنسامحه... أظن أنني أهرف هرفاً... ولكن ذلك يرجع إلى أنني متعجل.
قالت صوفيا ماتفتفتنا وهي تنظر إليه بانتباه ولكن باحترام:
- أنت مريض في ما أرى.

- لا، لا، يكفي أن أغطي جسمي جيداً. الهواء بارد مع ذلك، بل هو بارد
جداً. ولكن فلندع هذا الآن. أريد أن أتكلم في أمر آخر. "أيتها الصديقة
العزيزة التي ليس لها نظير" (بالفرنسية)، يخيل إليّ أنني سعيد تقريباً. وهذا
بفضلك أنت. والسعادة تضرني، لأنني سرعان ما أغفر لجميع أعدائي.
- ولكن هذا حسن جداً.

- ليس دائماً، "أيتها العزيزة البريئة". اسمعي... "من الآن سندعو إلى
الإنجيل ونشر به معاً" (بالفرنسية)، وسيسرني أن أبيع كتبك الصغيرة
الجميلة هذه. نعم "يخيل إليّ أن هذه فكرة ربما كانت رائعة،" شيء جديد
جداً في بابهِ" (بالفرنسية). إن الشعب متدين، "هذا أمر مسلم به"، ولكنه
لا يعرف الإنجيل بعد. فسوف أشرحه له. وحين يشرح المرء هذا الكتاب
الممتاز، حين يشرحه بصوت عالٍ، فإنه يستطيع أن يصحح أخطاءه. إنني

مستعد لأن أولي هذا الكتاب أعظم الاحترام. هكذا أستطيع أن أكون نافعاً حتى في الطريق العام. لقد كنت نافعاً في جميع الأحيان، قلت لهم ذلك، "وقلته لتلك العقوق العزيزة" (بالفرنسية). آه... ولنا أمل أن يغفر لنا الآخرون أيضاً. نعم، لأن كل واحد منا مذنب في حق الآخرين. الجميع مذنبون. - لقد أحسنت القول في ما يبدو لي.

- نعم، نعم، أحس أنني أحسن القول، وأجيد الكلام. سأحسن مخاطبتهم، ولكن... ماذا كنت أريد أن أقول؟ ماذا كانت فكرتي الرئيسية؟ إنني أرتبك دائماً، لم أعد أتذكر... هل تسمحين لي بأن لا أتركك الآن أبداً؟ إنني أحس أن نظرتك... بل إنني مدهوش من آدابك في السلوك. إنك بسيطة، وإنك تستعملين تعابير شعبية، وتشربين من صحن الفنجان، عاضّة على تلك القطعة اللعينة من السكر، ومع ذلك فيك شيء ساخر، وإنني لأرى في قسمات وجهك... أوه! لا تحمري ولا تخافي مني خوفك من رجل. "أيتها العزيزة التي لا تضاهي، المرأة عندي هي كل شيء" (بالفرنسية). لا أستطيع أن أعيش إلا إلى جانب امرأة، ولكن إلى جانبها فقط... أواه! إنني أرتبك ارتباكاً رهيباً... لا أفلح في تذكر ما كنت أريد أن أقوله. سعيدٌ ذاك الذي تبعث إليه السماء بامرأة دائماً... و... وأعتقد أنني متحمس كثيراً. في الطريق العام أيضاً يمكن أن تتحقق فكرة عظيمة. نعم، ذلك ما كنت أريد أن أقوله بصدد الفكرة، تذكرت الآن. منذ قليل عجزت عن وضع يدي على ما كنت أريد أن أقوله. أوه! كنا هناك في خير حال، بينما "البرد يشتد هنا اشتداداً فظيماً" (بالفرنسية). بالمناسبة: إن مجموع ما معي هو أربعون روبلاً، فإليك المال، خذيه، خذيه، إنني لا أحسن تدبير أمري، قد أضيعه، قد يسرق مني، و... يخيل إليّ أنني أريد أن أنام. رأسي يدور، يدور، يدور. أوه! ما أطيّب قلبك، ما أكرم نفسك! بماذا تغطيني؟

- لا شك أنك تعاني حمّى، وقد أعطيتك غطائي. أمّا عن المال، فإنني أفضل أن...

– ناشدتك الله! "لا نتكلمن عن هذا بعد الآن. لأنه يؤلمني" (بالفرنسية).
ما أنبل نفسك!

وكفَّ عن الكلام فجأة، ولم يلبث أن نام نومَ المحموم. كانت رعدات
تهزه من حين إلى حين.

إن الطريق الموارب المختصر الذي سلكاه لقطع سبعة عشر فرسخاً
لم يكن بالطريق الجيد. وقد ارتجت العربدة ارتجاجاً شديداً. فكان ستيفان
تروفيموفتش يستيقظ من حين إلى حين، فيرفع رأسه عن الوسادة الصغيرة
التي دسها صوفياً ماتفتننا تحت عنقه، ويمسك يد المرأة الشابة، ويسأل:
"أأنت هنا؟" كأنما هو يخشى أن تتركه. وكان يقول لها أيضاً إنه يرى في
المنام فكاً عريضاً مكشراً عن أسنان، وإن هذا يشير اشمئزازه. فكانت صوفياً
ماتفتننا تقلق قلقاً شديداً.

وتوقفت العربدة أخيراً أمام عذبة كبيرة لها أربع نوافذ، ولها ملحقات
كثيرة في الفناء. وها هو ذا ستيفان تروفيموفتش، المتعجل كثيراً، يدخل
الغرفة الثانية رأساً، وهي أجمل الغرف وأوسعها. وسرعان ما اكتسى وجهه
الوسنان تعبيراً عن الهم على حين فجأة. أعلن لربة الدار فوراً، وهي امرأة
بدينة طويلة في نحو الأربعين من عمرها، سوداء الشعر، حتى إن شفتها العليا
يظللها شارب صغير، أعلن لها أنه يريد أن تُحجز الغرفة كلها له وحده، وأن
يُغلق الباب، وأن لا يدخل أحد "لأن هناك كلاماً كثيراً يجب أن يتبادلاه. نعم،
هناك أمور كثيرة يجب أن أقولها لك يا عزيزتي، (بالفرنسية). وعاد يقول لربة
البيت وهو يحرك يده بإشارات عريضة "سأدفع لك، سأدفع لك".

كان يتكلم في تعجل. ومع ذلك كان لسانه لا يطاوعه. وأصغت إليه ربة
المنزل بغير بشاشه ولكنها لزمت الصمت علامة الموافقة، وهي موافقة زاحرة
بمعاني التهديد على كل حال. لم يلاحظ هو هذا، بل أسرع بأمرها بأن تخرج
وأن تجيئهما بالعشاء من غير أي إبطاء (كان يبدو متعجلاً أكبر التعجل).

فما كان من ذات الشارب إلا أن قالت له وقد نفذ صبرها وفقدت سيطرتها
على نفسها:

- ليس هذا نُزْلاً يا سيدي. إننا لا نقدم للمسافرين هنا غداء. كل ما أستطيع أن أفعله لك هو أن أسلق لك بعض السلطعان وأن أحضّر السماور. ولن يكون عندنا سمك طازج إلا في الغد.

حرّك ستيفان تروفيموفتش ذراعيه نافذ الصبر وهو يكرر بلهجة غاضبة حانقة: "سأدفع، سأدفع، ولكن أسرع!". وتم الاتفاق على إعداد حساء بالسمك ودجاجة مقليّة. وقد أعلنت صاحبة البيت في أول الأمر أن القرية كلها ليس فيها دجاجة واحدة، ولكنها قبلت مع ذلك أن تحاول العثور على دجاجة، متظاهرة في الوقت نفسه بأنها تخدم الرجل خدمة كبيرة.

وما إن خرجت حتى جلس ستيفان تروفيموفتش على الديوان، وأجلس صوفيا ماتفتننا إلى جانبه. إن الديوان والمقاعد التي تؤثث الغرفة كانت في حالة يرثى لها. وفي وسعنا أن نقول عن هذه الغرفة الواسعة بعض السعة إنها كانت بسريرها المخبأ وراء حاجز في داخل فجوة، وبورق جدرانها الأصفر الممزق المهترئ، وبصورها الليتوغرافية الأسطورية الفظيعة، وبأيقوناتها المصطفة صفّاً طويلاً، وبأثاثها غير المتجانس، كانت مزيجاً كريهاً من أذواق القرية والمدينة. غير أن ستيفان تروفيموفتش لم يلق نظرة واحدة على ذلك كله، بل إنه لم يلق حتى نظرة من النافذة على البحيرة الواسعة التي تمتد على بعد ثلاثين خطوة من العزبة.

- ها نحن أصبحنا وحيدين! لن يؤذن لأحد بالدخول. أريد أن أحكي لك كل شيء، كل شيء، من البداية.

ارتسم على وجه صوفيا ماتفتننا قلق شديد، وقاطعته تقول:

- هل تعلم يا ستيفان تروفيموفتش...

فسألها وهو يتسم ابتسامة افتتان:

- "كيف؟ أتعرفين اسمي منذ الآن؟" (بالفرنسية).

- عرفته منذ قليل، حين كنت تتكلم مع آيسيم. ولكن إليك ما أريد أن

أقوله لك إذا أذنت...

ومالت عليه وألقت نحو الباب نظرات قلقة خشية أن تُسمع، وأخذت

تهمس قائلة له إن هذه القرية خطيرة على المرء أشد الخطر: فالفلاحون هنا

صيادون، ولكنهم يعيشون خاصةً من استغلال المسافرين إذ يجبرونهم على أن يدفعوا لهم في الصيف ما يشاؤون. والناس لا يجيئون إلى هذه القرية التي لا تقع في طريقهم إلا لأن السفينة تلبث فيها. فإذا تأخرت السفينة - لأنها حين يسوء الجو لا تستطيع الرسو على الشاطئ - كثر الناس كثرة كبيرة فإذا جميع الدور مشغولة. والفلاحون لا ينتظرون إلا هذا: إذ يحملون المسافرين على أن يدفعوا ثلاثة أضعاف ما يجب دفعه في أيسر أمر من الأمور. وصاحب هذا المحل أكثر أهل القرية كبرياء وغروراً، لأنه يملك شبكة لا يقل ثمنها عن ألف روبل.

كان ستيفان تروفيموفتش ينظر إلى وجه صوفيا المتوقد، بما يشبه أن يكون عتياً. حتى لقد حاول عدة مرات أن يوقفها عن الكلام بحركة من يده. ولكنها كانت حريصة على فكرتها وأنهت إيضاحاتها: لقد سبق لها أن جاءت إلى هذه القرية في الصيف الماضي مع "سيدة من أسرة ممتازة"، فأمضتا معاً فيها يومين بانتظار السفينة. إلا أن الأفضل أن لا تتكلم عما قاستا: لقد كان ما قاستاه رهيباً فظيعاً. "إنك قد حجزت الغرفة لك وحدك يا ستيفان تروفيموفتش... وما أقوله الآن إنما أريد به تنبيهك... إن الغرفة المجاورة فيها منذ الآن مسافرون، رجل مسن، وشاب، وسيدة مع طفلين. ولكن العزبة ستكون في الغد غاصة بالناس، لأن السفينة لم تصل، فلا بد إذاً أن ترسو في الغد حتماً. إن أصحاب الدار سيطلبون منك مبلغاً باهظاً لو طُلب حتى في بترسبرج لكان فضيحة. غرفة مستقلة، وغداء كالذي أمرت به، وإزعاج تسببه لسائر المسافرين، ذلك كله سيكلفك كثيراً..."

كان ستيفان تروفيموفتش يتألم. كان يتألم فعلاً.
- أرجوك يا بنيتي! "كفى، كفى! إن معنا مالاً، وبعد ذلك يفعل الله ما يشاء" (بالفرنسية). بلى إنني لیدهشني أن أراك أنت صاحبة الأمر العالية الرفيعة تقولين هذا الكلام... "كفى، كفى! إنك تعذبيني!" (بالفرنسية).

كذلك صاح يقول ثائر الأعصاب. وأردف:
- إن أماننا المستقبل كله، وأنت... أنت تحاولين أن تخيفيني من المستقبل...

وسرعان ما شرع يحكى لها قصته كلها، ولكنه بلغ في كلامه من فرط التعجل أنه كان يصعب حتى فهمه في البداية. ودامت قصته مدة طويلة. لقد جيء بحساء السمك، ثم جيء بالدجاجة المقلية، وجيء أخيراً بالسماور، والرجل لا يزال يتكلم... كان يعبرُ بطريقة غريبة، بطريقة مرضية. ولكنه كان مريضاً بالفعل. إن توتراً مفاجئاً في جميع قواه العقلية كان لا بد أن يؤدي - كما تنبأت بذلك صوفيا ماتفتننا قلقة - إلى وهن شديد في جسمه المصاب إصابة بالغة. بدأ بالكلام عن طفولته حين "كان يجري في الحقول عاري الصدر". وبعد ساعة كاملة من الكلام وصل إلى الحديث عن زواجه بيرلين. لا أريد أن أسخر منه، وهيهات أن يخطر ببالي الضحك عليه. ولكنني أذكر أنه تحدث عن زواجه حديثه عن شيء عظيم حقاً، لقد كان في نظر نفسه يناضل من أجل الوجود، على حد التعبير الحديث. إنه يرى أمامه المرأة التي اصطفاها لتكون رفيقة طريقه، فها هو ذا يعلمها إن صح التعبير. ما ينبغي أن تكون عبقرية ستيفان تروفيموفتش سراً مكتوماً عنها. لعله كان يعتقد على صوفيا ماتفتننا آمالاً فيها كثير من المبالغة الشديدة، ولكنه كان قد اختارها. إنه لا يستطيع أن يستغني عن امرأة. هو نفسه، على كل حال، كان يحزر من تعبير وجهها أنها لا تكاد تفهم عنه، إن أهم ما في كلامه لا تفهمه. فكان يقول لنفسه: "لا ضير، ليس لهذا قيمة، سوف تنتظر. سوف تفهمني الآن بقلبيها...". وصاح يقول قاطعاً حديثه عن قصة حياته:

- صديقتي! ما أنا في حاجة إلّا إلى قلبك، وإلى هذه النظرة الساحرة التي تلقينها عليّ... لا تحمري! سبق أن قلت لك...

وغمضت الأمور في عقل صوفيا المسكينة خاصة حين أخذ يشرح لها بإفاضة وإسهاب أن أحداً لم يفهمه حتى الآن، وأن "الموهبة عندنا في روسيا مآلها إلى الذبول والضياع لا محالة". لقد اعترفت صوفيا في ما بعد قائلة: "كان كلامه أذكى من أن أستطيع فهمه". وكانت تصغي باجتهاد شاق محملقة العينين. فلما اندفع ستيفان تروفيموفتش في "التنكيث"، فأخذ يتهكم على "العقول التقدمية التي تقودنا" حاولت أن تستبدل بالحزن مرحاً وأن ترد على ضحكها بابتسامة، ولكن محاولتها بلغت من الإخفاق أن ستيفان تروفيموفتش

شعر هو نفسه بشيء من الاضطراب، فأخذ عندئذ يتجههم بعنف وقسوة على "العدميين"، و"الناس الجدد"، فارتاعت المسكينة ارتياعاً شديداً. ثم لم يهدأ بالها قليلاً - وكان هدوءاً خداعاً على كل حال - إلا حين وصل ستيفان تروفيموفتش من حديثه إلى تلفيق رواية حب، بالمعنى الأصلي لكلمة الرواية. إن المرأة امرأة ولو كانت راهبة. فها هي ذي الآن تبتسم، وتهزّ رأسها، ثم تحمّر وتخفض عينيها، فيزداد ستيفان تروفيموفتش افتتاحاً، ويزداد إلهامه انتقاداً، فتتكاثر أكاذيبه في الرواية مزيداً من التكاثر. فإذا بفرفارا بتروفا تستحيل إلى سمراء فاتنة ("سبت الأفئدة في بطرسبرج وعواصم أوروبا")، وكان زوجها قد "قُتل برصاصة في سيباستوبول"، لأنه كان يحس بأنه غير جدير بحب زوجته، وبأن عليه أن يدع الميدان خالياً لمنافسه، أي لستيفان تروفيموفتش. "لا تضطربي يا عزيزتي الرقيقة العذبة، لا تضطربي يا عزيزتي المسيحية الفاتنة! لقد كان حبنا يبلغ من الروعة ومن اللطافة أننا لم نتصارح عن عواطفنا في يوم من الأيام". كذلك صاح يقول وقد صدّق أكاذيبه هو نفسه. وتابع يقول إن سبب ذلك الموقف إنما هو فتاة شقراء (إن لم تكن داريا بافلوفنا، فمن عسى تكون؟ حقاً لا أدري!). فلقد كانت تلك الفتاة الشقراء تدين للسيدة السمراء بكل شيء، فالسيدة السمراء هي التي عُيّنت بتربيتها وتعليمها من حيث إنها تمت إليها بقرابة (بعيدة) فلما حزرت السيدة السمراء ما تحمله الفتاة الشقراء له من حب انطوت على نفسها. ولما أدركت الفتاة الشقراء من جهتها ما تحمله السيدة السمراء لستيفان تروفيموفتش من حب انطوت على نفسها هي أيضاً. وهكذا انطوى الثلاثة على أنفسهم وظلوا يتألمون صامتين طوال عشرين عاماً يعذبهم نبل نفوسهم ويرهقهم من أمرهم عسراً. "آه... يا له من هوى! يا له من هوى!". كذلك صاح يقول وهو يكاد يبكي في سورة من حماسة صادقة، "كنت أراها (السيدة السمراء) في كمال تفتح جمالها، أراها جريح القلب، تخطر أمامي خجلة من جمالها (ومرة قال: "خجلة من بدانتها"). وهرب في النهاية، مودعاً إلى الأبد ذلك الحلم الحار الذي دام عشرين عاماً. "عشرون عاماً! والآن، في الطريق العام...". بذلك ختم روايته. ثم ازدادت حمى رأسه فأخذ يشرح لصوفيا ماتفتفنا ما دلالة

"لقائهما العارض الحاسم إلى آخر عصور الدهر أبد الأبدين!". فاضطربت صوفيا ماتفتفنا أشد الاضطراب، ونهضت أخيراً عن الديوان. وهمّ عندئذ أن يرتمي جاثياً على ركبتيه، فبلغت المرأة المسكينة من الارتياح أن الدموع سالت من عينيها. وكان الليل يهبط، وهما مختليان في هذه الغرفة المغلقة منذ عدة ساعات.

دمدمت تقول:

- لا. الأفضل أن تدعني أذهب إلى الغرفة المجاورة. ما عسى يقول هؤلاء الناس جميعاً؟...

وأفلتت أخيراً. وتركها تمضي واعدأ إياها أنه سينام فوراً. وكان يشكو من صداع شديد على كل حال. إن صوفيا ماتفتفنا، حين دخلت الغرفة منذ قليل، قد تركت كيسها وأمتعتها في الغرفة المجاورة، عاقدةً عزمها على أن تبيت ليلتها مع ربة الدار. ولكنها لم تستطع أن ترتاح.

ففي أثناء الليل أصيب ستيفان تروفيموفتش بنوبة من نوبات الكوليرين التي يعرفها فيه أصدقاؤه والتي كانت تعقب عنده كل توتر عصبي قوي وكل هزة انفعالية. فكذلك قضت صوفيا ماتفتفنا ليلتها كلها بغير نوم. واضطرت كأنما لتعتني بالمريض أن تذهب وتجيء مارةً بالغرفة التي كان ينام فيها رب الدار وزوجته وسائر المسافرين، فأخذ هؤلاء أخيراً يدمدمون متذمرين، حتى لقد جعلوا في النهاية يشتمونها حين أرادت في الفجر أن تحضّر السماور. وكان ستيفان تروفيموفتش في شبه غيبوبة، يحس في بعض الأحيان أنه جيء بالسماور، وأنه يُجرّع شيئاً ما (هو شراب التوت ساخناً)، وأن كمادات ساخنة توضع على بطنه وصدره. وكان يحس طوال الوقت "أنها" قريبة منه، وأنها "هي" التي تذهب وتجيء، وتنهضه ثم ترقده، وفي نحو الساعة الثالثة من الصباح شعر بتحسن. فجلس على سريره، ثم وضع قدميه على الأرض، وفجأةً، من دون أن يحس بما يفعل، سجد أمام صوفيا ماتفتفنا: ولم يكن سجوده اليوم كركوعه بالأمس، فهو الآن يهوى على قدميها ويقبل حافة ثوبها. فدمدمت المسكينة تقول وهي تحاول أن تنهضه وأن تعيده إلى سريره: - هذا تفعل؟ إنني لا أستحق.

فقال وهو يضم يديه إحداهما إلى الأخرى بحركة عبادة:
- أنت مخلصي. "إنك نبيلة كمر كيزة!" (بالفرنسية) وأنا... أنا رجل شقي،
إنسان بائس! آه... إنني لم أكن طوال حياتي إلا رجلاً غير شريف...
فقالت صوفيا ماتفتفنا ضارعةً إليه:

- هدىء نفسك!

- لقد كذبت منذ قليل، كذبتُ غروراً وتبجحاً، كذبتُ كسلاً وبطالةً. كل ما
قلته لم يكن إلا كذباً، كل ما قلته، إلى آخر كلمة! ما أشقاني!
هكذا أعقبت نوبة الكوليرين نوبةً مذلة. لقد سبق أن أتيح لي أن تكلمت
عن تلك النوبات بصدد الرسائل التي كان يكتبها إلى فرفارا بتروفنا. وفجأة
تذكر ليز، ولقاءهما بالأمس فهتف يقول: "فظيع! لا بد أن شقاءً قد حلّ، ولم
أسألها عما وراءها! لم أفكرُ إلا في نفسي! ماذا حلّ بها؟ ألا تعرفين ماذا
أصابها؟".

ثم أخذ يحلف أنه "لن يخون أبداً" وأنه "سيعود إليها" (يقصد فرفارا
بتروفنا). قال: "سنمر كل يوم أمام بابها (يقصد هو وصوفيا ماتفتفنا)، ساعة
تركب عربتها لتقوم بنزهتها الصباحية، وستأملها بصمت... آه... أريد أن
تضربني على خدي! ما ألد أن تضربني على خدي! وسأمد لها خدي الأيسر،
"كما يقول كتابك!" (بالفرنسية). الآن فقط فهمت ما معنى مدّ الخد الأيسر...
ولم أكن قد فهمته قبل الآن في يوم من الأيام...".

قضت صوفيا ماتفتفنا يومين رهيبين. إنها لا تزال حتى هذا اليوم لا
تذكرهما إلا وترتعد. لقد بلغ ستيفان تروفيموفتش من شدة المرض أنه
كان عاجزاً عن ركوب السفينة حين وصلت السفينة في الساعة الثانية تماماً
من بعد الظهر، في هذه المرة. ولم تستطع صوفيا ماتفتفنا أن تقرر أن تذهب
وتتركه وحده، وعدلت عن السفر إلى سباسوف. وقد روت في ما بعد أن
المريض كان سعيداً جداً حين علم أن السفينة سافرت. لقد دمدم يقول وهو
راقداً على سريره:

- رائع! حالتي هنا حسنة، أحسن منها في أي مكان آخر. لن تتركيني،
أليس كذلك؟ آه... لا... لم تتركيني!

ولكن الواقع أن حالته لم تكن حسنة "هنا". لقد كان رأسه مليئاً بالأحلام، فكان لا يريد أن يعرف شيئاً عن المصاعب التي تجتازها صوفيا ماتفتننا. كان يعدُّ مرضه وعكةً عارضة. حتى أن فكره كان لا يتلبث عليه، لانشغاله بشيء آخر: كيف سيسافران معاً من مدينة إلى مدينة "يبيعان هذه الكتب الصغيرة". وطلب أن تقرأ له الإنجيل.

- منذ مدة طويلة لم أقرأه... في النص الأصلي. فإذا سألتني أحد كان يمكن أن أخطئ. فالأفضل أن يكون المرء مستعداً.
جلست صوفيا إلى جانبه وفتحت الكتاب. وأخذت تقرأ، فإذا هو يقاطعها منذ أول آية قائلاً لها:

- إنك تجيدين القراءة إجابة عظيمة. لقد أخطأ ظني...
قال هذه الجملة الغامضة بحماسة. ولقد كان شديد الحماسة دائماً على كل حال.

قرأت له خطبة الجبل.

قال لها:

- "كفى كفى يا بنيتي!" (بالفرنسية). أتحسبن أن هذا غير كاف؟
وأغمض عينيه منهوكة. لقد كان خائر القوى جداً. لكنه لم يفقد شعوره بعد. نهضت صوفيا ماتفتننا، مفترضة أنه يريد أن ينام. لكنه استوقفها بحركة من يده:

- صديقتي. لقد ظللت أكذب طوال حياتي، حتى حين كنت أقول الحقيقة. لم أتكلم يوماً في سبيل الحقيقة، بل في سبيل نفسي. إنني أعلم هذا من قبل، ولكنني لم أر إلا الآن أن... آه... أين هم أصدقاؤني الذين طالما أذتهم صداقتي؟ لقد أذيتهم جميعاً، جميعاً! "هل تعلمين؟" (بالفرنسية) أنني ربما كنت أكذب حتى في هذه اللحظة؟ نعم، إنني أكذب، هذا أكيد. المهم أنني أصدق ما أقوله حين أكذب. وأعسر الأمور أن يحيا المرء بدون أن يكذب. نعم، نعم، ذلك هو أعسر الأمور قاطبة!

قال هذه الجملة الأخيرة بحماسة شديدة.

قالت صوفيا ماتفتننا تقترح في وجل وخشية:

- ستيفان تروفيموفتش، ألا يحسن أن نستدعي طبيباً من المدينة؟ فأدهشه هذا الاقتراح إلى أقصى حدود الإدهاش. وقال لها:

- لماذا؟ "أنا مريض إلى هذا الحد؟ لا، ليس هذا بمرض ذي بال!"
(بالفرنسية). ما حاجتنا إلى غرباء؟ وإلا عُلِم أنني هنا، وعندئذ... لا، لا، لا حاجة إلى غرباء، بل نبقي وحدنا. وحدنا. وحدنا...
وقال بعد لحظة صمت:

- اسمعي. اقرئي لي شيئاً آخر في كتابك، دون اختيار، على المصادفة، ما يقع تحت بصرك...

فتحت صوفيا ماتفئفئا الكتاب وأخذت تقرأ. فكان ستيفان تروفيموفتش يردد:

- على المصادفة، من دون اختيار، أي شيء...

"واكتب إلى ملاك كنيسة اللاوديكيين".

- ما هذا؟ من أين هذا؟

- من رؤيا يوحنا.

- "آ... نعم.. تذكرت.. رؤيا يوحنا.. اقرئي.. اقرئي" (بالفرنسية). قلت

لنفسي إننا إذا فتحنا الكتاب على المصادفة سنكتشف مستقبلنا. أريد أن

أعرف ما الذي وقعت عليه من الرؤيا. اقرئي بعد كلمة "الملاك"، "الملاك"...

"واكتب إلى ملاك كنيسة اللاوديكيين: هذا يقوله الأمين الصادق،

الأمين الشاهد بداءة خليفة الله. أنا عارف أعمالك. ولست بارداً ولا حاراً،

ليتك كنت بارداً أو حاراً. فلأنك فاتر، ولست بارداً ولا حاراً، أنا مزعج أن

أتقيأك من فمي. أنت تقول إنني أنا غني وقد استغنيت ولا حاجة بي إلى شيء.

ولا تعلم أنك شقي وبائس وفقير وأعمى وعريان!"

هتف ستيفان تروفيموفتش يقول وقد أنهض رأسه متقد العينين:

- هذا... وهذا في كتابك. لم أعرف في حياتي هذه الصفحة الرائعة.

أسمعين: لأن تكون بارداً، بارداً، خير من أن تكون فاتراً، من أن تكون فاتراً

"فحسب". آه... لسوف أبرهن... ولكن لا تركيني، لا تهجريني! لسوف

نبرهن لهم، لسوف نبرهن لهم!

قالت وهي تمسك يديه وتشدهما وتحملهما إلى قلبها:
لا يخطر ببالي أن أتركك يا ستيفان تروفيموفتش. لن أتركك أبداً.
وكانت تنظر إليه بعينين مليئتين بالدموع. "كنت أشعر نحوه بإشفاق شديد
في تلك اللحظة". كذلك روت تقول في ما بعد.
وأخذت شفتا ستيفان تروفيموفتش تختلجان.
- ولكن ما العمل الآن يا ستيفان تروفيموفتش؟ يجب أن نبلغ أصدقاءك
أو أقرباءك...

ولكنه بلغ من شدة الذعر حين سمع هذه الكلمات أنه ندم على إثارة هذه
المسألة من جديد. فتوسل إليها أن لا تستدعي أحداً، وأن لا تشرع في القيام
بأي شيء، توسل إليها وهو يرتعش ارتعاشاً شديداً. وكان يلح إلحاحاً قوياً
ويصر على أن تعاهده بأن لا "تبلغ أحداً، أن لا تبلغ أحداً البتة، فنبقى وحدنا"
و"نسافر معاً" (بالفرنسية).

وأسوأ من ذلك أن صاحب الدار وامرأته أخذتا يقلقان، وأخذتا يتذمران،
وأخذتا يعدّبان صوفيا ماتنفئنا. فدفعت لهما وأرتهما أنها لا تزال تملك
مالاً. فهدهما ذلك بعض الوقت، ولكن الرجل طلب جواز سفر ستيفان
تروفيموفتش. فأشار المريض بيده إلى حقيبته الصغيرة وهو يتسسم ابتسامة
تعالي واحتقار، فوجدت صوفيا في الحقيبة قرار إحالته على التقاعد أو ورقة
أخرى من هذا النوع، وهي الورقة التي أقام بها في المدينة حتى ذلك الحين.
ومع ذلك ظل صاحب البيت يلحُّ على ضرورة نقله إلى مكان آخر "لأن بيتنا
ليس مستشفى، ولأننا سوف نلقى إزعاجات كثيرة إذا مات". فاستشارته
صوفيا ماتنفئنا في أمر طبيب تستدعيه، فقال إن استدعاء الطبيب من المدينة
يكلف نفقات باهظة لا قبل لها بها، فعدلت عن فكرتها. وعادت إلى قرب
المريض الذي انهارت قواه انهياراً شديداً. لقد كان ستيفان تروفيموفتش
يضعف مزيداً من الضعف ساعة بعد ساعة.

قال لها المريض:

- والآن اقرئي لي تلك الصفحة... عن الخنازير.

فقال له مرتاعة:

- كيف؟

- عن الخنازير... "أولئك الخنازير"... أذكر أن الشياطين دخلت في خنازير هلكت جميعاً. اقربي لي تلك الصفحة حتماً. سأقول لك السبب في ما بعد. أريد أن أتذكر تلك الصفحة كلمة كلمة. يجب أن أتذكرها.

وكانت صوفياً ماتت فنفنا تعرف الإنجيل جيداً، فسرعان ما وجدت تلك الصفحة من إنجيل لوقا، التي صدرت بها قصتي هذه. وها أنا ذا أكررها هنا: "وكان هناك قطيع كبير من الخنازير يرعى في الجبل، فتضرعت الشياطين إلى يسوع أن تدخل في الخنازير. فأذن لها. فخرجت من ذلك الإنسان ودخلت في الخنازير. فاندفع القطيع من أعلى الجرف إلى البحيرة، وغرق فيها. فلما رأى رعاة القطيع ما حدث هربوا ونشروا النبأ في المدينة وفي القرى. فخرج الناس ليروا ما جرى، فلما وصلوا إلى قرب يسوع وجدوا الإنسان الذي كانت الشياطين قد خرجت منه، وجدوه لابساً ثيابه، مالكاً عقله، جالساً عند قدمي يسوع. وروى لهم شهود الحادث كيف خلص المجنون".

قال ستيفان تروفيمو فتش متأثراً متأثراً قوياً:

- اسمعي يا صديقتي... إن هذه الصنعة الرائعة... الخارقة... كانت لي دائماً حجر عثرة... "في هذا الكتاب" (بالفرنسية)... لذلك احتفظت بها في ذاكرتي منذ طفولتي. غير أن فكرةً وافنتي الآن، فكرة هي تشبيه أو "مقارنة". إن أفكاراً كثيرة توافيني الآن. اسمعي: هذه هي روسيا تماماً. إن هؤلاء الشياطين الذين يخرجون من المريض ليدخلوا في الخنازير هم جميع الجراح والعفونات والقذارات والشياطين الصغيرة والكبيرة التي تراكمت خلال القرون في مريضنا الغالي العظيم، في روسيا! "نعم، في روسيا هذه التي أحببتها دائماً" (بالفرنسية). غير أن فكرة رائعة، وإرادة جبارة ستتهبطان عليها من السماء، كما هبطتا على ذلك المجنون. وستخلص من جميع الوساخات والتنانات التي ستطلب هي نفسها أن تدخل في الخنازير. بل لعلها قد دخلت منذ الآن... إنها نحن، نحن وأولئك، بتروشا... "والآخرون معه" (بالفرنسية)، وربما أنا أيضاً في طليعتهم. سوف نهوي من أعلى

الجرف إلى البحر كمجانين مسعورين، وسوف نهلك جميعاً. وهذا خير. إننا لا نصلح لغير ذلك. ولكن المريض سوف يشفى، وسيجلس عند "قدمي يسوع"، وسينظر الجميع إليه مدهوشين... عزيزتي... "سوف تفهمين في ما بعد... سوف نفهم معاً" (بالفرنسية).

قال ستيفان تروفيموفتش ذلك وأخذ يهذي، وأغمى عليه أخيراً. فأخذت صوفيا ماتفتفتنا تبكي جالسةً بقربه. إنها لم يغمض لها جفن منذ ثلاث ليال، وهي تتحاشى صاحب البيت وامرأته اللذين كان يهيطان شيئاً كما تحس بذلك صوفيا. ولم يأت الخلاص إلّا في اليوم الثالث. ففي الصباح عاد إلى ستيفان تروفيموفتش شعوره، وتعرّف المرأة ومدّ إليها يده. فرسمت إشارة الصليب، واستردت أملها. وأراد أن ينظر من النافذة، فقال: "هه! هذه بحيرة! يا إلهي! لم أرها من قبل" وأنه ليقول هذا الكلام إذ سُمعت قرقعة عربية وقفت أمام الباب. فسرعان ما أثار وصولها هرجاً خارقاً في المنزل كله.

إنها فرفارا بتروفا، بشخصها تصل على عربية ذات أربعة أحصنة مع خادمين وداريا بالفولفا. لقد حدثت هذه المعجزة ببساطة تامة. فإن آنيسيم كان غداة وصوله إلى المدينة يعذبه حب الاطلاع والفضول، فمضى يروي لخدم فرفارا بتروفا أنه رأى ستيفان تروفيموفتش وحيداً في قرية من القرى، وأن الفلاحين قد لقوه ماشياً في الطريق العام، وأنه سافر إلى سباسوف. وإذا إن فرفارا بتروفا كانت من جهتها شديدة القلق منذ ذلك الحين، وكانت قد أرسلت تبحث عن الهارب في كل مكان، فقد قادوا إليها آنيسيم، فلما سمعت ما رواه، ولا سيما التفاصيل المتعلقة بسفر ستيفان تروفيموفتش إلى أوستيوف بعربة مع امرأة اسمها صوفيا ماتفتفتنا، أسرعت تستعد فوراً، واندفعت في أثر الهارب الذي لا تزال تجهل أنه مريض.

حين دوى صوتها القاسي الصارم، خاف حتى صاحب البيت وامرأته. إنها لم تتوقف هناك إلّا سائلة، لاقتناعها بأن ستيفان تروفيموفتش لا بد أن يكون قد سافر إلى سباسوف منذ مدة طويلة. فلما علمت أنه لا يزال هنا وأنه مريض دخلت العربة منفعة أشد الانفعال.

وصاحت تسأل حين رأت صوفيا ماتفتفنا التي ظهرت لحظتئذ في عتبة الغرفة الثانية:

- أين هو؟ لقد حزرت فوراً من هيئتكَ الوقحة أنك أنت. اخرجي من هنا أيتها الوجدة! أخرجوها من هنا، اطردها، وإلا فسأجعلك تُسجنين إلى آخر حياتك يا عزيزتي، لقد سبق أن سُجنْتُ في المدينة وستعود إلى السجن، لا يسمحُ أحد لنفسه بأن يدخل إلى هنا ما بقيت أنا أيها السيد. أنا الجنرالة ستافروجين، وإني أستاذُ البيت كله. وأنت يا عزيزتي، ستُحاسِبين على كل شيء.

اضطرب ستيفان تروفيموفتش عند سماع هذا الصوت الذي يعرفه جيداً، وأخذ يرتعد. ولكن فراراً بتروفا كانت قد دخلت إلى ما وراء الحاجز. وجرتْ بقدمها كرسياً وهي متقدة العينين، وجلست، ثم ارتدتْ بجذعها إلى المسند وصرخت تقول لداشا:

- اذهبي إلى الغرفة الثانية، ابقِي قليلاً مع صاحب البيت وامرأته. ما هذا الفضول؟ واحكمي إغلاق الباب وراءك.

وظلت خلال بضعة لحظات تتفرس صامتةً بنظرة صقر في وجه ستيفان تروفيموفتش المذعور. ثم قالت أخيراً تسأله بسخرية حائقة ساخطة:

- هيه، ستيفان تروفيموفتش، كيف صحتك الآن؟
فأجابها يقول طائش اللب:

- "أيتها العزيزة" (بالفرنسية)... لقد تعلمت معرفة الواقع الروسي... وسأعود إلى الإنجيل.

فصرخت تقول مغتظة ضامة يديها:

- آه... أيها الرجل الفاسق، أيها الرجل الذي لا نبيل له! لم يكفك أن جلّلتني بالعار، بل كان لا بد لك من الارتباط أيضاً... آه... أيها العجوز الداعر!

- "عزيزتي" (بالفرنسية).

واختنق صوته في حلقه. فلم يستطع أن يضيف كلمة واحدة، واكتفى بأن نظر إليها مستدير العينين من الرعب.

- من هذه؟

- "هذه ملاك... هذه أكثر من ملاك عندي" (بالفرنسية)... لقد ظلت طوال الليل... لا تصرخي، لا تخيفيها، "عزيزتي، عزيزتي" (بالفرنسية)... وثبت فر فاراً بتروفاً عن كرسيها ودفعته عنها بقرعة، وصاحت تقول مروعة: "ماء! ماء! وثاب المريض إلى نفسه، ولكنها ظلت ترتعش من الخوف، وتنظر في وجهه المتشنج شاحبة اللون. إنها في تلك اللحظة إنما أدركت مدى خطورة مرض ستيفان تروفيموفتش.

قالت بصوت خافت تخاطب داريا بافلوفنا:

- داريا. استدعي الدكتور سالزفيش حالاً فليسافر إيجور على الفور، فليستأجر حصاناً. وليركب في المدينة عربية أخرى ليصل إلى هنا مع سالزفيش قبل الليل.

خرجت داريا راكضةً. وكان ستيفان تروفيموفتش لا يزال ينظر تلك النظرة الثابتة الجامدة المرتاعة، وكانت شفاته الصفراوان تختلجان.

قالت فر فاراً بتروفاً تخاطبه ملحةً كما يخاطب طفل:

- هدىء نفسك يا ستيفان تروفيموفتش. هياً. عليك بشيء من الصبر. سترجع داريا... وعندئذ... يا إلهي! يا ريسة... يا ريسة... تعالي... تعالي حالاً!

كذلك نادى صاحبة البيت. ثم هُرعت تبحث عنها بنفسها من نفاد صبرها.

- أرجعوا "الأخرى" حالاً. نادوها. بسرعة. بسرعة.

من حسن الحظ أن صوفيا ماتفتننا لم تكن بعيدة: لقد رحلت منذ لحظة قصيرة بكيسها وحزماتها الصغيرة. أعادوها. كانت يداها وساقاها ترتعش خوفاً. وكما ينقض باز على صوص أمسكتها فر فاراً بتروفاً من ذراعها وجرتها إلى عند ستيفان تروفيموفتش:

- هي ذي. لم أكلها! كنت تظن أنني أكلتها.

تناول ستيفان تروفيموفتش يد فر فاراً بتروفاً، وحملها إلى عينيه وأخذ يبكي طائش العقل.

- طيب، طيب، هدي نفسك يا عزيزي. رباه! ولكن هلا هدت نفسك!
آه... جلاد... جلاد...

كذلك زعقت على حين فجأة.

فدمدم ستيفان تروفيموفتش يقول ملتفتاً نحو صوفيا ماتفتفنا:
- عزيزتي، اذهبي لحظة إلى هناك، إلى الغرفة الثانية... أريد أن أقول بضع
كلمات...

فأسرعت صوفيا ماتفتفنا تخرج.

- "عزيزتي... عزيزتي" (بالفرنسية).

كان يختنق. فقالت له فر فاراً بتروفيما!

- لا تتكلم يا ستيفان تروفيموفتش، انتظر قليلاً. استرح الآن. إليك ماء.
ولكن انتظر! قلت لك انتظر!

وجلست إلى جانبه من جديد، وحظرت عليه أن يتكلم. كان ستيفان
تروفيموفتش يضغط يدها بيديه ضغطاً قوياً. وها هو ذا يحمل هذه اليد فجأة
إلى شفثيه ويقبّلها. فكانت فر فاراً تحدّق إلى ركن من الغرفة كازة أسنانها.
وأفلت منه أخيراً قوله:
- "لقد أحبتك" (بالفرنسية).

لم يسبق أن قال لها في يوم من الأيام كلمة كهذه الكلمة، وبهذه اللهجة
أيضاً.

فهممت تقول:

- هم...

- "لقد أحبتك طوال حياتي... عشرين عاماً!" (بالفرنسية).

فلزمت الصمت دقيقتين أو ثلاثاً. ثم قالت فجأة بصوت مختنق ولكنه
مهذّب:

- ومن أجل أن يمثّل أمام داشا تعطر وتطيّب.

فصّعق ستيفان تروفيموفتش.

- ... ووضع رباط عنق جديداً...

صمتاً مرة أخرى.

- والسيجار، هل تتذكره؟
حاول أن يحتج فقال مثائلاً:
- صديقتي...

- السيجار، مساءً، قرب النافذة... في ضوء القمر... العريشة...
بسكفور شنيكي؟ هل تتذكر؟ هل تتذكر؟
كذلك همست وهي تنهض فجأة، وأمسكت طرفي الوسادة التي كان
يرقد عليها رأس ستيفان تروفيموفتش وأخذت تهزّهما. وتابعت تقول:
- ... هل تتذكر أيها الرجل الطائش، الخفيف، الذي لا حشمة فيه ولا
حياء له، أيها الرجل التافه، التافه كل التفاهة!
أصبح صوتها من فرط الغضب صافراً، ولكنها حاولت أن تخنقه. وتركت
الوسادة أخيراً، وتهالكت على الكرسي وغطت وجهها بيديها. ثم قالت وهي
تهب واقفة:

- كفى! عشرون عاماً مضت ولن تعود. ما أنا إلا حمقاء!
قال هو يضم يديه:

- "لقد أحبيتك" (بالفرنسية).

- ما بالك تكرر هذا الكلام "أحبيتك، أحبيتك".
وهبت تقف مرة أخرى. وقالت له:

- إذا لم تنم فوراً فإنني... إنك في حاجة إلى هدوء. نَمْ، نَمْ حالياً، أغمض
عينيك. رباه! لعله يريد أن يصيب شيئاً من الطعام؟ ماذا تأكل؟ ماذا يأكل؟
رباه! أين الأخرى؟ أين هي؟

وعاد الاضطراب. لكن ستيفان تروفيموفتش قال بصوت ضعيف إنه يريد
فعلاً أن ينام "ساعة"، وبعد ذلك يشرب "مرقاً ساخناً أو شايًا... وإنه حقاً
سعيد" (بالفرنسية). وتمدد، وبدأ عليه أنه نام (لعل ذلك لم يكن إلا تظاهراً).
فانتظرت فرفاراً بتروفا لحظة، ثم خرجت ماشيةً على رؤوس الأصابع.
واستقرت في الغرفة الأولى، وأخرجت صاحب البيت وامرأته، وقالت
لداشاً أن تأتيها بالأخرى التي شرعت فرفاراً بتروفا تستجوبها استجواباً
كاملاً بحسب الأصول.

- حدثيني الآن عن كل شيء. اجلسي هنا، إلى جانبي، هيه؟

- لقيت ستيفان تروفيموفتش...

- قفي، اسكتي. اعلمي أنك إذا كذبت أو أخفيت شيئاً فلن تغلتي من

قبضتي ولو ذهبت إلى آخر ركن في العالم. هيه؟

-... لقيت ستيفان تروفيموفتش... منذ وصولي إلى خاتوفو.. كان صوت

صوفيا ماتفئفنا يختنق.

- انتظري، اسكتي! يا لها من ثرثاة! أولاً، من أنت؟

روت المرأة سيرة حياتها منذ سياستوبول بكلمات قليلة كيفما اتفق.

وكانت فرفارا تجلس منتصبه القامة، وتصغي إليها صامتة، محدقة بعينها

إلى عيني محدثتها.

- ما لي أراك وجلة هذا الرجل كله؟ ما بالك تطرقين إلى الأرض؟

أحب الذين ينظرون إليّ مواجهةً ويناقشونني مناقشة. أكملني.

وصلت صوفيا ماتفئفنا من حديثها إلى لقائهما، وإلى "الكتب الصغيرة"

وإلى الفودكا التي قدمها ستيفان تروفيموفتش إلى الفلاحة. فقالت لها فرفارا

بتروفا لتشجعها:

- أحسنت، أحسنت! لا تهلمي أي تفصيل من التفاصيل.

وتابعت صوفيا كلامها:

- وكان ستيفان تروفيموفتش لا ينقطع عن الكلام، ولكنه كان مريضاً منذ

ذلك الوقت. وهنا روى لي سيرة حياته كلها منذ البداية، خلاله عدة ساعات.

- ماذا قال لك عن حياته؟

ارتج على صوفيا ماتفئفنا. ثم دمدمت تقول أخيراً وهي تكاد تبكي:

- لا أدري. ثم إنني لم أكد أفهم من كلامه شيئاً.

- غير صحيح: يستحيل أن لا تكوني قد فهمت شيئاً.

قالت صوفيا وقد احمرّ وجهها احمراراً شديداً إذ لاحظت أن فرفارا

بتروفا شقراء، وأنها لا تشبه السيدة السمراء التي تحدث عنها ستيفان

تروفيموفتش أي شبه:

- تكلم كثيراً عن سيدة سمراء عالية المقام.

- سيدة سمراء؟ من عساها تكون؟ أكملني.

- قال إن هذه السيدة السمراء كانت مولَّهةً بحبه طوال عشرين عاماً، ولكنها لم تجسر أن تصارحه بذلك يوماً، وأنها كانت تستحي من فرط بدانتها.

- يا للغبي!

كذلك قالت فر فارا بتروفنا بلهجة قاطعة، وشرّد ذهنها مع ذلك. لم تستطع صوفيا ماتفتننا أن تحبس دموعها أكثر مما حبستها إلى الآن؟

- لا أستطيع أن أروي لك مزيداً، لأنني كنت خائفة عليه خوفاً شديداً فلم أستطع أن أفهم عنه... إنه ذكي جداً...

- ليس لحمقاء مثلك أن تحكم على ذكائه. هل خطبك للزواج؟

ارتجفت صوفيا ماتفتننا.

- هل أحبك؟ تكلمي! هل طلب أن يتزوجك؟

قالت صوفيا ماتفتننا من خلال دموعها:

- تقريباً.

ثم أضافت تقول بصوت ثابت وهي ترفع رأسها:

- لكنني لم أنتبه إلى هذا كله، بسبب مرضه.

- ما اسمك؟

- صوفيا ماتفتننا.

- طيب. اعلمي يا صوفيا ماتفتننا أن هذا الرجل تافه كل التفاهة... رباها!

لا بد أنك تنظرين إليّ نظرتك إلى امرأة شقية، هه؟

- حملقت الأخرى. وتابع فر فارا:

- امرأة شقية. امرأة طاغية حطمت حياته، هه؟

- كيف يكون هذا ممكناً وأنت نفسك تبكين؟

كانت عينا فر فارا بتروفنا مغرورتين بالدموع فعلاً.

- هيا، اجلسي، لا تخافي. انظري إليّ وجهاً لوجه مرةً أخرى. لماذا تحمّرين؟ داشا، تعالي إلى هنا، انظري إليها! ما رأيك؟ هل قلبها طاهر نقي؟ وما كان أشد دهشة صوفيا ماتفتننا وما كان أشد رعبها أيضاً حين ربت فر فارا بتروفنا على خدّها.

- المؤسف فقط أنك غبية جداً بالقياس إلى سنك. سوف أعطني بك. إنني أرى الآن أن الأمر لا يعدو أن يكون سفاسف. أقيمي هنا الآن. سأدفع عنك كراء الغرفة وثمان الطعام وما عدا ذلك. وسوف أستدعيك.
حاولت صوفيا ماتفتننا أن تعترض في وجل بأنها يجب أن تسافر. فقالت لها فرفارا بتروفا:

- فيم العجلة؟ سوف أشتري جميع كتبك. ابقِ هنا. اسكتي. لا أريد أن أسمع شيئاً. لو لم أصل أنا لما تركته أنت، أليس كذلك؟
قالت صوفيا ماتفتننا بلهجة قاطعة وهي تجفف دموعها:
- ما كان لي أن أتركه قط.

وصل الدكتور سالزفيش في ساعة متأخرة من الليل. إنه شيخ محترم جداً، وطبيب ممارس ذو خبرة قد ترك الخدمة منذ مدة قصيرة على أثر مشاجرة قامت بينه وبين الإدارة. فسرعان ما صار في حماية فرفارا بتروفا. فحص المريض بانتباه وتدقيق، وألقى عليه عدداً من الأسئلة، ثم أعلن لفرفارا بتروفا، مع كل المداراة الممكنة، أن حالة المريض مقلقة جداً، وأنه يجب "توقع تفاقمها". فاضطربت فرفارا بتروفا اضطراباً شديداً بعد أن ألقت منذ عشرين سنة إلى الآن أن لا تأخذ مأخذ الجد أي أمر يتعلق بستيفان تروفيموفتش، وشحب لونها شحوباً شديداً.
- أليس هناك أي أمل حقاً؟

- لا يمكن القول إننا فقدنا كل أمل، ولكن...

لم ترقد فرفارا بتروفا طوال الليل، منتظرة طُلوع النهار بفارغ صبر. وما إن فتح المريض عينيه وعاد إليه شعوره (كان لا يزال يملك وعيه كاملاً، ولكن قواه كانت تتناقص تناقصاً سريعاً) حتى اقتربت منه عازمةً أمرها، وقالت له:
- ستيفان تروفيموفتش، يجب توقع كل شيء. لقد أرسلت في طلب كاهن. عليك أن تقوم بواجبك.

لقد كانت تخشى، وهي تعرف اعتقاداته، أن يرفض حضور الكاهن. لذلك أسرعَت تصرخ منذ نظر إليها مدهوشاً، إذ تخيلت أنه سيرفض. قالت:

- سخف! سخف! ليس الأمر أمر سفاسف وترهات الآن! لقد مزحت بما فيه الكفاية!

- ولكن... هل حالتي سيئة إلى هذا الحد؟

ووافق على حضور الكاهن شارد اللب. لقد علمت في ما بعد مدهوشاً أشد الدهشة، علمت من فم فر فارا بتروفا نفسها، أنه لم يخف من الموت أي خوف. لعله لم يصدق أنه سيموت، لأنه ظل يعد مرضه أمراً تافهاً لا قيمة له. واعترف للكاهن وتناول القربان المقدس راضياً كل الرضى. حتى إذا انتهى من تلقي الأسرار، أقبل عليه الجميع، ومنهم صوفيا ماتفتنا والخدم، يهثثونه. وقد لقوا عناءً كبيراً في حبس دموعهم حين رأوا وجهه الناحل المهودود، وشفثيه البيضاوين اللتين كانتا تختلجان.

- "نعم يا أصدقائي" (بالفرنسية)... واني ليدشني فقط أن أراكم منشغلين هذا الانشغال كله... غداً قد أنهض... فسافر... "إن هذا الاحتفال كله" (بالفرنسية) الذي أشعر نحوه بأكبر الاحترام طبعاً، إنما كان... أسرع فر فارا بتروفا تتدخل مخاطبة الكاهن الذي كان قد نضا عنه ملابس الكهنوت فقالت:

- أرجوك يا أبي أن تبقى بقرب المريض. وأرجوك متى قدمت الشاي أن تتحدث في أمور إلهية تعزيراً لإيمان المريض. فبدأ الكاهن كلامه فقال بصوت متساوٍ رتيب، بينما كان يحمل فنجان الشاي بيده:

- في عصرنا هذا الذي بلغت فيه الخطيئة هذا المبلغ من القوة، فإن الملاذ الوحيد للجنس البشري في وسط آلام الوجود ومحن الحياة، إنما هو الإيمان بالله، والأمل في السعادة الأبدية التي وعد بها الصالحون... ظهر على ستيفان تروفيموفتش أنه انتعش، وانسابت على شفثيه ابتسامة ناعمة رقيقة...

- "شكراً يا أبت، وإنك لطيب جداً، ولكن..." (بالفرنسية).

- لا "لكن" أبداً... لا "لكن" البتة!

كذلك صاحت تقول فر فارا بترو فنا واثبةً عن كرسيها. وتابعت كلامها تقول للكاهن:

- أبت، هذا رجل، رجل... سيكون من الواجب حمله على الاعتراف مرةً أخرى بعد ساعة... ذلك هو نوع هذا الرجل!

ابتسم ستيفان تروفيموفتش ابتسامة محتشمة خفية. وقال:

- يا أصدقائي، إن الله ضرورة لي، لأنه الموجود الوحيد الذي يمكن أن يحبه المرء حباً أبدياً...

ترى أكان يؤمن بهذا الكلام فعلاً، أم أن فخامة الاحتفال قد بثت في نفسه الاضطراب إذ أيقظت عاطفة الفنان التي تتصف بها طبيعته؟ مهما يكن من أمر، فإنه، كما يقال، قد قال بلهجة جازمة نافذة بضعة أقوال تناقض آراءه القديمة مناقضة واضحة.

- إن خلودي ضرورة لازمة، لمجرد أن الله لن يشاء أن يرتكب ظلماً يطفئ إلى الأبد العاطفة التي اشتعلت في قلبي حباً له. وأي شيء أؤمن من الحب؟ إن الحب فوق الموجود قيمة، إنه تاج الموجود. فكيف يكون ممكناً أن لا يخضع له الموجود؟ إذا كنت قد أحببت الله وسعدت بهذا الحب، فهل يمكن أن يطفئنا الله، أنا وحيي، وأن يغرقنا في العدم؟ إذا كان الله موجوداً فأنا خالداً! ذلكم هو "إعلاني لمبادئي" (بالفرنسية).

قالت فر فارا ملحّة بصوت ضارع:

- الله موجود، يا ستيفان تروفيموفتش، أؤكد لك أن الله موجود. فأنكر تلك السخافات كلها، وانبذها، ولو مرةً واحدة في حياتك. أغلب الظن أنها لم تفهم "إعلانه لمبادئه".

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يزداد حماساً، لحظة بعد لحظة، غير أن صوته لا يسهفه:

- صديقتي... حين فهمت اليوم... مدّ الخد الأيسر... فإنني... فإنني... فهمت على الفور شيئاً آخر أيضاً... "لقد كذبت طوال حياتي" (بالفرنسية)... نعم، طوال حياتي! وأريد... على كل حال... أريد... غداً... أن نسافر كلنا معاً...

أخذت فر فارا بتروفا تبكي. وكان ستيفان تروفيموفتش يبحث بعينه عن شيء ما.

- هي ذي، إنها هنا!

كذلك قالت له فر فارا بتروفا، وأمسكت صوفيا ماتفئفئا من يدها، وقادتها إلى قربه. فابتسم ابتسامة فيها رقة وحنان. وقال وهو يتنفذ انتفاضة قوة: - آه... لكم أود لو أعيش أيضاً! إن كل دقيقة، بل كل لحظة يجب أن تكون فرصة للإنسان... نعم... ذلك ما يجب أن يكون. واجب الإنسان أن يفعل ما يجعل هذا واقعاً. ذلك قانون الإنسان... هو قانون خفي لكنه واقع، لكم أود أن أرى بتروشا... والجميع... وشاتوف!

يجب أن أذكر في هذه المناسبة أن أحداً لم يكن قد سمع شيئاً عن شاتوف بعد، لا دارييا بافلوفنا، ولا فر فارا بتروفا، حتى ولا الدكتور سالزفيس الذي وصل من المدينة.

وكان اضطراب ستيفان تروفيموفتش يزداد ساعةً بعد ساعة، وكان هذا الاضطراب ينهك قواه.

- يكفي أن أتصور أن هناك شيئاً أعدل مني بما لا نهاية له، وأسعد مني بما لا نهاية له، حتى يملأني ذلك حناناً واسعاً وأن يملأني شعوراً بالمجد، كائناً من كنت أنا، وفاعلاً ما فعلت. لا يحتاج الإنسان إلى سعادته الخاصة كاحتياجه إلى أن يعرف ويؤمن في كل لحظة أن هناك في مكان ما سعادة مطلقة وسلاماً لجميع الناس ولكل الأشياء... قوام قانون الحياة البشرية كله أن يكون في وسع الإنسان أن ينحني أمام شيء عظيم عظمة لا نهاية لها. فإذا حُرِمَ البشر من هذا الشيء الذي لا نهاية لعظمته رفضوا أن يعيشوا وماتوا في اليأس. النهاية والمطلق لا غنى للإنسان عنهما، كما لا غنى له عن هذه الأرض التي يعيش عليها... يا أصدقائي، جميعاً، جميعاً! عاش "الفكر العظيم"! الفكر الأبدي، اللانهائي! لا غنى لكل إنسان، كائناً من كان، عن الانحناء أمام الفكر العظيم. إن أغبى إنسان في حاجة إلى شيء عظيم. بتروشا... آه... لكم أود أن أراهم مرة أخرى جميعاً! إنهم لا يعرفون، لا يعرفون أنهم هم أيضاً تنطوي نفوسهم على ذلك "الفكر العظيم" ذلك الفكر الأبدي!

لم يكن الدكتور سالزفيتش قد حضر الاحتفال. فلما عاد فجأة ارتاع وأخرج جميع الناس ملحاً على أن يتركوا المريض هادئاً.

مات ستيفان تروفيموفتش بعد ثلاثة أيام. ولكنه فقد الشعور قبل ذلك بكثير. ولقد توفي بهدوء ورفق كما تذوب شمعة. وقد أمرت فرارا بتروفيما بإقامة قدّاس في غرفة الموتى، وأرجعت جثمان صديقها العزيز إلى سكفورشنيكى، وجعلت قبره في حرم الكنيسة، وكست القبر بشاهدة من مرمر، وأحاطته في الربيع بسياج من حديد مشبك.

دامت إقامة فرارا بتروفيما في أوستيفو ثمانية أيام. وقد اصطحبت في عودتها صوفيا ماتفنثا التي أقامت عندها منذ ذلك الحين إقامة أظن أنها ستكون دائمة. يجب أن نذكر أن فرارا بتروفيما، منذ اللحظة التي غاب فيها عن ستيفان تروفيموفتش شعوره، قد أبعدت البائعة المتجولة، بل طردها من العزبة، وظلت تعنى بالمريض إلى آخر لحظة. ولكن ما إن لفظ المريض آخر أنفاسه حتى استدعت صوفيا ماتفنثا، وعرضت عليها أن تقيم في سكفورشنيكى (بل قل أمرتها بذلك)، فلما حاولت صوفيا أن تعترض خجلت وجلت، لم تشأ فرارا بتروفيما أن تسمع شيئاً، وقالت:

- هذه كلها سخافات! سأمضي معك أبيع أناجيل. لم يبق لي أحد في هذا

العالم!

فقال سالزفيتش:

- ولكن لك ابناً!

فقالت بلهجة قاطعة:

- لا بل لم يبقَ لي ابن.

لكنها كانت تقرأ المستقبل وتعلم الغيب.

الفصل الثامن

خاتمة

1

هذه الجرائم كلها، وهذه الفضائح كلها قد اكتشفت بسرعة كبيرة، بسرعة أكبر مما كان يقدر بطرس ستيفانوفتش. ففي ليلة مقتل شاتوف استيقظت المسكينة ماريّا أجناتيفنا قبل الفجر. فبحثت عن زوجها بعينها فلم تجده بقربها فجئت قلقاً. وحاولت المرأة العجوز التي تركتها آرينا بروخورفنا إلى جانبها وباتت معها في الغرفة حاولت أن تهدئها ولكنها لم تنظر بطائل. ولذلك ما إن طلع النهار حتى ركضت إلى بيت آرينا بروخورفنا التي لا بد، كما قالت للمريضة، أن تعرف أين يوجد شاتوف ومتى يعود. وفي أثناء ذلك كانت آرينا بروخورفنا تشعر هي أيضاً بأشد القلق: فإن زوجها قد قص عليها ما جرى الليلة البارحة في حديقة سكفورشنيكي. إن فرجنسكي قد رجع إلى داره في نحو الساعة الحادية عشرة من المساء على حالة من الجزع يرثى لها. وقد تهالك على سريره وهو لا يني يردد عاقفاً يديه ذارفاً دموه "ليس هذا، ليس هذا أبداً". وفي النهاية اعترف لآرينا بروخورفنا بكل شيء طبعاً. ولكنه اعترف لها وحدها. فأمرته آرينا بروخورفنا بأن يبقى راقداً وقالت له بلهجة قاسية إن عليه إذا أراد البكاء أن يدفن رأسه في الوسادة حتى لا يستطيع أحد أن يسمعه، وأنه سيكون غيباً كل الغباء إذا لم تتحسن سحته في الغد. وقررت مع ذلك أن تتخذ بعض الاحتياطات استعداداً لأي طارئ، فحرقّت أو أخفت الأوراق أو الكتب الخطيرة، والمنشورات التحريضية.

وفكرت في الأمر فقالت لنفسها إنه ما من خطر يتهدّدها هي أو يتهدد أختها أو الطالبة أو أخاها شيجالوف على كل حال. فلما جاءتها العجوز في الصباح مضت إلى ماريا أجناتيفنا بغير تردد. لقد كانت تريد أن تعرف أيضاً، بأقصى سرعة، ما الذي انتهت إليه الآمال التي كان يعقدها بطرس ستيفانوفتش على كيريلوف، والتي حدّثها عنها فرجنسكي زائغ الهيئة تماماً.

ولكن وصولها إلى عند ماريا أجناتيفنا كان متأخراً: فإن ماريا وقد وجدت نفسها وحيدة لم تطق صبراً على البقاء في البيت فنهضت وألقت على جسمها ما وقع تحت يدها من لباس - وهو ثوب رقيق جداً لا يناسب هذا الفصل من فصول السنة - وهرعت إلى عند كيريلوف، قائلة لنفسها إن كيريلوف لا بد أنه يستطيع أن ينبّئها عن شاتوف أكثر مما يستطيع ذلك أي شخص آخر. وتستطيعون أن تتصوروا الشعور الذي أحدثه في نفس المسكينة، ذلك المشهد الذي كان ينتظرها في بيت كيريلوف. يجب أن نذكر أنها من شدة هلعها لم تنتبه إلى الرسالة التي كانت مع ذلك متروكة على المائدة في موضع بارز.

رجعت ماريا إلى غرفتها فتناولت طفلها وولت هاربة في الشارع الذي كان لا يزال خالياً مقفراً في تلك الساعة. كان الجو رطباً والضباب منتشرأ. وكانت هي تركض لاهثة متعثرة بالوحل اللزج البارد. وقررت أخيراً أن تقرع أبواب المنازل، ولكن لم يفتح لها أحد. وظلت مع ذلك تقرع إلى أن فُتح لها أخيراً أحد الأبواب: إنه مسكن رجل من تجار مدينتنا اسمه تيتوف. قلبت ماريا أجناتيفنا البيت كله رأساً على عقب: كانت تعول إعوأاً شديداً وتكرر أن "زوجها قد قُتل". وكانت أسرة تيتوف تعرف شاتوف، وكانت على شيء من العلم بقصته. والشيء الذي روعهم خاصة هو أن هذه المرأة التي ولدت منذ قليل كما تقول كانت تركض في الشوارع وهي لا يكاد يكسوها شيء، وذلك في هذا الجو البارد، مع طفل عارٍ تقريباً تحمله في يديها. ظلّوا في أول الأمر أنها تهذي، لا سيما وأنهم لم يستطيعوا أن يفهوا من الذي قُتل: أهو كيريلوف أم هو زوجها؟ وإذا لاحظت أنهم لا يصدّقونها أرادت أن تهرب،

ولكنهم احتجزوها بالقوة، رغم أنها أخذت تصرخ وتتخبط كمجنونة كما قيل. وذهبوا إلى عمارة فيليبوف، فما مضت ساعتان إلا وكانت المدينة كلها على علم بانتحار كيريلوف وبرسالته. واستجوبت الشرطة ماريا أجناتيفنا التي لم تكن قد فقدت وعيها بعد، وعندئذ اكتشفوا أنها لم تكن قد قرأت الرسالة، وأنها لا تستطيع أن تذكر كيف استنتجت موت زوجها من موت كيريلوف. كانت لا تزيد على أن تصرخ قائلة إن زوجها قد قُتل ما دام كيريلوف قد قُتل، "لأنهما كانا معاً". وفي نحو الظهر فقدت وعيها، وماتت غداً غداً دون أن تفيق من إغمائها. أما الطفل الذي كان قد أصابه برد فإنه سبقها إلى القبر.

حين لم تجد آرينا بروخوروفنا الأم ماريا أجناتيفنا ولا طفلها، أحست بمجيء الكارثة وقررت أن ترجع إلى البيت. ومع ذلك توقفت تحت البوابة وأرسلت العجوز "تسأل السيد الذي يسكن الجناح المستقل في صحن الدار هل ماريا أجناتيفنا عنده، أو هل يعرف على الأقل أين هي". فعادت العجوز وهي تطلق صيحات من شأنها أن تهيج الشارع كله. فأسرعت آرينا بروخوروفنا تسكتها بالحجة المعروفة جداً: "اسكتي وإلا كان لك مع القضاء متاعب"، ورجعت إلى دارها بأقصى سرعة.

وإذ علمت الشرطة أن آرينا بروخوروفنا قد أشرفت على ولادة امرأة شاتوف، فقد جاءت تستجوبها في ذلك الصباح نفسه، ولكنها لم تستطع أن تحصل منها على شيء ذي بال. لقد رددت بأكبر الهدوء كل ما رآته وما سمعته عند شاتوف، ولكنها صرحت بأنها لا تعرف شيئاً عن موت شاتوف وعن الأحداث الأخيرة.

تستطيعون أن تتصوروا الانفعال الشديد الذي أحدثه هذا كله في المدينة. "هذه قصة جديدة! هذا اغتيال آخر". ولكن الوضع أخذ يظهر الآن في ضوء جديد: إن وجود جمعية سرية تضم قتلة ومشعلي حرائق وثورين أصبح الآن أمراً لا يشك فيه أحد. إن موت ليزا الفطيع، ومقتل زوجة ستافروجين، واختفاء ستافروجين، والحريق، وحفلة الرقص التي أقيمت لمساعدة المعلمات، والاستهتار الذي يسود بيئة جوليا ميخائيلوفنا، وحتى

هرب بطرس ستيفانوفتش فجأة... ذلك كله أصبح له شكل مؤامرة واسعة. وأخذت أنواع من الشائعات تجري عن ستافروجين. ولكن الغريب أن الناس لم يتكلموا إلا قليلاً عن بطرس ستيفانوفتش الذي علموا أنه سافر في ذلك المساء نفسه. ولكنهم تكلموا كثيراً عن "عضو مجلس الشيوخ".

رابط جمهور كبير أمام عمارة فيليوف طوال الصباح. وفي البداية صدقت الشرطة الأكذوبة التي تضمنتها رسالة كيريلوف، فاعتقدت بأن كيريلوف هو الذي قتل شاتوف ثم انتحر "القاتل". ولكن السلطات إذا كانت قد اتخذت فإن انخداعها لم يكن كاملاً. من ذلك أن الحديقة التي تشير إليها رسالة كيريلوف تلك الإشارة الغامضة، لم تضلل أحداً، على خلاف ما تنبأ به بطرس ستيفانوفتش. لقد أسرعَت الشرطة إلى سكفورشنكي فوراً، لا لأنه ليس لدينا حديقة أخرى فحسب، بل أيضاً لأن نوعاً من الغريزة قاد خطى البحث: إن جميع الأحداث الرهيبة في تلك الأيام الأخيرة إنما تتصل كثيراً أو قليلاً بسكفورشنكي وسكانها (يحسن أن أشير عابراً إلى أن فرفارا بتروفنا التي لم تكن تعرف شيئاً كانت قد غادرت المدينة في ذلك الصباح نفسه بحثاً عن ستيفان تروفيموفتش). واكتُشفت جثة شاتوف في نحو المساء. وعلى مقربة من مكان ارتكاب الجريمة عُثر أيضاً على قبعته التي قد نسيها القتلة خفةً وطيشاً. وظهر من فحص الجثة فحصاً طيباً ومن بعض العلاقات الأخرى أن كيريلوف كان له شركاء.

وأصبح من المسلّم به إذاً أن هناك جمعية سرية تضم شاتوف وكيريلوف ولها علاقة بالمنشورات. ولكن من هم شركاؤهما؟ لم يكن "أصحابنا" يخطرون ببال أحد حتى ذلك الحين. وقد علم أن كيريلوف كان يعيش حياة منزوية، وأن فدكا، كما تذكر الرسالة، قد استطاع أن يقيم عنده مدة طويلة بينما كان يُبحث عنه في كل مكان!... والشيء الذي أدخل الاضطراب في العقول أكثر من كل ما عداه هو أنه كان يستحيل على المرء أن يحل هذه الألغاز ويستخرج بعض النتائج. ولولا أن كل الأمور اتضحت فجأة في الغداة بفضل ليامشين، لكان يصعب علينا أن نتخيل الافتراضات العجيبة والآراء الغريبة

التي كان يمكن الوصول إليها آخر الأمر.

لم يستطع ليامشين أن يطبق صبراً. لقد حدث له ما أوجسه بطرس ستيفانوفتش نفسه في النهاية. قضى نهاره كله في السرير بحراسة تولكاتشنكو أولاً ثم بحراسة إركل. وكان هادئ المظهر، ملتفتاً نحو الحائط، يلتزم الصمت ولا يكاد يجيب حين يوجه إليه الكلام. لم يعلم إذاً بشيء مما كان يجري في المدينة غير أن تولكاتشنكو الذي كان على علم بكل شيء قرر في نحو المساء أن يترك المهمة التي أناطها به بطرس ستيفانوفتش، وأن يرحل إلى المقاطعة، أي أن يهرب: لكنهم قد فقدوا صوابهم جميعاً. واضح أن إركل لم يخطئ. لقد هرب ليويتين هو أيضاً في ذلك اليوم نفسه منذ الصباح. غير أن السلطات لم تعلم برحيله إلا في الغد، وحين جاءت الشرطة إلى مسكنه وجدت الأسرة كلها قلقة لاختفائه أشد القلق، غير أنها تكتم أمر هذا الاختفاء مع ذلك.

أعود إلى ليامشين. إنه منذ أصبح وحيداً (إذ كان إركل قد اتكل على تولكاتشنكو وعاد إلى بيته)، أسرع يخرج، فما هي إلا برهة قصيرة حتى كان على علم بتفاصيل الموقف طبعاً. فقرر أن يهرب بغير إبطاء، أن يمضي قدماً لا يلوي على شيء. ولكن الظلام كان حالكاً، فبدت له مغامرته محفوفة بمخاطر شديدة، فبعد أن قطع شارعين أو ثلاثة، رجع إلى البيت، وأفل على نفسه الباب بالمفتاح. يقال إنه حاول في الصباح أن يتحرر، ولكنه لم يفلح في ذلك. فمكث في غرفته حتى الظهر. وعندئذ اتخذ قراره فجأة، فأسرع يركض إلى قسم الشرطة. يظهر أنه هناك جثا على ركبتيه، وأخذ يزحف باكياً ناشجاً، وأنه قبل الأرض وهو يصيح بأنه لا يستحق أن يقبل حتى أحذية الشخصيات المعامية التي أمامه. وكانوا لطافاً في معاملته إلى أبعد حد. ودام استجوابه قرابة أربع ساعات. حكى كل شيء، كل شيء تماماً، حتى أدق التفاصيل. بل لقد كان يستبق الأسئلة من شدة استعجاله الاعتراف الكامل، فيروي أشياء لا داعي إليها وليس يُسأل عنها. وقد اتضح أنه يعرف أموراً كثيرة. لذلك استطاع أن يكشف عن خفايا القضية: إن مأساة شاتوف وكيريلوف، والحريق،

وموت لبيادكين وأخته، كل ذلك كان في المرتبة الثانية من خطورة الشأن في حديثه، أما المرتبة الأولى فقد كانت لبطرس ستيفانوفتش، والجمعية السرية، والتنظيم، والشبكة. وحين أُلقي عليه هذا السؤال: لماذا جرائم القتل هذه كلها، لماذا تلك الفضائح كلها، لماذا هذه الدناءات كلها؟ أجاب فوراً بقوله: "ذلك لزعة قواعد الدولة، لتعجيل تفسخ المجتمع، لبث اليأس في النفوس، لإدخال البلبلة والفوضى إلى العقول. وبعد ذلك يتم الاستيلاء على المجتمع الذي عمته الفوضى، المجتمع المريض، الحائر، المستهتر، الرياب، ولكن على أساس التطلع إلى فكرة موجهة، فبذلك تُرفع راية الثورة اعتماداً على شبكة الحلقات الخماسية التي تكون قد عملت من جهتها على بث الدعاية، ودراسة النقاط الضعيفة في الخصم، والوسائل العملية لمحاربتها". وصرح ليامشين في النهاية أن ما شوهد في مدينتنا ليس إلا محاولة أولى لتخريب منظم، وهو بمثابة برنامج يجب أن تتبعه الحلقات الأخرى التي أنشأها بطرس ستيفانوفتش. ذلك كان رأي ليامشين على كل حال. وقد أُلح على "ضرورة النظر بعين الاعتبار إلى أقواله وإلى الصراحة والوضوح في عرضه للقضية كلها، مما يدل دلالة واضحة على أنه يستطيع أن يقدم للسلطات خدمات كبيرة". حتى إذا أُلقي عليه هذا السؤال المباشر: "هل في روسيا عدد كبير من هذه الحلقات الخماسية؟" أجاب بأن هذه الحلقات لا نهاية لعددها وإن شبكتها تغطي روسيا كلها. ولم يأت بأي برهان يؤيد هذه الأقوال، ولكنني أظن أنه كان صادقاً حين قال ذلك الكلام. وقد اكتفى بتقديم برنامج الجمعية، المطبوع في الخارج، وبمشروع يعرض توسيع نطاق العمل، مكتوب بخط بطرس ستيفانوفتش. فظهر حينذاك أن ليامشين، حين تكلم عن "زعة القواعد"، إنما كان يستعير نصاً من نصوص هذه الورقة، لا يُسقط منه نقطة أو فاصلة. ولكن ذلك لم يمنعه من أن ينسب تلك الفكرة إلى نفسه. وقد تكلم عن جوليا ميخائيلوفنا فأسرع يعلن بطريقة هزلية جداً ومن غير أن يُسأل عن ذلك، أسرع يعلن أنها "بريئة وأنها قد غرّرت بها". يجب أن نذكر أنه أنكر أن يكون لستافروجين أية مشاركة في الجمعية السرية، وأكد أنه لم يكن ثمة أي تفاهم

بين نيقولا في سيفولودوفتش وبين بطرس ستيفانوفتش (لم يكن ليامشين، بطبيعة الحال، يعرف شيئاً عن الآمال السخيفة التي كان بطرس ستيفانوفتش يعقدها على ستافروجين). وقال إن مقتل ليادكين وأخته كان من عمل بطرس ستيفانوفتش الذي تصرف منفرداً من دون أن يكون لستافروجين أي دخل في الأمر، وذلك بغية أن يجعل ستافروجين معرضاً للخطر خاضعاً لسيطرته. ولكن بطرس ستيفانوفتش لم يُثر في قلب ستافروجين "النبيل" إلا الاستياء الشديد والألم الممض، بدلاً من أن يثير فيه شعور الشكر والامتنان كما كان يتوقع. وأضاف ليامشين في ختام إفادته عن ستافروجين، وأضاف مستبقاً الأسئلة مرة أخرى، أن نيقولا في سيفولودوفتش شخص رفيع الطراز حتماً، غير أن ههنا سرّاً مجهولاً، فهو قد عاش بيننا كالمتمنكر تقريباً لأنه مكلف بمهمة كبيرة، ومن الجائز جداً أن يرجع من بطرسبرج بعد قليل (كان ليامشين مقتنعاً بأن ستافروجين في بطرسبرج)، ولكن رجعت ستم في ظروف مختلفة تماماً هذه المرة، وسيكون محاطاً بأناس قد نسمع الناس يتكلمون عنهم في القريب. وقال ليامشين إنه عرف هذه الأمور من فم بطرس ستيفانوفتش، "العدو الخفي لنيقولا في ستافروجين".

ملاحظة: بعد شهرين، اعترف ليامشين بأنه حاول تبرئة ستافروجين لأنه كان يأمل أن يحميه. لقد كان يأمل أن عقوبته ستخفف بفضل هذه الحماية تخفيفاً كبيراً، وكان يتخيل أيضاً أن ستافروجين سيرسل إليه مالا وسيبعث إليه رسائل توصي به السلطات السيبيرية خيراً. إن هذا الاعتراف يدل على أن ليامشين كان يرى في نيقولا في سيفولودوفتش رأياً فيه كثير من المبالغة. في ذلك اليوم نفسه قبض على فرجنسكي طبعاً، بل قبض على أسرته كلها من بله إظهار الحماسة للقيام بالواجب (ولقد أفرج عن آرينا بروخوروفنا وأختها وخالتها والطالبة، منذ مدة طويلة، ويقول بعضهم مؤكداً أن شيجالوف سيفرج عنه في القريب أيضاً، لأنه لا يدخل في أية فئة من فئات المتهمين. وما هذا على كل حال إلا أقاويل تُقال). وقد اعترف فرجنسكي اعترافات كاملة على الفور. لقد كان راقداً على سريره يعاني من حمى شديدة حين

جاؤوا يعتقلونه، ويقال إنه حين رأى الشرطة قد سُرّ تقريباً. ويروى أنه كان في إفادته صريحاً، مع احتفاظه ببعض الوقار والرصانة، وإنه لم يتنازل عن أمل واحد من "الآمال المضیئة" مع تنديده بالأساليب السياسية (لا الاجتماعية) التي انقادت لها في خفة وطيش، "مدفوعاً بإعصار الظروف". وقد نُظر بعين الاعتبار إلى موقفه في الحديقة عند مقتل شاتوف، ويبدو أنه يأمل أن يشفع له هذا الموقف فيُخفّف الحكم عليه، أو ذلك ما يؤكده الناس في مدينتنا على الأقل.

ولا كذلك إركل. فليس من المتوقع أن يُتسامح معه. لقد لزم إركل الصمت منذ القبض عليه، أو كان يشوّه الحقيقة، ولم يمكن أن يُتزعزعه منه قول واحد يعبر عن الندامة. ومع ذلك استطاع أن يوقظ في نفوس القضاة، حتى القساة منهم، شيئاً من العطف عليه، وذلك لشبابه وسذاجته، ولأن من الواضح أنه كان ضحية متأمر سياسي أشعل في نفسه نار التعصب، ولأنه خاصة كان فتى براً بأمه إذ كان يرسل لها نصف إيراده الضئيل تقريباً. إن أمه هي الآن هنا: إنها امرأة ضعيفة مريضة هرمت قبل الأوان. وهي تبكي وتتمرغ بأقدام القضاة متوسلة إليهم أن يرأفوا بابنها. ولا يدري أحد كيف سينتهي الأمر. غير أن عدداً كبيراً من الناس في مدينتنا يرثون لحال إركل صادقين.

أما لبيوتين فقد قبض عليه ببطرسبرج بعد أن مكث فيها خمسة عشر يوماً. إن ما وقع له يكاد يبدو غير معقول. لقد كان يملك جواز سفر باسم مزور، وكان يملك مبلغاً ضخماً من المال، فكان في وسعه إذاً أن يهرب إلى الخارج. ومع ذلك لم يتحرك من بطرسبرج. حاول في البداية أن يهتدي إلى ستافروجين وبطرس ستيفانوفتش، ثم أقبل فجأة على الشراب واسترسل في دعارة مسعورة. حتى لكأنه فقد سلامة عقله وأصبح لا يدرك وضعه أي إدراك. لقد قبض عليه في أحد المواخير سكراناً كل السكر. ويشيع بين الناس الآن أنه استرد شجاعته، وأنه ما برح يكذب، وأنه يعقد بعض الآمال على دعواه التي يتهيا لها بعناية شديدة، لأنه ينتوي أن يلقي خطاباً طويلاً. وأما تولكاشنكو فقد قبض عليه بعد هربه إلى الريف بعشرة أيام،

وهو يسلك سلوكاً أليق كثيراً، فلا يكذب ولا يراوغ، ويقول ما يعرفه، ولا يحاول أن يبرئ نفسه بل هو يعترف بأخطائه، ولكنه يبدو ميّالاً إلى الفصاحة والبلاغة، فهو يتكلم كثيراً، ويحاول أن يتكلم كثيراً، حتى إذا دار الحديث على الشعب وعناصره الثورية اصطنع وضعاً وقوراً وحاول أن يكون له في نظر سامعيه مهابة. ويقال إنه هو أيضاً يتتوي أن يلقي خطاباً أمام المحكمة. يمكننا أن نقول، بوجه عام، إنه وليبوتين لا يبدو أن خائفين مما ينتظرهما، سسسسسستوذلك شيء يثير الاستغراب.

أكرر أن القضية لم يُفصل فيها بعد. والآن، بعد انقضاء ثلاثة أشهر على هذه الأحداث كلها، قد أفاق مجتمعنا من ذهوله واسترد اتزانته، فهو يحكم على الأمور حكماً أكثر استقلالاً، حتى إن هناك اليوم أناساً يرون أن بطرس ستيفانوفتش إن لم يكن عبقرياً فهو على الأقل رجل أوتي "قدرات عبقرية". "هذا تنظيم!"، كذلك كان يقول بعضهم في نادينا رافعاً إصبعه. ومهما يكن من أمر فقد كان هذا الكلام بريئاً. وكان بعض آخر يذهبون غير هذا المذهب. فهو لاء على أنهم لا ينكرون ذكاء الرجل يلحون على جهله بالواقع، وميله المفرط إلى التجريد، ونمو بعض ملكاته على حساب بعضها الآخر نمواً شاذاً، وطيشه الخارق. أما صفاته الأخلاقية فكان عليها إجماع، فلا جحود ههنا قط.

لا أدري حقاً عمن يجب أن أتكلم أيضاً...

لقد رحل مافريكي نيقولايفتش لا يدري أحد إلى أين. وخرفت العجوز دروزدوف مرتدة إلى الطفولة. على أن هناك حكاية مظلمة يجب عليّ أن أقصّها. وسأكتفي برواية الوقائع.

حين عادت فر فارا بتروفا من أوستيفو فإنها لم تنزل بسكفور شنيكي بل مضت إلى المدينة، وهناك علمت فوراً بكل ما جرى أثناء غيابها. فاضطربت اضطراباً شديداً عميقاً، وحبست نفسها في بيتها. كان ذلك في المساء، وكان الجميع متعبين مكدودين، فرقدوا مبكرين.

وفي صباح الغد مدّت إحدى الخادومات إلى داريا بافلوفنا في السر

رسالة قالت إنها وصلت في مساء أمس، ولكنها وصلت متأخرة بينما كان الجميع نائمين. أما فكيف وصلت الرسالة فإن رجلاً مجهولاً أعطاها ألكسي إيجورتش بقرية سكفورشنيكي فسرعان ما حملها الخادم العجوز إلى الخادمة وقفل راجعاً إلى سكفورشنيكي.

تأملت داريا بافلوفنا ظرف الرسالة مدة طويلة، خافقة القلب، من دون أن تجرؤ على فضّها. لقد كانت تعلم أن الرسالة مرسلة من نيقولا في سيفولودوفتش. وكان مكتوباً على ظرفها: "إلى ألكسي إيجورتش لنقلها إلى داريا بافلوفنا".

وإليك نص الرسالة كلمة كلمة. إنني لم أصحح أسلوب هذا السيد الروسي الذي لم يكن قوياً في النحو رغم ثقافته الأوروبية: العزيزة داريا بافلوفنا،

"قلت لي مرةً إنك تريد أن تكوني ممرّضتي، وجعلتني أعدك بأن أستدعيك متى احتجت إليك. إنني مسافر بعد يومين سافراً لا عودة بعده. فهل تريد أن تسافري معي؟

في السنة الماضية أصبحت، مثل هرتسن، مواطناً في كانتون "أوري" بسويسرا. ولا أحد يعرف هذا. لقد اشتريت منزلاً صغيراً في ذلك الكانتون. وسنقيم هناك إلى الأبد. أصبحت لا أريد أبداً أن أذهب إلى أي مكان.

الموضع الذي يقع فيه المنزل حزين جداً. إنه مضيق في جبل. الجبال هناك تطفئ على البصر والفكر. منظر يشيع في النفس غمّاً وحداداً. وإنما اخترت ذلك المكان إذ كان فيه منزل يباع. وإذا لم يعجبك البيت فسوف أبعده وأشتري بيتاً آخر في مكان آخر.

ليست صحتي حسنة، لكنني آمل أن يخلصني هواء تلك البلاد من هواجسي. هذا شيء جسّمي. أما عن حالتي النفسية فإنك تعرفين كل شيء. ولكن هل هذا كل شيء حقاً؟

لقد رويت لك أشياء كثيرة عني. ولكنني لم أرو كل شيء حتى لك أنت. بالمناسبة، أؤكد لك أنني أحس في قرارة ضميري بأنني مسؤول عن مقتل

زوجتي. إنني لم أرك بعد موتها، لذلك أؤكد لك هذا الآن. وأنا أيضاً آثم في حق ليزاقتا نيقولا يفنا. ولكنك عن هذا تعرفين كل شيء. إنك قد تنبأت بكل شيء تقريباً.

الأفضل أن لا تجيئي. إنها للدناءة مني أن أستدعيك. علام تقبرين نفسك معي؟ إنك تعجيبيني، ولقد كنت أشعر بارتياح إلى جانبك حين ينتابني قلق وغم. أمامك وحدك إنما كنت أستطيع أن أتكلم عن نفسي بصوت عالٍ. ولكن هذا لا يعني شيئاً. لقد قلت أنك نفسك ستكونين لي "ممرضة". هذا تعبيرك ذاته. لماذا هذه التضحية الكبرى؟ لاحظي أيضاً أنني لا أشفق عليك ما دمت أستدعيك، وإنني لا أحترمك ما دمت أنتظرك. ومع ذلك أستدعيك وأنتظرك. على كل حال، أنا في حاجة إلى جوابك، لأن علي أن أسافر بأقصى سرعة. وسوف أسافر وحدي إذا اقتضى الأمر.

إنني لا أمل شيئاً من "أوري"، ولكنني أسافر، أسافر وكفى! ولم يقع اختياري على ذلك المكان الحزين عن عمد. ليس هناك ما يربطني بروسيا: كل شيء غريب عني هنا، كأني مكان آخر على كل حال. صحيح أنني أحب أن أعيش في روسيا، وكنت لا أحب كثيراً أن أعيش في غيرها أيضاً. ولكنني حتى في روسيا كنت عاجزاً عن كره أي شيء.

لقد جربت قوتي في كل مكان ونصحتني أنت بذلك حتى "أعرف نفسي معرفة أصدق". وأثناء تلك التجارب، بدت قوتي هذه غير ذات حدود، أمام نفسي وأمام الآخرين. على مرأى منك تحملت صفة أخيك. وأعلنت زواجي على رؤوس الأشهاد. ولكن في أي شيء يجب أن أستعمل هذه القوة؟ ذلك ما لم أستطع أن أعرفه في يوم من الأيام، وما لا أعرفه حتى هذا اليوم. لا أعرفه رغم ما أزعجت إليّ من تشجيعات صدقتها. أنا الآن، كما كنت دائماً، أستطيع أن أرغب في القيام بعمل حسن، وأجد في ذلك لذة. وإلى جانب هذا أشتهي أن أرتكب عملاً سيئاً وأذوق من ذلك هذه اللذة نفسها. ولكن الشعورين كليهما ضعيفان، ولم يكونا قويين في يوم من الأيام. إن رغباتي ضعيفة مسرفة في الضعف دائماً: إنها لا تستطيع أن توجهني. في

وسع المرء أن يعبر نهراً على لوح ولكنه لا يستطيع أن يعبره على قشرة. أقول لك هذا حتى لا تتخيلي أنني أعقد آمالاً على أوري.

لست أتهم أحداً، كما لم أتهم أحداً في الماضي. لقد جربت الدعارة، واستهلك قواي. ولكنني لا أحب الدعارة ولم أكن أريدها. كنت تراقبيني في الآونة الأخيرة. هل تعلمين أنني كنت أنظر إلى أصحابنا الجاحدين نظرة كره وبغض، ولكنني كنت أحسدهم على ما كانوا يعقدونه من آمال؟ غير أنك قد أخطأت إذ ساورك قلق عليّ: إنني لا أستطيع أن أكون واحداً منهم، لأنني لا أشاطرهم آمالهم. وكان ذلك يستحيل عليّ من باب السخرية وحب الشر أيضاً، لا لأنني أخشى أن أكون محل هزاء - فإنني لا أخشى أن أكون محل هزاء - بل لأنني قد احتفظت رغم كل شيء بعادات إنسان لبق، ولأن ذلك كان يثير الاشمئزاز في نفسي. ولكن لو قد كان كرهني وحسدي أقوى مما كانا، إذاً لأمكن أن أنضم إليهم.

أيتها الصديقة العزيزة، الحنون، الكريمة، التي اكتشفتها! لعلك تأملين بما أعطيتنيه من حب كامل، وما غمرتني به من كنوز نفسك الجميلة، إنك ستستطيعين أن تخلقي لحياتي هدفاً في النهاية! ولكن لا، كوني عاقلة حكيمة: إن حبي سيكون مسكيناً مثلي، وستكونين أنت شقية تعيشه. قال لي أخوك يوماً: من يفقد كل رابطة بالأرض، يفقد على الفور آلهته، أي أهدافه. في وسع المرء أن يناقش كل شيء إلى غير نهاية، ولكنني عاجز إلا عن الإنكار خالياً من أية عظمة نفسية، خالياً من أية قوة. الجحود نفسه مسكين ضعيف عندي. كل شيء كاب رخو. إن كيريلوف الكريم لم يستطع أن يتحمل فكرته فانتحر. ولكنني أدرك حق الإدراك أنه كان كريماً لأنه كان لا يملك عقلاً كاملاً. لن أستطيع أن أفقد عقلي يوماً، ولن أستطيع أن أوّمن بفكرة يوماً، مثله. حتى إنني لن أستطيع أن أهتم بفكرة. فلن أنتحر أبداً، أبداً!

أنا أعلم أنه يجب عليّ أن أنتحر، أن أغيب عن وجه الأرض كحشرة مقززة. ولكنني أخاف الانتحار، لأنني أخاف أن أظهر شيئاً من عظمة النفس. إنني أعلم أن هذا لن يكون إلا كذبة جديدة، هي آخر كذبة في سلسلة طويلة

من الأكاذيب. أي فائدة أجنبيها من الكذب لا شيء إلا أن أظهار بعظمة النفس؟ لن أعرف الاستياء والخجل في يوم من الأيام، ولن أعرف اليأس إذاً.

اغفري لي هذه الإطالة في الكتابة إليك. لقد فعلت ذلك من دون أن أريده. وها أنا ذا أمسك. فلو واصلت الكتابة على هذا النحو فلن أستطيع أن أقول كل شيء في مائة صفحة، مع أنه تكفيني على وجه الإجمال عشرة أسطر. إن أسطراً عشرة كافية لاستدعاء "ممرضة".

أقيم منذ سفري عند مدير محطة تبعد عن المدينة ست محطات. لقد قصفتنا معاً منذ خمس سنين ببطرسبرج. لا أحد يعلم أنني هنا. اكتبي إليّ على اسمه. أرفق إليك العنوان.

"نيقولا ي ستافروجين"

مضت داريا إلى فرفاراً بتروفا تطلعها على الرسالة. فلما قرأت فرفاراً بتروفا الرسالة طلبت إلى داشا أن تخرج لحظة: كانت تريد أن تعيد قراءتها وحيدة. ولكنها سرعان ما نادى الفتاة. وسألته بما يشبه الخجل:

- أتسافرين؟

- نعم.

- استعدي. سنسافر معاً.

ثم قالت فرفاراً بتروفا مجيبة عن نظرة استفهام من داشا:

- ما عساي فاعلة هنا؟ استوت عندي الأمور. أنا أيضاً سأصبح مواطنة في

أوري، وسأقيم في الجبال... لا تخشي شيئاً. لن أزعجكما.

كان ينبغي ركوب قطار الظهر، فإذا بالكسي إيجورتش يظهر فجأة، فيروي أن نيقولا ي فسيفولودوفتش قد وصل إلى سكفورشنيكي في قطار الصباح، وإن هيئته كانت غريبة، وأنه كان لا يجيب عن الأسئلة التي تلقى عليه، وأنه حبس نفسه في شقته لا يبارحها.

وأضاف ألكسي إيجورتش يقول بلهجة ذات دلالة:

- لقد قررت أن أجيء إلى هنا بدون أوامر، وأن أطلعك على الواقع...

أَلَقْتُ عَلَيْهِ فَرَفَارًا بَتْرُوفْنَا نَافِذَةً، وَلَكِنهَا لَمْ تَلَقْ عَلَيْهِ أَيَّ سَوَالٍ.
وَسَرَعَانَ مَا أَعَدَّتْ الْعَرَبَةُ، وَسَافَرْتُ فَرَفَارًا بَتْرُوفْنَا إِلَى سَكْفُورْشَنِيكِي مَعَ
دَاشَا.

كَانَتْ أَبْوَابُ شَقَةِ نِيْقُولَايِ فِسِفُولُودُوفْتِشْ مَفْتُوحَةً، وَلَكِنْ لَمْ يُمْكِنِ
الْعُثُورُ عَلَيْهِ هُوَ.

قَالَ أَحَدُ الْخُدَمِ فِي حَذَرٍ:

- أَتَرَاهُ يَكُونُ فِي الطَّابِقِ الْعُلُويِّ؟

فَصَعَدَ الْجَمِيعُ إِلَى الطَّابِقِ الْعُلُويِّ فَوَجَدُوا الْغُرْفَ الثَّلَاثَ خَالِيَةً.

قَالَ أَحَدُهُمْ وَهُوَ يَشِيرُ إِلَى بَابِ الطَّابِقِ الَّذِي يَقَعُ تَحْتَ السَّقْفِ:

- أَتَرَاهُ صَعَدَ إِلَى أَعْلَى؟

إِنْ هَذَا الْبَابُ الَّذِي يَكُونُ فِي الْعَادَةِ مَغْلَقًا كَانَ الْآنَ مَفْتُوحًا عَلَى سَعْتِهِ
كُلِّهَا فَعَلًا. وَلَمْ يَكُنْ يُمْكِنُ الْوُصُولُ إِلَيْهِ إِلَّا بِصُعُودِ سَلَمٍ خَشَبِي طَوِيلٍ ضَيِّقٍ
قَائِمٍ. وَكَانَ فِي الْأَعْلَى حِجْرَةٌ تَشْبَهُ أَنْ تَكُونَ زَنْزَانَةً.

دَمَدَمْتُ فَرَفَارًا بَتْرُوفْنَا تَقُولُ وَقَدْ أَصْفَرَ وَجْهَهَا أَصْفَارًا شَدِيدًا:

- لَنْ أَصْعَدَ إِلَى فَوْقٍ. مَا عَسَاهُ يَفْعَلُ هُنَاكَ؟

وَنَظَرْتُ إِلَى الْخُدَمِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَأَمَّلُونَهَا صَامِتِينَ. وَكَانَتْ دَاشَا تَرْتَعِدُ.

وَعَزَمْتُ فَرَفَارًا بَتْرُوفْنَا أَمْرَهَا أَخِيرًا فَصَعَدْتُ السَّلَمَ بِسُرْعَةٍ. وَلَكِنهَا مَا إِنْ
دَخَلْتُ الْغُرْفَةَ حَتَّى أَطْلَقْتُ صَرْخَةً كَبِيرَةً وَسَقَطَتْ مَغْشِيًا عَلَيْهَا.

كَانَ مَوَاطِنُ "أُورِي" مَشْنُوقًا وَرَاءَ الْبَابِ. وَكَانَ عَلَى الْمَائِدَةِ وَرَقَةٌ كُتِبَ
عَلَيْهَا بِالْقَلَمِ الرِّصَاصُ: "لَا يُتَّهَمُنْ أَحَدٌ. أَنَا الْفَاعِلُ!". وَكَانَ إِلَى جَانِبِ الْوَرَقَةِ
مِطْرَقَةٌ وَقِطْعَةٌ صَابُونٍ وَمِسْمَارٌ كَبِيرٌ لَا شَكَّ أَنْهُ حُضِرَ اسْتِعْدَادًا لِكُلِّ طَائِرٍ. لَا
شَكَّ فِي أَنَّ الْحَبْلَ الْحَرِيرِيَّ الْمَتِينَ الَّذِي اسْتَعْمَلَهُ نِيْقُولَايِ فِسِفُولُودُوفْتِشْ
قَدْ اخْتِيرَ سَلَفًا، وَأَحْسَنَ طَلِيهِ بِالْصَابُونِ. إِنْ كُلُّ شَيْءٍ يَدُلُّ عَلَى الْعَمْدِ وَسَبْقِ
الْإِصْرَارِ. وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ سِتَافَرُوجِينَ قَدْ ظَلَّ إِلَى آخِرِ دَقِيقَةٍ يَعْيِ أَعْمَالَهُ وَعَيًْا
كَامِلًا.

وَقَدْ نَفَى الْأَطْبَاءُ الَّذِينَ شَرَّحُوا الْجَنَّةَ، نَفَوْنَا نَفِيًّا قَاطِعًا افْتِرَاصَ خَلَلِ عَقْلِي.

اعتراف ستافروجين

الفصل التاسع

عند تيخون

1

لم ينم نيقولا في سيفولودوفتش في تلك الليلة. ظل جالساً على ديوانه إلى أن طلع الصباح، محدقاً في بعض الأحيان إلى ركن وراء المنضدة. وظل مصباحه مضيئاً طوال الليل. وفي الساعة السابعة من الصباح نام وهو لا يزال جالساً، فلما دخل عليه ألكسي إيجورتش في التاسعة والنصف تماماً، على عادته من زمان طويل، حاملاً إليه قهوة الصباح، وأيقظه من نومه، ظهرت عليه دهشة يخالطها انزعاج من أنه أمكن أن ينام في تلك الساعة المتأخرة. وشرب قهوته بسرعة، ولبس ثيابه، وخرج بخطى حثيثة. فلما سأل إيجورتش محاذراً: "ما هي أوامرك؟"، لم يجب بكلمة واحدة. اجتاز الشوارع خافضاً عينيه، مستغرقاً استغراقاً عميقاً. وكان في بعض اللحظات فقط يرفع بصره ويبدو عليه أنه فريسة اضطراب يصعب تحديده لكنه اضطراب شاق أليم. وعند مفترق طرق، غير بعيد من المنزل، كانت جماعة مؤلفة من نحو خمسين شخصاً تجتاز طريقها. إنهم يتقدمون، صامتين تقريباً، مصطفىين اصطفاً فيه شيء من نظام. وعلى مقربة من دكان انتظر عندها لحظة، قال له أحد الناس: "هؤلاء عمال مصنع شيبجولين" فلم يكذبته إلى كلامه. وأخيراً، في نحو الساعة العاشرة والنصف، وصل إلى الباب الكبير من ديرنا، دير العذراء في

"سباسو- أفيمي"، الذي يقع عند مخرج المدينة بقرب النهر. وعندئذ توقف فجأة كأنه تذكر شيئاً ما، وتلمس جيبه الجانبي بسرعة وقلق، ثم ابتسم. حتى إذا دخل فناء الدير سأل أول راهب لقيه من الرهبان المبتدئين أن يدخله على الأسقف تيخون المعتكف في هذا الدير. فقاده الراهب المبتدئ وهو يزجي إليه التحية تلو التحية. حتى إذا وصلاً إلى النهاية من مبنى طويل ذي طابقين، استولى عليه راهب ضخّم أشيب الشعر، وقاده خلال ممر طويل، من دون أن ينقطع عن تحيته (ولما كان ضخماً ضخماً شديدة وكان لا يستطيع أن ينحني انحناء شديداً فقد كان يهزّ رأسه بحركة قصيرة منتظمة). ورغم أن ستافروجين كان يتقدم في سيره لا ينتظر أن يرجوه أحد أن يتقدم، فقد كان الراهب لا يني يدعوه أن يتبعه. وكان لا يني يلقي عليه أسئلة شتى، ويتكلم عن الأب الأرشمندريت. فلما لم يحصل على أي جواب، أصبح وضعه يزداد احتراماً لحظة بعد لحظة. ولاحظ ستافروجين أنه معروف في الدير، رغم أنه في ما يذكر لم يكن قد ذهب إليه منذ طفولته. وحين وصل الرجلان إلى الباب في آخر الممر، فتحه الراهب بيد قوية، وسأله الخادم بغير كلفة، منذ هرع هذا إليهما، هل يمكن الدخول، ثم لم ينتظر جواب الخادم بل فتح الباب واسعاً، وأدخل "الضيف العزيز". فشكر له ستافروجين جميله، فأسرع يغيب فوراً كأنما هو يفر فراراً.

دخل نيقولا في سيفولودوفتش غرفة ضيقة. فإذا برجل طويل القامة نحيل الجسم يظهر في إطار باب الغرفة المجاورة على الفور تقريباً. إنه في نحو الخمسين من عمره، يرتدي جبة خشنة، ويبدو عليه شيء من مرض، له نظرة غريبة، خجلة وجلة، وابتسامة على الشفتين حيرى مترددة. إنه تيخون ذاك الذي سمع عنه نيقولا في سيفولودوفتش أول مرة من شاتوف، وجمع عنه بعد ذلك معلومات شتى. لقد كانت تلك المعلومات متناقضة، ولكن لها جميعها سمة مشتركة: هي أن الذين يحبون تيخون والذين لا يحبونه (إن هناك أناساً لا يحبونه) كان يسكتون دائماً عن شيء ما، فأما الذين لا يحبونه فإنهم يسكتون من باب الاحتقار، وأما الذين يحبونه بل يحبونه بحرارة فإنهم يسكتون من باب التكتّم. لكنهم يريدون أن يخفوا ضعفاً ما، كأنهم يريدون

أن يخبئوا هوساً بريئاً. وقد علم نيقولاى فسيفولودوفتش أن الرجل يقيم في الدير منذ ست سنين، وأن الناس كثيراً ما يقدون لزيارته (إنهم أناس من الشعب، ولكن بين زائريه كذلك أشخاصاً من أعلى طبقة)، وأن له معجبين متحمسين، حتى في بطرسبرج، وأن له معجبات خاصة.

ولكن نيقولاى فسيفولودوفتش سمع رجلاً مسناً خطير الشأن من أعضاء نادينا، وهو رجل شديد التدين، سمعه يقول: "إن تيخون هذا رجل يكاد يكون مجنوناً، وإنه على كل حال إنسان تافه، وأغلب الظن أنه سكير". يجب أن أقول أن هذا الاتهام الأخير كان باطلاً كل البطلان، وأن تيخون كان لا يشكو إلا من روماتزم في ساقيه، ومن تشجنات عصبية في بعض الأحيان. وقد علم فسيفولودوفتش أيضاً أن الأسقف المعتكف لم يستطع إما للضعف في شخصيته وإما لذهول لا يغتفر له ولا يتفق ومنزلته، لم يستطع أن يفرض على المدير ما توجه له مرتبته من احترام. حتى لقد كان يقال إن الأب الأرشمندريت، وهو رجل متقشف وصارم في كل ما يتعلق بموجبات الصلاة، وهو عدا ذلك رجل مشهود له بالعلم، كان يحمل للأسقف تيخون نوعاً من عاطفة العداوة يأخذ عليه (بطريقة غير مباشرة في الواقع) أن حياته رخوة، كما يعيب عليه ما كان يصفه بأنه "هرطقات". وكان الرهبان أيضاً يعاملون الأسقف المريض معاملة خالية من الكلفة إن لم يكن فيها شيء من الازدراء أيضاً.

إن الغرفتين اللتين تتألف منهما شقة تيخون مؤثنتان تأثيثاً غريباً. فعلى مقربة من أثاث قديم ثقیل منجد بجلد مهترئ، هناك عدد من الأشياء الجميلة: أريكة حافلة بالزخرف مريحة جداً، مكتب كبير محفور خشبه حفرأ رائعاً، خزانة للكتب، موائد، أرفف. إنها هدايا. وهذه سجادة ثمينة من سجاد بخارى تجاور حُصراً من قش. وهناك عدد من لوحات "عصرية"، أسطورية، وأيقونات مرصعة بذهب وفضة منها واحدة تضم بقايا قديسين. ويقال إن المكتبة كانت كبيرة التنوع: فالى جانب مؤلفات آباء الكنيسة توجد مسرحيات، وربما وجد "ماهو أسوأ من المسرحيات أيضاً".

فبعد المجاملات الأولى التي تبادلها الرجلان بشيء من الانزعاج وفي

غير وضوح (لا ندري لماذا) أدخل تيخون ضيفه إلى حجرة عمله، وأجلسه على الديوان قبالة الطاولة. وجلس هو قريباً منه كل القرب، على مقعد من خشب الخيزران. إن نيقولا يفسيفودولوتش الذي يجيش في داخل نفسه انفعال قوي، كان ذاهل الهيثة، يبدو عليه أنه اتخذ قراراً خارقاً، لا رجوع عنه، ولكن لا يمكن تحقيقه في الوقت نفسه. وأجال بصره في الغرفة، ولكن من دون أن يتلبث على شيء مما يرى. كان يفكر، ولكن لا يدري حتماً في أي شيء كان يفكر. وأيقظه الصمت، وبدأ له فجأة أن تيخون قد خفض عينيه مرتبكاً حتى إنه ابتسم ابتسامة غريبة. فسرعان ما أيقظ ذلك في نفس نيقولا يفسيفودولوتش اشمئزازاً وتمرداً. وأراد أن ينهض وينصرف، لا سيما وأن تيخون كان في رأيه سكراناً كل السكر. غير أن تيخون لم يلبث أن رفع عينيه فجأة ورمقه بنظرة تبلغ من الثبات ومن الامتلاء بالفكر، ومن البعد عن التوقع، ومن الألغاز، في الوقت نفسه، أن نيقولا يفسيفودولوتش ارتعش تقريباً. لقد بدا له أن تيخون يعرف سلفاً السبب الذي دفعه إلى المجيء، وأنه على علم بالامر (مع أن أحداً لم يستطع أن يعرف سبب زيارته هذه)، وأنه إذا لم يسبقه إلى الكلام فذلك لأنه يداريه ويخشى إذلاله. قال نيقولا يفسيفودولوتش للأسقف بصوت متقطع:

- هل تعرفني؟ أعرفت بنفسي حين دخلت أم لا؟ إنني شديد الذهول...
 - لم تعرف بنفسك، ولكن سبق أن سعدت برؤيتك مرة، منذ أربع سنوات، في هذا الدير نفسه، مصادفةً...

كان تيخون يتكلم ببطء شديد، وصوت متساو رقيق عذب، ناطقاً كل كلمة بوضوح وجلاء.

أجابه نيقولا يفسيفودولوتش يسأله بما يشبه أن يكون فظاظاً:
 - أقول إنني جئت إلى هنا منذ أربع سنين؟ أنا لم أجيء إلا حين كنت طفلاً، ولم تكن أنت حينذاك في الدير...
 قال تيخون بأناة وروية من غير إلحاح:
 - لعلك نسيت...

- لا، لم أنس. من المضحك أن لا أتذكر...

كذلك أجابه ستافروجين بشيء من الغلو، وأضاف:
- لعلك سمعت عني، فتكوّن في ذهنك رأي معيّن، فتخيلت الآن أنك
رأيتني من قبل.

صمت تيخون. فلاحظ نيقولا في سيفولودوفتش عندئذ أن وجهه تلم به
في بعض الأحيان رعشات، وهذه علامة مرض في الأعصاب متأصل. فقال:
- لكنني أرى أن صحتك اليوم ليست حسنة، فلعل الأفضل أن أنصرف.
ونهض.

قال تيخون:

- نعم، أمس واليوم انتابتني آلام في الساقين، ولم أتم هذه الليلة إلّا
قليلاً...

وتوقف تيخون عن الكلام. وعاد ضيفه يستغرق في تفكيره الغامض
فجأة. ودام الصمت مدة طويلة تقارب دقيقتين.

قال ستافروجين على حين بغتة بشيء من القلق والريب:
- إنك تلاحظني...

- إنني أنظر إليك فأتذكر ملامح وجه أمك. هناك تشابه نفسي روحي كبير،
رغم اختلاف المظهر الخارجي.

- ليس هناك أي تشابه، ولا سيما من الناحية الروحية... أبداً... ما...
من... تشابه... البتة!

كذلك قال نيقولا في سيفولودوفتش بإلحاح فيه مغالاة، من دون أن
يعرف هو نفسه لماذا. وأضاف فجأة:

- إنك تقول هذا... من باب الشفقة على حالتي. سخافات!... ولكن
ماذا؟ هل تأتي أُمّي إليك؟

- نعم.

- لم أكن أعرف ذلك. لم تقل لي هي هذا في يوم من الأيام. هل تأتي
كثيراً؟

- كل شهر تقريباً، وأكثر من ذلك أحياناً.

- لم أعلم بهذا أبداً، أبداً. ولكن لاشك أنك أنت قد علمت منها أنني
مجنون، أليس كذلك؟

- هذا ما أضافه سائلاً على حين بغتة.
- لا. لم تحدثني عنك حديثها عن مجنون تماماً. ولكنني سمعت آخرين يقولون هذا.
- لا شك أن ذاكرتك قوية إذا كنت تستطيع أن تتذكر أمثال هذه الترهات. وعن الصفعة، هل سمعت شيئاً؟
- بضع كلمات.
- أي كل شيء. وقتك واسع جداً على كل حال. وعن المبارزة، هل حدثوك أيضاً؟
- عن المبارزة أيضاً.
- إنك تعرف أشياء كثيرة هنا. في مثل هذا المكان لا حاجة إلى جرائد. وهل كلمك شاتوف عني؟ هيه؟
- لا. أنا أعرف شاتوف. لكنني ما رأيته منذ مدة طويلة.
- هم!... ما هذه الخريطة التي عندك؟ آ... خريطة الحرب الأخيرة. ولكن ما حاجتك أنت، أنت، إليها؟
- كنت أدرسها قارئاً النص. إنه لوصف شائق جداً.
- أرني! نعم، كتابة جيدة. ولكن ما أغرب أن يقرأ رجل مثلك هذه الأمور! وشد إليه الكتاب وألقى عليه نظرة. إنه تاريخ مفصل جداً يسرد وقائع الحرب الأخيرة وصفاً ممتازاً، ولكنه لا ينظر إلى الأمور من الناحية العسكرية خاصة، بل هو أقرب إلى أن يكون عاماً وأديباً. قلب ستافروجين صفحات الكتاب وأعاد تقليبها، ثم رماه نافذ الصبر.
- وقال مشتمز الهيئة وهو يحدق إلى عيني تيحون وكأنه ينتظر منه جواباً:
- إنني لا أدري حقاً لماذا جئت إلى هنا.
- فقال له تيحون:
- أنت أيضاً يبدو عليك أنك مريض.
- فعلاً.

قال ستافروجين ذلك وطفق يروي بغتة، بجمل قصيرة مقطعة، حتى ليصعب فهمها أحياناً، إنه توافيه هواجس غريبة، ولا سيما في الليل، وأنه

يرى في بعض الأحيان أو يحس أن بقربه كائناً شريراً "معقولا" يظهر له في صور شتى وطباع مختلفة، "ولكنه هو هو نفسه دائماً، وأنا يستعّر حنقي في كل مرة..."

غريبة ومشوشة كانت هذه الاعترافات التي تكاد تكون خليقة بمجنون حقاً. ولكن نيقولا في سيفولودوفتش كان في الوقت نفسه يتكلم بصراحة خارقة وصدق غريب عن طبعه، حتى لكان الإنسان القديم فيه قد اختفى اختفاء تاماً مبالغتاً. لم يشعر بأي خجل من التعبير عن الخشية التي كان يوقظها في نفسه هذا الشبح. ولكن ذلك كله لم يدم إلا لحظة واحدة، وما لبثت هذه الحالة النفسية أن زالت على غير توقع كما جاءت على غير توقع.

قال في غضب وقد ثاب إلى نفسه:

- هذا كله سخافات. سأمضي أستشير طبيباً.

فقال تيخون يؤيده:

- افعل. يجب أن تفعل حتماً.

- إنك تتكلم جازماً. فهل رأيت أناساً مثلي يعانون هذا النوع من

الهلوسات؟

- نعم رأيت ولكن قليلاً. إنني أتذكر واحداً. كان ضابطاً وقع له ذلك بعد

فقدته امرأته التي كانت له حليمة لا تضاهي. وسمعت عن واحد آخر. وقد

شفي الاثنان كلاهما في الخارج. هل توافيك هذه الأشياء منذ مدة طويلة؟

- منذ سنة تقريباً. ولكن ما هذه إلى تفاهات. سأستشير طبيباً. تفاهات!

تفاهات سخيفة مضحكة! هذا أنا نفسي في وجوه مختلفة. ذلك كل شيء.

لا شك أنك تتصور، بعد أن أضفت أنا هذه العبارة، إنني ما زلت أشك، وإنني

لست واثقاً بأن هذا أنا حقاً وليس الشيطان.

نظر إليه تيخون نظرة استفهام. وسأله:

- و... هل تراه فعلاً؟ أقصد من دون أن تحتفظ بفكرة أن هذا ليس إلا

هلوسة كاذبة مرضية؟ هل ترى صورة ما بالفعل؟

أجابه ستافروجين الذي كان حنقه يزداد من جديد لدى كل كلمة:

- غريب إلحاحك على هذا بعد أن شرحت لك إنني أرى... أرى قطعاً...

كما أراك!... أحياناً أرى ولا أثق بأنني أرى، رغم علمي بأن هذه هي الحقيقة: إما أنا وإما هو... سخافات! ولكن هل يستحيل عليك أن تسلم بأنه الشيطان؟ إن هذا التسليم أكثر اتفاقاً ومهنتك، هه؟

أضاف هذا السؤال ضاحكاً، هاوياً إلى لهجة ساخرة على حين فجأة. قال تيخون:

- الأرجح أن الأمر مرض، ومع ذلك...

- مع ذلك؟

- الشياطين موجودون حتماً. ولكن يمكن تصورهم على أنحاء مختلفة... عاد ستافروجين يقول بلهجة غاضبة ساخرة:

- إنك قد عدت تخفض عينيك لأنك تخجل مني إذا أنا صدقت بوجود الشيطان. ولكن ها أنا ذا أظاھر بعدم التصديق فألقي عليك ماكراً هذا السؤال: أهو موجود حقاً أم لا؟

فابتسم تيخون ابتسامة غامضة.

قال ستافروجين:

- لا يناسبك البتة أن تخفض عينيك: هذا غير طبيعي، هذا مضحك، هذا متصنع. ومن أجل أن أكفر عن هذه الغلطة مني سوف أقول لك جاداً، بصفاقة: نعم، إنني أو من إيماناً مطابقاً لإيمان الكنيسة، أو من بوجود شيطان شخصي، لا شيطان رمزي، ولست أحتاج البتة أن أسألك. هذا كل شيء. لا بد أن تكون سعيداً غاية السعادة.

وانفجر ستافروجين يضحك ضحكاً مكرهاً، عصيباً. فرمقه تيخون مستطلعاً بنظرة رقيقة جداً، نظرة كأنها تشتمل على شيء من خجل.

وهذا ستافروجين يرميه فجأة بهذا السؤال:

- أتؤمن بالله؟

- أو من بالله.

- ولكن قيل في الكتاب: إذا آمنت وأمرت الجبل أن يسير لأطاعك!... هذه سخافات على كل حال! ولكنني حريص على أن أعرف منك: هل يمكنك أن تنقل جبلاً؟

- نعم، إذا الله أمر...

كذلك أجاب تيخون برقة وحياء، خافضاً عينيه من جديد. فأجابه ستافروجين:

- فكأن الله نفسه هو الذي حرك الجبل؟ ولكنني أسألك هل تستطيع أنت، أنت، أن تحركه مكافأة لك على إيمانك بالله؟

- ربما.

- ربما. جواب حسن. لماذا تشك؟

- إيماني ناقص غير كامل.

- كيف؟ إيمانك أنت أيضاً؟ ناقص غير كامل؟ ماكان لي أن أفترض هذا حين أراك. كذلك ستافروجين وهو يتأمل تيخون بدهشة، بل بسذاجة، وهو أمر لا يتفق ولهجة السخرية التي ألقى بها أسئلته السابقة، قال تيخون:

- نعم، قد لا يكون إيماني كاملاً.

- لكنك تؤمن مع ذلك بأنك قادر بمعونة الله على أن تنقل الجبل. هذا وحده شيء. إنك تريد الإيمان على الأقل. وأنت تفهم كلمة "الجبل" بالمعنى الحقيقي لا بالمعنى المجازي. هذا وحده كثير. مبدأ عظيم. لقد لاحظت التقدميين بين كهنتنا يميلون ميلاً قوياً إلى اللوثرية، فلا مانع عندهم من تعليل المعجزات بأسباب طبيعية. هذا أفضل على كل حال من عبارة "قليلاً جداً" التي قالها أحد الكهنة، وهو تحت السكين. أأنت مسيحي قطعاً؟

كان ستافروجين يتكلم بسرعة كبيرة، وصوت ساخر تارة جاد تارة أخرى. ولعله كان لا يعرف هو نفسه لماذا يقول هذه الأشياء كلها، ولماذا يسائل تيخون، ولماذا يضطرب ويتحرك!

دمدم تيخون يقول بنوع من الاندفاع وهو يخفض رأسه مزيداً من الخفض:

- ربّ إني لن أخجل من صليبك!

وأخذت أطراف شفثيه تختلج فجأة.

سأله ستافروجين:

- ولكن هل يمكن الإيمان بالشيطان من غير إيمان بالله؟

- هذا يمكن جداً، ويحدث كثيراً. ورفع تيخون عينيه وابتسم قليلاً.

قال ستافروجين وهو ينفجر ضاحكاً:

- وإنني لعلّى يقين من أنك ترى الإيمان أجدر بالاحترام من الجحود الكامل.

فابتسم تيخون من جديد، وقال بما يشبه المرح، مع استمراره تأمل ضيفه قلقاً بعض القلق:

- بل الإلحاد الكامل أجدر بالاحترام من عدم الاكتراث.

- هوه! ما أعجب هذا الكلام! إنك لتدهشني حقاً!

- الملحد إلحاداً كاملاً واقف على الدرجة الأخيرة التي تسبق الإيمان الكامل (أن يخطو هذه الخطوة الأخيرة أو أن لا يخطوها فتلك مسألة أخرى). أما الذي لا يكثرث ولا يبالي، فإنه لا يملك أي إيمان، وليس في نفسه إلّا شيء من الخوف أحياناً، هذا إذا كان امراً حساساً.

- هم... هل قرأت رؤيا القديس يوحنا؟

- نعم.

- هل تذكر قوله: "اكتب إلى ملاك كنيسة اللاوديكيين"؟...

- أذكر.

سأل ستافروجين وهو ينظر حوله مضطرباً:

- أين الكتاب؟ أريد أن أقرأ لك تلك الأسطر. هل عندك ترجمة روسية؟
قال تيخون:

- أعرف تلك الأسطر. أتذكرها تذكراً واضحاً.

قال ستافروجين:

- أتحمّله على ظهر قلب. اتله عليّ!...

وخفض عينيه، ووضع يديه مبسوطتين على ركبتيه، ونهياً للإصغاء.

تلا تيخون الأسطر: "واكتب إلى ملاك كنيسة اللاوديكيين: هذا يقوله الشاهد الأمين الصادق بداءة خليفة الله: أنا عارف أعمالك. إنك لست بارداً ولا حاراً. ليتك كنت بارداً أو حاراً. فلأنك لست بارداً ولا حاراً أنا مز مع أن أتقيأك من فمي. لأنك تقول إنني غني وقد استغنيت ولا حاجة بي إلى شيء، ولست تعلم أنك شقي وفقير وأعمى وعريان..."

قال ستافروجين مقاطعاً:
- كفى! هل تعلم؟ إنني أحبك كثيراً.
فأجابه تيخون يقول بصوت خافت:
- وأنا أيضاً.

وصمت ستافروجين وعاد يهوي فجأة في أحلامه. لقد تكرر هذا الأمر
ثالث مرة، كأنه نوع من نوبة. وفي نوبة من هذه النوبات إنما قال لتيخون:
"أحبك". وكان هو نفسه لا يتوقع ذلك.

وخيم الصمت دقيقة.
دمدم تيخون يقول وهو يلامس بإصبعه كوع ستافروجين ملازمة خفيفة،
وكانه هو نفسه خائف:
- لا تزعلي.

فانتفض ستافروجين وقطب حاجبيه غاضباً ساخطاً.
وسأل قائلاً بسرعة:

- كيف عرفت أنني زعلت؟
فأراد تيخون أن يتكلم، ولكن الآخر قاطعه وقد استبد به انفعال لا يمكن
فهمه، قال:

- لماذا افترضت أنني لا بد أن أزعلي؟ نعم، لقد غضبت. إنك على حق،
وإنما غضبت لأنني قلت لك إنني أحبك. إنك على حق. ولكنك مستخف
فظ. إن لك رأياً منحطاً جداً في الطبيعة الإنسانية. كان يمكن أن لا يثور هذا
الغضب لو كنت تتخاطب شخصاً آخر غيري. على كل حال، إن شأنك ليس
مع أي شخص، بل معي أنا. مهما يكن من أمر، فأنت رجل طريف، بريء.
كان يسترسل مزيداً من الاسترسال لحظة بعد لحظة، والشيء الغريب أنه
كان يفقد كل ترو في كلامه. قال:

- اسمع جيداً: إنني لا أحب علماء النفس والجواسيس أو على الأقل لا
أحب منهم أولئك الذين يريدون أن يدخلوا إلى قرارة نفسي. إنني لا أدعو
أحداً، ولست في حاجة إلى أحد. سوف أدبر أموري بنفسي. أظن أنني
خائف منك؟

رفع صوته وأنهض رأسه بحركة تحد. وأضاف يقول:
- أنت واثق أنني إنما جئت إليك لأعترف لك بسر رهيب، وأنت تتنظر
هذا السر بكل ما يتصف به كاهن مثلك من فضول. ألا اعلم أنني لن أكشف
لك عن شيء، لن أكشف لك عن أي سر، لأنني لست في أية حاجة إليك...
لأنه ليس هناك أي سر... ما هذا منك إلا تهاويل خيال...
ألقي عليه تيخون نظرة ثابتة.

- لقد فجأك أن ترى أن "الحمل" يؤثر البارد على الفاتر، كما يقول،
فأردت أن لا تكون بارداً. إنني أحس أن قراراً خارقاً لعله رهيب، يستولي
عليك. أرجوك، أضرع إليك، كفاك تعذيباً لنفسك وقل كل شيء.

- أنت واثق إذاً أنني جئت وأنا أبيت فكرة؟

دمدم تيخون يقول خافضاً عينيه:

- حررت ذلك... من وجهك.

كان نيقولا يفسيفولودوفتش شاحباً بعض الشحوب، وكانت يده
ترتعشان قليلاً. ولبت بضع ثوان يحدق إلى تيخون صامتاً. وأخيراً، استل من
الجيب الجانبي في رذنجوته ملازم مطبوعة، ووضعها على المائدة. وقال
بصوت متقطع بعض التقطع:

- هذه الأوراق معدة للنشر. فإذا قرأها ولو شخص واحد، فاعلم أنني لن
أخفيها، وأن الجميع سيقرونها. هذا أمر مقرر. لست في حاجة إليك البتة،
لأنني قررت كل شيء. ولكن اقرأ... وأثناء القراءة لا تقل شيئاً، حتى إذا
فرغت من القراءة قل كل شيء...

سأله تيخون متردداً:

- هل يجب أن أقرأ؟

- اقرأ. إنني هادئ كل الهدوء.

- بدون نظارتين لا أستطيع أن أميز شيئاً. الأحرف صغيرة جداً. هذا

مطبوع في الخارج.

- إليك النظارتين.

تناول ستافروجين النظارتين من على المائدة ومدّهما إليه. ثم ارتد بجسمه إلى وراء مستنداً على ظهر الأريكة. واستغرق تيقون في القراءة.

2

هي خمس ملازم مضبورة، من القطع الصغير، قد طبعت في الخارج فعلاً على ورق من ورق الرسائل خفية، وربما في مطبعة روسية سرية. إنك إذا نظرت إلى هذه الملازم نظرة أولى رأيتها تشبه كثيراً المنشورات التحريضية. وقد استهلّت بهذه العبارة: "من ستافروجين".

إنني أثبت هذه الوثيقة بنصّها حرفاً حرفاً (ويجب أن نعتقد أن كثيرين يعرفونها الآن). ولكنني أبحث لنفسي أن أصحح فقط بعض أخطاء الإملاء وهي كثيرة حتى لقد أدهشتني، لأن كاتبها رجل مثقف على كل حال، ولا شك أنه قد قرأ كثيراً (نسبياً). أما الأسلوب فقد تركته على حاله، رغم أخطائه ورغم ما فيه من أنواع التفكك. إنه لمن الواضح على كل حال أن صاحب هذه الصفحات ليس كاتباً. وأبيح لنفسي كذلك ملاحظة أخرى، فأستبق الوقائع... في رأيي أن هذه الوثيقة ثمرة من ثمرات المرض، وأنها من عمل الشيطان الذي استولى على هذا الرجل. هذا شأن المريض الذي يعاني آلاماً شديدة: إنه لا ينفك يتقلب على سريره يائساً يبحث عن وضع يهدئ ألمه ولو لحظة. فإذا لم يهدئه هذا الوضع أحلّ محله وضعاً آخر مدة دقيقة. وهو عندئذ لا يتساءل طبعاً هل هذا التبديل حسن أو معقول.

إن ما يسيطر على هذه الوثيقة هو الحاجة الرهيبة الصادقة إلى العقاب، هو الحاجة إلى الصليب، إلى العذاب على مرأى من الناس. غير أن هذا الظلم إلى الصلب يعذب امرءاً لا يؤمن بالصليب. "وهذا وحده يمثل فكرة"، كما عبّر عن ذلك ستيفان تروفيموفتش يوماً في مناسبة تختلف عن هذه كل الاختلاف.

ومن جهة أخرى تشتمل هذه الأوراق على شيء من عنف واستفزاز وتحد، رغم أنها كتبت لغرض آخر تماماً. إن كاتبها يصرح أنه "لم يستطع" أن لا يكتب، وأنه "أجبر" على الكتابة إجباراً وهذا جائز جداً. لقد كان يسعده

أن يستطيع إبعاد هذه الكأس المرة عنه، ولكن كان يستحيل عليه حقاً. لذلك انتهز هذه الفرصة فأرخصى العنان لعنفه. نعم، إن المريض يتحرك في سريره ويحاول أن يحلّ ألماً محلّ ألم. وها هو ذا يبدو له أن الصراع ضد المجتمع سيخفف عنه بعض التخفيف، فإذا هو يتحدى المجتمع. إن مجرد تحريره هذه الوثيقة هو تحد غير متوقع، وقلة احترام للمجتمع، إن كاتب هذه الوثيقة يهمله أن يستفز خصماً ما بأقصى سرعة...

ومن يدري؟ لعل هذا كله، أعني هذه الأوراق المهيأة للنشر، إنما ينتمي إلى ذلك النوع نفسه من الوقائع، الذي تنتمي إليه واقعة عض أذن الحاكم! لماذا توافيني هذه الفكرة اليوم بعد أن اتضحت أشياء كثيرة؟ ذلك ما لا أستطيع أن أفهمه. إنني لا أتى بأي دليل على كل حال، لا أستطيع أن أؤكد أن هذه الوثبة كاذبة، أي لفقها الخيال تلفيقاً، قد تكون الحقيقة واقعة بين هذين الطرفين الأقصيين... ولكنني أستبق الحوادث. الأفضل أن نرجع إلى الوثيقة نفسها. فإليكم ما قرأه تيخون:

"من ستافروجين

"أنا ستافروجين، الضابط المتقاعد، قد قضيت سنوات ألف وثمانمائة وستين و... بيطرسبرج مسترسلاً في الدعارة استرسالاً لم أجد فيه أية متعة. كان لي خلال فترة من تلك السنين ثلاث شقق: ففي إحداها كنت أسكن مع خادم يقوم بأعمال البيت، وكانت مارياليا دكين التي هي زوجتي شرعاً أمام القانون تسكن في تلك الشقة أيضاً. وقد استأجرت الشقتين الآخرين لأستقبل فيهما عشيقاتي: ففي إحداهما كنت أستقبل سيدة كانت تحبني، وفي الشقة الأخرى كنت أستقبل خادمتها. وكانت رغبتني آنذاك هي أن أجعلهما تلتقيان عندي، كلتاهما، السيدة والفتاة. وكنت لمعرفتي بطبعهما أتبنا لهذه المزحة أن تحدث لي متعة كبيرة. ومن أجل أن أهيب هذا اللقاء في يسر كان علي أن أذهب أحياناً كثيرة إلى واحدة من هاتين الشقتين، تقع في منزل كبير بشارع جوروخوفايا. فإلى هناك إنما كانت تأتي الخادمة. كنت أشغل في ذلك المنزل عند بورجوازيين صغار غرفة في الدور الرابع. وكان أصحاب البيت يشغلون غرفة أخرى أصغر، بل غرفة تبلغ من الصغر أن

الباب الذي يفصل بيننا كان يجب أن يظل مفتوحاً على الدوام. وذلك بعينه ما كنت أريده. لقد كان الزوج، وهو يرتدي قفطاناً طويلاً، يعمل في مكتب من المكاتب، فكان يذهب في الصباح ولا يرجع إلّا ليلاً. وكانت المرأة وهي في نحو الأربعين من العمر تخطط وتصلح ملابس قديمة. وكانت تخرج في كثير من الأحيان لتحمل عملها إلى زبائنّها. فكان يتاح إليّ إذا أن أنفرد بابتئهما الطفلة. كان اسمها ماتريوشا. وكانت الأم تحبها، ولكنها تضربها أحياناً كثيرة وتشتتمها على عادة أمثال هؤلاء الناس وكانت هذه الصغيرة تخدمني وترتب غرفتي. إني أعلن الآن أنني قد نسيت رقم تلك العمارة. وقد علمت أن المنزل القديم قد هدم وأن عمارة جديدة كبيرة جداً قد شيدت في مكان مبنيين أو ثلاثة مبان قديمة هناك. وقد نسيت أيضاً اسم صاحبي الشقة. ومن الجائز أن لا أكون قد عرفت اسميهما في يوم من الأيام. أذكر أن المرأة كان يقال لها ستيفانيدا، أما اسمه هو فلا أتذكره. أين هما الآن؟ لا أدري البتة. أحسب أننا إذا تقصينا الأمر لدى قسم الشرطة ببطرسبرج، فقد نهتدي إلى أثرهما. كان المسكن يطل على الفناء ويحتل زاوية منه. جرى ذلك في شهر حزيران. كان المنزل مدهوناً بلون أزرق شاحب. في يوم من الأيام اختفت مطواتي من على المائدة. ولم أكن في حاجة إلى تلك المطواة على كل حال. كانت لا تعينني في شيء. كلمت في الأمر صاحبة البيت، من دون أن يخطر ببالي أنها ستجلد ابنتها. ولكنها كانت قد أمسكتها منذ قليل بسبب اختفاء خرقة (ممسحة) ظنت الأم أن الطفلة قد استعملتها لتصنع منها لعبة (عروسة). حتى لقد شدت لها شعرها. فلما عثر على تلك الخرقة، في ما بعد، تحت الحصيرة، لم تشأ الطفلة أن تنطق بكلمة لوم واحدة، وظلت صامتة. وقد لاحظت أنها تعمدت أن لا تنطق، وأنا أتذكر هذا، لأنني في تلك اللحظة إنما انتبهت إلى وجه الطفلة الذي لم يلفت انتباهي حتى ذلك الحين. إنه أشقر شقرة شاحبة، إلى بقع حمراء. وجه عادي. غير أن فيه كثيراً من الطفولة والهدوء، بل كثيراً جداً من العذوبة والسكينة. لقد استاءت الأم من أن ابنتها لم تلمها وصمتت. وفي تلك اللحظة إنما جاءت حكاية المطواة. استعر حنق الأم من أنها ضربت ابنتها ظملاً. فها هي ذي تتناول

أسوأطاً وتمضي تجلد الطفلة إلى أن تفجرت دماؤها على مرأى مني، رغم أن الطفلة كانت قد دخلت السنة الثانية عشرة من عمرها. لم تصرخ ماتريوشا وهي تجلد. ولا شك أن ذلك يرجع إلى وجودي. ولكنها كانت تشهق شهيقاً غربياً عند كل جلدة. ولقد ظلت تشهق ساعة كاملة بعد انتهاء الجلد. حتى إذا انتهى توقيع العقوبة عثرت على مطواتي فجأة فوق سريري في الغطاء. فوضعتها في جيب صدирتي صامتاً. فلما خرجت رميتها في الشارع حتى لا يعلم أحد شيئاً. وشعرت على الفور بأنني قد ارتكبت عملاً حقيراً جباناً، لكنني أحسست أيضاً بلذة، لأن فكرة قد ومضت في ذهني فجأة وأحرقنتني كجمرة، وتلبثت أنا عليها. وقد لاحظت في تلك المناسبة أنني سبق لي مراراً أن استولت عليّ إلى حد الجنون مشاعر شريرة شتى كنت أصبر عليها إصراراً محموماً وأشغف بها شغفاً شديداً، ولكن من دون أفقد كل سيطرة على نفسي وكل تحكم بإرادتي في يوم من الأيام. فحتى حين تمحني حراراتها وحين تبلغ أقصى درجات قوتها كنت أستطيع دائماً أن أنتصر عليها وأن أوقفها. ولكن كان يندر أن أريد أن أفعل ذلك. وإني أعلن في الوقت نفسه أنني لا أحاول أن أدفع عن نفسي المسؤولية بحجة تأثير البيئة أو بحجة المرض.

انتظرت بعد ذلك يومين. أصبحت الطفلة بعد بكائها أشد صمتاً. إنني لعلّ يقين من أنها لم تكن تحمل لي أنا أية عاطفة سيئة رغم أنها شعرت حتماً بشيء من الخجل لإنزال العقوبة فيها على مرأى مني. لكنها وهي الطفلة الخضوع كانت تؤاخذ نفسها على هذا الخجل. أذكر هذا لأن له شأنًا هاماً في قصتي... قضيت بعد ذلك ثلاثة أيام في شقتي الأولى. إنها منزل مفروش تفوح منه دائماً رائحة كريهة من روائح الطعام، ويزدحم دائماً بالناس: موظفين صغار، مستخدمين بلا عمل، أطباء لا زبائن لهم، أنواع شتى من البولنديين يسعون حولي بغير انقطاع. إنني أتذكر كل شيء. كنت أعيش في ذلك المنزل الذي يشبه أن يكون مدينة سدوم، أعيش متوحداً، متوحداً في داخل نفسي، لكنني محاط دائماً بعصبة صاخبة من "الرفاق" الذين يخلصون لي إلى أبعد حدود الإخلاص ويكادون يعبدونني عبادة بسبب محفظة نقودي. أظن أننا كنا نفعل ذنابات كثيرة. حتى لقد كان المستأجرون يخشوننا، أقصد أنهم ظلوا لطافاً

في معاملتنا رغم خلاعاتنا وبذاءاتنا وحماقاتنا التي كانت في بعض الأحيان لا تغتفر. أعود فأكرر: لقد كنت أشعر حتى بشيء من اللذة حين أتصور أنني سأنفى إلى سيبيريا. وكنت أبلغ من السأم والضجر أنني كان في وسعي أن أشنق نفسي. وإذا لم أشنق نفسي، فلأنني كنت ما أزال يراودني أمل ما، كما كنت طوال حياتي. وأذكر أنني عنيت حينذاك باللاهوت عناية تشتمل حتى على كثير من الجد، وأنني استطعت أن أسلي نفسي قليلاً. ولكن ضجري ازداد بعد ذلك. أما عواطفني الاجتماعية فهي لا تتجاوز الرغبة في تحطيم كل شيء، لو كان هذا التحطيم يستحق العناء. ولكن يجب أن أضيف أن تلك الرغبة لم يكن فيها خبث وشر وإنما هي ترجع إلى ضجري الشديد، لا إلى شيء آخر، لست اشتراكياً البتة. إنني أفترض أن ذلك كان مرضاً. حين سألت الدكتور دوبروليوفوف مازحاً: "أليس هناك عقار يمكن أن ينشط الطاقة الاجتماعية"، فإن هذا الطبيب الفاشل، الذي لا عمل له، والذي يعول أسرة كبيرة، وقيم في منزلنا، قد أجابني بقوله: "لتنشيط الطاقة الاجتماعية لا يوجد عقار في ما أظن، ولكن قد تجد عقاقير لتنشيط الطاقة الإجرامية". إن هذه المزاحة قد سرته كثير أ رغم فقره الرهيب ورغم أنه مسؤول عن امرأة حبلى وابنتين صغيرتين جاععتين. على كل حال، لولا أن البشر راضون عن أنفسهم لما أراد أحد أن يعيش.

انقضت ثلاثة أيام أخرى، وعدت إلى جوروخوفايا. كانت الأم تتهياً للخروج حاملة حزمة كبيرة. ولم يكن الأب في البيت طبعاً. فبقيت وحدي مع ماتريوشا. كانت النوافذ (في الفناء) مفتوحة. وكان في المنزل صناع كثيرون وكانت جميع الطوابق تضج بأصوات المطارق والأغاني. انقضت ساعة. كانت ماتريوشا جالسة في ركنها، على دكة صغيرة. كانت تخطب شيئاً ما وقد أدارت لي ظهرها. وفجأة أخذت تغني بعدوبة كبيرة. كان يحدث لها هذا أحياناً. استللت ساعتني ونظرت فيها. هي الساعة الثانية بعد الظهر. أخذ قلبي يخفق خفقاناً قوياً جداً. نهضت واقتربت من ماتريوشا ببطء. كانت النوافذ مزدانة بأصص أزهار. وكانت الشمس حارة. جلست إلى جانب ماتريوشا على الأرض صامتاً. ارتعشت ماتريوشا. خافت خوفاً رهيباً في

اللحظة الأولى، وبادرت تنهض فجأة. تناولت يدها وقبلتها. ثم أجلستها على الدكة وجعلت أتفرس في عينيها. أما أنني قبلت يدها أضحكها ذلك كطفلة. ولكنها لم تضحك إلا لحظة قصيرة. لأنها عادت تنهض من جديد وقد اعترها رعب بلغ من القوة أن وجهها تشنج. وحدثت إلي بنظرات ثابتة وأخذت شفاتها تختلجان كأنها تهم أن تبكي. ولكنها لم تصرخ. قبلت يدها مرة ثانية، وأجلستها على ركبتني. فإذا هي تتقهقر فجأة وتبتسم، ولكن ابتسامتها ابتسامة خجل، ابتسامة مائلة. واحمر وجهها حياء. وأخيراً حدث أمر يبلغ من الغرابة أنني لن أنساه في يوم من الأيام. إنه حادث أثار في نفسي دهشة شديدة. لقد أحاطت البنت الصغيرة عنقي بذراعيها وأخذت تقبلني بحرارة وهوى. كان وجهها يعبر عن الافتتان. نهضت شبه غاضب: إن هذه الحركة التي تبدر من هذه الإنسانة الصغيرة قد أزعجتني كثيراً جداً بسبب الشفقة التي شعرت بها فجأة..."

انتهت الملزمة هنا وانقطعت الجملة. وحدث عندئذ أمر لا بد من ذكره. كانت الملازم خمساً. الأولى في يدي تيوخون الذي فرغ من قراءتها. والجملة لم تكمل. والأربع الأخرى كانت في يدي ستافروجين. فلما ألقى تيوخون على ستافروجين نظرة سائلة ناوله ستافروجين التتمة فوراً. فقال تيوخون وهو ينعم النظر في الملزمة:

- ولكن الجملة لم تكمل. وهذه هي الملزمة الثالثة بينما التالية هي الثانية لا الثالثة.

قال ستافروجين مجيباً بسرعة وهو يبتسم ابتسامة خرقاء:

- نعم هذه هي الثالثة. أما الثانية فقد حذفها الرقابة الآن...

كان ستافروجين جالساً على ركن من الديوان، وكان يحدق إلى تيوخون محموراً جامداً لا يستطيع أن يحول عنه بصره.

- سأعطيك إياها عما قريب، حين... حين تصبح جديراً بذلك.

كذلك أضاف يقول وهو يجري بيده حركة أراد أن لا يكون فيها كلفة. وكان يضحك، غير أن ضحكه كان يبعث على الشفقة.

قال تيوخون:

- مع ذلك أظن أننا في النقطة التي وصلنا إليها يستوي أن تكون هذه الصحيفة هي الثانية أو الثالثة، أليس كذلك؟

صاح ستافروجين يسأله وهو ينهض على حين فجأة:

- كيف؟ لماذا؟ ليس يستوي الأمران قط. آه منكم معشر الرهبان. إنكم تفترضون على الفور أفضع الدنءات. ألا إن الرهبان ليصلحون أن يكونوا قضاة تحقيق من الطبقة الأولى.

نظر إليه تيخون صامتاً.

قال ستافروجين:

- اطمئن بالآ. ليس ذنبي أن البنية كانت حمقاء ولم تفهمني. لم يحدث شيء البتة.

- الحمد لله!

ورسم تيخون إشارة الصليب.

قال ستافروجين:

- يطول شرح الأمر... لقد وقع هنا... وقع هنا سوء تفاهم سيكولوجي. واحمر فجأة. وظهر في وجهه الاشمئزاز والقلق والغم واليأس!... وصمت. وأصبح الرجلان لا ينظر أحدهما إلى الآخر، وساد الصمت بينهما أكثر من دقيقة.

قال ستافروجين على نحو آلي وهو يجفف العرق البارد الذي بلل جبينه:

- اسمع. الأفضل أن تقرأ. و... والأفضل ألا تنظر إلي بتاتاً... يخيّل إليّ

أن هذا حلم...

ثم أضاف يقول بصوت خافت جداً:

هــو... ولا تستنفذ صبري.

حوّل تيخون عينيه عنه بسرعة، وتناول الصحيفة الثالثة وأخذ يقرأ بغير توقف حتى النهاية. كانت الصحائف الثلاث التي أسلمها إليه ستافروجين لا ينقصها شيء. وقد بدأت الصحيفة الثالثة كما يلي:

"... كانت لحظة رعب حقاً، وإن لم تكن شديدة العنف. وغدوت مرحاً جداً في ذلك الصباح وأحسنّت معاملة الجميع، وسرّت العصبة مني

كثيراً. لكنني تركتهم جميعاً ومضيت إلى جوور وخوفايا. التقيت بها تحت عند المدخل. كانت عائدة من دكان أرسلت إليه لتشتري شيئاً من الهندباء. فلما رأته اندفعت تجري في السلم وقد اعترها خوف رهيب. بل إن ما اعترها ليس خوفاً وإنما كان رعباً أخرس يشلّ شلاً. وحين دخلت كانت أمها تضربها لأنها دخلت الغرفة "حثة الخطي خافضة الرأس". بذلك استطاعت أن تخفي السبب الحقيقي لرعبها. كان كل شيء لا يزال إذاً هادئاً. وقبعت في ركن ولم تظهر طول المدة التي قضيتها في البيت. وبعد ساعة خرجت. ولكنني في المساء شعرت بالخوف من جديد، وكان خوفي هذه المرة أشد كثيراً. وكان أشق شيء على نفسي في ذلك الخوف أنني كنت واعياً إياه وعياً كاملاً. إنني لا أعرف شيئاً أغبى من هذا ولا أعنف. لم أكن قد شعرت بالخوف حتى ذلك الحين قط، لا ولا شعرت به بعد ذلك أبداً. أما في تلك اللحظة فقد كنت خائفاً. حتى لقد كنت أرتعش، وكنت أعي هذا الخوف وعياً تاماً، وكنت أعي كذلك مذلتني، لو استطعت أن أنتحر لانتحرت. ولكنني أحسست أنني غير جدير بالموت. على أن هذا ليس السبب الذي منعني من الانتحار، وإنما منعني من الانتحار ذلك الخوف نفسه. إن المرء ينتحر في بعض الأحيان خوفاً، ولكن يحدث أيضاً أن يستمر المرء في الحياة خوفاً كذلك. في أول الأمر لا يجرو الإنسان أن ينتحر، ثم يصبح الفعل بعد ذلك مستحيلاً. أكثر من هذا أنني في المساء، حين كنت في بيتي، قد شعرت نحو البنت بكرة بلغ من القوة أنني قررت أن أقتلها. فما إن طلع الفجر حتى ركضت إلى جوور وخوفايا حاملاً هذه الفكرة. وكنت طوال الطريق أتصور كيف سأقتلها وكيف سأحرقها. وكان كرهني يحتاج خاصة حين أتذكر ابتسامتها: كان يشب في نفسي احتقار، وكانت تمتلئ نفسي اشمئزاً من ارتمائهما على عنقي متخيلة ما لا أدري! ولكنني حين عبرت نهر فونتانكا شعرت بأن صحتي سيئة. وفي الوقت نفسه انبجست في ذهني فكرة جديدة، رهبة، رهبة جداً، ولا سيما لأنني كنت أعياها. فلما رجعت إلى بيتي رقدت في فراشي مرتعشاً من الحمى، واعترايني رعب بلغ من القوة أنني صرت لا أكره البنت. لقد صرت لا أريد أن أقتلها، وتلك هي بعينها الفكرة التي انبجست في نفسي وأنا

أعبر نهر فونتانكا. وعندئذ إنما أدركت أول الأمر أن الخوف حين يكون قوياً يطرد الكره بل يطرد كل رغبة في الانتقام.

"استيقظت في نحو الظهر، مرتاحاً بعض الراحة، بل مدهوشاً من شدة العواطف التي شعرت بها في الليلة البارحة. خجلت من أنني أردت أن أقتل. ومع ذلك كنت معتكر المزاج. ورغم اشمئزازي كله ونفوري كله اضطررت أن أذهب إلى جوروخوفايا. أذكر أنني كنت أتمنى حينذاك لو أشاجر أحداً، لو أشاجر أحداً مشاجرة خطيرة حقاً. ولكنني حين دخلت غرفتي في جوروخوفايا وجدت فيها نينا سافليفا، الخادمة التي كانت تنتظرنني هناك منذ ساعة. كنت لا أحب تلك الفتاة بتاتاً، وكانت قد جاءت على شيء من الخشية، فهي تخاف أن تسوءني زيارتها. كانت تجيء دائماً على هذه الخشية. ولكن أسعدني كثيراً أن أراها، فسرها ذلك سروراً عظيماً وافتننت به افتتاناً كبيراً. لم تكن ديمة. ثم إنها كانت متواضعة وكانت تملك تلك الآداب التي يقدرها البرجوازيون الصغار قدراً عظيماً. ولذلك كانت صاحبة البيت تمدحها لي مدحاً كثيراً منذ مدة طويلة. وجدتهما تشربان القهوة، وكانت صاحبة البيت تبدو نشوى بالحديث الممتع. وفي ركن من الغرفة الثانية لمحت ماتريوشا: كانت واقفة تتفرس خفية في أمها والزائرة. فلما دخلت لم تختبئ كما فعلت في المرة السابقة، ولم تهرب. هذه نقطة أتذكرها واضحة، لأنها خطفت اهتمامي. وقد لاحظت من النظرة الأولى أنها نحلت نحولاً شديداً، وأنها تبدو مصابة بحمى. لاطفت نينا ملاطفة كبيرة، فلما تركتني كانت سعيدة كل السعادة. وقد خرجنا معاً. ولم أعد إلى جوروخوفايا بعد ذلك مدة يومين. لقد شبعنا منها، ولكنني كنت ضجراً. "وأخيراً قررت أن أنهى كل شيء دفعة واحدة، وحتى أن أغادر بطرسبرج إذا لزم الأمر. ولكن حين ذهبت إلى جرورخوفايا لأعلن عن سفري وجدت صاحبة البيت في ألم شديد وانفعال قوي: لقد كانت ماتريوشا مريضة منذ ثلاثة أيام، وكانت تهذي كل ليلة. وما لبثت طبعاً أن سألت عما تقوله أثناء الهذيان، (كنا نتحدث بصوت خافت جداً في غرفتي). فدمدمت الأم تقول لي إن ابنتها تنطق بأمر فظيعة، فهي تقول مثلاً: "سيعيننا الله. سيذهب عنها

المرض من تلقاء نفسه. ثم إنها لا تبقى راقدة طوال الوقت. لقد أرسلتها منذ قليل في شراء شيء من الأشياء". قررت أن أرى ماتريوشا على انفراد. وإذا كان قد أفلت من لسان صاحبة البيت أثناء حديثي معها أنها مضطرة أن تذهب في المساء إلى الضاحية، فقد قررت أن أرجع في المساء. وكنت على كل حال لا أدري على وجه الدقة لماذا أعود وماذا أريد أن أفعل إذ أعود.

"تغديت في المطعم، ثم عدت في الساعة الثامنة والرابع. وأنا أدخل دائماً بعد أن أفتح الباب بمفتاحي. كانت ماتريوشا وحيدة. وكانت راقدة وراء حاجز على سرير أمها. وقد لاحظت أنها قدمت رأسها لترى من الداخل، ولكنها لم تتظاهر بشيء. كانت النوافذ مفتوحة. وكان الهواء حاراً بل حارقاً. تقدمت بضع خطوات ثم جلست على الديوان. إنني أتذكر كل شيء إلى آخر دقيقة. شعرت برضى كبير لأنني لم أكلّم ماتريوشا، بل جعلتها تنتظر في غير طائل، لا أدري لماذا! لبثت على هذه الحال ساعة كاملة. وإنني لكذلك إذ سمعتها تنهض فجأة وراء الحاجز. سمعت اصطدم قدميها بأرض الغرفة حين نهضت، ثم سمعت وقع بضع خطوات سريعة، ثم إذا هي تظهر في عتبة غرفتي. ما أحقرني! لقد بلغت من الحقارة أنني أسعدني أن أكون قد صمدت هذا الصمود. آه! ما كان أدناً هذا، وما كان أذلني! كانت واقفة تنظر إلي في صمت. حقاً لقد نحلت نحولاً رهيباً بعد اليوم الذي رأيته فيها في آخر مرة من كذب. كان وجهها كاليابس، ولا شك أن جبينها كان يحترق. إن عينيها اللتين أصبحتا كبيرتين تنفرسان فيّ باستطلاع مبهوت في ما بدا لي أول الأمر. لبثت جالساً لا أتحرك. ومن جديد شعرت بالكره. لكنني لم ألبث أن لاحظت أن ماتريوشا لم تكن خائفة مني البتة، وأنها لعلها كانت في حالة هذيان. وأخذت تهزّ رأسها على حين فجأة، كما يفعل الأناس السذج الذين لا يتصنعون ولا يتكلفون، إذا هم أرادوا أن يلوموا أو يعتبروا. ثم رفعت إصبعها الصغير بغتة وهددتني بها من بعيد. بدت لي هذه الحركة في أول الأمر مضحكة، ولكنني لم أطق صبراً عليها في النهاية، وأصبحت لا أستطيع احتمالها. نهضت بقوة واقتربت منها مرتاعاً. كان وجهها يعبر عن يأس يشق على المرء أن يراه في مخلوق صغير مثلها. استمرت تهددني بإصبعها وتهزّ

رأسها عاتبة. كلمتها يرفق وحذر، بصوت خافت، برقة وعذوبة، لأنني كنت خائفاً. لكنني رأيت على الفور أنها كانت لا تستطيع أن تفهم عني، فازداد رعبي. ولكنها أسرع تغطي وجهها بيديها كما فعلت في المرة السابقة، ومضت نحو النافذة مديرة لي ظهرها. فتحولت حينذاك أنا أيضاً، وجلست بقرب النافذة. لا أستطيع بتاتاً أن أفهم لماذا لم أخرج وبقيت مرتقباً هناك. كنت إذاً أنتظر شيئاً بالفعل. وربما كان يمكن أن أمكث زمناً طويلاً في ذلك المكان، لأقتلها بعدئذ كمدأ ويأساً، بغية أن أفرغ من الأمر مرة واحدة بطريقة من الطرق.

"ولكنني لم ألبث أن سمعت خطواتها السريعة من جديد. لقد خرجت من الباب الذي يفضي إلى رواق خشبي يصل منه المرء إلى السلم. فاقتربت من الدرايزين بسرعة، واستطعت أن ألمحها تدخل حجرة صغيرة هي ضرب من قن للدجاج إلى جانب مكان آخر. فلما عدت أجلس بقرب النافذة تسلفت إلى ذهني فكرة غريبة: إنني لا أستطيع إلى الآن أن أفهم لماذا وافتني هذه الفكرة بعينها ولم توافني فكرة أخرى غيرها قبل كل شيء. كان كل شيء إذاً ينصب في ذلك الأمر. واضح أنني لم أكن أستطيع بعد أن أصدق ذلك الأمر، "ومع ذلك..." . إنني أتذكر كل شيء تذكراً كاملاً. كان قلبي يخفق. وبعد قليل نظرت في ساعتني من جديد، فعرفت الوقت على وجه الدقة. ما كانت حاجتي لمعرفة الوقت؟ - لا أدري. غير أنني كنت في تلك اللحظة أريد أن ألاحظ كل شيء. إنني أتذكر إذاً كل شيء تذكراً واضحاً جداً، وأرى كل شيء كأنه مائل أمامي. كان المساء يهبط. وكانت ذبابة تدندن حولي، ولا تنفك تجيء إلي فتحط على وجهي. قبضت عليها، وأمسكتها بأصابعي بضع لحظات، ثم تركتها تطير من النافذة. ودخلت عربة شحن إلى فناء المنزل مقرقة. وكان أجير خياط يغني ملء حلقه (منذ مدة طويلة) بقرب نافذته في زاوية من الفناء. كان يعمل وكنت أستطيع أن أراه من مكاني. خطر ببالي أن أحداً لم يلقني حين اجتزت الفناء وصعدت السلم، فمن الأفضل حتماً إذاً أن لا يلقاني أحد كذلك حين أخرج. لذلك أبعدت كرسي عن النافذة بحذر، وجلست بحيث لا يستطيع الجيران أن يروني. آه... ما كان أحقرني! تناولت

كتاباً، ثم رميته، وأخذت أرقب حركات عنكبوت صغير أحمر كان على ورقة نبتة من النباتات التي تزين النافذة. ونسيت نفسي خلال لحظة من الزمن. لكنني أتذكر اليوم كل شيء.

"استللت ساعتى بسرعة ونظرت فيها. كان قد مضى على خروجها ثلاثون دقيقة. لكنني قررت أن أنتظر ربع ساعة أخرى تماماً. أمهلت نفسي هذه المرة. خطر ببالي أن من الممكن أن تكون قد رجعت ولم أسمعها. ولكن هذا كان مستحيلاً. الصمت الآن يشبه صمت الموت، فلو طارت ذبابة لكنت سمعتها. وفجأة جعل قلبي يخفق خفقاناً شديداً مرة أخرى. نظرت في ساعتى: لا يزال هناك ثلاث دقائق. بقيت جالساً رغم أن قلبي خفق خفقاناً موجعاً. ونهضت أخيراً، فوضعت قبعتى على رأسي، وعقدت أزرار معطفي، وفحصت الغرفة: هل خلفت فيها أي أثر يدل على أنني مررت فيها؟ وقربت الكرسي من النافذة ووضعت في المكان الذي كان فيه عند وصولي تماماً. وأخيراً فتحت الباب، ثم أفقلته بالمفتاح في رفق، واتجهت نحو الحجرة الصغيرة. كان بابها مغلقاً، لكنه لم يكن مقفلاً بالمفتاح. كنت أعرف ذلك حق المعرفة، غير أنني لم أشأ أن أفتحه. نهضت على رؤوس أصابع القدمين ونظرت من شق في أعلى الباب. وفي تلك اللحظة نفسها التي انتصبت فيها على رؤوس أصابع القدمين تذكرت أنني حين كنت جالساً بقرب النافذة أنظر إلى العنكبوت كنت أتصور في الواقع كيف سأنتصب على رؤوس الأصابع وكيف سأنظر من شق الباب كما أفعل الآن. أذكر هذا الأمر التفصيلي لأنني أحرص على أن أبين أنني كنت مالكاً قواي العقلية بكاملها، وأنني لست مجنوناً البتة وأنني مسؤول عن أفعالي. نظرت من شق الباب مدة طويلة، لأن الحجرة كانت مظلمة. لكن الظلام فيها لم يكن ظلاماً تاماً، فاستطعت أن أرى ما كنت أريد أن أراه...

قلت لنفسي حينذاك إنني أستطيع أن أمضي، وهبطت السلم. لم ألتق بأحد. ولم يستطع أحد إذاً أن يدلي بأقوال تشهد علي في ما بعد. وما انقضت ثلاث ساعات حتى كنا في بيتي نلعب جميعاً بالورق ونحتسي الشاي. كان لبياديين يقرأ أشعاراً ويروي أنواعاً من الأقاصيص، ويحكي نكات مضحكة

بمصادفة يشبه أن تكون عمداً، وذلك بدلاً من السخافات التي كان يغمرنا بها في العادة. وكان كيريلوف حاضراً كذلك. ولم يكن أحد يشرب خمر، رغم أن زجاجة من الروم كانت على المائدة. لبياديين وحده شرف الزجاجة وقال بروخور مالوف: "حين يكون نيقولا يفسيفولودوفتش مسروراً رائق المزاج فإن عصبتنا كلها تكون مرحة، وتجيد الحديث. "لاحظت أنا هذه الجملة. لقد كنت إذاً مرحاً مسروراً، رائق المزاج، وكنت أقول أشياء مسلية. لكنني أتذكر أنني كنت أعلم كل العلم أن فرحي بالخلاص يقوم على حقارة دنيئة، وأنني لن أستطيع بعد اليوم أن أشعر بأنني نبيل، لا على هذه الأرض، ولا في حياة أخرى، أبداً. شيء آخر أيضاً: لقد أدركت في تلك اللحظة معنى المثل اليهودي: "المرء لا يشم نتانة رائحته". كنت أشعر شعوراً كاملاً بأنني شقي، ولكنني لم أكن أحس من ذلك بخجل، وكنت على وجه الإجمال لا أتكلم كثيراً. وفي تلك اللحظة، بينما كنت أحتسي الشاي وأثرثر مع عصبتي إنما استطعت أن أدرك إدراكاً واضحاً جداً، أول مرة في حياتي، أنني لا أفهم "الخير" و"الشر" ولا أحسهما، وإنني لم أفقد الشعور بهما فحسب، بل إن الخير في ذاته والشر في ذاته لا وجود لهما (وقد أمتعني هذا كثيراً)، وإنهما ليسا إلا وهمين من الأوهام الاجتماعية، وأنني أستطيع حتماً أن أتححر من كل وهم اجتماعي، ولكنني إذا بلغت هذه الحرية فقد هلك. أدركت ذلك كله أول مرة، في صيغة واضحة، أمام مائدة الشاي تلك، بينما كنت أمزح وأضحك مع رفاقي لا أدري بأية مناسبة. ولكنني أتذكر كل شيء. إنه يتفق كثيراً لأفكار قديمة يعرفها جميع الناس، أن تظهر جديدة طريفة على حين فجأة.

• ومع ذلك لم أنقطع عن انتظار شيء ما. وفعلاً، في نحو الحادية عشرة من المساء، رأيت ابنة البواب التي أرسلتها صاحبة بيتي في جوروخوفايا، رأيتها راكضة نحوي لتقول لي إن ماتريوشا شنقت نفسها. فتبعت الفتاة، واستطعت أن أعرف أن صاحبة البيت كانت هي نفسها لا تدرك لماذا استدعيتني. كانت تنتحب وتصرخ كما يفعل أمثال هؤلاء الناس في مثل هذه الظروف. وكان هناك ناس كثيرون، وكان هناك شرطة. قضيت لحظة ثم انصرفت.

لم يزعجني أحد في هذه القضية. ومع ذلك ألقيت علي بضعة أسئلة. ولكنني لم أزد على أن البنت كانت مريضة، وأنها كانت في حالة هذيان، وأنني اقترحت استدعاء طبيب على نفقتي. وحدثوني أيضاً عن المطواة، فقلت إن صاحبة البيت قد جلدت ابنتها، ولكن ذلك ليس له شأن. ولم يعرف أحد أنني عدت في المساء. وهكذا انتهت المسألة.

خلال أسبوع كامل، امتنعت عن العودة إلى جوروخوفايا ثم لم أذهب إلى هناك إلا لأفسخ إيجاري. كانت صاحبة البيت لا تزال تذرف دموعاً غزيرة (وإنني لأتذكر أنني امتنعت من ذلك)، ولكنها كانت قد استأنفت عملها، الخياطة. وقالت لي بدون كبير لوم: "بسبب مطواتك إنما أهنتها". وقد دفعت لها حسابي بحجة أنني لا أستطيع أن أستقبل لينا سافليفنا بعد اليوم في مسكنهم. وأثناء وداعنا أخذت تطري نينا سافليفنا كثيراً من الإطراء أيضاً. وأهديت إليها خمسة روبلات زيادة على ما كنت أدين لها به كراء للغرفة.

كنت في ذلك الأوان أعاني ضجراً يكاد يكون قاتلاً. وكان يمكن بعد زوال الخطر أن أنسى قضية جوروخوفايا نسياناً كاملاً كسائر أحداث تلك الفترة لولا أنني كنت من حين إلى حين أتذكر الرعب الذي أحسست به فأشعر بحرق شديد، وأصب غضبي على من يعرض لي مصادفة. وفي ذلك الأوان إنما خطر ببالي - ولكن من دون أي باعث - أن أفسد حياتي أغبى إفساد ممكن. كنت قبل ذلك بسنة أفكر في إطلاق الرصاص على رأسي. ولكن وسيلة أفضل من تلك الوسيلة كثيراً تعرض لي الآن. ففي ذات يوم، رأيت ماريا تيموفتشنا لييا دكين، العرجاء، منهمكة في خدمة البيت فساورتني هذه الفكرة، وهي أن أتزوجها. لم تكن قد أصبحت مجنونة بعد، ولكنها كانت بلهاء نشوى دائماً، وقد اكتشف رفاقي أنها كانت تحبني في الخفاء حباً جنونياً. إن فكرة زواج يتم بين رجل من آل ستافروجين وبين هذه المخلوقة الشهواء قد أثارت أعصابي إثارة لذيذة. لا يمكن أن يتصور المرء شيئاً أسخف من هذا ولا أغبى ولا أدعى إلى الضحك. لكنني لا أستطيع أن أعرف هل كان قراري الذي اتخذته يرجع ولو على غير شعور مني (على غير شعور، هذا

أكيد) إلى الحق الذي ملأني به حقداً على نفسي ذلك الخوف الوضع الذي شعرت به في قضية ماتريوشا. حقاً إنني لا أتصور هذا. مهما يكن من أمر فإن هذا الزواج لم يكن فقط "ثمرة رهان تم بعد عشاء تخلله شراب كثير". وقد كان "شهودي" كيريلوف وبطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي الذي كان ماراً يومئذ ببطرسبرج، ثم لبيادكين نفسه، وبروخورومافلوف (الذي توفي بعد ذلك). وعدا هؤلاء لم يعلم أحد بشيء، وقد قطعوا لي على أنفسهم عهد الشرف ليكتمن الأمر. إن هذا الكتمان قد بدا لي دائماً دناءة. ولكن السر لم يكشف حتى الآن، ولم أكن عازماً على أن أعلن كل شيء. فأنا الآن أعلن إذاً هذا الزواج. وبعد الزواج ذهبت إلى أمي في الريف. إنني أذهب إلى هناك لأسري عن نفسي، لأن الحياة أصبحت في نظري لا تطاق. وقد أحس الناس في مدينتنا بأنني مجنون، ولا يزال هذا الإحساس قائماً في نفوسهم إلى الآن، وذلك أمر قد يؤذيني كثيراً، كما سأشرح ذلك. وسافرت بعدئذ إلى الخارج وغبت أربع سنين.

زرت الشرق، وشهدت على جبل أثوس قدايس دينية كانت تدوم ثمانين ساعات. وذهبت إلى مصر، وإلى سويسرا، وحتى إلى آيسلندا. وتابعت خلال سنة من السنين محاضرات جامعة غوتنغن. وفي أثناء السنة الأخيرة من إقامتي في الخارج أصبحت بباريس صديقاً لأسرة روسية رفيعة المنزل، وأصبحت بسويسرا صديق فتاتين روسيتين. وحين مررت بمدينة فرنكفورت منذ سنتين أبصرت في واجهة إحدى المكتبات، بين صور فوتوغرافية كثيرة، صورة بنت أنيقة الملابس، لكنها تشبه ماتريوشا كثيراً. اشتريت الصورة فوراً، حتى إذا عدت إلى الفندق وضعتها على المدفأة. وظللت لا ألمسها أسبوعاً بحامله، بل إنني لم ألق عليها نظرة واحدة، وحين غادرت فرنكفورت نسيت أن أخذها.

إنني أذكر هذه الواقعة لأبين مدى ما كنت أتمتع به من قدرة على السيطرة على ذكرياتي، ومدى ما كنت أتصف به من عدم الاكتراث بها. كنت أنبذها كلها في آن معاً، دفعة واحدة، وكانت كتلتها كلها تغيب فوراً متى أردت ذلك. كان يضجرني دائماً أن أذكر الماضي، ولم أستطع في يوم من الأيام

أن أتحدث عن الماضي طويلاً كما يفعل جميع الناس تقريباً. وفي ما يتعلق بماتريوشا، نسيت حتى صورتها على المدفأة.

منذ سنة، في الربيع، بينما كنت مسافراً إلى ألمانيا، تجاوزت من ذهولي المحطة التي كان يجب أن أنزل فيها لأركب قطاراً آخر. وتوقفت في المحطة التي بعدها. كانت الساعة هي الثالثة بعد الظهر. وكان النهار واضحاً نيراً. هي مدينة ألمانية صغيرة جداً. دلوني على فندق. كان ينبغي أن أنتظر: إن القطار التالي لا يصل إلّا في الساعة الحادية عشرة من المساء. سرتني هذه المغامرة، فلا شيء كان يحضني على السرعة. الفندق سيئ صغير، ولكنه محاط من جميع الجوانب بأشجار وأحواض أزهار. أعطيت غرفة صغيرة ضيقة. وأصبت غداء طيباً. ولأنني كنت قد قضيت الليل كله في القطار فقد نمت نوماً عميقاً حتى الساعة الرابعة بعد الظهر.

رأيت حلماً لا أتوقع أن أرى مثله البتة. ذلك أنني لم يسبق لي أن رأيت أحلاماً كهذه الأحلام. إن أحلامي تكون سخيفة أو رهيبة على الدوام. كان متحف درسدن يضم لوحة للرسام كلود لورين عنوانها "آسيس وغالاتيه" في ما أظن. وكنت أنا أسميها "العصر الذهبي"، لا أدري لماذا! كنت قد لاحظت هذه اللوحة منذ مدة طويلة، وكنت قد رأيته مرة أخرى منذ ثلاثة أيام. بل لعلني ما ذهبت إلى درسدن إلّا لهذا الغرض. فهذه اللوحة هي ما رأيته في الحلم، ولكنني لم أراه في الحلم لوحه، وإنما رأيته واقعاً كان، كما هو في اللوحة، ركناً من الأرخييل اليوناني، وكنت أنا فيما يبدو قد تقهقرت في الزمان أكثر من ثلاثة آلاف عام. أمواج زرق لعوب، جزر وصخور، شطآن مزدهرة. وفي بعيد، منظر فاتن، منظر نداء الشمس الغاربة... إن الألفاظ عاجزة عن وصف ما رأيته. ههنا مهد الإنسانية. أفعمت هذه الفكرة نفسي بحب أخوي. هذه هي الجنة الأرضية. الآلهة تنزل من السماء وتتحد بالبشر. هنا جرت أول مشاهد الأساطير الإغريقية. هنا كانت تعيش إنسانية جميلة. البشر يستيقظون وينامون سعداء أبرياء. الغابات تدوي بأغانيهم الجذلى. فائض قواهم الغزيرة ينسكب حباً وفرحاً بريثاً. وكنت أنا أحس هذا، وأدرك في الوقت نفسه المستقبل العريض الذي ينتظرهم ولا يخطر لهم ببال، فقد

كان قلبي يرتعش لهذه الأفكار. آه... ما كان أعظم سعادتي بأن قلبي يرتعش، وبأنني أصبحت قادراً على أن أحب في آخر الأمر! كانت الشمس تسكب أشعتها على الجزر وعلى البحر وتبهج بأبنائها الجميلة. رؤيا رائعة! رؤيا بديعة! حلم هو أبعد الأحلام استحالة، ولكن الإنسانية وهبت له جميع قواها، وضحت من أجله بكل شيء. باسمه مات بعضهم على الصليب، وفي سبيله قتل الأنبياء، وبدونه لا تود الشعوب أن تحيا، ومن غيره لا تستطيع حتى أن تموت. وهذا كله قد عشته في حلمي. لا أدري على وجه الدقة ماذا رأيت. الأصح أن الأمر كان إحساساً لا رؤيا. غير أن الصخور والبحر والأشعة المائلة التي كانت ترسلها الشمس الغاربة - ذلك كله كان لا يزال يبدو لي أنني أراه حين استيقظت وفتحت عينيّ اللتين كانتا مبتلتين بالدموع أول مرة في حياتي. إن الإحساس بسعادة مجهولة قد شق قلبي، حتى لقد كنت من ذلك في ألم. وكان الوقت مساء. ومن خلال خضرة الأزهار التي كانت تزيّن النافذة، كانت الشمس ترشق غرفتي بحزمة مائلة من أشعة حارة، وتغسلني بالضياء. أسرعرت أغمض عيني كأنني أحاول أن أستعيد الحلم الغائب ولكنني ما لبثت أن ميزت فجأة في وسط الضوء الساطع القوي نقطة صغيرة حمراء. على هذا النحو إنما بدأ الأمر. وفجأت تذكرت العنكبوت الأحمر الصغير. رأيته كما سبق أن تأملته فوق ورقة الزهر بينما كانت الشمس تلقي أشعتها المائلة في تلك اللحظة. نفذ في نفسي شيء حاد. نهضت جالساً على السرير. هكذا تماماً جرت الأمور.

رأيت أمامي (أوه! لا في الواقع! وليت ذلك كان شبحاً يمكنني أن أخاطبه) رأيت ماتريوشا مهزولة محمولة العينين، تماماً كما كانت حين وقفت في عتبة غرفتي، وهزت رأسها وهددني بإصبعها الصغيرة. ما من شيء ألمني في حياتي يوماً كما ألمني هذا. يأس يثير الشفقة ويبعث على الأسى، لدى مخلوقة صغيرة عاجزة لا يزال عقلها لا شكل له، تهددني (بأي شيء؟ ماذا كانت تستطيع أن تصنع بي؟) ولكنها حتما لا تنهم إلا نفسها. لم يسبق أن حدث لي شيء شبيه بهذا في يوم من الأيام. لبثت جالساً طوال الليل لا أتحرك، فاقداً إحساسي بالزمن. أود الآن لو أشرح لنفسي ما جرى، بأقصى

وضوح ممكن. أكان هذا ما يسمى عذاب الضمير، والندامة؟ ما زلت أجهل ذلك حتى اليوم. والشيء الذي لا أطبق احتماله الآن، إنما هو تلك الرؤية، رؤية البنت في عتبة الباب، رافعة قبضة يدها الصغيرة، مهددة متوعدة. تلك هي الدقيقة التي تعذبني، لا ما قبلها ولا ما بعدها. لا شيء إلا مظهر البنت في تلك اللحظة، لا شيء إلا تلك اللحظة، لا شيء إلا هزّ البنت رأسها على تلك الصورة. إن تلك الحركة، حركة التهديد عينها، أصبحت لا تبدو لي الآن مضحكة بل فظيعة. إنني أحس نحو البنت بشفقة حادة، شفقة تذهب بعقلي وتجعلني كالمجنون. وإنني لمستعد أن أسلم جسمي لجميع أنواع التعذيب في سبيل أن لا يكون قد حدث ذلك الأمر في ذلك اليوم. ليست جريمتي هي ما آسف له وأندم عليه، لا ولا موت الطفلة. ولكن تلك اللحظة، تلك اللحظة بعينها، هي ما يستحيل علي احتماله استحالة مطلقة، لأنني منذ ذلك الحين أصبحت تظهر لي كل يوم، وأنا أعلم الآن علم اليقين أنني هالك. هي لا تظهر لي من تلقاء ذاتها، وإنما أنا أستحضرها، ولكن يستحيل علي ألا أستحضرها، رغم أن هذا يجعل حياتي مستحيلة. آه... ليتني أستطيع أن أراها مرة أخرى في الواقع، ولو هلوسة! أود لو تنظر إلي ولو مرة واحدة، كما فعلت في ذلك اليوم، بعينيها الواسعتين المحمومتين، أود لو تحدّق إلى عيني... فترى فيهما... آه!... ما أغبى هذا الكلام! فلن يحدث هذا في يوم من الأيام!

لماذا لا توقظ في نفسي أية ذكرى من ذكرياتي شيئاً شبيهاً بهذا؟ ما أكثر ذكرياتي مع ذلك... بل إن بينها ذكريات أسوأ من تلك في نظر الإنسان. ومع ذلك لا توقظ في نفسي إلا شيئاً من كرهه في أسوأ تقدير، وهو من جهة أخرى كره تولّده حالتي الراهنة. كنت في الماضي أنسى تلك الذكريات بهدوء كامل، وأبعدها جميعاً، وكنت أنعم باطمئنان أصطنعه اصطناعاً.

ظللت بعد ذلك أطوف سنة كاملة، محاولاً أن أشغل نفسي. أنا أعلم أنني ما زلت أستطيع أن أنحي صورة البنية حين أريد. إنني سيد إرادتي، لي عليها سلطة كاملة، كما كنت دائماً. ولكن المسألة كلها هي أنني لم أشأ أن أفعل ذلك في يوم من الأيام، وإنني في قرارة نفسي لا أريد ذلك ولن أريده.

وسيدوم هذا إلى أن أجن جنوناً تاماً.

في سويسرا، بعد شهرين (لعل ذلك كان رداً من الجسم الذي كان يكافح رغم كل شيء من أجل أن يحيا)، اعترتني من جديد نوبة من نوبات الهوى العارم، أو انتابني سورة شبيهة بتلك السورات المجنونة التي عرفتھا في شبابي. لقد شعرت بانجذاب إلى اقتراف جريمة جديدة هي أن أتزوج امرأة ثانية فوق زوجتي (ذلك أنني كنت متزوجاً)، لكنني لذت بالفرار عملاً بنصيحة فتاة أخرى أفضيت إليها بأمری، وإنني على وجه الإجمال لا أستطيع أن أحب أحداً قط، وأن نفسي لا يعتمل فيها شيء غير الشهوة. مهما يكن من أمر، فإنني لو اقترفت تلك الجريمة الجديدة لما كان يمكن أن تخلصني من ماتريوشا أبداً.

لذلك قررت أن أطبع هذه الصفحات، وأن أدخل منها إلى روسيا ثلاثمائة نسخة. فمتى حان الحين، أرسلتها إلى الشرطة، إلى السلطات المحلية. بل إنني سوف أرسلها في الوقت نفسه إلى إدارات تحرير جميع الصحف راجياً منها أن تنشرها، كما سوف أرسلها أيضاً إلى معارفي الكثيرين في بطرسبرج وفي روسيا كلها. وسوف تنشر هذه الصحائف مترجمة في الخارج.

أنا أعلم أنني قد لا يزعجني القضاء، أو أنني قد لا يزعجني كثيراً. فأنا أتهم نفسي، ولا أحد يتهمني. وعدا ذلك ليس هناك أدلة، أو ليس هناك إلا أدلة قليلة جداً. ثم إن كثيراً من الناس يعتقدون أنني مختل العقل. ومن المؤكد أن أهلي سيبدلون جهودهم ليستفيدوا من هذا الرأي، وليلغوا بذلك كل ملاحظة قضائية خطيرة. أقول ذلك لأبرهن برهاناً جديداً على أنني أملك عقلي كاملاً، وإنني أدرك الوضع الذي أنا فيه. ومع ذلك سيبقى هنالك الناس الذين سيعرفون كل شيء، وسينظرون إلي، وسأنظر إليهم أيضاً. أريد أن ينظر إليّ جميع الناس. ترى هل يخفف هذا عني؟ لا أدري! ولكن ذلك أمني الوحيد.

مرة أخرى: إذا أحسن البحث في محفوظات شرطة بطرسبرج، فقد يكتشف شيء ما. لعل تلك الأسرة لا تزال في بطرسبرج. وسوف يُذكر المنزل حتماً: لقد كان لونه أزرق شاحباً. أما أنا فلن أبتعد، وسأقيم في

سكفور شنيكي، الأطيان التي تملكها أمي، سنة أخرى أو ستين آخرين. وإذا طلب مني أن أحضر إلى أي مكان، فسأحضر.

"نيقولاى ستافروجين"

دامت القراءة قرابة ساعة. كان تيخون يقرأ قراءة بطيئة، بل لعله كان يعيد قراءة بعض الفقرات. ومنذ الانقطاع الذي أحدثه ستافروجين إذ نحى الصحيفة الثانية جانباً، كان ستافروجين يجلس ساكناً صامتاً، مستنداً بظهره إلى مسند الديوان، وكان يبدو عليه الانتظار. نزع تيخون نظارتيه عن عينيه، وتلبث لحظة، ثم ألقى على ستافروجين نظرة مترددة. فارتعش ستافروجين، ومال بحركة سريعة إلى أمام.

قال بلهجة مباغته جافة:

- نسيت أن أنبهك إلى أن جميع أقوالك ستكون عبثاً لا طائل منه. إنني لن أغير ما عقدت عليه نيتي. فلا تضع وقتك محاولاً أن تثنييني عن عزمي. سوف أطبع هذه الصحائف.

واحمر وجهه وصمت.

- لم يفتك أن تنبهني إلى ذلك قبل القراءة.

كان في لهجة تيخون شيء من حنق. واضح أن "الوثيقة" قد أحدثت في نفسه أثراً قوياً. لقد جرح شعوره المسيحي، وهو لا يقدر دائماً أن يسيطر على نفسه. يجب أن ألاحظ في هذه المناسبة أن السمعة التي اكتسبها، وهي "أنه لا يحسن التصرف مع الناس"، كما كان يقول عنه الرهبان، لم تكن باطلة. فرغم كل ما يملكه من روح المحبة كان في صوته استياء واضح.

تابع ستافروجين كلامه بلهجة قاطعة، من دون أن يلاحظ ما طرأ على تيخون من تغير، فقال:

- طيب. إنني لن أعدل عما عقدت النية عليه مهما تكن حججك قوية. لاحظ أنني حين أقول هذه الجملة البارة - أو الخرقاء إن شئت - لا يخطر ببالي أن أتخذها وسيلة لإثارة حججك واستدراج رجائك.

قال ستافروجين هذه الكلمات الأخيرة وضحك ضحكة ساخرة.

قال تيخون:

- لا أستطيع أن أناقشك ولا أن أطلب منك العدول عما عزمت عليه. إن ما تنتويه شيء نبيل جداً، ومن المستحيل أن يعبر المرء عن فكرة مسيحية حقاً، تعبيراً أفضل. إن الكفارة لا يمكن أن تمضي إلى أبعد من هذا: إنه لعمل رائع أن يعاقب المرء نفسه كما تنتوي أن تفعل، إذا...

- إذا؟

- إذا كان ذلك كفارة حقاً، إذا كان فكرة مسيحية فعلاً.

- دمدم ستافروجين يقول واجماً ذاهلاً:

- هذه حذقات...

ونهض وأخذ يذرع الغرفة ذاهباً آيماً، حتى من دون أن يلاحظ ما يفعل.

وتجراً تيخون فقال:

- يبدو لي أنك تعمدت أن تصور نفسك أسوأ من حقيقتك، وأسوأ مما

يريد قلبك أن تكون.

- أصور نفسي؟ أنا "لم أصور نفسي"، أنا لم أكن ألعن. "أسوأ"! ما معنى

كلمة "أسوأ" هذه؟

واحمر وجهه من جديد. وأحقنه ذلك. فقال مشيراً إلى الصحائف:

- أنا أعلم أن هذا أمر صغير، تافه، حقير، ولكن يجب أن يدفع صفاره

نفسه إلى تعمق...

وأمسك عن إتمام كلامه فجأة كأنه خجل أن يستمر، وكأنه رأى أن من

المذلة أن يسترسل في شروح. ولكنه في الوقت نفسه كان ينصاع انصياعاً

اليماء، ولو على غير شعور منه، لضرورة أن يشرح ما بنفسه. يجب أن نلاحظ

أنه ما من كلمة قيلت عن احتجاز الصحيفة الثانية. فكأن هذه الصحيفة الثانية

قد نسيها الرجلان كلاهما. وكان ستافروجين قد توقف بقرب مائدة الكتابة

وها هو ذا يتناول عن المائدة صليباً من عاج، ويأخذ يقلبه بين أصابعه، ثم إذا

هو يكسره نصفين على حين فجأة. واعتزته عندئذ دهشة، وثاب إلى رشده،

فألقي على تيخون نظرة مضطربة حائرة. ولكن شفته العليا أخذت تختلج

بغته، كأنه أهين، وكأنه يتهياً لأن يرشق خصمه بتحد متكبر. قال بصوت

خافت، كأنه يبذل جهداً كبيراً من أجل أن يسيطر على نفسه:

- كنت أفترض أنك ستقول لي شيئاً فيه جد. ومن أجل هذا إنما جئت.
ورمى حطام الصليب على المائدة.
فأسرع تيوخون يخفض عينيه. وقال يسأل ستافروجين بإلحاح ربما يشبه
أن يكون حماسة حارة:

- إن هذه الوثيقة تعبر تعبيراً مباشراً عن حاجة قلب يشكو من جرح قاتل.
أليس هذا ما يجب أن أفهمه؟ نعم، إنه الحاجة الطبيعية إلى التوبة والكفارة.
لقد استولت عليك هذه الحاجة. فالألم الذي سببته للمخلوقة التي آذيتها
وأهنتها قد بلغ من التأثير فيك أن المسألة عندك الآن أصبحت مسألة حياة
أو موت: فلا يزال هناك إذاً أمل لك، وأنت تسير في الطريق القويم إذ تهيم
نفسك لقبول العقاب والعار أمام جميع الناس. وإنك تحتكم إلى الكنيسة،
وإن كنت لا تؤمن بالكنيسة. هل صدق فهمي؟ ولكن يبدو أنك منذ الآن
تكره وتحتقر جميع أولئك الذين سيقراؤن هذا النص. يبدو أنك تتحداهم.
- أنا؟ أتحدى؟

- نعم، تخجل، وتخاف.
- أخاف؟

قال ستافروجين ذلك وضحك ضحكة متشنجة، وعادت شفته العليا
تختلج. أجاب تيوخون:
- أنت تقول: ألا فلينظروا إلي! ولكن كيف عساك تنظر أنت إليهم! إنك منذ
الآن تنتظر كرههم لترد عليه بكره أكبر منه. إنك كمن يتباهى بسيكولوجيته،
وإنك تستفيد من أتفه الأشياء لتدهش القارئ بانعدام إحساسك، وشدة
استخفافك واستهتارك وما إلى ذلك مما قد لا يكون له وجود في نفسك.
ومن جهة أخرى فإن الأهواء الفاسدة والفراغ والبطالة قد جعلتك فعلاً
منعدم الإحساس وغيباً.

قال ستافروجين وهو يضحك ضحكاً ساخراً وقد اصفر وجهه:
- ما الغباء برذيلة.

فغضب تيوخون قائلاً بحرارة وجزم:

- بل هو برذيلة أحياناً. إنك وقد جرحتك رؤية البنت في عتبة الباب جرحاً

قاتلاً، تبدو في هذا النص مع ذلك كمن لا يدرك ماذا يجب أن يخجله من الناس الذين يحتكم إليهم: أهو انعدام إحساسه في الجريمة أم هو الرعب الذي اعتراه؟ حتى إنك في لحظة من اللحظات تسرع مؤكداً لقارئك أن حركة التهديد التي أجرتها البنت أصبحت لا تبدو لك مضحكة بل قاتلة. ولكن هل صحيح أنها أمكن أن تبدو لك مضحكة حقاً، ولو لحظة واحدة؟ نعم، لقد بدت لك كذلك، أشهد بهذا.

وصمت تيخون. كان يتكلم كامرئ عدل عن السيطرة على نفسه. استحثه ستافروجين قائلاً:

- تكلم، تكلم. إنك حانق... وإنك تؤنبي. يعجبني هذا من راهب. ولكن إليك ما يدهشني: إننا نتناقش في أمر هذه الصحائف منذ عشر دقائق. ولست أرى فيك رغم تأنيبك أية علامة على الاشتمزاز والشعور بالعار. إنك لست مشمئزاً، وإنك تكلمني كلام الند للند.

كان ستافروجين قد خفض صوته. وكأن هذه الكلمات "تكلمني كلام الند للند" قد انبجست من بين شفثيه من دون أن يفكر في ذلك. فنظر إليه تيخون بانتباه. وقال بعد صمت:

- إنك تدهشني، لأن أقوالك صادقة. أنا أرى ذلك. وفي هذه الحالة أكون أنا المذنب في حقك. فاعلم إذا أنني كنت فظاً قليل الأدب، وكنت مشمئزاً متقززاً، ولكنك من شدة ظمئك إلى التوبة لم تلاحظ ذلك رغم أنك لاحظت نفاذ صبري وهو ما سميته أنت تأنيباً. غير أنك تعد نفسك جديراً باحتقار أعمق من ذلك إلى غير نهاية، ولقد كانت الكلمات التي نطقت بها بدون إرادة منك حين قلت "كلام الند للند" كلمات طيبة جميلة. لا أكتمك أنها ترعيني، هذه القوة الكبيرة العقيمة التي لا تسعى إلى غير التحقق في دناءات. ليس يتحول المرء إلى أجنبي بغير سبب: إن ثمة عقاباً يطارد جميع أولئك الذين يفصلون عن أرضهم، وإن الضجر والسأم والبطالة تحاصرهم حتى ولو أرادوا أن يعملوا. ولكن المسيحية تقبل المسؤولية مهما تكن البيئة التي يعيش فيها المرء. إن الله لم يحرمنا من الذكاء. فكر أنت نفسك: إذا كنت تسأل نفسك أنا مسؤول أم غير مسؤول عن أعمالي، فمعنى ذلك أنك

مسؤول ضرورة. يستحيل أن لا تتسلل الغواية إلى هذا العالم، ولكن ويل للذي به تتسلل. على كل حال، في ما يتعلق بخطيئتك، فإن كثيرين يفعلون ما فعلت، ولكنهم يظلون يعيشون في سلام وهدوء، حتى لتراهم يعدون خطيئات سن الشباب هذه أموراً لا مفر منها. وهناك شيوخ تفوح منهم رائحة القبر منذ الآن، ومع ذلك تراهم يأثمون ويتأسون عن ذلك مرحين. إن العالم زاخر بهذه الفضاعات. أما أنت فقد شعرت بكل ما في ذلك من عمق، حتى لقد بلغت من هذا درجة نادرة كل الندرة.

قال ستافروجين وهو يضحك ساخراً:

أترك أخذت تعتبرني بعد قراءة هذه الصحائف؟ إنك أيها الأب المحترم تيخون - وقد سمعت هذا عنك - لا تصلح أن تكون موجهاً للضمير ومرشداً للوجدان.

كذلك أضاف ستافروجين وهو يجبر نفسه على الابتسام إجباراً. وتابع يقول:

- إنهم ينتقدونك كثيراً هنا. هم يقولون إنك متى اكتشفت في الخاطئ شيئاً من مذلة وشيئاً من صدق، أعجبت به فوراً، حتى لتكاد تبادر إلى الندم وإذلال نفسك أمام من جاءك... تائباً.

- لست مسؤولاً عن هذا مباشرة. ولكن من المؤكد أنني لا أحسن مخاطبة الناس. تلك كانت آفتي دائماً!...

كذلك قال تيخون متنهداً، وقد بلغ كلامه من البساطة أن ستافروجين نظر إليه مبتسماً. وتابع تيخون كلامه وهو ينظر إلى الصحائف:

- أما عن هذه فلا شك أن الجريمة التي ارتكبتها لا تفوقها جريمة في شدتها وفضاعتها.

قال ستافروجين بعد صمت لا يخلو من الغضب:

كفانا قياساً بالأركين. لعل عذابي ألا يكون قوياً إلى الحد الذي وصفته هنا.

وختم كلامه فجأة:

- ولعلني كذلك قد أسرفت في اتهام نفسي.

لم يقل تيوخون شيئاً. وكان ستافروجين يسير في الغرفة طويلاً وعرضاً،
خافضاً رأسه غارقاً في تأمله.

وفجأة سأله تيوخون:

- وتلك الفتاة التي قطعت صلتك بها، أين هي الآن؟

- هنا.

وخيم صمت جديد.

وعاد ستافروجين يقول مكرراً ملحاً:

ولعلني كذبت عليك في شأنها. أنا نفسي لا أعرف معرفة واضحة حتى
الآن... على كل حال، هبني أستفز الناس بوقاحة اعترافي - ما دمت قد
لاحظت استفزازي - ففيم يهمني هذا؟ ذلك ما يجب. إنهم يستحقون هذا
الاستفزاز.

- أي أن كرهك لهم أسهل عليك من قبول شفقتهم.

- أصبت. أنا لم أعتد أن أكون صريحاً، ولكن ما دمت قد بدأت... معك،
فاعلم أنني أحقرهم كما أحقر نفسي سواء بسواء، هذا إن لم أحقرهم أكثر
من ذلك، أكثر من ذلك، أكثر بما لا نهاية له. ما من واحد منهم يستطيع أن
يكون لي قاضياً... لقد كتبت هذه السخافات لأن ذلك خطر بيالي، كتبتها من
باب الاستخفاف والاستهتار. ويجوز كذلك أن أكون قد كذبت لا أكثر، في
لحظة اندفاع.

قطع ستافروجين كلامه حانقاً على حين فجأة، واحمر وجهه من جديد
خجلاً من أنه تكلم بغير إرادته. واقترب من المائدة مديراً ظهره لتيوخون،
وأمسك قطعة من الصليب المحطوم.

وقال تيوخون يسأله:

- أجب عن سؤالي، ولكن بصدق، أجبني أنا وحدي، أو أجب وكأنك
تكلم نفسك في خلوة ليلاً: إذا غفر لك واحد من الناس هذا (وأشار إلى
الصحائف)، لا واحد من الذين تقدروهم أو تخشاهم، بل شخص مجهول،
إنسان لن تعرفه في يوم من الأيام، يغفر لك في صمت، بينه وبين نفسه، أثناء

قراءة اعترافك، فهل يهدئك أن تتصور هذا أم أنت لا تحفل به؟ إذا كان يشق عليك كثيراً أن تجيب عن هذا السؤال من باب الكبرياء، فلا تجب، ولكن فكر فيه بينك وبين نفسك.

قال ستافروجين بصوت خافت:

ذلك يهدئني.

وأضاف يقول بسرعة شديدة، وبصوت يشبه أن يكون دمدمة، ولكن من دون أن يتحول عن المائدة مع ذلك:

- إذا غفرت لي فإن غفرانك سيحسن إلي كثيراً.

- ولكن على شرط أن تغفر لي أنت أيضاً.

- ماذا؟ آ... نعم... هذا تعبيركم في الأديرة. تواضع سيئ! هل تعلم،

إن جميع التعابير القديمة التي تستعملونها في الأديرة ليست جميلة البتة. ولكنكم أنتم تتصورونها جميلة جداً.

قال ستافروجين ذلك وانفجر يضحك ضحكاً حانقاً. ثم أضاف يقول

فجأة وهو يلتفت:

- حقاً لا أدري لماذا أنا هنا. آ... نعم... لقد حطمت... قلبي لي: أحسب

أن هذا يكلف خمسة وعشرين روبلاً، أليس كذلك؟

قال تيخون:

- لا تقلق لهذا الأمر!

- أم هو يكلف خمسين؟ لماذا يجب ألا أقلق لهذا الأمر؟ ما الذي يسوغ

لي أن أجيء إليك فأكسر لك أشياءك، وعلام تغفر لي هذا التخريب؟ خذ!

إليك خمسين روبلاً.

قال ذلك وهو يستل المال من جيبه ويضعه على المائدة. ثم تابع كلامه

يقول:

- إذا لم تشأ أن تأخذها لك فخذها للفقراء، أو خذها للكنيسة.

كان ستافروجين يهتاج مزيداً من الاهتمام شيئاً بعد شيء. وواصل كلامه:

- اسمع. سأقول لك الحقيقة كلها: أريد أن تغفر لي، وأن يغفر لي معك

ثان وثالث، أما الجميع فليكرهوني، فليكرهوني.

- أأنت قادر على أن تتحمل شفقة جميع الناس بمذلة كاملة؟
 - لا، لا أقدر على ذلك. لا أريد شفقة من الجميع. ثم إن هذا سؤال خال من المعنى: فهذه الشفقة لا يمكن أن توجد. اسمع. لا أريد الانتظار. سوف أطيع هذه الصخائف. لا تحاول أن تقنعني. لا أستطيع أن أنتظر. لا أستطيع. كان خارجاً عن طوره.
 قال تيوخون شبه خجلان:
 - إنني أخاف عليك.
 - تخاف علي أن لا أصمد للأمر؟ أن لا أستطيع احتمال كرههم؟
 - لا، لا كرههم فحسب.
 - ماذا إذاً أيضاً؟
 - ... ضحكهم.
 قال تيوخون ذلك بصوت خافت، وكأنه يقول رغم إرادته.
 لم يستطع المسكين أن يكظم ما بنفسه، وأخذ يتكلم في ما كان يحسن السكوت عنه. وكان يعلم حق العلم على كل حال أن الصمت أفضل.
 فاضطرب ستافروجين، وظهر القلق في وجهه. قال:
 - أوجست هذا. إذا كنت أظهر لك شخصاً مضحكاً أثناء قراءةك "النص"؟
 لا تقلق، لا تضطرب، لقد كنت أتوقع ذلك.
 كان تيوخون قد اضطرب حقاً. وحاول أن يشرح معذراً بأقصى سرعة، ولكنه لم يزد على أن أفسد الأمر إفساداً أكبر. قال:
 - لكي يقوم المرء بمثل هذه الأعمال لا بد له من الهدوء النفسي. وحتى في الألم لا بد من الاحتفاظ بقدر كبير من السكينة ورباطة الجأش. وليس الحال كذلك في أيامنا هذه. فالسكينة ورباطة الجأش تعوزان الناس في هذا الزمان. فلا يرى الإنسان في كل مكان إلا مناقشات ومشاجرات. إن البشر لا يتفاهمون الآن أكثر مما كانوا يتفاهمون في عصر برج بابل...
 قال ستافروجين يقاطعه:
 - هذا الكلام كله ممل مضجر! أنا أعرف هذا الكلام. لقد كرره الناس ألف مرة حتى الآن!...

قال تيخون منتقلاً إلى السؤال رأساً:

- على كل حال، لن تبلغ هدفك. إنك من الناحية القضائية لا يمكن أن ينالك أحد تقريباً. ذلك ما سينبهونك عليه قبل كل شيء ساخرين منك متحكمين عليك. وبعدئذ سيحتار كثيرون: من ذا الذي سيفهم الدوافع الحقيقية لاعترافك؟ لسوف يتعمدون ألا يفهمونها، لأنهم يخشون الأعمال التي من هذا النوع. إنهم يستقبلونها في رعب، ويكرهونها ويتقمنون: الناس يحبون وحلهم ولا يريدون أن يحرك. لذلك سيقبلون الأمر مزاحاً بأقصى سرعة. إذ بالأمازيح إنما ينتصر الناس على مثل هذه الأشياء أسهل انتصار.

قال ستافروجين يستحثة:

- تكلم بوضوح. قل كل شيء.

- في البداية سيعبرون عن شعورهم بالهول حتماً، ولكن ذلك سيكون أقرب إلى التظاهر منه إلى الصدق، ولن يكون له هدف إلا إرضاء المواضع الاجتماعية. لا أقصد أصحاب النفوس الطاهرة النقية: فهؤلاء سوف يرتاعون، لكنهم سيتهمون أنفسهم ويصمتون، فلا يلاحظهم أحد. أما الآخرون، أقصد الناس الذين يختلفون إلى المجتمع، فإنهم لا يخشون إلا ما يهدد مصالحهم رأساً. فمتى انقضت الدهشة الأولى، ومتى انقضى الارتياح المصطنع الأول، أخذوا يضحكون. فهؤلاء هم الذين سيضحكون. سيبدو لهم جنونك طريفاً شائفاً جداً. ذلك أنهم سيعدونك مجنوناً، مع استمرارهم في تحميلك قدراً من المسؤولية كافياً للضحك عليك. فهل تراك تحمل هذا؟ ألا يحمل قلبك عندئذ من الكره ما سوف يحطمك تحطيماً؟ ذلك ما أخشاه.

أجابه ستافروجين منزعجاً:

- طيب... وأنت... أنت نفسك... إنني ليدهشني أن يكون رأيك في الناس شيئاً إلى هذا الحد من السوء! إنك تحكم عليهم باشمئزاز شديد.

صاح تيخون يقول:

- صدق إنني إذ أقول عن الناس هذا الكلام إنما أحكم عليهم اعتماداً على معرفتي بنفسي خاصة.

- أياكون في نفسك إذا شيء يمكن أن يتلذذ بعدايبى؟

- من يدري؟ ربما نعم. آ... نعم... جائز جداً.

- كفى! قل لي إذا: ما الذي يبدو لك من وضعي مضحكاً في هذه القصة؟

أنا أعرفه، ولكنني أحب أن تدلني عليه بإصبعك. اذكره لي بأكبر استخفاف ممكن، لأنك إنسان مستخف أعظم الاستخفاف حقاً. إنكم معشر الرهبان مستخفون استخفافاً رهيباً، لا تدرون أنتم أنفسكم مدى ما تحملونه للبشر من احتقار... كلمني بأكبر صدق تقدر عليه. أعود فأقول لك مرة أخرى: إنك إنسان غريب الأطوار جداً.

- ثمة شيء مضحك في نظر الناس، بل شيء زائف أيضاً، حتى في ما

عقدت عليه نيتك من أمر عظيم، أعني قبولك هذه التوبة الرائعة، ناهيك عن شكل هذه النية، وهو شكل مضطرب متردد غير ثابت ثباتاً كافياً.

وصاح يقول فجأة، وهو في ما يشبه النشوة:

- أوه! لا يراودك شك في انتصارك. لسوف ينتصر هذا الشكل...

قال ذلك وهو يشير إلى الصحائف بيده. وتابع كلامه:

- ... ولكن شرط أن ترضي الصفحات والبصقات صادقاً كل الصدق...

وأن تحتملها إلى النهاية. إن أحط صليب ينتهي دائماً بالوصول إلى أعلى مجد، ينتهي بالوصول إلى القوة، متى كانت المذلة صادقة. ولكن أأنت قادر على هذه المذلة؟ يجب أن لا تحتقر قضاتك، وإنما ينبغي أن تثق بهم، وأن تثق بالكنيسة. وعندئذ إنما تنتصر عليهم وتجذبهم إليك بالقدوة، وتحد بهم في الحب... آه... ليتك تقدر أن تحتمل كل شيء إلى النهاية.

■ - قل لي ما الذي تراه مضحكاً في هذه الصحائف؟

- لماذا، لماذا هذا الاهتمام بالمضحك؟ لماذا هذا المرض لديك؟ كذلك

صاح تيحون فجأة وهو يهز رأسه.

قال ستافروجين:

- دعنا من هذا وقل لي ما هناك من شيء مضحك...

دمدم تيحون يقول خافضاً عينيه:

- إن الدمامة هي التي ستقتل.

- الدمامة؟ أية دمامة؟

- دمامة الجريمة. إنها دميمة حقاً. يمكن القول إن الجريمة، أيا كانت، تبدو أفضح، ويكون تأثيرها أكبر، وتكون إثارته أعزم، على قدر ما يكون قد سفح فيها من دم. غير أن هناك جرائم مخزية، دنيئة، ترجع فظاعتها إلى حطتها وخستها...

لم يكمل تيوخون جملته. قال ستافروجين:

- أي أن ما تراه مضحكاً في وضعي هو أنني قبلت يدي بنت صغيرة قذرة... ثم إنني ارتعشت خوفاً... إلى آخر ما هنالك. إنني أفهم أنك كل الفهم. وأنت تخاف علي لأن هذا العمل دميم، رديء، لا، لا رديء، بل مخز، مضحك. وتظن أن هذا بعينه هو ما لن أستطيع احتماله، هه؟
لم يجب تيوخون ولبث صامتاً. وشحب ستافروجين وتقبض وجهه. ودمدم يقول كمن يخاطب نفسه:

- الآن فهمت لماذا سألتني هل أنسة سويسرا هنا!

أجابه تيوخون:

- لست مستعداً، لست قوياً قوة كافية.

قال ستافروجين فجأة بحماسة وحشية:

- اسمع، أريد أن أنال مغفرة نفسي. تلك هي غايتي الرئيسية، غايتي الوحيدة. ذلك هو اعترافي كله، تلك هي الحقيقة كلها، وما عدا هذا كذب. فمتى نلت مغفرة نفسي، زالت الرؤيا إلا في ذلك الحين. ذلك هو السبب في توقي إلى عذاب لا حدود له، ذلك هو السبب في أنني أسعى إلى هذا العذاب.

وصرخ ستافروجين يضيف قوله كأنما علي غير إرادة منه:

فلا تثبط همتي، وإلا هلكت غضباً وسخطاً.

ولم يكن تيوخون يتوقع هذه الاندفاع، فها هو ذا ينهض. ويهتف قائلاً بفرح:

- إذا كنت تؤمن بأنك تستطيع أن تغفر لنفسك، وبأنك ستنال غفرانك في هذا العالم بالألم، وإذا كنت لا تسعى إلا إلى الحصول على هذا الغفران،

فأنت إذا تؤمن إيماناً تاماً. فكيف أمكنك أن تقول إنك لا تؤمن بالله؟
لزم ستافروجين الصمت.

- سيغفر لك الله قلة إيمانك، لأنك تقدس الروح القدس من دون أن تعرف ذلك.

قال ستافروجين مكفهر الهيئة:

- لن أنال غفراناً. لقد جاء في كتابك إنه ما من جريمة أفدح من إيذاء
"طفل من هؤلاء الأطفال الصغار". نعم، في هذا الكتاب.
وأشار إلى الإنجيل.

فأجاب تيخون بلهجة نافذة:

- جواباً عن هذا أقول لك: إذا استطعت أن تغفر لنفسك فإن المسيح
سيغفر لك أيضاً.. آه.. لا.. لا.. لا تصدقني.. لقد جدّفت. هبّك لم تصالح
نفسك ولم تغفر لنفسك فإنه سيعفو عنك لنتك الحسنة وعذابك الكبير...
ذلك إن اللسان البشري تعوزه الكلمات وتعوزه الأفكار للتعبير عن جميع
طرق "الحمل" إلى اليوم الذي "يكشف لنا فيه عن تلك الطرق كشفاً كاملاً".
من ذا الذي يقدر أن يقيس ما يتجاوز كل قياس؟ من الذي يستطيع أن يفهم
عمقه كله؟ وارتعشت أطراف شفّتيه كما حدث من قبل، وطافت بوجهه
حركة خفيفة شنجته قليلاً. لقد كان جهده عنيفاً مسرفاً في العنف. وخفض
عينيه.

تناول ستافروجين قبعته عن المائدة. وقال:

- سأرجع في يوم آخر.

■ كان يبدو مرهقاً. وأردف يقول:

سوف نتكلم مرة أخرى في هذا كله. لقد سعدت بحديثك أكبر السعادة...
وإنني لأقدر الشرف والاستقامة حق قدرهما... وأقدر عواطفك. صدّق إنني
أدرك الآن لماذا يحبك بعض الأشخاص ذلك الحب كله...
سأله تيخون وهو ينهض أيضاً وقد دهش دهشة كبيرة:
- أتنصرف؟ وأنا...

وبدا عليه التردد... لكنه أكمل كلامه فقال:

- كنت أريد أن أتجه إليك برجاء... ولكني لا أدري الآن هل... إنني أخشى أن...

- أرجوك... تفضل...

كذلك قال ستافروجين وعاد يجلس وهو لا يزال ممسكاً بقبعته. فنظر تيخون إلى هذه القبة وإلى وضع ستافروجين، وهو وضع رجل من رجال المجتمع الراقي، لكنه رجل نصف مجنون. فاضطرب تيخون مزيداً من الاضطراب.

- إنني أسألك فقط... أنت تدرك بنفسك يا نيقولاي فسيفولودوفتش (هذا هو اسمك إذا لم أخطئ) أنك إذا نشرت هذه الصحائف كنت تحطم حياتك... كنت تحطم عملك في هذه الحياة... وسائر الأمور الأخرى.

- عملي في الحياة؟ ألقى ستافروجين هذا السؤال وصعر وجهه.
قال تيخون بصوت يشبه أن يكون ضارعاً وهو يدرك خرافته تمام الإدراك.
- لماذا تحطم كل شيء هذا التحطيم؟

فألم بوجه ستافروجين تعبير عن ألم شديد. وقال:

- سبق أن قلت لك وها أنا ذا أكرر قولي: إن كلامك كله لا فائدة منه. ثم إن هذا الحديث كله قد أصبح لا يطاق.
وتحرك على مقعده.

- إنك لا تفهم عني. أصغ إليّ من دون أن تغضب. إنك تعرف رأيي: إذا كان فعلك هذا ثمرة المذلة فليكونن أجمل الأفعال المسيحية متى كنت قادراً على تحمله. وهبك لم تقدر فإن الرب سوف يدخل تضحيتك في الحساب. إن كل شيء سيدخل في الحساب: كل كلمة من كلماتك، كل حركة من حركات نفسك، أيسر فكرة تمر بخاطرك. لكنني أقترح عليك تضحية أخرى، أكبر من تضحيتك هذه أيضاً...

لزم ستافروجين الصمت.

- إنك في حاجة إلى عذاب وتضحية. فتغلب إذاً على هذه الرغبة أيضاً. دع هذه الصحائف، واعدل عن خطتك، فتتصر عندئذ على كل شيء: تحطم كبرياءك وزهوك، وتسحق شيطانك. سوف تظهر وتبلغ الحرية...

كانت عيناه تسطعان. وضم يديه إحداهما إلى الأخرى توسلاً وضراعة.

قال نيقولا في سيفولودوفش بأدب ولكنه كان مشمئز الهيئة قليلاً:

- إنك تسرف في أخذ الأمر مأخذ الجد، إنك تضيفي عليه كثيراً من خطورة الشأن... ثق على كل حال أنني أقدر... أنا ألاحظ أنك تريد أن تمد لي شباكاً، على كونك تضمّر أحسن النيات طبعاً، وعلى كونك تريد لي الخير من باب الرأفة والإحسان. إنك تريد، على الجملة، أن أضع نفسي غاية، بل ربما أن أتزوج أيضاً، وأن أختم حياتي الماضية عضواً في النادي، وأن أجيء إلى الدير في أيام الأعياد. أليس كذلك؟ على كل حال، إنك بصفتك رجلاً عارفاً بالقلب، وبصفتك إنساناً مستخفاً لا ييالي، ربما كنت تتنبأ منذ الآن بأن الأمور ستجري هذا المجرى نفسه، فليس عليك إلا أن تلح وتوسل إليّ بإصرار، لأنني في قرارة نفسي لا أرغب إلا في هذا. أليس كذلك؟ بل إنني لأراهن على أنك فكرت أيضاً في أمي وفي طمأنينتها...

قال ستافروجين ذلك وابتسم ابتسامة ساخرة.

وتابع تيخون حديثه متكلماً بحرارة، من دون أن يولي ضحكة ستافروجين وملاحظاته أي انتباه، فقال:

- لا، ليست المسألة مسألة هذه التوبة. إنني أهيئ لك توبة أخرى. إنني أعرف شيخاً ليس هنا ولكنه غير بعيد عنا. إنه ناسك، متقشف، يبلغ من الاتصاف بالحكمة المسيحية درجة لا نستطيع لا أنا ولا أنت أن نتصورها. سوف يستجيب لرجائي. سوف أقص عليه حكايتك كلها. هل تأذن لي بذلك؟ امض إليه، واخضع لسلطته خمس سنوات أو سبعة، أو المدة التي سترها ضرورية في ما بعد. افرض على نفسك هذه الكفارة. وبفضل هذه التضحية الكبيرة سوف تنال كل ما أنت ظامئ إليه، بل حتى ما لا تأمل فيه. ذلك أنك لا تستطيع الآن حتى أن تتصور ما سوف تناله.

أصغى إليه ستافروجين بجد كبير. وازدحم الدم في خديه الشاحبين.

أقترح علي أن أترهب في ذلك الدير؟

لست في حاجة إلى دخول الدير. لا ينبغي أن تترهب. كن مبتدئاً فحسب، في السر لا في العلانية. حتى لنستطيع أن نتابع حياتك في المجتمع.

فقاطعه ستافروجين يقول بنفور:

دعك من هذا أيها الأب تيخون.

ونهض. وانهض تيخون.

صاح ستافروجين يقول فجأة وهو يحدق إلى تيخون بما يشبه أن يكون رعباً.

- ما بك؟ كان تيخون واقفاً قدامه، ماداً يديه إلى الأمام، وكان تشنج سريع قد قبض وجهه المروع.

- ماذا بك؟ ماذا بك؟ كذلك كرر ستافروجين مندفعاً نحوه ليسنده. لقد بدا له أن الكاهن سيسقط على الأرض.

هتف تيخون يقول بصوت نافذ الصبر يعبر عن ألم شديد:

- إني أرى... إني أرى بوضوح أيها الشاب الشقي أنك لم تكن في يوم من الأيام أقرب منك الآن إلى ارتكاب جريمة أقطع من الجريمة الأولى!
فقال ستافروجين ملحاً وقد أقلقته حالة تيخون إقلاقاً شديداً:

- هدي نفسك. قد أرجى كل شيء أخيراً إلى وقت آخر. إنك على حق.

- لا، لا بعد النشر، بل قبل النشر، قبل النشر بيوم، قبل هذه التضحية الكبيرة بساعة واحدة، ستبحث عن مخرج في جريمة جديدة، ولن ترتكب هذه الجريمة إلا لتتحاسى نشر هذه الصحائف.

ارتعش ستافروجين من الغضب، ومن الخوف أيضاً.

وهتف يقول ساخطاً:

- يا لعالم النفس اللعين!

وغادر الغرفة من دون أن يلتفت إلى وراء.

دوستوفسكي الشياطين

ضللنا الطريق فما عسانا فاعلين؟

الشیطان یجرنا هنا وهناك

ویدیرنا إلى كل الجهات

بهذه الأبيات من بوشكين، وبمقطع من انجيل لوقا عن الشياطين التي دخلت في الخنازير يفتح دوستوفسكي روايته التي يعطيها عنوان "الشياطين".

أما الشياطين فهم أولئك الذين يتصارعون على روسيا وليس من أجلها.

في العام 1871 نشر دوستوفسكي الجزء الأول من روايته هذه، وتلك المرحلة كانت مرحلة الانقسامات والأفكار المتصارعة، حيث تنمو أفكار الاشتراكية، والأفكار التي تدعو إلى التحرر من سلطة الكنيسة، وحيث سلطة الدولة تبدو أضعف، وروسيا ترى نفسها أقل من ألمانيا وبقية أوروبا.

عبر نماذج يختارها دوستوفسكي بعناية، من المجتمع الروسي، وهي نماذج لشخصيات حقيقية في جزء كبير منها، يقدم لنا صورة عن المجتمع الروسي في تلك الأيام، وعن النقاشات الواسعة التي كانت تدور حول الأفكار الجديدة، وحول رغبة رؤية روسيا في مصاف الدول الأكثر تحضراً، وحول حياة الشعب الروسي. وتشكل المناقشات حول القضايا الأدبية وحول الدين والايمان، وحول الخير والشر، والارستقراطية، والديمقراطية، وحرية التفكير، والصراع بين العلم والدين... الخلفية التي يبنى عليها دوستوفسكي نماذج شخصياته.

ISBN 978-9938-886-53-5



9 789938 886535

الشور
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - القاهرة - تونس